الإمام ابن كثير

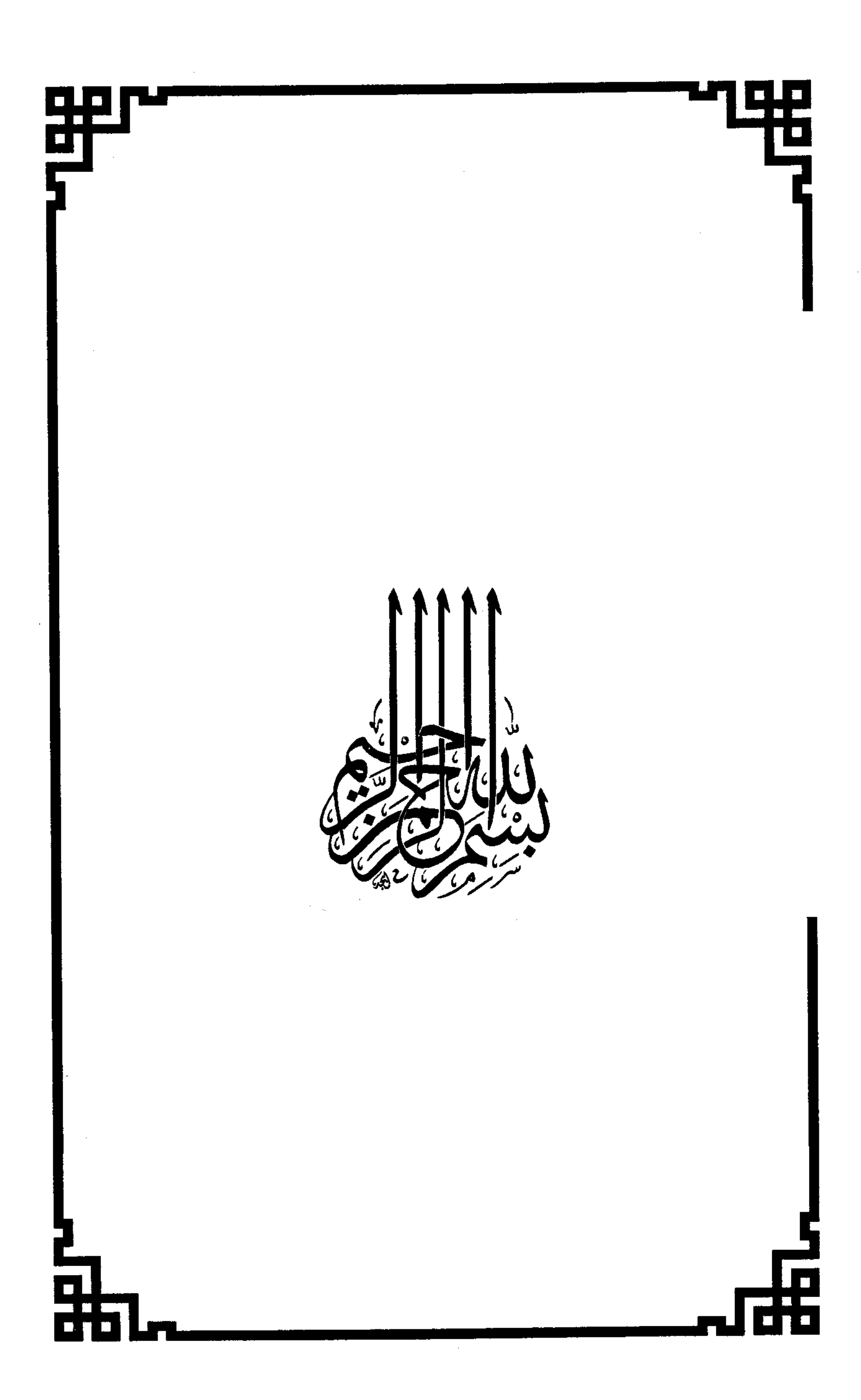
سيرته - ومؤلفاته - ومنهجه في كتابة التاريخ

تأليف

الدكتور مسعود الرحمن خان الندوي



دمشق - بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم


الإمام ابن كثير
سيرته - ومؤلفاته - ومنهجه في كتابة التاريخ

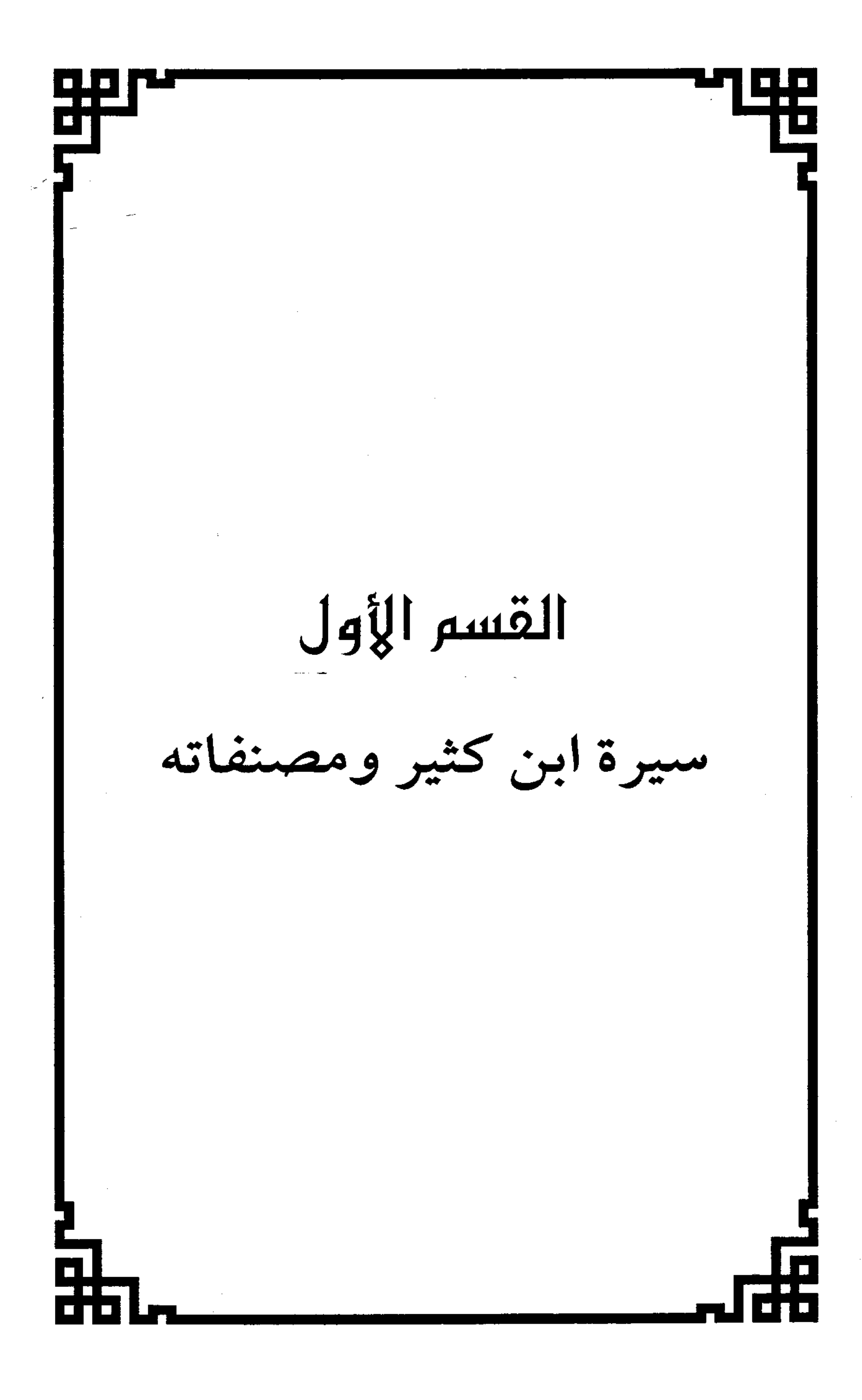
الطَّبعَةُ الأُولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م



لِلطِّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوزِيعِ

دمَشْق - حَلبُوني - جَادة ابن سِينا - بنَاء الجَابي
ص.ب : ٣١١ - هاتف: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٢٨٤٥٠ - فاكس: ٢٢٤٣٥٠٢
بَيروت - بُرج أبي حيدر - خلف دبّوس الأصلي - بنَاء الحَديقة
ص.ب: ١١٣/٦٣١٨ - تلفاكس ٠١٨١٧٨٥٧ - ٠٣٢٠٤٤٥٩



القسم الأول

سيرة ابن كثير ومصنفاته



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

الحمد لله كفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

أما بعد:

فقد كان لي شرف عظيم أن أتيحت لي فرصة دراسة أحد أعلام علماء المسلمين في القرن الثامن الهجري، وهو العالمُ المفسِّر، الحافظُ المحدِّثُ، الفقيهُ المؤرِّخُ عمادُ الدين أبو الفداء إسماعيل بنُ عمر بن كثير، الذي خَلَّف وراءه ثروةً علمية قيِّمة في التفسير والحديث والفقه والتراجم والتاريخ. وذلك حين سجلت موضوع «دراسة لابن كثير كمؤرِّخ في ضوء كتابه البداية والنهاية»، كعنوان لرسالة الدكتوراه في قسم الدراسات الإسلامية، بجامعة عليجرة الإسلامية في الهند.

وقد كانت دراسة حياة ابن كثير، وأعماله العلمية داخلة في خطة هذا البحث من الأول، لأنها لم تجمع من قبل، كما لم يدرس تاريخه دراسةً شاملة جامعة. ولكن لم يكن في الحسبان أن يتوسع هذا القسم كما توسع في بحثنا هذا؛ لذلك نقدمه اليوم منفرداً، ونرجو أن نجد فرصة لتقديم البحث الأساسي في المستقبل القريب بإذن الله.

جمعت هذه السيرة بما عثرت عليه من المواد مشتتاً متفرقاً في كتاب «البداية والنهاية» لابن كثير، بالإضافة إلى ما جاء عند مترجميه في كتب التراجم. وإن الذين ترجموا له قديماً، أو كتبوا عنه حديثاً خفيت عليهم أهمية تاريخ ابن كثير كمصدر لأحواله وأخباره، مع أنه ـ في نظرنا للآن ـ المصدر الوحيد المطبوع الذي يلقي ضوءاً كثيراً على حياته.

فإنني حين رجعت إلى كتاب «البداية والنهاية» لابن كثير، وجدت فيه كثيراً من الأخبار المتعلقة بحياة ابن كثير ومنشئه ومرباه في الصغر، كما عثرتُ على أسماء شيوخه وما تلقاه عنهم مبعثرةً في تراجم أعلام علماء هذا العصر في تاريخه، وكذلك وجدتُ أثناء الحوادث كثيراً من أخبار نشاط مؤلفنا العلمي والديني والاجتماعي، على حين أن المترجمين له قديماً اقتصدوا في ذكر أخباره وأحواله وأعماله، واكتفوا بترديد أخبار متشابهة في غاية الاختصار، ونهاية الإيجاز والإجمال. وهي لا تخرجُ عن تحديد سني ولادته ووفاته، وأسماء بعض شيوخه وبعض مؤلفاته، وثناء بعض الناس عليه، نقلها بعضهم عن بعض بحذف وتغيير حيناً، وبتحريف أحياناً كما يتَّضح ذلك لمن يرجع إليها.

تكوَّنت هذه السيرة من أربعة أبواب في عصر ابن كثير، وحياته، وثقافته، ونشاطه العلمي:

بحثت في الباب الأول عصر ابن كثير، وقد اقتصدت في بيان الحالة السياسية والاجتماعية، لأن الدكتور علي إبراهيم حسن درسها دراسة مستقلة جامعة شاملة في كتابه «دراسات في تاريخ المماليك البحرية. وخاصة في عصر الملك الناصر محمد بن قلاوون»[1].

وقد عاش ابن كثير (٧٠١ ـ ٧٧٤) حياته كلها في ظل دولة المماليك البحرية(٦٤٨ ـ ٧٨٤) كما عاش أكبر جزء من حياته في عصر الملك الناصر (٧٠٩ ـ ٧٤١). ولكن هذا العصر لم يدرس علمياً وفكرياً دراسة وافية كافية، إلا ما نجد من بعض ملاحظات عامة عند الشيخ أبي زهرة في دراسته لابن

---

(١) مطبعة الشبكشي مصر، سنة ١٩٤٨م.

تيمية[1] (٦٦١ ـ ٧٢٨)، شيخ ابن كثير، وعند السيد عبد العظيم عبد السلام شرف الدين في دراسته لابن قيم الجوزية[2] (٦٩١ ـ ٧٥١)، صاحب ابن كثير ومعاصره.

لذلك بسطت الكلام في الحالة العلمية والفكرية في القرن الثامن الهجري، ملاحظاً صلتها بحياة مؤلفنا ونشاطه العلمي حتى لا أخرج عن صلب الموضوع.

فالحالة العلمية في هذا العصر وإن تميَّزت بانتشار المدارس والمعاهد العلمية لتعليم أبناء المسلمين وتثقيفهم وتربيتهم تربية علمية دينية، إلا أنها كانت بأسلوب غير منتج، فقد غلبت في عصرهم طريقة حفظ المتون والمختصرات في العلوم الدينية واللغوية والأدبية، بدون توجيه الطلاب إلى التفكير والاستنتاج من الثروة العلمية الضخمة التي توارثوها من الأجيال السابقة. كما أنَّ هذا العصر اتّصفَ بالإكثار من التأليف في العلوم الإسلامية، ولكن كان ذلك في دائرةٍ تدور بين الشرح والتحشية بدون تجديد أو ابتكار.

أما الحالة الفكرية فقد اتَّسمت بالجمود الفكري والتحيُّز المذهبي والتعصُّب الطائفي، فغلبت في ذلك العصر في المجتمع الإسلامي عامة، وفي طبقة المثقفين من العلماء خاصة منازعات طائفية وخلافات مذهبية أكثر من العصور السابقة.

وقد كان ابن تيمية وأصحابه، ومنهم ابن كثير، سبباً في توسيع دائرة العلم ونشره بين المسلمين لتحريرهم من خرافات الجهل وعبودية الأوهام التي رسخت في أذهان الناس بسبب البعد عن القرآن والسنة. ولكنَّ ابن تيمية وأصحابه لسوء الحظ أصبحوا هدفَ الطاغين من العلماء والفقهاء والمتصوفة، ومن اختفى وراءهم من الفرق الضالة والطوائف المنحرفة، فلم تظهر في المجتمع الإسلامي نتائج بعيدة الأثر لحركتهم الإصلاحية، كما ظهرت في ميدان العلم والتأليف والتصنيف.

---

(١) ابن تيمية، حياته وعصره، وآرائه وفقهه. دار الفكر العربي بالقاهرة، سنة ١٩٥٢م.

(٢) ابن قيم الجوزية، عصره ومنهجه، وآرائه في الفقه والعقائد. مطبعة الرسالة بالقاهرة، سنة ١٩٥٥م.

وجمعت في الباب الثاني أخباراً عن حياة ابن كثير وأسرته، وذلك مما جاء عند ابن كثير في ترجمة أبيه ومما ذكره المؤلفون في التراجم عن ابن كثير، وقد أشرت إلى بعض أولاده وأحفاده ممن تعرَّفت عليهم، ووجدتُ بعض أحوالهم وأخبارهم في كتب تراجم القرنين الثامن والتاسع.

وتحدثتُ في الباب الثالث عن تربية ابن كثير الابتدائية وثقافته العالية، فجمعتُ أخبارَ شيوخه الذين بلغ عددهم عندنا أربعة وأربعين شيخاً، على حين لم يتجاوز مجموع عددهم عن أربعة عشر شيخاً عند مترجمي ابن كثير قبلنا. وكانت تراجم أعيان العلماء التي وردت في كتاب «البداية والنهاية» لابن كثير أكبر عون لنا في هذا المجال. وقد أشرت في هذا الباب أيضاً إلى بعض أسفار ابن كثير، وإلى تعدد نواحي ثقافته العلمية، وثناء شيوخه ومعاصريه وتلامذته ومترجميه عليه.

وذكرت في الباب الرابع مظاهر نشاط ابن كثير العلمي والتربوي والأدبي من تدريس وتأليف وإفتاء وشعر. فأشرتُ أولاً إلى المدارس التي اشتغل ابن كثير فيها بالتدريس، وإلى دُور الحديث التي تولّى مشيختها. ثم سَجَّلتُ أسماء تلامذته الذين عَثَرت على أسمائهم متفرقةً في كتب تراجم القرنين الثامن والتاسع، فبلغ عدد المعروفين لنا منهم للآن أربعة عشر تلميذاً، على حين لم تأت الإشارة إلا إلى واحد منهم عند من ترجموا لابن كثير قبلنا.

أما مؤلفات ابن كثير فقد ذكرناها مرتبةً على المطبوعة ثم المخطوطة ثم المفقودة ثم المجهولة، وهي التي لم تُعرف لمن قبلنا. وقد بَلَغ عددها عندنا أربعة وثلاثين كتاباً ورسالة، على حين لم يذكر من قبلنا من مترجميه إلا ستة عشر كتاباً ورسالة. وكان اعتمادنا في ذلك أولاً على مؤلفات ابن كثير المطبوعة، فقد تعوَّد فيها مؤلفنا الإحالة إلى مؤلفاته الأخرى لمن أراد الإحاطة بالمزيد من التفصيل في موضوعات معينة بسطها في تلك المؤلفات. وقد رجعنا في ذلك أيضاً إلى فهارس مكتبات العالم.

وإنَّ الباحثين في التراث العلمي والثقافي العربي الإسلامي كثيراً ما يَشْكون في الهند نقص مكتباتنا العربية، وعجزها في الحصول أولاً بأول على ما يطبع في

البلاد العربية، لبعدنا عن المنطقة العربية، وفقدان الاتصال العلمي والثقافي بيننا وبين تلك الأقطار التي لا نزال ندرس لغتها وعلومها، ونعتز بثقافتها كتراث علمي ديني حضاري جليل.

وقد تعرضت لي هذه المشكلة أيضاً أثناء البحث في هذا الموضوع، فلم أستطع الرجوع إلى بعض المخطوطات والمطبوعات التاريخية القديمة التي كنت آمل أن أجد فيها ما يضيف إلى معلوماتنا عن ابن كثير، كما لم أوفق في الحصول على بعض الدراسات الحديثة والمجلات العلمية والأدبية التي قيل عنها بأنها تحتوي على أبحاث ومقالات قصيرة عن ابن كثير وتاريخه.

ولذلك حين أقدم اليوم هذه السيرة إلى الناطقين باللغة العربية، والمثقفين بثقافتها، أرجو من المتصلين منهم بالدراسات الإسلامية، والمتخصِّصين منهم في علومها من التاريخ والتراجم والسير، أن يسدوا إليَّ النصحَ مشكورين بالتنبيه على ما فاتني في هذه السيرة، لأكمل في الطبعة القادمة ما نقص فيها من المواد، وأصحح ماأخطأتُ فيها من الاستنتاج وتقريرالآراء أو ردها، وما ترتبت عليه من النتائج.

وهنا يجب أن أقدم أبلغ آيات التحية والتقدير والشكر لمشرفي الأستاذ الدكتور السيد مقبول أحمد المحترم الذي كان له الفضل الكبير في اختيار موضوع علمي قيِّم لي، ثم شجعني على الاستمرار في البحث والصبر على العمل، كلما فترت همتي وضعف عزمي أمام توسع الموضوع وصعوبات الطريق التي تعترض سبيل كل باحث. فمهدها لي بتوجيهاته الرشيدة وآرائه العلمية السديدة التي كانت خير عون لي في تكميل رسالة الدكتوراه التي أتشَّرف اليوم بتقديم القسم الأول منها، فإليه يرجع الفضل كله فيما وقفت له فيه.

وكـذلك يجـب أن أشـكر الهيئـة المركزيـة لمساعـدة الجامعـات الهنديـة (University Grants Commission) التي اختارتني لمنحة الزمالة العلمية (Research Fellowship) وقدَّمت لي مساعدة مادية كبيرة مشكورة لمدة ثلاث سنين (١٩٦٩ ـ ١٩٧١م)، ولو لم تكن مساعدتها لي، لما استطعت الاستمرار في البحث وتكميله.

وختاماً يجب أن أشكر دارَ ابن كثير بدمشق لعنايتها البالغة في إخراج هذا الكتاب بهذا الشكل الجميل الجذاب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

جامعة عليكرة الإسلامية ـ الهند

الباب الأول

عصر ابن كثير
سياسياً واجتماعياً وعلمياً وفكرياً

عاش ابن كثير (٧٠١ ـ ٧٧٤) حياته كلها في عصر دولة المماليك البحرية (٦٤٨ ـ ٧٨٤). وكان النصف الأول من حياته عصر استقرار سياسي في البلاد التابعة لدولتهم، نظراً إلى الاضطراب الداخلي وانتشار الفساد والفتن منذ أول أيام المماليك إلى أن استقر الحكم للملك الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة[١] (٧٠٩ ـ ٧٤١) وقد امتدت أيامه هذه المرة، واستقرت الأمور له، فحكم وعَدَل، وقام بما يعود نفعه على الشعب من الرخاء والرفاهية والأمن والنظام والهدوء والاطمئنان.

وهذه الفترة بالنسبة لدمشق ـ موطن ابن كثير ـ كانت فترة راحة واستقرار، فقد تولى نيابتها سيف الدين تنكز (٧١٢ ـ ٧٤٠) لأطول فترة حكمها أحد من النواب في دمشق في عصر دولة المماليك. وقد اتَّصف تنكز بحسن السيرة في الرعية «يخرج ليلاً، يمشي بنفسه في المدينة بمفرده، يتفقد أحوال الناس»[٢]، وكان «عادلاً عفيف الفرج واليد، والناس في أيامه في غاية الرخص والأمن

---

(١) يخرج من هذا الحكم العام عهد الملكين الظاهر ركن الدين بيبرس(٦٥٨ ـ ٦٧٦)، والمنصور سيف الدين قلاوون (٦٧٨ ـ ٦٨٩).

(٢) ابن طولون، إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، ١٣ ، المطبعة الرسمية بدمشق سنة ١٣٨٣هـ.

والصيانة»[١]. ولم يكن «أحد من الأمراء ولا أرباب الجاه يقدر أن يظلم أحداً خوفاً من بطشه وشدة إيقاعه»[٢].

ولكن قُبِضَ عليه حين تغيَّر خاطر الناصر عليه في أواخر أيامه، و«دَبَّتْ عقارب الفتن»[٣] بينهما بسعاية الأمراء الحاقدين، فصودِرَ وسُجن بالإسكندرية، حيث مات مسموماً ـ على قول ـ في المحرم سنة ٧٤١هـ، وتأسَّف الناس وطال حزنهم عليه[٤]. ولم يتمتع الناصر بعده كثيراً، فمات في أواخر هذه السنة. وبدأ دور السلاطين الأطفال، فانتشر الفساد والاضطراب مرة أخرى، وازداد تنافس الأمراء على السلطة والحكم والنفوذ.

ولم يلعب ابن كثير دوراً كبيراً في سياسة البلاد مثل شيخه ابن تيمية، ولا شارك مثله في الحروب، إلا أنه كان على اتصال قوي في أواخر حياته بحكام دمشق الذين قربوه لمكانته العلمية والاجتماعية الرفيعة، فكانوا يطلبونه للمشورة في معضلات الأمور ولفض النزاع بين علماء عصره، وكانوا يسمعون إليه ويهتمون برأيه.

فقد طلب ابن كثير فيمن طلب للمشورة في رجب سنة ٧٥٩هـ حين عزم الأمير سيف الدين منجك في نيابته الأولى لدمشق (٢٤ جمادى الآخر ـ ٢ ذي الحجة سنة ٧٥٩) على تخريب المنازل المبنية بالربوة[٢]. وهو الذي حثَّ ابن كثير في نيابته الثانية لدمشق (٧٧١ ـ ٧٧٥) على تأليف رسالة في الجهاد، حضاً للناس على مقاومة الخطر الفرنجي الذي استجدَّ تهديده منذ هجومهم على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ. فألَّف ابن كثير رسالته المعروفة «الاجتهاد في طلب

---

(١) ابن كثير «البداية والنهاية» ١٤/ ١٨٧، مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٥١ ـ ١٣٥٨هـ.
(٢) ابن شاكر الكتبي «فوات الوفيات» ١/ ٧١١ مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٥١م.
(٣) ابن إياس «بدائع الزهور ووقائع الدهور» ١/ ١٧١، المطبعة الأميرية ببولاق مصر سنة ١٣١٢هـ.
(٤) ابن كثير، «البداية والنهاية» ١٤/ ١٨٨، ٢٦١.

الجهاد» وصرَّح في مقدمتها بأنه كتبها بأمر الأمير منجك نائب الإمام، لأنَّ في إجابة أمره طاعةً لله ورسوله[1].

وكذلك دعي ابن كثير أيام سيف الدين منكلي بغا النائب بدمشق (٧٦٤ ـ ٧٦٨) إلى محفل عُقِدَ بدار السعادة للنظر في أمر المدرسة التدمرية، وقرابة الواقف ودعواهم أنه وقف عليهم الثلث[2]. وقام ابن كثير بموقف رائع وجرأة عظيمة ضد مصادرة النصارى سنة ٧٦٧هـ، حين أنكر أمام النائب على المرسوم السلطاني، فكان سبباً في الرد على نساء النصارى ما أُخذ منهن. وقد أشار على النائب مواجهة العدو في الخارج بدل مصادرة أهل الذمة داخل البلاد، فذكر له أشياء كثيرة «مما ينبغي اعتمادها في حق أهل قبرص من الإرهاب ووعيد العقاب، فإنه يجوز ذلك وإن لم يفعل ما يتوعدهم به. . . . . فجعل يعجبه هذا جداً، وذكر أن هذا كان في قلبه، وأني كاشفته بهذا، وأنه كتب بها مطالعة إلى الديار المصرية. وسيأتي جوابها بعد عشرة أيام، فتجيء حتى تقف على الجواب، وظهر منه إحسان وقبول وإكرام زائد» ثم جاء المرسوم السلطاني في أوائل ربيع الأول بغزوة قبرص وقتال الفرنج على رأي ابن كثير[1].

وتبدو آثار الخلافات الدينية والمنازعات العقائدية واضحة في المجتمع المعاصر لابن كثير، فإنَّ الخلاف بين أهل السنة وبين الشيعة قديم قدم تاريخ المسلمين. وكثيراً ما أدى هذا إلى اشتباكات ومناوشات بين الفريقين في العصور المتأخرة، فقد قيل إنَّ الحرب التي وقعت في بغداد بين الفريقين سنة ٦٥٥هـ قبل سقوط بغداد في أيدي التتار في السنة القادمة، كانت سبباً في ممالأة ابن العلقمي الشيعي للتتار ضد دولة سنية كان هو وزيرها «فدبر على الإسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد»[3]، ويظهر أن هذا سبباً في إثارة الأحقاد بين الفريقين في دولة المماليك

---

(١) ابن كثير، في مقدمة رسالة الاجتهاد في طلب الجهاد، صفحة ٥، مطبعة أبي الهول بالقاهرة، سنة ١٣٤٧هـ.

(٢) ابن كثير البداية والنهاية ١٤/٣٠٧، ٣١٥.

(٣) نفس المصدر ١٣/٢٠١، رد محمد عبد الغني حسن التهمة التي وجهت إلى ابن =

السنية. فقد ذكر ابن كثير اثنين من الروافض قُتلا في الشام سنة ٧٧٥ وسنة ٧٦٦هـ لسبهما الصحابة علناً، فبلغ من حنق العامة عليهما أن أحرقوا جثتهما. كما عُزِّر وقُتِل آخرون من أصحاب الفرق الضالة لزندقتهم وإلحادهم ولإظهار آرائهم الشاذة علناً. وقد باشر ابن كثير التحقيق مع بعضهم[١].

واشتدت الخلافات في هذا العصر بين أهل السنة أنفسهم، فإن النزاع بين ابن تيمية وأتباعه، وبين بعض العلماء والمتصوفة سبَّبَ له ولأتباعه الحبسَ والاضطهاد مرة إثر أخرى. فقد قضى ابن تيمية نحو سبع سنين (٧٠٥ ـ ٧١٢) في سجون مصر والإسكندرية بسبب خلافه مع علماء عصره في العقائد، ثم سُجِنَ مرتين في دمشق سنة ٧٢٠ وسنة ٧٢٦هـ بسبب إفتائه في مسألة الطلاق الثلاث بطلاق واحد، ومنعه من زيارة قبور الأنبياء والصالحين قصداً فيها. وهذا إلى جانب مواجهته كثيراً من مجالس التحقيق سؤالاً عن عقيدته وصحة آرائه، وإلى جانب تحمله ما كان يرى من اضطهاد أصحابه وتلاميذه ـ وفيهم ابن كثير ـ شركائه في الوقوف ضد البدع والخرافات.

فقد كان الشيخ جمال الدين المزي ـ شيخ ابن كثير ووالد زوجته ـ من أعز أصحاب ابن تيمية وأعرفهم له، قرأ في مجلس فصلاً بالرد على الجهمية من كتاب «أفعال العباد» للبخاري، ففهم بعض الفقهاء أنه يُعرِّضُ بهم لأنهم أشاعرة، فشكوه إلى القاضي الشافعي ابن صَصْري الذي سجن المزي، فتألم ابن تيمية وأخرجه من السجن بنفسه، ولكنه أُعيد إلى السجن بأمر نائب الغيبة تطييباً لقلب القاضي، فَحُبِسَ في القوصية أياماً ثم أُطلق. وشكا ابن تيمية إلى نائب السلطنة حين قدم، وحكى له ما جرى في حقه وفي حق أصحابه في غيبته، فتألم

= العلقمي، واعتبرها من إشاعات خصومه في الدولة. (انظر علم التاريخ عند العرب صفحة ٨٤ ـ ٩٠)، مطبعة التقدم بالقاهرة سنة ١٩٦١م.

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/٦٦، ١٢٢، ١٧٧، ١٨٩ـ ١٩٠، ٢٥٠، ٢٧٥، ٢٧٦، ٣١٠.

النائب لذلك ، ونادى في البلد ألا يتكلم أحد في العقائد، ومن عاد إليها حل ماله ودمه[١] .

وقد حُبس ابن قيم الجوزية ـ رفيق ابن كثير ومعاصره ـ مع شيخه ابن تيمية منفرداً عنه بعد أن أُهين وطيف به على جمل مضروباً بالدرة لإنكاره شد الرحيل لزيارة قبر الخليل، ولم يخرج عنه إلا بعد شهر من وفاة شيخه. وكان متصدياً للإفتاء بمسألة الطلاق التي اختارها شيخه، فجرت بسببها فصول مع قاضي القضاة تقي الدين السبكي وغيره[١] . وقد كان لأسرة السبكي نزاع طويل وممتد مع ابن تيمية وأصحابه[٢] . كما جرت له محنة مع القضاة بسبب إفتائه بجواز المسابقة بغير محلل[٣] .

أما ابن كثير فإنا لم نعرف بالضبط متى امتحن، وكيف أُوذي، ولكن أشار إليه مترجموه فقالوا: «كانت له خصوصية بابن تيمية ومناضلة عنه واتباع له في كثير من آرائه، وكان يفتي برأيه في مسألة الطلاق، وامتحن بسبب ذلك وأوذي»[٤] .

وبالإضافة إلى ذلك نجد فتناً أُخرى بين أهل السنة، فمنها فتنة بين الحنابلة والشوافع بسبب العقائد، وبلغ الأمر إلى أن تدخل نائب السلطنة تنكز الذي أصلح بينهما[٥] . ووقع نزاع بين الحنابلة أنفسهم في مسألة المناقلة، فعقدت مجالس وتطاول الكلام دون الوصول إلى حل[١] .

ورمى القضاة المالكية والحنابلة وغيرهم قاضي القضاة تاج الدين السبكي

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية ١٤/ ٣٧، ١٢٣، ١٤٠، ٢٣٢، ٢٣٥.

(٢) محمد كرد علي، خطط الشام٤/ ٥٠ المطبعة الحديثة بدمشق سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م.

(٣) ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ٣/ ٤٠٠ـ٤٠٣، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند سنة ١٣٤٨ ـ ١٣٥٠هـ.

(٤) طبقات ابن قاضي شهبة، صفحة ٤٧٥ من نسخة الدكتور عبد العليم خان، المدرس بكلية أصول الدين جامعة عليجرة الإسلامية بالهند ـ وقد قام بتحقيقها، وانظر الدرر الكامنة ١/ ٣٧٤، شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ٦/ ٢٣٢ مكتبة القدسي مصر سنة ١٣٥٠ ـ ١٣٥١هـ، « جلاء العينين في محاكمة الأحمدين»، لابن الآلوسي البغدادي، صفحة ٣٤، مطبعة المدني سنة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

(٥) ابن كثير البداية والنهاية ١٤/ ٧٥ـ٧٦، ٢٥٤، ٣١٦ـ٣١٨.

الشافعي في محضره «بأشياء منكرة، ينبو السمع عن سماعه» فتحرك آخرون وأعدوا محضراً في تأييد السبكي، وكان ابن كثير من المؤيدين للسبكي فكتب عليه بخطه: «بأني ما رأيت فيه إلا خيراً» ودعي ابن كثير إلى حضور المجالس التي عُقِدَت بسبب هذه الفتنة، وأراد النائب الإصلاح بين الفريقين دون جدوى، فقال لهم حين يئس منهم: «كنا نحن الترك وغيرنا إذا اختلفنا واختصمنا، نجيء بالعلماء فيصلحون بيننا، فصرنا نحن إذا اختلفت العلماء فمن يصلح بينهم». وحين لم ينفع كلامه قرأ الآية الكريمة ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ فلانت القلوب واصطلحوا[٤].

الحركـــة العلميـة

أما الحركة العلمية فقد كانت نشيطة في العصر بسبب المدارس والمعاهد ودور الحديث والقرآن التي أنشأها السلاطين والأمراء والرؤساء الأثرياء، ووقفوا عليها أوقافاً كثيرة دارّة[١]. وقد كان لمدرسة ابن تيمية والمزي ـ وهما من شيوخ ابن كثير ـ وأصحابهما أثر كبير في النهضة العلمية في دمشق، وكانوا «سبباً في إكثار العلم» في عصرهم على حد قول السخاوي والسيوطي[٢].

وكانت سياسة التعليم «فردية شخصية موكولة إلى همم الأمراء وضمائر السلاطين ورغبات الرؤساء كل منهم على حدة يكيفها حسبما تملي عليه أهواؤه وظروف حياته ومقدراته المادية»[٣]. وكانت الدروس الدينية من حديث وفقه

(١) يراجع لمعرفة العدد الهائل من دور التعليم ومراكزه، الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي، مطبعة الترقي، دمشق سنة ١٣٦٧ ـ ١٣٧٠هـ، وعصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي لمحمود رزق سليم ٣/ ٢٧ـ٧٠. وابن القيم، عصره ومنهجه، لعبد العظيم عبد السلام شرف الدين ٣٦/ ٤٧ مطبعة الرسالة بالقاهرة سنة ١٩٥٥م.

(٢) السخاوي، «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ» ٢٩٣ ـ ٢٩٤، مطبعة العاني بغداد سنة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م، كرد علي، خطط الشام٤/ ٥٠ـ٥١.

(٣) محمود رزق سليم، «عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي » ٣/ ٦٣، مطبعة التوكل بالقاهرة سنة ١٣٦٦ ـ ١٣٦٩هـ.

وتفسير ووعظ وكلام وتصوف ونحو وصرف من المواد الدراسية[١] التي عني بتقريرها العلماء في تلك المدارس والمعاهد، لما للدين من منزلة في النفوس، ولحاجة المسلمين إليها بعد نكبة بغداد التي راح ضحيتها كثير من العلماء وآلاف مؤلفة من الكتب القيمة. أما عنايتهم إلى غيرها فكانت فرعية مثل الأدب والطب والفلك والهندسة والتاريخ والتقويم والرياضة وما إلى ذلك. فإذا نبغ أحدهم فيها كان ذلك لفرط ذكائه وقوة ميله ولاشتغاله الشخصي وجهده الفردي.

وكان الحفظ عن ظهر قلب من الوسائل التعليمية[٢] التي عني بها علماء ذلك العصر عناية بالغة إلى السماع من الشيخ والقراءة عليه والإملاء منه. فحفظ العلماء والطلاب المتون والمختصرات في علوم الحديث والفقه والنحو والمنطق والبلاغة، كما يتبين ذلك من مراجعة تراجم هذا العصر في كتب التاريخ التي كثيراً ما تشير إلى محفوظات العلماء[٣].

فقد كان ابن كثير من العلماء الذين حفظوا في فروع الشافعية كتاب «التنبيه» لأبي إسحاق الشيرازي (٣٩٣ـ ٤٧٦) وعرضه في الثامنة عشرة من سنه[٤]. وقد عثرنا في كتاب واحد لابن حجر على أسماء ست وثلاثين من علماء القرن الثامن كانوا حفظوا كتاب التنبيه المذكور[٥].

---

(١) يراجع لمعرفة المواد الدراسية التي عني بها المسلمون طوال العصور ما جمعه محمد عبد الرحيم غنيمة في كتابه «تاريخ الجامعات الإسلامية»، صفحة ١٦١ ـ ١٧٥، دار الطباعة المغربية، تطوان، سنة ١٩٥٣م.

(٢) يراجع لمعرفة طرق التدريس ووسائل التحصيل عند المسلمين ما جمعه عبد الرحيم غنيمة في كتابه«تاريخ الجامعات الإسلامية» ١٧٧ ـ ٢١٧.

(٣) انظر محفوظات العصر عند محمود رزق سليم في كتابه عصر سلاطين المماليك ٣/ ٧٧.

(٤) النعيمي، الدارس ١/ ٣٧، طاش كبرى زاده، مفتاح السعادة ومصباح السيادة ١/ ٢٠٤، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد بالهند، سنة ١٣٢٨، ابن العماد، شذرات ٦/ ٢٣١، و زاد ابن قاضي شهبة في طبقاته أنه «كان يحفظ التنبيه إلى آخر وقت» صفحة ٤٧٥.

(٥) انظر الملحق رقم ١ في آخر الكتاب صفحة ١٥٩.

وكذلك حفظ ابن كثير مختصر ابن حاجب (٥٧٠ـ٦٤٦) في علمي الأصول والجدل على مذهب الإمام مالك[١]. وقد صرح ابن حجر في كتابه في تراجم تسعة من علماء هذا العصر بأنهم حفظوا هذا الكتاب[٢]. وقس على هذا اهتمام علماء كل مذهب بحفظ كتب مذاهبهم واهتمام العلماء عامة بحفظ المتون والمختصرات. وأن ما تجدها في أكثر تراجم هذا العصر من صفات الحفظ والاستحضار والضبط والإتقان لتدل على أنها ما زالت راسخة في نفوس أبناء هذا الجيل على عادة العلماء المسلمين منذ بدء تاريخهم العلمي.

فتميَّز هذا العصر بوجود كثير من أعلام الحفاظ الذين اعتنوا بحفظ الحديث، وتبحروا في دراساته المتعددة الواسعة إلى جانب تمكنهم من علوم مختلفة[٣]، وصبغوا الدراسات العلمية الإسلامية كلها بصبغة الحديث وأسلوبه ومنهجه. وخير مثل على ذلك مؤلفات ابن كثير العلمية في التفسير والحديث والفقه والتاريخ والتراجم، فقد كان ابن كثير فيها حافظاً محدثاً أولاً قبل كل شيء، وقد أشاد بحفظه واستحضاره مترجموه كما سيأتي في الباب الخاص بثقافته.

وازدادت العناية بالتأليف في هذا العصر بقدر انتشار التعليم، فظهر سَيْل من المؤلفات العلمية، أغلبها تتصل بالعلوم الدينية. وبذلك عوَّضوا الثقافة الإسلامية خير عوض عما أبيد في نكبة بغداد على أيدي التتار، وفي الشام على أيدي التتار والفرنج، وفي الأندلس على أيدي الفرنج، وزَخَرت المكتبة العربية الإسلامية بثمار علمية وفكرية في دراسات وأبحاث متنوعة.

إلا أنه منذ أن بدأ التعليم يتخذ شكلاً منتظماً، أكثرَ المؤلفون من وضع المتون والمختصرات في إشارات جامعة وعبارات موجزة لحاجة دراسية محضة، سعياً منهم لتيسير العلم للطلاب، وضبط مسائله لهم حتى يستوعبوها

---

(١) طاشكبري زاده، مفتاح السعادة ١/ ٢٠٤، ابن العماد، شذرات ٦/ ٢٣١.

(٢) انظر الملحق رقم ٢ في آخر الكتاب صفحة ١٦٣.

(٣) انظر الفصل الخاص بحفاظ الحديث عند السيوطي، «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» ١/ ١٩٥ـ٢٢٤ مطبعة إدارة الوطن، مصر سنة ١٢٩٩هـ.

بجهد قليل وفي وقت قصير. ولكن بلغت هذه الكتب أحياناً كثيرة إلى حد الرموز، فاحتاج الأمر إلى كتب شارحة مفسِّرة. ثم بلغ السيل الزبى حين حَبَس العلماء المؤلفون أنفسهم شيئاً فشيئاً في دائرة تدور بين شرح الشروح السابقة أو اختصارها أو التحشية عليها. ووقعت الطامَّة الكبرى للعلوم الإسلامية حين تخرج على أيديهم جيل لم يتعود التفكير والاستنتاج والتجديد والابتكار، بل انصرف أكثر من سابقيه إلى مقارنة الشروح ونقد عباراتها ومناقشة ألفاظها[1] حتى عقمت المدارس بإنجاب علماء مفكرين، وتحجرت أقلام المؤلفين فلا تصلح أن تنتج شيئاً جديداً، وتعطلت أذهانهم فلا تستطيع أن تفكر في مسائل جديدة بحثاً في حلولها وعرضها في ثوب جديد.

ويصدق هنا ما لاحظه الشيخ أبو زهرة على الحالة العلمية من القرن السادس إلى القرن الثامن قائلاً: «وإذا كانت القرون الثلاثة قد امتازت بشيء، فقد امتازت بكثرة العلم لا بعمق الفكر. فقد كانت المعلومات كثيرة، وتحصيلها كان بقدر عظيم، وعكوف الناس عليها كان كبيراً. ولكن التفكير المطلق في مصادرها ومواردها، والمقايسة بين صحيح الآراء وسقيمها مقايسة حرة نزيهة من التعصب الفكري والتحيُّز المذهبي بالنظر الفاحص المجرد، أو النظر الذي يعم كل الجوانب، لم تكن بقدر يتناسب مع تلك الثروة المثرية التي توارثتها الأجيال»[2].

ونشير هنا على سبيل المثال إلى الكتب التي ألفها ابن كثير شرحاً وتعليقاً على بعض كتب الأقدمين، وشرحها غيره من علماء عصره. فكتاب «التنبيه» لأبي إسحاق الشيرازي المذكور آنفاً في محفوظات العصر، شرحه ابن كثير[3]،

---

(١) انظر ما جرى من تهاتر سنة ٧٦٥هـ بين ابن السراج وبين بدر الدين وجمال الدين الشريشني في معنى كلمة(يبتز) وما تبعه من شرور وفتن. ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤/ ٣٠٨.

(٢) محمد أبو زهرة، ابن تيمية، حياته وعصره وآرائه وفقهه، صفحة١٥٤، الطبعة الأولى دار الفكر العربي القاهرة، سنة ١٩٥٢.

(٣) ابن حجر الدرر الكامنة ١/ ٣٧٤، وقال ابن قاضي شهبة أنه شرح قطعة منه(طبقاته ٤٧٣) وقال ابن العماد أنه «ألف في صغره أحكام التنبيه». (شذرات ٦/ ٣٣١) جلاء =

وآخرون كثيرون من العلماء في عصره، عثرنا على أسماء بعضهم حين تصفحنا بعض كتب تراجم العصر، فبلغ عدد الشارحين اثني عشر عالماً[1]، وقد نظمه ضياء الدين علي بن سليم بن ربيعة الأوزاعي (٦٥٧ـ ٧٣١)[2].

وقد خرَّج ابن كثير أحاديث مختصر ابن حاجب[3] الذي مر ذكره أيضاً آنفاً في محفوظات العصر، وقد شرحه نحو عشرين من العلماء ممن بلغنا عنهم ذلك[4] بدون استقصاء، كما تكلم على أحاديثه شمس الدين محمد بن عبد الهادي[5] (٧٠٥ـ ٧٤٤) وهو من رفقاء ابن كثير ومعاصريه.

واختصر ابن كثير كتاب علوم الحديث المشهور بمقدمة ابن الصلاح (٥٧٧ـ ٦٤٣)، وقد «عكف الناس عليه، وساروا بسيره، فلا يحصى كم ناظم له ومختصر، ومستدرك ومقتصر، ومعارض له ومنتصر» على حد قول ابن حجر[6].

ويقاس على هذا النشاط التأليفي في كل المجالات العلمية، فقد حظي علم التاريخ بأنواعه بوجود رجال أكفاء قادرين متمكنين، اهتموا به اهتماماً بالغاً، و وضعوا فيه مؤلفات كثيرة، ولكنهم أيضاً لم يستطيعوا الخروج من دائرة الإعادة والتكرار، فما أن وجدوا تاريخاً قيماً لمؤرخ شهير إلا أخذوه محوراً للتأليف

= العينين لابن الآلوسي ٣٤، هدية العارفين لإسماعيل باشا البغدادي ١/ ٢١٥، طبعة وكالة المعارف ـ إستانبول سنة(١٩٥١ ـ ١٩٥٥) أما ابن كثير فقد أشار إلى أن له شرح التنبيه (البداية والنهاية ١٢/ ١٢٥).

(١) انظر الملحق رقم ٣ في آخر الكتاب صفحة ١٦٣.

(٢) ابن حجر الدرر الكامنة ٣/ ٥٣.

(٣) طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٣، الدرر الكامنة لابن حجر ١/ ٣٧٤، ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١١/ ١٢٣، طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٤٩/ ١٣٧٥هـ السيوطي، ذيله على تذكرة الحفاظ للذهبي ٣٦١ مطبعة التوفيق سنة ١٣٤٧هـ.

(٤) انظر الملحق رقم ٤ في آخر الكتاب صفحة ١٦٥.

(٥) الدرر الكامنة لابن حجر ٣/ ٣٣٢ ذيل السيوطي على تذكرة الحفاظ للذهبي ٣٥٢.

(٦) ابن حجر، شرح نخبة الفكر صفحة ٢، طبعة إيشيائيتك سوسائيتي بنغال، كلكته بالهند سنة ١٨٦٢م (Asiatic Society Bengal Calcutta India.).

وهدفاً للتذييل والاختصار والإضافة والاستطراد كما يتبين ذلك من دراسة النتاج التاريخي لهذا العصر. وخير شاهد على ذلك كتاب «البداية والنهاية» لابن كثير، فقد اعتبره ابن كثير ذيلاً على تاريخ البرزالي، الذي ذيَّل بتاريخه على تاريخ ابن شامة. ثم جاء المؤرخون بعد ابن كثير فذيلوا بدورهم على تاريخه واختصروا واعتمدوا عليه.

الحيـــاة الفكريـــة

أما الحياة الفكرية لهذا العصر، فقد اتسمت بالتحيز الفكري والتعصب المذهبي، وذلك بسبب الانقسام الداخلي الذي ترجع أصوله إلى الماضي البعيد في أعماق التاريخ الإسلامي، وبسبب الجمود الفكري الذي لحق المسلمين بعد عصور الازدهار والنماء والتقدم والنشاط في ميادين العلم والمعرفة والفكر الحر المستقل.

فإذا رَجَعنا إلى ماضي التاريخ الإسلامي المجيد نرى أنَّ وحدة المسلمين السياسية بقيت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إلى عهد الشيخين أبي بكر وعمر ثابتة متماسكة، ثم بدأ الانقسام في أواخر خلافة عثمان حتى استشهد، و«ذبح من الوريد إلى الوريد» على حد تعبير ابن كثير[١]. فكأن باب الخلاف والفتن فتح على مصراعيه. ثم لم يقدر له في التاريخ الإسلامي الطويل من كان يستطيع أن يسد هذا الباب، ويجمع المسلمين على كلمة واحدة. بل وجد أناس استغلوا هذا الخلاف السياسي، وبنوا على أساسه بنيان فرق وطوائف ذات مطامح سياسية، وصبغوها بصبغة مذهبية دينية.

وحين اتصل المسلمون بأمم وأجناس لها مذاهب دينية مختلفة، وثقافات وحضارات وفلسفات حياة متباينة، وجدت فيهم فرق وطوائف عديدة تبحث في العقائد والكلام، زالت بعضها مع الزمن وذهب أثرها، فلا نكاد نسمع لها ذكراً. ولم تزل بعضها الأخرى إلى العصر الذي نبحثه باقية تهدد الوحدة الإسلامية وتنذر بفناء الأمة المسلمة كمجتمع متماسك، تحارب بعضها بعضاً لتضمن لها

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٨/ ٢٠٣.

وحدها البقاء والخلود «تتنازع الفكر بالحجة والبرهان للغلب والسيطرة الفكرية. فكان التناصر الفكري الذي لا جدوى منه إلا تأريث العداوة في النفوس والتفريق بين أهل الملة. ثم انتقل الأمر من الالتحام الفكري والجدل والمناظرة إلى المكايدة وتدبير المؤامرات وموالاة أعداء الإسلام، و وضع الكمين لأذى الأمة، وإفساد الأمر عند أولياء الأمور»[1].

وقد كان للمذاهب الفقهية الأربعة أثرها في انقسام أهل السنة على أنفسهم منذ أن انتشرت مذاهبهم في بلاد المسلمين، وكاد أن يختص كل بلد بمذهب منها. ونشأ جيل تراخى وتكاسل عن مجاراةِ الأئمة المجتهدين المحققين، واكتفى بنشر مذهب إمامه بالاحتجاج لمذهبه والتدليل عليه وشرح مرماه. «فاشتد الخلاف والجدل بين الشافعية والحنفية، وظهرت حدة وشدة في الحنابلة، حين قام الجدل على قدم وساق بين المعتزلة وبين الأشعرية والماتريدية في عنف ولجب»[1]. وانتقل هذا الخلاف والجدل وما تبعه من تعصُّب لرأي وتمسك بمذهب معين إلى الأجيال اللاحقة، وسَرَى بين علماء عصرنا الذي نبحثه ومن جاء بعدهم.

وإن كانت هناك دائماً جماعة من العلماء المخلصين تنادي بالاجتهاد لتطوير المجتمع الإسلامي وتحسين حالته علمياً وثقافياً وحضارياً، ولكن هؤلاء العلماء لم يستطيعوا في عصورهم استنباط مذهب على نمط مذاهب الأئمة المجتهدين السابقين، مستقلاً عنهم في الترتيب والتدوين، وفي معالجة المسائل والمشاكل المتجددة، إلا أننا عثرنا في عصر ابن كثير على حديث يدل على الروح الفيَّاضة تجيش في النفوس أبناء هذا الجيل للتوفيق بين المذاهب الفقهية الإسلامية، فقد ذكر السيوطي نقلاً عن كتاب «الترشيح» لتاج الدين السبكي(٧٢٧ـ ٧٧١) حديثاً رواه عن شهاب الدين ابن النقيب (٦٩٤ـ ٧٦٤) فقال: «جلست بمكة بين طائفة من العلماء، وقعدنا نقول لو قدر الله تعالى بعد الأئمة الأربعة في هذا الزمان مجتهداً عارفاً بمذاهبهم أجمعين، يركِّب لنفسه مذهباً من الأربعة؛ بعد اعتبار هذه المذاهب المختلفة كلها، لازدان الزمان به وانقاد الناس له»، واتفقوا أن

---

(١) أبو زهرة، ابن تيمية حياته وعصره ١٥٤، ١٥٥.

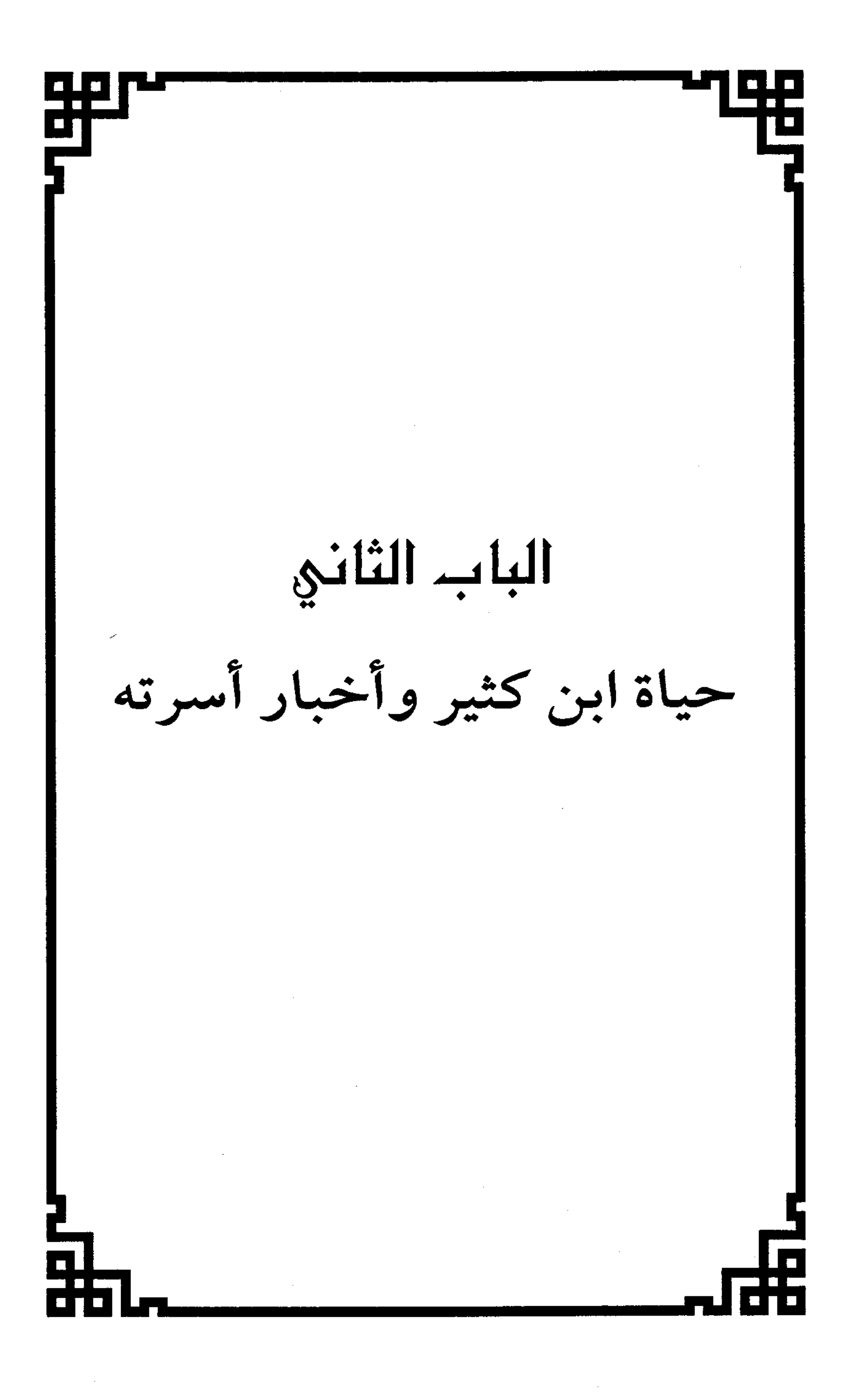
هذه الرتبة لا تعدو الشيخ تقي الدين السبكي (٦٨٣ـ ٧٥٦) ولاتنتهي سواه[1].

يدل هذا الحديث على شعور علماء هذا العصر بحاجتهم إلى مذهب فقهي جديد، يجمع بين المذاهب الفقهية الأربعة حلاً لمسائل ومشاكل دينية واجتماعية ظهرت في المجتمع الإسلامي بعد أن أغلق باب الاجتهاد منذ قرون. فالفكرة كانت موجودة، و وجدوا لها رجلاً كان يستطيع في نظرهم أن يتبناهم، ويقوم بها أحسن قيام. ولكن ماذا حدث في عصرهم؟ هل تحققت الأمنية العزيزة؟ كلا، لم تتحقق في عصرهم، ولابعدهم. بل لا يزال المفكرون في أيامنا يشعرون بحاجتهم إلى تدوين الفقه الإسلامي على النمط المذكور، ويرون فيه حلاً لكثير من المشاكل التي أثيرت بعد سطو الحضارة الغربية والتمدن الأوربي على الحضارة الإسلامية والتمدن العربي.

هذا كان عرضاً موجزاً لعصر ابن كثير سياسياً واجتماعياً وعلمياً وفكرياً، والآن ننتقل إلى حياته، فنجمع فيها أخباراً عن حياته وأُسرته وثقافته وشيوخه ونشاطه العلمي والديني ومؤلفاته وتلامذته.

* * *

(١) السيوطي، حسن المحاضرة ١/١٧٧.



الباب الثاني

حياة ابن كثير وأخبار أسرته

الفصل الأول

اسمه ونسبه، ومولده، ووفاته، وموطنه

اسمه ونسبه:

هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضَوْء بن كثير بن ضوء بن دَرْع[1] القرشي[2] البُصْرويّ الدمشقي، الملقب بعماد الدين، وكنيتُه أبو الفداء، واشتهر باسم جده.

وقد صَرَّح ابن كثير في نسبته إلى قريش: أن أباه كان من بني حصلة، وهم ينتسبون إلى الشرف، وبأيديهم نسب، وقف على بعض ذلك شيخه جمال الدين المزي فأعجبه ذلك وابتهج به، فصار يكتب في نسبي بسبب ذلك القرشي[3].

وأشار ابن كثير إلى وجه تسميته بإسماعيل على اسم أخيه الأكبر ـ من زوجة أبيه الأولى ـ الذي توفي في حادثة سقوطه من سطح الشامية البرانية. وكان ولداً ذكياً، تعقد عليه الأسرة آمالاً، فقد اشتغل بدمشق «بعد أن حفظ القرآن على والده، وقرأ مقدمة في النحو، وحفظَ التنبيه وشرحه على العلامة تاج الدين الفَزَاري، وحصَّل المنتخب في أصول الفقه[4]. ثم إنه سَقَط من سطح الشامية البرانية، فمكث أياماً ومات». وقد كان لهذه الحادثة المؤلمة أثرها على الأسرة

---

(١) كذا في (إنباه الغمر ١/ ٤٥) وجاء في (شذرات الذهب ٦/ ٢٣١) ابن زرع، وجاء في (ذيل الحسيني ص٥٧): ابن ذرع.

(٢) «القيسي» عند ابن حجر (الدرر الكامنة ١/ ٣٧٣) والسيوطي (ذيله ٣٦١) وهو خطأ.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٣١.

(٤) نفس المصدر نقلاً عن شيخه ابن الزملكاني ١٤/ ٣٢.

المنكوبة، ذكره ابن كثير: «فَوَجَد عليه الوالد وَجْداً كثيراً، ورثاه بأبيات. فلما ولدت له أنا بعد ذلك، سَمَّاني باسمه، فأكبر أولاده إسماعيل، وآخرهم وأصغرهم إسماعيل، فرحم الله من سَلَف، وخَتَم بخيرٍ لمن بقي»[١].

مولده و وفاته:

اختلف مترجمو ابن كثير في تاريخ ولادته، فمنهم من ذكر مولده سنة ٧٠٠هـ (سبعمئة)[٢]، ومنهم من ذكر سنة ٧٠١هـ(إحدى وسبعمئة)[٣]، وبعضهم تردد فلم يقطع، وذكر سنة الولادة بدون تحديد في مثل العبارات التالية: «ولد بعد السبعمئة أو فيها»[٤]، أو «مولده سنة نيف وسبعمئة»[٥] أو «ولد سنة سبعمئة أو بعدها بيسير»[٦].

وقد رجَّح الشيخ أحمد محمد شاكر سنة ٧٠٠هـ تاريخ مولد ابن كثير، مستدلاً بكلامه في ترجمة أبيه، حيث ذكر أنَّ أباه توفي سنة ٧٠٣هـ، «وكنت إذ ذاك صغيراً ابن ثلاث سنين أو نحوها، لا أدركه إلا كالحلم»[٧]. فيقول الشيخ شاكر: «وابن ثلاث سنين لا يعرف تواريخ السنين على اليقين في تلك السن،

---

(١) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٢) السيوطي، ذيله ٣٦١، طاش كبرى زاده، «مفتاح السعادة» ١/ ٢٠٤، ابن العماد، «شذرت » ٦/ ٢٣١ ابن الآلوسي «جلاء العينين» ٣٤.

(٣) الحسيني، «ذيل على تذكرة الحفاظ» للذهبي ٥٧، مطبعة التوفيق دمشق سنة ١٣٤٧هـ، «طبقات ابن قاضي شهبة» ٤٧٣، ابن تغري بردي، «النجوم الزاهرة» ١١/ ١٢٣، النعيمي، «الدارس» ١/ ٣٦، الشوكاني، «البدر الطالع بمحاسن القرن السابع»١/ ١٥٣ مطبعة السعادة القاهرة سنة ١٣٤٨هـ، ابن ناصر الدين، «الرد الوافر على من رغم أن من سمى شيخ الإسلام ابن تيمية كافر» صفحة ٤٨، مطبعة كردستان العلمية، مصر سنة ١٣٢٩هـ.

(٤) الذهبي، «تذكرة الحفاظ »٤/ ٢٩٠، الطبعة الثانية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد بالهند سنة ٣٣ ـ ١٣٣٤هـ.

(٥) الذهبي، «المعجم »، نسخة مخطوطة محفوظة في مكتبة مولانا آزاد، بالجامعة الإسلامية عليجرة بالهند(سبحان الله كلكشن تحت رقم ٢١٢عـ٢٩٧/ ٢) ورقة ٣٣.

(٦) ابن حجر، الدرر الكامنة١/ ٣٧٤.

(٧) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٣٢.

فقد سمع إذن تحديد السنة التي مات فيها أبوه ممن حوله من إخوة وأهل وجيران»[١].

ثم يذهب الشيخ شاكر أبعد من هذا ويزعم مولده« سنة سبعمئة أو قبلها» مخالفاً في ذلك تصريح ابن كثير ونصوص المترجمين له مستدلاً بكلام ابن كثير «لاأدركه إلا كالحلم» فيقول: « فالذي في سن أقل من الثلاث ما أظنه يذكر شيئاً كالحلم ولا أبعد من الحلم ولاأقرب»[١].

ولكن فات الشيخ شاكر ابن كثير نفسه يقطع الخلاف، فيقول في آخر حوادث سنة ٧٠١هـ (إحدى وسبعمئة) «وفيها وُلد كاتبه إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي»[٢]. وهذا التصريح عندنا أقوى وأثبت من الشك. فإنَّ ابن كثير مؤرِّخ حافظ، يُحتَجُّ بأقواله في تحديد تواريخ الميلاد والوفاة في تراجم الأعيان التي جمعها في تاريخه، فكيف يظن بأنه ذكر تاريخ ميلاده بدون تحقيق.

أما وفاته فقد اتفق المؤرخون على أنه توفي في دمشق في شعبان سنة ٧٧٤هـ (أربع وسبعين وسبعمئة)[٣]، وقد حَدَّد ابن حجر يوم وفاته بخامس عشر شعبان[٤] إلا أنَّ ابن تغري بردي خَالَفه في ذلك بقوله إنه توفي يوم ست وعشرين من شعبان[٥]، أما ابن ناصر الدين فقد أخطأ حين حدد تاريخ وفاته سنة ٧٩٤هـ (أربع وتسعين وسبعمئة)[٦]، وخالف في ذلك جميع المؤرخين قديماً وحديثاً مع أنه من أول المترجمين له.

---

(١) أحمد محمد شاكر، في أول «عمدة التفسير» عن الحافظ ابن كثير ١/ ٢٢ـ٢٣، دار المعارف بالقاهرة سنة ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٢١.

(٣) طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٥، الدرر الكامنة لابن حجر ١/ ٣٧٤، ذيل السيوطي ٣٦١، الدارس للنعيمي ١/ ٣٧، جلاء العينين لابن الآلوسي ٣٤، البدر الطالع للشوكاني ١/ ١٥٣، شذرات لابن العماد ٦/ ٢٣٢.

(٤) ابن حجر، إنباه الغمر بأبناء العمر ١/ ٤٦، دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد بالهند سنة ٨٧/ ١٣٨٨هـ.

(٥) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة ١١/ ١٢٣.

(٦) ابن ناصر الدين، الرد الوافر٤٨.

ودفن ابن كثير بوصية منه في تربة شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية بمقبرة الصوفية خارج باب النصر من دمشق. وكانت له جنازة حافلة مشهورة[١].

وقد أُضِرَّ ابن كثير في أواخر عمره[٢] وكان ذلك بسبب كثرة اشتغاله بالليل، فقد« عوجل بكف بصره» وهو مشغول في تأليف كتابه جامع المسانيد، كما صرَّح بذلك لابن الجزري أحد تلاميذه قائلاً: « لازلت أكتب فيه في الليل، والسراج ينوص، حتى ذهب بصري معه»[٣]. ولما توفي رثَاه بعض طلابه قائلاً:

لفقدك طلاب العلوم تأسفوا   وجادوا بدمع لا يبيد غزير
ولو مزجوا ماء المدامع بالدماء   لكان قليلاً فيك يا بن كثير[٤]

ولعل هذا الطالب هو بدر الدين محمد الزركشي(٧٤٥ـ ٧٩٤) الذي روى عنه أنه« مدحه ببيتين»[٥].

موطنه:

ولد ابن كثير بقرية شرقي بُصْرى[٦] من أعمال دمشق، تسمى مَجْدَل

---

(١) نفس المصدر والصفحة، طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٥، الدارس للنعيمي ١/ ٣٧، شذرات لابن العماد ٦/ ٢٣٢ جلاء العينين لابن الآلوسي ٣٤.

(٢) ابن حجر، الدرر الكامنة١/ ٣٧٤.

(٣) ابن الجزري، المصعد الأحمد في ختم مسند الإمام أحمد، في أول مسند الإمام أحمد بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ١/ ٤٠، دار المعارف بالقاهرة سنة ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ١١/ ١٢٤.

(٥) ابن حجر الدرر الكامنة ٣/ ٣٩٧.

(٦) خالف بروكلمان جميع مترجمي ابن كثير حين قال: إنه ولد في دمشق (دائرة المعارف الإسلامية ـ الترجمة العربية ـ ١/ ٢٦٩، القاهرة سنة١٩٣٣م) وبُصْرى بضم الباء وسكون الصاد وآخرها ألف مقصورة (أحمد محمد شاكر في ترجمته له في أول عمدة التفسير ١/ ١٢٢ وهي قصبة كورة حوران من أعمال دمشق، مشهورة عند العرب قديماً وحديثاً، تدل آثارها الرائعة على ما كان لها من مجد في الزمان القديم، وهي كانت أول مدينة فتحها العرب في الشام، إذ سقطت في يد الأمير خالد بن الوليد في أول الخلافة الراشدة، وقد ذكرها كثير من الشعراء قديماً وحديثاً، وقد ساق ياقوت الرومي جملة مستكثرة منها. (انظر معجم البلدان ١/ ٤٤١، طبعة دار صادر بيروت سنة ١٩٥٥م).

القرية[1] وهي في الأصل موطن أُمه، انتقل إليها أبوه في أواخر حياته. فقد كان أبوه بها خطيباً، وأقام بها مدة طويلة إلى أن توفي فيها، فتحوَّلت الأسرة منها إلى دمشق سنة ٧٠٧هـ[2] حين كان ابن كثير ابن ست سنين.

ونزلت الأسرة في الدار المجاورة للمدرسة النورية التي كان يسكنها من قبل محيي الدين عبد الله بن إبراهيم بن مرزوق(المتوفى سنة ٦٦٢هـ)، والتي وقفها الأمير جمال الدين آقوش لمدرسة شافعية عُرِفَت بالمدرسة النجيبية[3]. وهذه الدار كانت في درب ابن أبي الهيجاء المعروف قبل ذلك بدرب سعور[4] بالصاغة العتيقة عند الطوريين. ولعله آخر منزل أيضاً لما أشار ابن كثير في ترجمة الشيخ نور الدين محمد ابن أبي بكر بن قوام(المتوفى سنة ٧٦٥) « كان يحضر المدارس، ونزل عندنا بالمدرسة النجيبية»[5]. وهي المدرسة التي بدأ ابن كثير يدرِّسُ بها منذ سنة ٧٣٦هـ. كما سيأتي في ذكر نشاطه العلمي.

* * *

(١) الحسيني ذيله ٥٧، ومجدل بكسر الميم مع سكون الدال، أحمد محمد شاكر، عمدة التفسير ١/ ٢٢) وهي قرية في حماة بالشام، (معجم لأعلام الشرق والغرب في آخر المنجد صفحة ٤٧٨، المطبعة الكاثوليكية بيروت سنة ١٩٥٦م) وقد قيل مجيدل القرية، كما جاء في المطبوع من البداية والنهاية(١٤/ ٣١) والرد الوافر، (صفحة ٤٨) وقيل جندل (عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين ٢/ ٢٨٤، مطبعة الترقي دمشق سنة ٧٦ ـ ١٣٨١هـ).

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ٣٢، ٤٦، وقد ذكر ابن كثير سنة ٧٠٦ تاريخ قدومه دمشق(١٤/ ١٧)

(٣) نفس المصدر ١٣/ ٢٤٤.

(٤) نفس المصدر ١٤/ ١٧، ٤٦، وقد ورد اسمه في مكان آخر بدرب ابن سنون(١٣/ ٢٤٢)

(٥) البداية والنهاية ١٤/ ٣٠٦، ١٧٣.

الفصل الثاني

أسرتـــه

ليس لدينا أخبار عن أسرة ابن كثير، إلا ماذكره مؤرِّخنا في ترجمة والده من أخبار تلقي بعض الضوء على أحوال أسرته. كما أنَّ أسماء بعض أولاده وأحفاده وأخوال آخرين عثرنا عليها في كتب تراجم القرنين الثامن والتاسع، نذكرها في هذا الفصل بعد ذكر أبيه وأمه و إخوته و أخواته.

فقد كان أبوه الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير(٦٤٠ـ ٧٠٣) من بني حصلة، من قرية يقال لها الشركوين، غربي بصرى، بينها وبين أذرعات[١].

اشتغل أبوه بالعلم عند أخواله ببُصرى، فقرأ البداية في مذهب أبي حنيفة، وحفظ جُمَل الزجَّاجي، وعُنيَ بالنحو والعربية واللغة، وحَفِظَ أشعار العرب، وكان يقول الشعر الجيد الفائق الرائق في المدح والمراثي وقليل من الهجاء[٢].

وقد أشاد بذكره علم الدين البرزالي في معجمه حيث قال: أنه « رجل فاضل

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٣١/١٤، وأذرعات: هي اليوم درعاً جاء ذكرها في العهد القديم باسم أدرا واشتهرت بخمرها، وعندها انتصر الفرس على البيزنطيين سنة ٦١٣م (معجم لأعلام الشرق والغرب في آخر المنجد صفحة١١).

(٢) نفس المصدر والصفحة، وقد ذكر ابن كثير ثلاثة وعشرين بيتاً في الغزل لوالده، ثم استغفر الله له لما صنع من الشعر، وقد نقلها من معجم البرزالي الذي كتبها بحضور الشيخ تاج الدين الفزاري، حين أنشد لهما بمجيدل القرية في منتصف شعبان سنة ٦٨٧هـ. (البداية والنهاية ١٤/ ٣٢ـ ٣٣).

له نظم جيد، ويحفظ كثيراً من اللغز، وله همة وقوة»[١] . وقد نقل ابن حجر أيضاً من البرزالي بأنه « كان فاضلاً لغوياً شاعراً»[٢] .

وكان حنفياً فتمذهب بالمذهب الشافعي، وأخذ عن محيي الدين النواوي (٦٣١ـ ٦٧٧) والشيخ تقي الدين الفزاري الذي كان يكرمه ويحترمه، كما أخبر بذلك ابن الزملكاني[٣] .

وعُيِّن أبوه أولاً بمدارس بصرى بمنزل الناقة[٤] ثم انتقل إلى خطابة القرية شرقي بصرى، وكان يخطب جيداً، وله مقول عند الناس، ولكلامه وقع لديانته وفصاحته وحلاوته فأقام بها نحواً من اثنتي عشرة سنة، ثم تحول إلى خطابة مجيدل القرية، فأقام بها مدة طويلة في خير وكفاية وتلاوة كثيرة، وكان يؤثر الإقامة في البلاد لما يرى فيها من الرفق ووجود الحلال له ولعياله[٥] .

توفي أبوه في مجيدل القرية في شهر جمادى الأولى سنة ٧٠٣هـ، ودُفن بمقبرتها الشمالية عند الزيتون، وقد كان مؤرخنا إذ ذاك صغيراً ابن ثلاث سنين أو نحوها، لايدرك أباه إلا كالحلم[٤] .

وولد له من زوجته الأولى ثلاث ذكور: إسماعيل الذي توفي في حادثة سقوطه من سطح الشامية البرانية كما مر، ثم يونس، وإدريس.

---

(١) ابن كثير، البدايةوالنهاية ١٤/ ٣٢.

(٢) ابن حجر، الدرر الكامنة٣/ ١٨٥.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٣١، ولعل تقي الدين الفزاري تصحيف في المطبوع من البداية والنهاية، فإننا لم نجد ترجمته عند المؤرخين والمترجمين لهذا العصر، ولعل المقصود به تاج الدين الفزاري. (٦٢٤ ـ ٦٩٠) الذي اعتبره ابن كثير شيخ أكبر مشائخه (البداية والنهاية ١٣/ ٣٢٥) وهو الذي كتب بحضوره البرزالي شعره كما مر آنفاً.

(٤) وهو يقع في شمالي البلد، وهو المبرك المشهور عند الناس لناقة صالح عليه السلام كما يزعمون ويزورونه احتراماً وتعظيماً للبركة. (البداية والنهاية ١٤/ ٣١، أحمد محمد شاكر، عمدة التفسير١/ ٢٣).

(٥) نفس المصدر ١٤/ ٣١ـ٣٢.

وولد له من والدة ابن كثير[1] عدَّة أولاد: وهم عبد الوهاب، وعبد العزيز ومحمد، ثم عدَّة بنات، وكان آخرهم مؤرِّخنا إسماعيل المعروف بابن كثير، ولم يعرف منهم إلا هو، وقليلٌ من أحوال شقيقه الأكبر عبد الوهاب (المتوفى سنة ٧٥٠).

فإنَّ عبد الوهاب شعر بالمسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقه بعد وفاة أبيه نحو أمه وأشقائه وشقيقاته الصغار، فحاول أن يستقر به المقام في مدينة كبيرة، حيث المجال أوسع لكسب العيش ولتربية الأولاد وتعليمهم، فذهب بهم جميعاً إلى دمشق سنة ٧٠٧هـ، ورعاهم رعايةً تامة، وقام بأداء المسؤولية خير قيام، فأحسن إلى أمه وبرَّ بها، ومنَحَ الصغار حنانَ الأب الذي فقدوه، وربَّاهم أحسن تربية وأكملها كما وجههم إلى العلم. لذلك نجد ابن كثير يشيد بذكره قائلاً: « وقد كان لنا شقيقاً، وبنا رفيقاً شفوقاً. . . . . . . فاشتغلت على يديه في العلم، فيسَّر الله تعالى منه ما يسَّر، وسهَّل منه ما تعسَّر»[2].

وقد اشتهرت من أولاد عبد الوهاب بنت، وهي ست القضاة أم عيسى(٧٢٠ـ ٨٠١) التي تميَّزت في نساء الأسرة بالعلم والمعرفة والثقافة الدينية البارزة. فقد حدثت بالإجازة عن أشهر حفاظ العصر، منهم القاسم بن عساكر، والحجار وعلي الواني ، والمِزِّي، والشرف بن حافظ وآخرون. وخرَّج لها الصلاح الأقفهسي أربعين حديثاً عن شيوخها، وقد سمع منها الفضلاء، وأجازت لابن حجر فيمن أجازت[3].

وقد كانت مرجع الأسرة في تربية أولادها تربية دينية صالحة، ونشأتهم نشأة علمية راقية، أحضر إليها حفيد وحفيدة من أحفاد ابن كثير لتعليمهما وتربيتهما وتثقيفهما في سن صغير، وهما: إبراهيم بن عبد الوهاب بن إسماعيل

---

(١) وهي مريم بنت فرج بن علي (٦٧٣ ـ ٧٢٨) وقد دُفِنَت بالصونية شرقي قبر الشيخ تقي الدين بن تيمية. (البداية والنهاية١٤/ ١٤٢ـ١٤٣).

(٢) نفس المصدر١٤/ ٣٢.

(٣) السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع١٢/ ٥٧ مكتبة القدسي بالقاهرة سنة ٥٣ـ ١٣٥٥هـ، ابن العماد، شذرات الذهب ٧/ ٧.

(٧٨٩ـ. . .) الذي أُرسل إليها في الثالثة من عمره، وأسماء بنت أحمد بن إسماعيل(المتوفاة سنة ٨٦٠) التي أُرسلت إليها في الخامسة من عمرها. وقد نجحت أم عيسى في تهيئتهما لمستقبل علمي زاخر، حيث إنهما عُرفا في عصرهما بالحديث وأشتهر به، فقصدهما العلماء والحفاظ، وكان منهم شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (٨٣١ـ ٩٠٢) الذي لقيهما، وقرأ على إبراهيم جزأ، وأجازت له أسماء. وقال عنهما السخاوي: إنهما من بيت علم وحديث ورواية[١]. وهذا يدل على أنَّ كثيرين في الأسرة تميزوا بالعلم واشتهروا بالحديث.

أما ابن كثير فلا نعرف متى تزوج، ولكننا نعرف اسم زوجته، وهي أمة الرحيم زينب، من بيت علمٍ وحديث، فهي بنت الشيخ جمال الدين المزِّي (٦٥٤ ـ ٧٤٢) شيخ ابن كثير، ولا يعرف عنها إلا ما ذكره ابن كثير عرضاً من أن زوجته أمة الرحيم زينب؛ وحماته أم فاطمة عائشة بنت إبراهيم بن صديق (٦٦١ـ ٧٤١) حفظتا القرآن على الشيخة الصالحة العابدة الناسكة أم زينب فاطمة بنت عباس بن أبي الفتح بن محمد البغدادية (المتوفاة سنة ٧١٤) التي «خَتَّمَت نساء كثيراً القرآن»[٢]. وقد روى ابن كثير أخبار وفاة شيخه المزي على لسان زوجته، وقد كانت حاضرةً حين وفاة أبيها[٣].

أما أولاد ابن كثير فقد خَلَّد ذكر بعضهم المترجمون، لأنهم اشتغلوا بالعلم، وخاصة بالحديث والفقه والتاريخ، فحُفِظَت أسماؤهم وبعض أخبارهم من الضياع، وكان ذلك سبباً في إبقاء سمعة الأسرة الطيبة في مجال العلم والمعرفة والثقافة إلى مدة طويلة.

فقد أشار ابن كثير إلى« الولد عمر»[٤] عرضاً في ترجمة أحد التجار، بعبارة مبهمة، وهو أكبر أولاد ابن كثير ممن علمناهم، وهو عز الدين عمر

---

(١) نفس المصدر ١/ ٣٧، ١٢/ ٦.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٧٢.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية١٤/ ١٩٢.
(٤) نفس المصدر، ١٤/ ١٢٧.

(٧٣٨ـ ٧٨٣) الذي عقد له ابن حجر ترجمة قال فيها: « عُنيَ بالفقه، وكتب تصانيف أبيه، وولي الحسبة مراراً، ونظر الأوقاف، ودرَّس بعدة أماكن، وعاش خمساً وأربعين سنة، مات في رجب سنة ٧٨٣هـ» [١].

أما فيما كتبه عمر من تصانيف أبيه، فقد جاء عند ابن حجر نفسه في ترجمة مؤرخنا ابن كثير ما يفيد أنه نسخ لأبيه نسخة من مسند الإمام أحمد الذي رتبه ابن المحب الصامت (٧١٢ـ ٧٨٩) على ترتيب حروف المعجم. وكانت هذه النسخة أصلاً لأبيه في تأليف كتابه « جامع المسانيد والسنن»، ثم بَيَّض عُمَرُ هذا الكتاب، وقد رأى ابن حجر النسختين بخط عمر [٢].

وأشار ابن فهد إلى زين الدين عبد الرحمن(المتوفى سنة ٧٩٢هـ) واكتفى بالتصريح بأنه مات في دمشق [٣]. فلا يُعرف عنه أكثر من هذا.

أما بدر الدين أبو البقاء محمد (٧٥٩ ـ ٨٠٣) فقد ذكره أكثر المترجمين، فقال السخاوي ووافقه ابن العماد الحنبلي: «ولد بدمشق، ونَشَأَ بها، واشتغل وطلب، وتخرج بابن المحب، وسمع الكثير من ابن أميلة والصلاح ابن أبي عمر وغيرهما من أصحاب الفخر. ورَحَل إلى القاهرة، فسمع من بعض شيوخها، وتميَّز في هذا الشأن قليلاً وشاركَ في الفضائل، مع خطٍ حسن معروف جيد الضبط». إلا أنَّ ابن حجي قال: لم يكن محمود السيرة، ودرس بعد أبيه في تربة أم صالح، وعلق تاريخاً للحوادث التي في زمنه، ذكر فيه أشياء غريبة. وقال ابن حجر: «سمعت من فوائده، وسمع بقراءتي في دمشق، ومات في سن الكهولة عن أربع وأربعين سنة بالرملة، فاراً عن دمشق» [٤]. لعله فرَّ من دمشق في الفتنة

---

(١) ابن حجر، إنباه الغمر بأبناء العمر، ٣/ ٧٥.
(٢) نفس المصدر١/ ٤٧.
(٣) ابن فهد، لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ للذهبي ١٧٨، مطبعة التوفيق دمشق سنة ١٣٤٧هـ.
(٤) السخاوي، الضوء اللامع ٧/ ١٣٨ـ١٣٩، ابن العماد، شذرات الذهب ٧/ ٣٥، ابن فهد، لحظ الألحاظ ١٩٢.

التيمورية. فقد دخل تيمورلنك دمشق في ربيع الآخر سنة ٨٠٣هـ، ورحل عنها في ثالث شعبان من نفس السنة[١].

وقد عقد السخاوي ترجمة للمسند تاج الدين عبد الوهاب(٧٦٧ ـ ٨٤٠) أحد أولاد ابن كثير وقال: إنه «سمع من أبيه، والمحب الصامت، وأحمد بن عبد الغالب الماكسيني، وابن أميلة، وحدَّث فسمع منه الفضلاء»[٢].

أما ما ذكره السخاوي من أنه رأى في تاريخ أبيه سماعه على ابن أميلة للجزء العاشر من الترمذي كاملاً «بمشاركة أبيه» بدار فتح الدين شهيد، بقراءة شهاب الدين أحمد بن العماد الحسباني في رجب سنة ٧٧٤هـ[٣]، فإنه في نظرنا موضع شك، نظراً إلى صغر سن عبد الوهاب الذي لم يتجاوز حينذاك السابعة من سنه، إلا إذا اعتبرنا حضوره السماع مع أبيه للبركة.

ولم نعثر للآن على أحوال شهاب الدين أحمد بن إسماعيل بن عمر بن كثير الذي عثرنا على اسمه من ترجمة ابنته المحدثة أسماء[٤] التي كانت سبباً في تخليد اسم أبيها للأجيال المتأخرة. وقد مرَّ ذكرها في أخبار ست القضاة أم عيسى بنت عبد الوهاب في أول هذا الفصل. وإنَّ هذا ليدلّ على أنَّ المثقفين في عصر ابن كثير كانوا يهتمون بتعليم بناتهم وتربيتهن، فكانت بينهن مربيات عالمات محدثات يربين الأولاد تربية علمية دينية صالحة، ويدرسنَ الطلاب، ويرجع إليهن أعلام الحفاظ والمحدثين والمؤرخين.

* * *

---

(١) ابن العماد، شذرات الذهب٧/ ٦٤ـ٦٥.

(٢) السخاوي، الضوء اللامع ٥/ ٩٨.

(٣) السخاوي، الضوء اللامع٥/ ٩٨.

(٤) نفس المصدر١٢/ ٦.

الباب الثالث

ثقافة ابن كثير

إنَّ المصادر التي ترجمت لابن كثير لا تساعدنا كثيراً في مجال تحديد مراحل التعليم التي مرَّ بها، وخاصة مراحل تعليمه الابتدائي ، ونشأته وتربيته في الصغر؛ لذلك يصعب على الباحث الوصول إلى معرفة دراسته المنتظمة من الأول. إلا أن هذه المصادر فيها بعض إشارات مقتضبة حول حفظه المتون، وسماعه الحديث على بعض أشهر علماء عصره وتفقهه على آخرين، وذكر بعض من أجاز له منهم. فإنَّ من عادة المؤلفين في التراجم أنهم كانوا لا يستقصون، ويكتفون بذكر أشهر أسماء الشيوخ الذين استفاد منهم المترجم له، فلا تحدِّد هذه المصادر الكتب التي قرأها عليهم إلا نادراً، ولا تشير إلى مدة استفادته منهم.

ولكن كان من حسن حظنا أن ساعدنا ابن كثير نفسه في البحث عن أخبار ثقافته وتلقيه العلم، كما كان هو خير عون لنا في معرفة نشاطه العلمي والسياسي والاجتماعي. فقد عثرنا عنده على بعض الأخبار التي تتَّصل بتعليمه وتربيته في مراحل ابتدائية وعالية. وذلك من أوثق المصادر وأتقنها بالنسبة لحياة ابن كثير، وأعني بذلك كتابه التاريخي البداية والنهاية. فإنه وإن لم يكتب في هذا الكتاب فصلاً مستقلاً في ترجمته، ولكن لم يفته في ذكر تراجم وفيات أعيان عصره أن يشير منهم إلى شيوخه الذين استفاد منهم، وإن لم ينبه ولو إجمالاً على ما حصل عليهم، وأهم ما تعلم منهم، ويبدو من تلك الإشارات أنَّ دراسة ابن كثير انحصرت في الفقه والحديث وعلومه وما يخدمه. . . . وكان ذلك هو الاتجاه

الغالب في عصره، كما مر في الحالة العلمية في الباب الأول من هذا الكتاب.

ونحن نحاول هنا في هذا المكان أن نجمع مواداً عن مراحل تعليمه الابتدائي والعالي، مستنبطاً بالإشارات التي نجدها في تاريخه الكبير مبعثرة متفرقة هنا وهناك، ومستعيناً بالمصادر التي ترجمت له.

* * *

الفصل الأول

التعليم الابتدائي

بدأ ابن كثير الاشتغال على يدي شقيقه الأكبر عبد الوهاب الذي آنسه بالعلم، وجعله يحب العلم ويجتهد في حصوله، ويتحمل ما يعاني في سبيله. فقد صرَّح ابن كثير «فاشتغلت على يديه في العلم، فيسَّر الله تعالى منه ما يسَّر، وسهل منه ما تعسَّر»[1] ولكن لم يصرِّح ابن كثير عن ماذا تعلم منه، وإلى أي حد سار في طريق العلم تحت إشرافه. وكذلك لا نعرف شيئاً عن مستوى عبد الوهاب، ولا درجة ثقافته، حتى يقيس الباحث عليهما المستوى العلمي الذي بلغه ابن كثير على يديه.

ويستفاد مما وردت في تاريخ ابن كثير من إشارات ما يأتي:

أ ـ حفظ القرآن الكريم:

ختم ابن كثير القرآن الكريم حفظاً سنة ٧١١هـ في المقري والكتَّاب مع زميله الشيخ نور الدين علي بن أبي الهيجاء (المتوفى سنة ٧٦٦هـ)، على الشيخ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي الحسن بن حسين بن غيلان البعلبكي الحنبلي (المتوفى سنة ٧٣٠هـ)، وقد كان من «الصالحين الكبار والعُبَّادالأخيار، يقرىء القرآن طرفي النهار»، ذكره ابن كثير «بشيخنا الصالح

(١) ابن كثير، البداية والنهاية١٤/ ٣٢.

العابد الناسك الخاشع»، وقال: إنه«سمع الحديث، وأسمعه»[1].

ب ـ تعلُّم القراءات:

وقرأ «شيئاً من القراءات» على الشيخ محمد بن جعفر بن فرعوش اللباد، المعروف بالمؤلِّه (المتوفى سنة ٧٢٤هـ)، وقد «أقرأ الناس نحواً من أربعين سنة. . . . . وكان يعلم الصغار عقد الراء والحروف المتقنة ونحوها»[2]. كما حضر دروسَ الشيخ بدر الدين محمد بن(أحمد بن) بضحان[3] (٦٦٨ ـ ٧٤٣)، شيخ القرَّاء السبع بدمشق في زمانه، وقد باشر مشيخة الإقراء بتربة أم صالح[4] (٧١٨ ـ ٧٤٣) وبالأشرفية[5]. وعدَّ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداؤدي المتوفى سنة (٩٤٥). ابنَ كثير من القرَّاء، وترجمَ له في طبقاتهم التي ألفها[6].

ج ـ تعلُّم الكتابـة:

وتعلَّم الكتابة على يد الكاتب الفاضل المجوِّد، كاتب الخط المعروف بالمنسوب الشيخ نجم الدين موسى بن علي بن محمد الجيلي المعروف بابن البصيص (٦٥١ ـ ٧١٦) «أقام يكتب الناس خمسين سنة، وقد كان شيخ صناعة الكتابة في زمانه، لا سيما في المزوج والمثلث»[7]. وقال ابن حجر: إنه كتب الأقلام كلها، ثم أخترع قلماً، سماه المعجز[8].

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية١٤/ ٣٢، ١٥٠، ٣١٢.
(٢) نفس المصدر١٤/ ١١٤.
(٣) يبدو أنه وقع تصحيف في اسمه، فقد ورد في مكان آخر في المطبوع من البداية والنهاية بابن نصحان(١٤/ ٣٠٨) أما عند ابن حجر فهو شمس الدين محمد بن أحمد بن بصخان الدمشقي (الدرر الكامنة٣/ ٣٠٩).
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية١٤/ ٨٨، ٢٠٨.
(٥) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس٢/ ٢٩٨.
(٦) نقلاً عن الشيخ أحمد محمد شاكر، «عمدة التفسير»١/ ٢٤.
(٧) ابن كثير، البداية والنهاية١٤/ ٧٩.
(٨) ابن حجر، الدرر الكامنة٤/ ٣٧٦.

د ـ تعلم النحو:

واشتغل بالنحو على يد الشيخ ضياء الدين عبد الله الزربندي (المتوفى سنة٧٢٣)، وقد اضطرب عقله في آخر حياته، فقُتِل نصرانياً، فشُنق[1].

* * *

(١) ابن كثير، البداية والنهاية١٤/ ١٠٧.

الفصل الثاني

التعليم العالي

اعتنى ابن كثير بالحفظ بعد ذلك على عادة عصره، فقد حفظ التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي، وعرضه وهو في الثامنة من سنه، وحفظ مختصر ابن حاجب كما مر. ثم أقبل على الحديث، فاشتغل بمطالعة متونه ورجاله، فقد قال ابن قاضي شهبة أنه «أقبل على حفظ المتون ومعرفة الأسانيد والعلل والرجال والتاريخ حتى برع في ذلك وهو شاب»[١] وتفقه على يد الشيخين برهان الدين الفزاري، وكمال الدين بن قاضي شهبة، وقرأ الأصول على الأصفهاني، كما عني بسماع الحديث على أبرز أئمة الحفاظ في عصره، ضاع ذكر أكثرهم، وبقيت أسماء بعضهم محفوظة عند من ترجموا لابن كثير.

فإن مجموع عدد شيوخ ابن كثير وأساتذته عند مترجميه قبلنا لم يتجاوز عن أربعة عشر شيخاً، سمع عليهم الحديث، وتلقى منهم العلوم الدينية، إلى جانب خمسة أجازوا له من علماء عصره. وهذا غريب حقاً في عصر كان العلماء تعودوا على التحصيل والسماع على أكبر عدد ممكن من أكابر العلماء وشيوخ العصر. ونحن هنا نجمع ذكر شيوخ ابن كثير ممن علمناهم من مترجميه ومن تاريخه ومن مراجعة تراجم العصر في كتب التاريخ. فقد بلغ عددهم لأول مرة في كتابنا هذا إلى أربع وأربعين شيخاً، ذكرنا بعضهم في تعليمه الابتدائي، ونذكر الباقين في هذا الفصل مع الإشارة إلى أهم ما تعلّم منهم أو سمع عليهم.

---

(١) طبقات ابن قاضي شهبة٤٧٣.

أ ـ سماع الحديث وغيره من العلوم على مشائخ العصر :

سمع ابن كثير الموطأ للإمام مالك بن أنس (٩٣ ـ ١٧٩) وغيره من الكتب على الشيخ نجم الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الواحد بن المسلم (٦٤٩ ـ ٧٢٩)، أحد رؤساء دمشق المشهورين، سمع الكثير، وحدَّث بدمشق ومصر والقدس، وكان يستحضر أشياء من التواريخ ويذاكر ويفهم، وكانت لديه فضائل وفوائد[١].

وسمع الجامع الصحيح للبخاري(١٩٤ ـ ٢٥٦) على الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد بن أبي طالب الحجَّار المعروف بابن الشِّحنة(٦٢٤ ـ ٧٣٠) «بدار الحديث الأشرفية في أيام الشتويات نحواً من خمسمئة جزء بالإجازات والسماع»، كما سمع منه صحيح البخاري أيضاً بجامع دمشق في سنة وفاته يوم ٩ صفر سنة ٧٣٠هـ[٢].

وقد عثرنا على سند من أسانيد ابن كثير عن ابن الشحنة والذهبي في ذكر قس ابن ساعدة الإيادي، ذكره في تاريخه هكذا. «أخبرنا الشيخ المسند الرحلة

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية١٤/ ١٤٥، ابن حجر الدرر الكامنة٣/ ١١٤.

(٢) عدة من شيوخ ابن كثير، الذهبي في تذكرة الحفاظ ٤/ ٢٩٠، طبعة دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد بالهند سنة ٣٣ـ١٣٣٤هـ، وانظر أيضاً الدرر الكامنة لابن حجر ١/ ٣٧٤، ذيل السيوطي ٣٦١، مفتاح السعادة لطاشكبري زادة ١/ ٢٠٥، شذرات لابن العماد ٦/ ٢٣١.

وقد صرح ابن كثير بالسماع منه، وذكر أنه سمع البخاري على الزبيدي وابن اللتي، وله إجازة من بغداد فيها مئة وثمانية وثلاثون شيخاً من العوالي المسندين. وقد فرح المحدثون حين أظهر سماعه سنة ٧٠٦هـ، وأكثروا السماع عليه، فقرىء البخاري عليه نحواً من ستين مرة، واستقرت عليه جامكيته لما اشتغل بإسماع الحديث، وسمع عليه الملك الناصر، وخلع عليه، وألبسه الخلعة بيده. وسمع عليه من أهل الديار المصرية والشامية أمم لايحصون كثرة، وأنه عاش مئة سنة محققاً، وزاد عليها، لأنه سمع البخاري من الزبيدي سنة ٦٣٠هـ وأسمعه في سنة وفاته سنة ٧٣٠هـ، وقيل: إنه أدرك موت الملك المعظم عيسى بن العادل المتوفى سنة ٦٢٤هـ. (البداية والنهاية١٤/ ١٥٠)

أحمد بن أبي طالب الحجار إجازة إن لم يكن سماعاً، قال أخبرنا السِّلَفي سماعاً.

وقرأت على شيخنا الحافظ أبي عبد الله الذهبي، أخبرنا أبو علي الحسن بن علي بن أبي بكر الخلال سماعاً، قال أخبرنا جعفر بن علي سماعاً، قال أخبرنا السِّلفي سماعاً، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازي، أخبرنا أبو الفضل محمد بن أحمد بن عيسى السَّعدي، أخبرنا أبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن علي المقرىء، حدثنا أبو محمد عبد الله بن جعفر ابن درستويه النحوي، قال حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن أحمد السعدي ـ قاضي فارس ـ، حدثنا أبو داود سليمان بن سيف بن يحيى بن درهم الطائي من أهل حران، حدثنا أبو عمرو سعيد بن يربع عن محمد بن إسحاق، حدثني بعض أصحابنا من أهل العلم عن الحسن بن أبي الحسن البصري أنه قال: كان الجارود المعلى بن حنش بن معلى العبدي نصرانياً، حسن المعرفة بتفسير الكتب وتأويلها... إلخ فذكر حديثاً طويلاً، أشار فيه إلى قدومه في وفد من عبد القيس، وسؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن قس بن ساعدة الإيادي، وجواب الجارود على ذلك. وعلَّق ابن كثير على هذا الحديث قائلاً: إنه «غريب من هذا الوجه، إلا أن يكون الحسن سمعه من الجارود»[1].

- وقرأ ابن كثير صحيح البخاري على الشيخ جمال الدين أبي الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف المِزي (٦٥٤ ـ ٧٤٢) كما جاء عند ابن حجر في ترجمة بهاء الدين محمود السلمي المجوِّد المعروف بابن خطيب بعلبك (٦٨٨ ـ ٧٣٥) بأنه نسخ صحيح البخاري في ثلاث مجلدات بأمر النائب سيف الدين تنكز، وقابله المزي بقراءة ابن كثير[2].

وقد ذكر المترجمون أنَّ ابن كثير لازم المزي، وأخذ عنه كثيراً، وانتفع به وتخرَّج عليه، وقرأ عليه مؤلفه الشهير (تهذيب الكمال في أسماء الرجال)، كما

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٢/ ٢٣١ـ٢٣٥.

(٢) ابن حجر، الدرر الكامنة٤/ ٣٣٦.

سمع عليه أكثر تصانيفه[1]. وقد صرَّح ابن كثير بالحضور في درسه[2]، وذكره دائماً بشيخنا في تاريخه. وقد مر أنه تزوَّج بابنته أمة الرحيم زينب.

وسمع ابن كثير الجامع الصحيح لمسلم (٢٠٤ ـ ٢٦١) وغيره من الكتب على الشيخ برهان الدين بن إسحاق بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن سِباع بن ضياء الفزاري المعروف بابن الفِرْكاح (٦٦٠ ـ ٧٢٩)، وذكر المترجمون لابن كثير أنه تفقه عليه[3]. كما صرح ابن كثير بالسماع منه، وذكره بشيخنا[4]، وقد كان ابن كثير معجباً به كما يبدو ذلك من ترجمته له، وقد كان الفزاريُّ «كثير المطالعة واستماع الحديث... إنما غالب اشتغاله في الفقه وأصوله»[2].

كما سمع صحيح مسلم أيضاً في تسعة مجالس على الشيخ نجم الدين العسقلاني[5] بقراءة الوزير العالم أبي القاسم محمد بن محمد بن سهل الأزدي الغرناطي(المتوفى سنة ٧٣٠) حين قَدِم الوزير دمشق في جمادى الأولى سنة ٧٢٤هـ[6].

وأثنى ابن كثير على كتاب الشمائل للترمذي (٢٠٩ ـ ٢٧٩) وقال: «إن لنا

---

(١) ذيل الحسيني ٥٨، طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٣، الدرر الكامنة لابن حجر ١/ ٣٧٣، ذيل السيوطي ٣٦١، الدارس للنعيمي ١/ ٣٦، مفتاح السعادة لطاشكبري زادة١/ ٢٠٥، شذرات لابن العماد ٦/ ٢٣١، البدر الطالع للشوكاني ١/ ١٥٣

(٢) ابن كثير البداية والنهاية ١٤/ ٨٩.

(٣) ذيل الحسيني ٥٧، طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٣، الدارس للنعيمي ١/ ٣٦، مفتاح السعادة لطاشكبري زادة ١/ ٢٠٤ شذرات لابن العماد ٦/ ٢٣١، البدر الطالع للشوكاني ١/ ١٥٣.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٤٠، ١٤٦.

(٥) لعله محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سالم بن عبد القاهر الدمشقي (المتوفى سنة ٧٣٠) (انظر ترجمته في الدرر الكامنة لابن حجر٤/ ١٩١).

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ١٤٩.

سماعاً متصلاً إليه»[١]. كما صرَّح أنه وقع له سماع السنن الكبرى والصغرى للنسائي(٢١٥ ـ ٣٠٣)[٢].

وسمع السُّنن للدارقطني (٣٠٦ ـ ٣٨٥) وغيره من الكتب على الشيخ الفقيه محيي الدين أبي زكريا يحيى بن إسحاق بن خليل بن فارس الشيباني (٦٤٤ ـ ٧٢٤)[٣].

وكذلك سمع شيئاً كثيراً من السنن الكبرى للبيهقي(٣٨٤ ـ ٤٥٨) على الشيخ عفيف الدين محمد بن عمر بن عثمان بن عمر الصقلي (المتوفى سنة ٧٢٥) وكان «آخر من حدث عن ابن الصلاح ببعض سنن البيهقي»[٤].

وسمع مسند الإمام الشافعي (١٥٠ ـ ٢٠٤) على علم الدين الجاولي (٦٥٣ ـ ٧٤٥) فيمن سمع عليه من القضاة والأعيان، وذلك حين مرَّ من دمشق يوم الثلاثاء ٢٥ صفر سنة ٧٤٣هـ، في طريقه إلى حماه لمباشرة نيابتها، وقد رأى ابن كثير عمله في المسند، وشرحه عليه، وأثنى عليه حسن ترتيبه[٥]. وقد كان يروي المسند عن قاضي الشوبك دانيال[٦].

وقد كان لابن كثير سماع بالجَعْديات. فقد قال في ترجمة عبد الله أبي محمد الصريفيني المعروف بابن المعلم (المتوفى سنة ٤٦٩) «وهو آخر من حدث بالجعديات عن ابن جبانة عن أبي القاسم البغوي عن علي بن الجعد، وهو سماعنا، ورحل الناس إليه بسببه، وسمع عليه جماعة من الحفاظ، منهم الخطيب»[٧].

---

(١) نفس المصدر٦/١١، وانظر شمائل الرسول لابن كثير صفحة ٥(بتحقيق مصطفى عبد الواحد، مطبعة الحلبي بالقاهرة سنة ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م)

(٢) ابن كثير البداية والنهاية ١١/ ١٢٣.

(٣) نفس المصدر١٤/ ١١٥.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ١١٩

(٥) نفس المصدر والجزء ٢٠٣

(٦) ابن العماد، شذرات الذهب٦/ ١٤٣

(٧) ابن كثير، البداية والنهاية١٤/ ١١٧.

هذا كان بالنسبة للكتب التي علمنا أنَّ ابن كثير سمعها أو قرأها على أعلام العلماء.

ويأتي بعد ذلك دور العلماء الذين اعتبرهم ابن كثير من أساتذته، فذكرهم «بشيخنا» أو صرح بسماعه عليهم، ولكن بدون تحديد الكتب التي سمعها عليهم، أو العلوم التي تلقاها منهم. فمن هؤلاء:

الشيخ شمس الدين أبو النصر بن محمد بن أبي الفضل بن هبة الله بن محمد بن يحيى بن بندار بن مميل الشيرازي (٦٢٩ ـ ٧٢٣) الذي ذكره ابن كثير «شيخنا الأصيل المعمر الرحلة» وقال: إنه «أسمع وأفاد في عُلِّية شيخنا المزي، قرأ عليه عدة أجزاء بنفسه»[١].

وقاضي القضاة عز الدين أبو عمر عبد العزيز بن محمد بن جماعة (٦٩٤ ـ ٧٦٧) فقد سمع عليه ابن كثير بقراءته شيئاً كثيراً، حين قدم دمشق في أواخر رجب سنة ٧٢٥هـ من مصر[٢]. ويبدو مما جاء عند ابن حجر أن ابن جماعة في هذه الرحلة انتفع بابن كثير في تخريج أحاديث الرافعي[٣]. وهذا يدل على نبوغ ابن كثير في السن المبكر. ولكن أخطأ ابن حجر هنا في تحديد سنة الرحلة بسنة ٧١٠هـ في كتابه «الإنباه». والصواب ما أشار إليه ابن كثير من سنة ٧٢٥هـ، وقد وافق ابن حجر نفسه في الدرر الكامنة في ترجمة ابن جماعة على ما ذهب إليه ابن كثير، فقد نقل عن «المعجم المختص» للذهبي أنه «قدم علينا بولده سنة ٧٢٥هـ، فقرأ الكثير، وسمع، وكتب الطباق[٤].

والملك الكامل ناصر الدين أبو المعالي محمد بن عبد الملك بن إسماعيل بن العادل أبي بكر بن أيوب (٦٥٣ـ٧٢٧) قال ابن كثير: كان له سماع

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/١٠٩، أما علية بضم العين أو علية بكسر العين: فهي بيت منفصل عن الأرض ببيت أو نحوه، والجمع علالي.

(٢) نفس المصدر، ١٤/١١٨.

(٣) ابن حجر، إنباه الغمر بأبناء العمر ١/٤٦.

(٤) ابن حجر، الدرر الكامنة ٢/٣٧٩.

كثير، سمعنا عليه منه وكان يحفظ تاريخاً جيداً»[١].

وسمع ابن كثير على الشيخ تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن أبي القاسم بن تيمية الحراني (٦٦١ـ٧٢٨) شيخ الإسلام، وعدَّه من شيوخ ابن كثير أكثر المترجمين له، وقالوا: إنه صَحِبَ ابن تيمية، وقرأ عليه كثيراً، ولازمه فأكثر عنه، وانتفع بعلومه. كما أشاروا إلى حب ابن كثير لابن تيمية، وافتتانه به، واعتناقه آراءه في الطلاق وغيرها، فامتحن ابن كثير مثل شيخه بسبب ذلك وأوذي[٢].

وقد وصف ابن كثير ابن تيمية «شيخنا العلامة»[٣]، كما أشار إلى حبه له منذ الصغر في حوادث سنة ٧٠٩هـ، حين سأله قاضي قضاة الحنفية صدر الدين «أتحب ابن تيمية؟ فقلت: نعم، فقال لي وهو يضحك: لقد أحببت شيئاً مليحاً»[٤] وكذلك ذكر في ترجمته لابن تيمية: «وكان بيني وبينه مودَّة وصحبة من الصغر، وسماع الحديث والطلب من نحو سنة». وهذا يدل على أنَّ ابن كثير كان يذهب إليه في السجن للسماع وطلب العلم، فقد كان ابن تيمية في هذه الفترة مسجوناً في دمشق. وقال ابن كثير أيضاً حين الإشارة إلى تصانيفه: «وله تصانيف كثيرة وتعاليق مفيدة في الأصول والفروع، كمل منها جملة. وبُيِّضت وكُتِبَت عنه، وقرأت عليه بعضها»[٢].

ولا شك أنَّ صحبة ابن كثير لابن تيمية، وملازمته له، أثَّرت في حياته أثراً عميقاً، وأفادته فائدة عظيمة في علمه ودينه، وتقوية خلقه، وتربية شخصيته المستقلة الممتازة. فإنَّ التجديد الذي تميَّز به ابن كثير مع غزارة العلم وأصالة الفكر كان فضله يعود إلى «علاقته بابن تيمية وحبه وتأثره بآرائه. فقد كان ابن

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية١٤/ ١٣٠.

(٢) طبقات ابن قاضي شهبة٤٧٣، الدرر لابن حجر١/ ٣٧٣ـ٣٧٤، الدارس للنعيمي ١/ ٣٦، مفتاح السعادة لطاشكبري زادة١/ ٢٠٤، شذرات لابن العماد٦/ ٢٣١ البدر الطالع للشوكاني ١/ ١٥٣، جلاء العينين لابن الآلوسي ٣٤.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ٥/ ٣٤٧، ٦/ ٧٠، ٨٦، ٢٥٠، ٧/ ٢٥٢، ٩/ ٢٧، ١١/ ٢٥٨.

(٤) نفس المصدر١٤/ ٥٥، ١٣٧.

كثير كأستاذه ابن تيمية ينفر من الخرافات، ويميل إلى الرجوع إلى السنة، ويعتمد على التحقيق والتدقيق»[1].

وسمع ابن كثير على الصاحب عز الدين أبي يعلى حمزة التميمي الدمشقي المعروف بابن القلانسي (٦٤٩ـ٧٢٩) أحد رؤساء دمشق الكبار، فقد صرَّح ابن كثير بأنه «سمع الحديث من جماعة، ورواه، وسمعنا عليه»[2].

كما سمع على الشيخ تاج الدين أبو حفص عمر بن علي بن سالم بن عبد الله اللخمي الإسكندراني، المعروف بابن الفاكهاني (٦٥٤ ـ ٧٣٤)، حين «قدم دمشق سنة ٧٣١هـ، أيام قاضي القضاة الأخنائي، فأنزله في دار السعادة، وسمعنا عليه ومعه»[3].

كذلك قرأ عام ٧٣٣هـ كثيراً من الأجزاء والفوائد على الشيخ شمس الدين أبو محمد بن يوسف بن عبد المنعم بن نعمة المقدسي النابلسي الحنبلي (٦٤٧ ـ ٧٣٧)[4].

وبعد ذلك نذكر مشيخات شيوخ زمانه التي صرَّح ابن كثير بسماعها عليهم. فقد ذكر أنه سمع على الشيخ بهاء الدين أبي القاسم بن أبي غالب بن المظفر بن محمود بن أحمد بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين بن عساكر الدمشقي (٦٢٩ ـ ٧٢٣) مشيخة في سنة وفاته، خرجها له علم الدين البرزالي. وقد ذكره ابن كثير بـ «شيخنا الجليل المسند الرحلة» وقال: إنه «سمع حضوراً وسماعاً على الكثيرين من المشائخ... وكان يحفظ كثيراً من الأحاديث والحكايات والأشعار، وله نظم، وخدم عدة جهات الكتابة، ثم ترك

---

(١) مصطفى عبد الواحد، في مقدمة السيرة النبوية لابن كثير١/٧، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة سنة ١٣٧٤هـ/ ١٩٦٤م.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية١٤/ ١٤٧.

(٣) نفس المصدر ١٤/ ١٦٨، أما الأخنائي، فهو علم الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عيسى بن بدران بن رحمة الأخنائي السعدي (٦٦٤ ـ ٧٣٢)، ترجمته في البداية والنهاية١٤/ ١٦٠.

(٤) نفس المصدر١٤/ ١٧٩.

ولزم بيته وإسماع الحديث، وتفرَّد في آخر عمره في أشياء كثيرة، وكان سهلاً في التسميع»[١] وعده من شيوخ ابن كثير أكثر مترجميه[٢].

وقد عثرنا على سندين من أسانيد ابن كثير عن الشيخ ابن عساكر في ذكر حديث رد الشمس بعد مغيبها لعلي رضي الله عنه، وهو هكذا: «فقد أنبأني شيخنا المسند الرحلة بهاء الدين القاسم بن المظفر بن تاج الأمناء بن عساكر (أذنا، و) قال: أخبرنا الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عساكر المشهور بالنسَّابة، قال: أخبرنا أبو المظفر ابن القشيري، وأبو القاسم المستملي، قالا: حدثنا أبو عثمان المحبر، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن الحسن الديابغاني بها، أخبرنا محمد بن أحمد بن محبوب. وفي حديث ابن القشيري: حدثنا أبو العباس المحبوبي، حدثنا سعيد بن مسعود، قال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر، وأخبرنا أبو الفتح الماهاتي ، أخبرنا شجاع بن علي، أخبرنا أبو عبد الله بن منده، أخبرنا عثمان بن أحمد التنسي، أخبرنا أبو أمية محمد بن إبراهيم قال: حدثنا عبيد الله بن موسى، حدثنا فضيل بن مرزوق عن إبراهيم بن الحسن زاد أبو أمية بن الحسن عن فاطمة بنت الحسين، عن أسماء بنت عميس قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوحى إليه ورأسه في حِجْر علي، فلم يصل العصر... إلخ وهو حديث موضوع كما نقله ابن كثير عن ابن الجوزي[٣].

وسمع ابن كثير على الشيخ ضياء الدين أبي الفداء إسماعيل بن المسلم بن الحسن بن نصر الدمشقي المعروف بابن الحموي (٦٣٥ ـ ٧٢٧) مشيخة خرَّجها له البرزالي أيضاً[١] وذكر ابن كثير مشيخة خُرِّجت لقاضي القضاة شيخ الشيوخ علاء الدين أبي الحسن علي بن إسماعيل بن يوسف القونوي التبريزي (٦٦٨ ـ ٧٢٩) وسمعها عليه بين سنة ٧٢٧هـ حين قدم إلى دمشق قاضياً من

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية١٤/ ١٠٨.

(٢) ذيل الحسيني ٥٨، الدرر الكامنة لابن حجر، ١/ ٣٧٤، مفتاح السعادة لطاشكبري زادة ١/ ٢٠٥، شذرات لابن العماد٦/ ٢٣١، البدر الطالع للشوكاني ١/ ١٥٣.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ٦/ ٧٧ـ٧٨، ١٤/ ١٣٠.

مصر، وبيَّن سنة وفاته[١]. ويبدو من كلام ابن حجر أن مؤرخنا كان على اتصال متين بالشيخ القونوي، فقد خرَّج له مختصر ابن حاجب، وحَضَر عنده مع المِزي في أمر شيخه ابن تيمية الذي كان محبوساً في ذلك الحين في دمشق[٢].

وسمع على الشيخ جمال الدين أبي العباس أحمد بن شرف الدين بن محمد بن أبي الفتح بن أسد بن حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي الدمشقي المعروف بابن القلانسي (٦٦٩ ـ ٧٣١) مشيخةً خرجها له فخر الدين البعلبكي[٣]. وقد أَذِنَ لابن كثير في الإفتاء كما صرَّح بذلك ابن حجر والنعيمي[٤]. وقد أشار ابن كثير إلى ذلك، ولكن وقع خطأ مطبعي في ترجمته له، مما جعل الأمر غير واضح في أول الأمر. فقد جاء في المطبوع من تاريخه، «وهو ممن أذن له في الإفتاء»، وهو خطأ نظراً إلى تصريح ابن حجر والنعيمي، والصحيح «وهو ممن أذن لي في الإفتاء» وبهذا يصبح المعنى متناسقاً مع الكلام الذي يأتي بعده، وهو: «وكتب إنشاء ذلك وأنا حاضر على البديهة، فأفاد وأجاد، وأحسن التعبير، وعظم في عيني»[٥].

وسمع على الشيخ جمال الدين قاضي القضاة أبي الربيع سليمان بن عمر بن سالم بن عمر بن عثمان الأذرعي (٦٤٥ ـ ٧٣٤) مشيخةً خرجها له البِرْزالي عن اثنين وعشرين شيخاً[٦].

كما قرأ مختصر المشيخة عن فخر الدين ابن البخاري[٧] على الشيخ عمر بن

---

(١) نفس المصدر ١٤/ ١٤٧.

(٢) ابن حجر، الدرر الكامنة٣/ ٢٦ـ٢٧.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ١٥٦، أما البعلبكي فهو أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن يوسف(٦٨٥ ـ ٧٣٢)، ترجمته في الدرر الكامنة لابن حجر ٢/ ٣٤٣، ذيل الحسيني ٣٠ـ٣١.

(٤) الدرر الكامنة لابن حجر١/ ٣٠١، الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي١/ ١٩٧.

(٥) ابن كثير البداية والنهاية١٤/ ١٥٦.

(٦) نفس المصدر ١٤/ ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٧) وهو فخر الدين أبو الحسن علي بن أحمد بن عبد الواحد بن قدامة المقدسي (٥٩٦ ـ ٦٩٠)، ترجمة البداية والنهاية لابن كثير١٣/ ٣٢٤، ذيل الحسيني ١٧، شذرات لابن =

أبي بكر ابن اليثمي البسطي (٦٦٤ ـ ٧٤٢)[١].

وإلى جانب هذا نوع آخر من شيوخ ابن كثير، يذكرهم في تاريخه مراراً بـ «شيخنا» ولكن لا يصرِّح بما استفاد منهم، وحتى إنه لا يذكر مجرد سماعه أو قراءته عليهم، ولكنهم يعتبرون من شيوخه، باعترافه لهم بذلك، نذكرهم على سبيل الإجمال فمنهم:

الشيخ ركن الدين أبو يحيى زكريا بن يوسف بن سليمان بن حَمَّاد البجلي الشافعي (٦٥٠ ـ ٧٢٢)، ذكره ابن كثير بـ «شيخنا العلامة الزاهد الورع بقية السلف». وقال: «كانت له حلقة للاشتغال بالجامع يحضر بها عنده الطلبة، وكان يشغل في الفرائض وغيرها، مواظباً على ذلك»[٢].

والشيخ عفيف الدين إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل الآمدي الحنفي (٦٤٠ ـ ٧٢٥)، شيخ دار الحديث الظاهرية، ذكره ابن كثير بـ «شيخنا المسند المعمر الرحلة»، وقال: إنه كان «سهل الإسماع، يحب الرواية ولديه فضيلة»[٣].

والشيخ الحافظ علم الدين أبو محمد القاسم بن محمد بن البرزالي الشافعي (٦٦٥ ـ ٧٣٩)، مؤرخ الشام، وشيخ الحديث بالنُّورية، ذكره ابن كثير بـ «شيخنا»[٤] واعتبر كتابه «البداية والنهاية» ذيلاً على تاريخ البرزالي[٥].

وكمال الدين ابن الزملكاني (٦٦٦ ـ ٧٢٧) «شيخ الشافعية في زمانه بلا مدافعة»[٦] ذكره ابن كثير بـ «شيخنا»[٧] وبالغ في الثناء عليه، وعلى دروسه، مع

= العماد٥/ ٤١٤.

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ١٩٨ ـ ١٩٩.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ١٠٣.

(٣) نفس المصدر ١٤/ ١٢٠، وقد عده ابن حجر في شيوخ ابن كثير(الدرر الكامنة ١/ ٣٧٤).

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ١٥٣، ١٤/ ٣٢.

(٥) نفس المصدر ١٣/ ١٥٣، ٢٥١، ١٤/ ١٨٣ ـ ١٨٤، ١٨٥.

(٦) نفس المصدر ٦/ ٢٥٨.

(٧) نفس المصدر٦/ ٢٥٩ ـ ٣٩١، ١٣/ ٢٥٦.

أنه كان يعادي ابن تيمية، وكان يريد إيذاءه[1]، ومعروف عن ابن كثير إعجابه بابن تيمية وافتتانه بحبه، ومع ذلك أعطى لابن الزملكاني حقه، مما يدل على نزاهة ابن كثير من التعصُّب ومن الميل مع الهوى.

والشيخ الحافظ الكبير، مؤرِّخ الإسلام، وشيخ المحدثين بالشام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز عبد الله الذهبي (٦٧٣ ـ ٧٤٨)، أشار إليه ابن كثير مراراً وتكراراً بـ «شيخنا»[2] وقال: «خُتِمَ به شيوخ الحديث وحفاظه»[3]. وقد أسلفنا أحد أسانيد ابن كثير عن الذهبي في ذكر ابن الشحنة.

وقد عثرنا على اسم أحد شيوخ ابن كثير في سند من أسانيده، ذكره ابن كثير في بيان مقابلته بالخليفة المعتضد بالله (٧٥٣ ـ ٧٦٣) يوم ١٠ شعبان سنة ٧٥٣هـ، قائلاً: «وقرأت عنده جزأ فيه ما رواه أحمد بن حنبل عن محمد بن إدريس الشافعي في مسنده، وذلك عن الشيخ عز الدين بن الضياء الحموي بسماعه عن ابن البخاري، وزينب بنت مكي، عن أحمد بن الحصين، عن ابن المذهب، عن أبي بكر بن مالك، عن عبد الله بن أحمد، عن أبيه، فذكرهما»[4].

ولعله عز الدين محمد بن إسماعيل بن عمر الحموي (٦٨٠ ـ ٧٥٧) الذي ترجم له ابن كثير فقال: «أحد مشايخ الرواة، جمع الكثير، وتفرَّد بالرواية عن جماعة في آخر عمره، وانقطع بموته سماع «السنن الكبير» للبيهقي[1].

وبعد ذلك يأتي عدد من الشيوخ لم يذكرهم ابن كثير، وإنما أشار إليهم بعض من ترجموا له، نذكرهم فيما يأتي:

فقد تفقه ابن كثير على الشيخ كمال الدين ابن قاضي شهبة

---

(١) نفس المصدر ١٤/ ١٣١ ـ ١٣٢.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١١/ ٦٩، ٨١، ١٢/ ٩٨، ١٣/ ١٤٣، ٢٠٤، وقد ذكره محمد عبد الرزاق حمزة من شيوخ ابن كثير في الباعث الحثيث، شرح علوم الحديث لابن كثير، صفحة ١٥.

(٣) نفس المصدر، ١٤/ ٢٢٥.

(٤) نفس المصدر ١٤/ ٢٤٥، ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

(٦٥٣ ـ ٧٢٦)[١]، «وكان بارعاً في الفقه والنحو، له حلقة يشتغل فيها تجاه محراب الحنابلة»[٢].

وقد أشار ابن حجر أن ابن كثير كان في الطبقة الأولى التي أخذت عن الشيخ شمس الدين محمد بن عمر ابن قاضي شهبة (٦٩١ ـ ٧٨٢)[٣]. كما ذكر أنه سمع الغيلانيات عن الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الله الجهني البارزي الحموي نزيل دمشق (٦٧٤ ـ ٧٥٥)، وقد كان يحدِّث بها عن الغازي الحلاوي[٤].

وصرح ابن حجر أيضاً أن ابن كثير سمع من عماد الدين أبي عبد الله محمد بن موسى الأنصاري الدمشقي الشهير بابن الشيرجي (٦٨٣ ـ ٧٧٠)، وكان ابن الشيرجي سمع من الفخر بن البخاري جزء الأنصاري، وحدَّث به، وتفرد به عنه[١].

وذكر ابن العماد الحنبلي سماع ابن كثير على الشيخ شمس الدين محمد بن إسماعيل المعروف بابن الخباز الحنبلي (٦٦٩ ـ ٧٥٦) الذي سمع عليه أكثر علماء عصره الكبار مثل المِزِّي والذهبي وابن جماعة ـ وهم من شيوخ ابن كثير ـ والسبكي، وكثيرون آخرون[٤].

كما أشار ابن العماد إلى سماع ابن كثير على الشيخ جمال الدين أبي الحجاج يوسف بن عبد بن محمد بن يوسف بن عبد المنعم بن نعمة بن سلطان بن سرور المقدسي (٦٩١ ـ ٧٥٤)، وقد كان من العلماء العبَّاد الورعين محباً للحديث والسنة، سمع سنن ابن ماجه من الحافظ ابن بدران النابلسي[١].

وقرأ ابن كثير الأصول على الشيخ الأصبهاني[٥]، ولعله شمس الدين

---

(١) عده من شيوخ ابن كثير، ابن قاضي شهبة في «طبقاته»٣٤٣، والنعيمي «الدارس» ١/ ٣٦، وطاشكبري زادة «مفتاح السعادة» ١/ ٢٠٤، وابن العماد «شذرات » ٦/ ٢٣١.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية١٤/ ١٢٧.

(٣) ابن حجر، الدرر الكامنة٤/ ١١٠، ١/ ١٧٨، ٤/ ٢٦٩.

(٤) ابن العماد، شذرات الذهب٦/ ١٨١، ١٧٦

(٥) عده من شيوخ ابن كثير، ابن قاضي شهبة (طبقاته ٤٧٣) والنعيمي (الدارس ١/ ٣٦) =

أبو الثناء محمود بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن علي الأصبهاني (٦٧٤ ـ ٧٤٩) البارع في العلوم العقلية، وقد اشتغل بتبريز، وتصدر للإقراء بها، ثم قَدِمَ دمشق سنة ٧٢٥هـ، ودرس بالرواحية، وأفاد الطلبة، ثم ذهب إلى الديار المصرية حيث توفي ودفن بالقرافة[١].

أما ما قيل من أنه نجم الدين عبد الله بن محمد بن محمد الأصبهاني[٢]، فهذا يبدو لي غير صحيح. لأنَّ الأصبهاني الذي قرأ عليه علماء هذا العصر، هو شمس الدين أبو الثناء محمود المذكور، فقد قرأ عليه الأصول والمنطق أكثر علماء هذا العصر، أمثال شهاب الدين ابن النقيب (٦٩٤ ـ ٧٦٤)، وجمال الدين الرهاوي (٧٠٠ ـ ٧٧٧) وشمس الدين بن خطيب يبرود (٧٠١ ـ ٧٧٧). وقاضي القضاة بهاء الدين السبكي (٧١٩ ـ ٧٥٣)، والقاضي جمال الدين السبكي (٧٢٢ ـ ٧٥٥)[٣]، لذلك من الصواب عندنا أنَّ ابن كثير أيضاً قرأ الأصول على الشيخ شمس الدين محمود الأصفهاني.

وسمع ابن كثير بدمشق من عيسى بن المطعِّم[٤]، وابن الشيرازي[٥]، وابن

= وطاشكبري زادة (مفتاح السعادة ١/ ٢٠٤) وابن العماد(شذرات الذهب ٦/ ٢٣١)

(١) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس١/ ٢٧٢

(٢) مولوي ضياء الدين، مقاله عن ابن كثير، صفحة ٣٤٦ من مجلة «معارف» الأرودية، المجلد٩٤، العدد ٥ نوفمبر سنة ١٩٦٤م.

(٣) يراجع في تراجمهم الدارس للنعيمي بالترتيب١/ ٣٢٤، ٢٨٦، ٢٤٠، ٣٦٦، ٢٣٩، ويراجع في ترجمة شمس الدين الأصفهاني طبقات السبكي ٢/ ٢٤٧، الدرر لابن حجر٤/ ٣٢٧، حسن المحاضرة للسيوطي ١/ ٢٦١ شذرات لابن العماد ٦/ ١٦٥.

(٤) عده من شيوخ ابن كثير الشيخ محمد عبد الرزاق (الباعث الحثيث ١٤) ولعله عيسى ابن عبد الرحمن بن معالي بن أحمد الصالحي المقدسي (٦٢٦ ـ ٧١٩) ترجمته في البداية والنهاية ١٤/ ٩٥، شذرات الذهب لابن العماد ٦/ ٥٢.

(٥) عدد من شيوخ ابن كثير، أيضاً الشيخ محمد عبد الرزاق (الباعث الحثيث ٢٤) ولعله الصدر الكبير أبو القاسم أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن هبة الله بن الشيرازي الدمشقي (٦٧٠ ـ ٧٣٦) الذي درس بالناصرية مكان ابن الشريشي بعد وفاته سنة ٧١٨هـ (البداية والنهاية ١٤/ ٩١) ترجمته في البداية والنهاية لابن كثير ١٤/ ١٧٥ الدرر لابن حجر ١/ ٣٠١ الدارس للنعيمي ١/ ٢٠٩ شذرات لابن العماد ٦/ ١١٢.

زراد[1]، وابن السويدي[2]، وابن الرضي[3].

أما ما قيل من أن ابن كثير تتلمذ على الشيخ ابن قيم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١)[4] فإنه كما يبدو لي غير صحيح. لأن ابن القيم وابن كثير في الحقيقة كانا معاصرين وصاحبين، ومن ألزم تلاميذ ابن تيمية. ويدل على ذلك تصريح ابن كثير نفسه في ترجمة ابن القيم بـ «صاحبنا» وإليه يرجع ويؤيد تصريح ابن كثير أيضاً «وكنت من أصحب الناس له، وأحب الناس إليه»[5]

ب ـ الإجازات من علماء مصر وبغداد:

وقد أجاز لابن كثير من علماء بغداد ابن الدواليبي البغدادي (٦٣٨ ـ ٧٢٨) شيخ دار الحديث المستنصرية. وقد علمنا ذلك من تصريح ابن كثير نفسه في ترجمته له حين قال: «وقد أجازني فيمن أجاز من علماء بغداد»[6].

---

(١) عَدَّه من شيوخ ابن كثير، الذهبي (تذكرة الحفاظ ٤/ ٢٩٠)، وابن حجر (الدرر ١/ ٣٧٤)، ولعله أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي الهيجاء بن الزراد(٦٤٦ ـ ٧٢٦)، وكان يروي المسند والسيرة ومسند أبي عوانة وأبي يعلى والأنواع والتقاسيم وأشياء أخرى. وقد نقله أحمد محمد شاكر ابن الرداد عن طبقات الذهبي (عمدة التفسير ١/ ٢٦)، ترجمته الدرر لابن حجر ٣/ ٣٧٦، الدارس للنعيمي ١/ ٢٣، ٥٦، شذرات لابن العماد٦/ ٧٢.

(٢) عده من شيوخ ابن كثير، الحسيني (ذيله ٥٧).

(٣) عده ابن حجر من شيوخ ابن كثير (الدرر١/ ٣٧٤) ولعله أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الرضي الطبري (٦٣٦ ـ ٧٢٢) على ماذهب إليه الشيخ ضياء الدين في مقاله عن ابن كثير، صفحة ٣٤٦ من مجلة معارف الأوردية المجلد ٩٤ العدد ٥ نوفمبر سنة ١٩٦٤م. ترجمته في البداية والنهاية لابن كثير ١٤/ ١٠٣، الدرر لابن حجر ١/ ٥٤ شذرات الذهب لابن العماد ٦/ ٥٦، لحظ الألحاظ لابن فهد١٠٠.

(٤) عبد العظيم عبد السلام شرف الدين، ابن القيم عصره ومنهجه ٦٢، الدكتور صبحي الصالحي» لأحكام أهل الذمة لابن القيم ١/ ٦٨ الطبعة الأولى بمطبعة جامعة دمشق سنة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ١٤١ ـ ١٤٢، وهو الشيخ عفيف الدين أبو عبد الله محمد بن عبد المحسن بن أبي الحسين بن عبد الغفار البغدادي، ترجمته الدرر لابن حجر٤/ ٢٧، شذرات لابن العماد ٦/ ٨٨.

كما أجاز لابن كثير من مصر ـ على ما ذكره المترجمون له ـ أبو موسى القرافي[(١)]، وأبو الفتح الدبوسي[(٢)]، ويوسف الختني[(٣)]، والواني[(٤)]،

أما الشريف شمس الدين محمد الحسيني (٧١٥ ـ ٧٦٥) فقد عدَّه الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة ممن أجاز لابن كثير[(٥)]، ولكن يعارضه الشيخ أحمد محمد شاكر حين يعتبره من تلاميذ ابن كثير[(٦)] ويؤيده ما ذكره الحسيني ـ على عادته في نهاية كل ترجمة ـ من حديث بسند ابن كثير، فقال: «أخبرنا الحافظ عماد الدين ابن كثير بقراءتي عليه، قال: أخبرنا أبو المنجا ابن اللني، قال: أخبرنا أبو الوقت الصوفي، قال: أخبرنا محمد الفارسي، قال: أخبرنا أبو محمد بن أبي سريج، قال: أخبرنا أبو القاسم البغوي، قال: أخبرنا أبو الجهم الباهلي، قال: حدثنا الليث بن سعد، عن ابن الزبير عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يدخل أحد ممن بايع تحت الشجرة النار. رواه أبو داود والترمذي والنسائي عن قتيبة عن الليث»[(٧)].

أما الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة فلم يشر إلى مصدره الذي أفاده بإجازة الحسيني لابن كثير، فإذا كان ما ذكره صحيحاً، مستنداً إلى مصدر قوي ووثيقة معتبرة، فليس هناك سبيل إلا أن نقرر أن كليهما سمعا من بعض وأجازا للآخر.

---

(١) ذكره محمدعبد الرزاق حمزة فيمن أجاز لابن كثير(الباعث الحثيث ١٥).

(٢) ذكره ابن حجر فيمن أجاز لابن كثير(الدرر١/ ٣٧٤)، ولعله يونس بن إبراهيم الدبوسي (٦٣٥ ـ ٧٢٩) كما جاء عند الشيخ ضياء الدين مجلة«معارف» الأوردية ٩٤/ ٥/ صفحة ٣٤٦) ترجمة الدرر لابن حجر٤/ ٤٨٤، شذرات لابن العماد ٦/ ٩٢.

(٣) عده ابن حجر (الدرر١/ ٣٧٤) والسيوطي (ذيله ٣٦١) فيمن أجاز لابن كثير، وهو بدر الدين يوسف بن عمر بن حسين الختني الحنفي (٦٤٥ ـ ٧٣١)، ترجمته الدرر لابن حجر ٤/ ٤٦٦، لحظ الألحاظ لابن فهد ١٣٤.

(٤) ذكره فيمن أجاز لابن كثير، ابن حجر(الدرر١/ ٣٧٤) والسيوطي (ذيله ٣٦١) وهو علي بن عمر بن أبي بكر الواني المعروف بابن الصلاح (٦٣٧ ـ ٧٢٧هـ).

(٥) محمد عبد الرزاق حمزة، الباعث الحثيث ١٥.

(٦) أحمد محمد شاكر، عمدة التفسير ١/ ٢٦.

(٧) الحسيني، ذيله ٥٩.

ج ـ الاجتماع بالعلماء الواردين دمشق :

ويظهر مما أشار إليه ابن كثير أحياناً أنه كان حريصاً على الاجتماع بالعلماء المشهورين الذين يقدمون إلى دمشق في حياته من بلاد إسلامية مختلفة، وقد كانت له مواقع وفرص كثيرة للاجتماع بهم لقرابته بالمزي وملازمته له.

فقد صرَّح ابن كثير باجتماعه بالشيخ قوام الدين مسعود بن محمد الكرماني الحنفي (٦٧١ ـ ٧٤٨)[١]، حين قدم دمشق سنة ٧٢٢هـ، وقد «أخذ عنه البرزالي (شيخ ابن كثير) وابن رافع»[٢]، صاحب ابن كثير ومعاصره.

كما اجتمع بصحبة شيخه المزي بالشيخ أبي بكر بن شرف بن محسن بن معن بن عمان الصالحي (٦٥٣ ـ ٧٢٨)، حين قدم إلى دمشق من حمص سنة ٧٢٨هـ[٣].

وذكر ابن كثير سنة ٧٦١هـ اجتماعه بعالميْن قَدِما من الديار المصرية، وهما: الشيخ شهاب الدين المقدسي[٤]، والشيخ قطب الدين محمد بن أبي الثناء بن ماضي القدسي المعروف بالهرماس (٦٩٠ ـ ٧٦٩)، شيخ السلطان الناصر حسن بالقاهرة[٥].

د ـ الأسفـــار :

كان من عادة العلماء المسلمين، وخاصة علماء الحديث منذ فجر الإسلام أن يرحلوا في طلب العلم من مكان إلى آخر، للاستفادة من مشايخ زمانهم المشهورين. ولكن يبدو أن ظهور المدارس في البلاد الإسلامية بكثرة منذ القرن السادس الهجري، وتعيين أشهر العلماء فيها، أضعف من أهمية الرحلة في طلب العلم، وضرورتها القصوى التي كانت قديماً، وقد كانت القاهرة ودمشق في عصر المماليك مركَزيْن رئيسيين في العالم الإسلامي للعلم والمعرفة والثقافة،

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ١٠٢.
(٢) ابن حجر، الدرر الكامنة ٤/ ٣٥١.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ١٤١.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٢٧١.
(٥) نفس المصدر والجزء ٢٧٢.

وكانتا عامِرَتَين بمئاتٍ من العلماء البارزين الذين وقفوا حياتهم لنشر العلم، وتثقيف الأجيال الناشئة، وكان العلماء والطلاب يقصدونهما من جميع أنحاء العالم الإسلامي.

وفي هذا الضوء يجب أن نرى عدم وجود أخبار عن رحلات ابن كثير، فإنَّ المترجمين له أهملوا هذه الناحية من حياته، فلم يذكروا شيئاً عن رحلاته، إلا ما أشار إليه خير الدين الزركلي في عبارة مقتضبة، «ورَحَل في طلب العلم»[1]. وكذلك لم يذكر ابن كثير شيئاً ذا قيمة في هذا المجال، إلا إشارات عابرة إلى بعض أسفاره التي قام بها، بدون إبانة الغرض الذي سافر من أجله. وأغلب ظننا أنها لم تكن بمعنى الرحلات القديمة في طلب العلم والحديث، وإن استفاد ابن كثير في بعضها من بعض العلماء. ونحن هنا نجمع ذكر هذه الأسفار مع بيان الغرض منها.

القدس: زار ابن كثير مدينة القدس مرتين، أولهما سنة ٧٢٣هـ، وقد أشار إلى هذه الزيارة بنفسه في ترجمة الشيخ المقري أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن يوسف بن عصر الأنصاري القَصْري ثم السبتي المالكي (٦٥٣ ـ ٧٢٣) فقال: «اجتمعت به وبحثت معه في هذه السنة(٧٢٣هـ) حين زرت القدس الشريف، وهي أول زيارة زرته»[2].

أما الغرض عن الرحلة فلم يصرح عنه بشيء، إلا إذا قلنا أنه ذهب إليها قصداً في الشيخ المذكور والبحث معه، ولكن البحث عن أي شيء؟ علوم خاصة يريد أن يبحثها معه؟ أو مسائل علمية خاصة في الحديث والنحو اعترضت طريقه، وصعب عليه حلها فذهب ليبحثها معه؟ وقد كان الشيخ ماهراً فيهما. أم زار ابن كثير القدس لمصلحة أخرى؟ وكان اجتماعه به دون ترتيب سابق. وعندنا أنه لم يسمع عليه علماً، ولم يقرأ عليه كتباً معينة، وإلا أشار إلى ذلك. وإنما ذهب إليه زائراً، على عادة العلماء حين يزورون بلداً يحاولون أن يتشرفوا بزيارة علمائها،

(١) خير الدين الزركلي، الأعلام ٣١٨/١، الطبعة الثانية، مطبعة كوستانسوماس وشركاه، سنة ٧٣ ـ ١٣٧٨هـ.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية١٤/ ١٠٩.

وحين اجتمع به، بحث معه في مسائل علمية عامة.

أما زيارته الثانية للقدس، فقد كانت بصحبة رفيقه وصاحبه الشيخ شمس الدين عبد الهادي[1]، وآخرين سنة ٧٣٣هـ. وقد أشار إليها مرتين، ولكن بدون إفصاح غرضه منها، إلا أنه ذكر أنَّ في مرجعه من القدس هذه المرة، قرأ في نابلس على أحد شيوخها، كما سيأتي[2].

نابلس: أشار ابن كثير إلى رحلته العلمية إلى نابلس بطرابلس الشام في ترجمة شيخه شمس الدين أبي محمد عبد الله بن نعمة المقدسي النابلسي (٦٤٩ ـ ٧٣٧)، فقال: «قرأت عليه عام ٧٣٣هـ، مرجعنا من القدس، كثيراً من الأجزاء والفوائد»[3] وعلى هذا فإنه أقام في نابلس مدة غير يسيرة لقراءة كثير من الأجزاء والفوائد.

بعلبك: سافر ابن كثير إلى مدينة بعلبك بطرابلس الشام مرتين، أولاً لتهنئة الأمير ناصر الدين ابن الأقوس على توليته نيابة بعلبك سنة ٧٥٤هـ[3]. وثانياً سنة ٧٦١هـ، فذكر آثار السيول العظيمة التي وقعت في تلك الناحية هذه السنة[1]، وربما هذه الزيارة الثانية لمدينة بعلبك كانت لمشاهدة آثار السيول الهائلة التي خربت البلاد، وأنه كمؤرخ كان يريد أن يتثبت مما يسمع ليسجله في تاريخه.

القاهرة: ليس عندنا خبر ثابت عن رحلة ابن كثير إلى مصر، إلا ما جاء عند المترجمين له من أن بعض العلماء أجازوا له من مصر كما مر، ولكن هذا ليس كافياً للدلالة على رحلته إلى مصر.

ولكن ابن فهد ذكر عرضاً في ترجمة الشيخ زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي (٧٢٥ ـ ٨٠٦)، أن الشيخ تقي الدين

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الحنبلي (٧٠٥ ـ ٧٤٤)، وذكره ابن كثير بـ«صاحبنا» (البداية والنهاية ١٤/ ٢١٠) ترجمته الدرر لابن حجر ٣/ رقم الترجمة ٨٨٨، الدارس للنعيمي ٢/ ٨٨، شذرات لابن العماد ٦/ ١٤١.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ١٦١، ١٧٩.

(٣) نفس المصدر ١٤/ ٢٤٨، ٢٧٤.

السبكي (٦٨٣ ـ ٧٥٦) «لما قدم القاهرة سنة ٧٥٦هـ، أراد أهل الحديث السماع عليه، فامتنع من ذلك، وقال: لاأسمع الحديث إلا بحضوره (أي العراقي)، وكان غائباً في الإسكندرية، فمات قبل أن يصل، ولم يحدثهم. وفي هذه الرحلة كتب عنه الحافظ عماد الدين بن كثير»[١] وزاد ابن فهد أن ابن كثير قرأ على العراقي شيئاً من كتابه (إخبار الأحياء بأخبار الأحياء)[٢].

فإن صحَّ ما ذكره ابن فهد، فإنه لا يثبت به رحلة ابن كثير إلى مصر فحسب، بل يدخل على هذا السبكي والعراقي ضمن شيوخ ابن كثير، مع أنَّ العراقي كان أصغر من ابن كثير نحو خمس وعشرين سنة، وهذا غريب.

حجه: سافر ابن كثير لأداء فريضة الحج إلى الحجاز سنة ٧٣١هـ، في جمع كبير من علماء ومشائخ دمشق وأعلامها، مثل شيخه تاج الدين ابن الفاكهاني، وصاحبه ابن قيم الجوزية، وقد نقل ابن كثير عن الشيخ بدر الدين قوله: «اجتمع في ركبنا هذا أربعمئة فقيه، وأربع مدارس وخانقاه ودار حديث، وقد كان معنا من المفتين ثلاثة عشر نفساً»[٣].

وقد خرج الركب الشامي هذه السنة يوم الإثنين ٨ شوال في رئاسة عز الدين أيبك، أمير علم، وكان قاضي الركب شهاب الدين الظاهري (٦٧٨ ـ ٧٥٥)، وكانت الوقفة هذه السنة يوم الجمعة، وكانت سنة مرخصة آمنة على قول ابن كثير، كما أنه شاهد في هذا السفر تجديد عين باذان القديمة، وإصلاح عين تبوك، فوصَفَ ما حصل بهمامن الرفق العظيم للحجاج عامة، ولأهل مكة وأهل تبوك خاصة[٤].

* * *

---

(١) ابن فهد، لحظ الألحاظ ٢٢٣ ـ ٢٢٤.
(٢) نفس المصدر ٢٢٩.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/١٢٣.
(٤) نفس المصدر ١٤/١٢٣، ١٥٤، أما الظاهري، فهو أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الدمشقي، ولي قضاء الركب سنين كثيرة، وحج بضعاً وثلاثين سنة. ترجمته الدرر لابن حجر١/١٦٧، الدارس للنعيمي ١/١٧٣، شذرات لابن العماد ٦/١٧٧.

الفصل الثالث

تعـدد نواحي ثقافة ابن كثير
وثناء شيوخه ومعاصريه وتلاميذه ومترجميه عليه

بعد هذا الجهاد الطويل المتواصل في سبيل العلم والمعرفة أصبح ابن كثير إماماً عالماً، محدثاً كبيراً، مفسِّراً جليلاً، مؤرخاً شهيراً، فقيهاً قديراً، مفتياً بارعاً، غزيرَ العلم والمعرفة، عميقَ الفكر، مستقل الرأي. فقد «صاحب أربعةً من عظماء العلماء في عصره، وتأثَّر بهم: الذهبيِّ، والمِزي، وابن تيمية، والبرزالي»[1]. كما تتلمذ على كثيرين آخرين، مرَّ ذكر بعضهم، فلا عجب أن تنوعت نواحي ثقافته العلمية من تفسير وحديث وفقه وتاريخ، وتعددت ميادين نشاطه العلمي من تدريس وإفتاء وتأليف، كما نذكره في الباب القادم.

وقد أثنى عليه شيوخه ومعاصروه وتلاميذه ومترجموه، وأجمعوا على الإشادة بحفظه المتون، ومعرفته برجال الحديث، وعلو كعبه في التفسير والتاريخ والفقه والنحو، كما أشاروا إلى صدق لهجته، واعتداله، وسرعة خاطره، وحسن مفاكهته، وجم مروءته، وخلقه الحسن الطيب.

فوصفه شيخه الذهبي بـ «الإمام الفقيه المفتي، المحدث الأوحد البارع،

---

(١) الدكتور صلاح الدين المنجد، في أول مولد الرسول ﷺ لابن كثير، صفحة ٥، طبعة دار الكتاب الجديد، بيروت سنة ١٩٦١م.

ذي الفضائل»[1]. وقال: «له عناية بالرجال والمتون والفقه، خرج وناظر، وصنَّفَ وفسَّر وتقدَّم»[2]. وقال: «يدري الفقه، ويفهمُ العربية والأصول ويحفظُ جملةً صالحة من المتون والتفسير والرجال وأحوالهم، سمع مني، وله حفظ ومعرفة»[3] ونقل الحسيني: عن «المعجم المختص» للذهبي بأنه قال فيه: «فقيه متقن ومحدِّث محقق، ومفسِّر نقَّاد»[4].

وقال معاصره الحسيني: «الشيخ الإمام العالم، الحافظ المفيد البارع.... أفتى ودرَّسَ وناظر، وبرع في الفقه والتفسير والنحو، وأمعنَ النظر في الرجال والعلل»[5].

و روى عن معاصر آخر له، وهو ابن حبيب الحلبي الدمشقي، أنه ذكر عنه: «إمام ذوي التسبيح والتهليل، وزعيم أرباب التأويل، سمع وجمع وصنَّف، وأطرب الأسماع بأقواله وشنَّف، وحدَّث وأفاد، وطارت أوراق فتاواه إلى البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير»[6].

كما نقل عن تلميذه شهاب الدين ابن حجي: «كان أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث، وأعرفهم بجرحها ورجالها، وصحيحها وسقيمها، وكان أقرانه

---

(١) الذهبي، تذكرة الحفاظ ٤/ ٢٩٠، ومخطوطة المعجم للذهبي، بمكتبة آزاد، جامعة عليجرة الإسلامية بالهند، ورقة ٣٣.

(٢) الذهبي، تذكرة الحفاظ ٤/ ٢٩٠.

(٣) الذهبي، مخطوطة المعجم ورقة ٣٣، بمكتبة آزاد، جامعة عليجرة الإسلامية بالهند

(٤) الحسيني، ذيله ٥٨، ونقله غيره «نقال» بدل«نقاد»، (طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٤، الدرر لابن حجر ١/ ٣٧٤، ذيل السيوطي ٣٦١، طبقات المفسرين للداودي، نقلاً من أول رسالة الجهاد لابن كثير صفحة٤) وهو خطأ، والصواب ما صححناه من ذيل السيوطي، لأنه عاصر ابن كثير، وتتلمذ مثله على الذهبي، وعده بعضهم من تلامذة ابن كثير، كما مر في ذكر الإجازات في هذا الكتاب، وكان من أقرب المترجمين عهداً بمؤلفنا وبالذهبي.

(٥) الحسيني، ذيله ٥٨، الشوكاني، البدر الطالع ١/ ١٥٣

(٦) ابن حجر، إنباه الغمر بأبناء العمر ١/ ٤٦، طاشكبري زادة، مفتاح السعادة ١/ ٢٠٥، ابن العماد، شذرات ٦/ ٢٣١، ابن الآلوسي، جلاء العينين ٣٤.

وشيوخه يعترفون له بذلك. وكان يستحضر شيئاً كثيراً من التفسير والتاريخ، قليل النسيان. وكان فقيهاً جيدَ الفهم، صحيحَ الذهن، يستحضر شيئاً كثيراً، ويحفظ التنبيه إلى آخر وقت، ويشارك في العربية مشاركة جيدة، وينظم الشعر، وما أعرف أني اجتمعت به على كثرة ترددي إليه، إلا وأفدت منه»[١] وقد نقل عنه أيضاً: «ما اجتمعت به قط، إلا استفدت منه. وقد لازمته ست سنين»[٢].

ولقب ابنُ الجزري شيخه ابن كثير بـ«الإمام مؤرخ الإسلام، حافظ الشام»[٣]. كما اعتبره ابن ناصر الدين «ثقة المحدثين، عمدة المؤرخين، علم المفسرين»[٤].

أما ابن حجر، فإنه وإنْ شهد «بكثرة استحضاره وحسن مفاكهته»[٥]، ونقل وصفه بحفظ المتون وكثرة الاستحضار عن جماعة منهم الحسيني والعراقي وغيرهما[٦]. إلا أنه نقده بعض الشيء قائلاً: «ولم يكن على طريقة المحدثين في تحصيل العوالي، وتمييز العالي من النازل، ونحو ذلك من فنونهم. وإنما هو من محدثي الفقهاء. وقد اختصر مع ذلك كتاب ابن الصلاح، وله فيه فوائد»[٧].

وذكر في ترجمة تقي الدين محمد بن رافع السلامي (المتوفى سنة ٧٧٤)

---

(١) طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٤، الدارس للنعيمي ١/ ٣٦ ـ ٣٧، شذرات لابن العماد ٦/ ٢٣١ ـ ٢٣٢، جلاء العينين لابن الآلوسي ٣٤.

(٢) ابن حجر، الإنباه ١/ ٤٦، ونسب طاشكبري زادة هذا القول خطأ إلى ابن حجر، (مفتاح السعادة ١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥) وهو غلط، والصواب أنه قول ابن حجي، نقله ابن حجر في الإنباه.

(٣) ابن الجزري، المصعد الأحمد، المنشور في أول مسند الإمام أحمد بشرح أحمد محمد شاكر ١/ ٣١، ٣٩.

(٤) ابن ناصر الدين، الرد الوافر ٤٨.

(٥) ابن حجر، الدرر الكامنة ١/ ٣٧٤.

(٦) ابن حجر، الأنباء ١/ ٤٦، طاشكبري زادة، مفتاح السعادة ١/ ٢٠٥، ابن العماد، شذرات ٦/ ٢٣١.

(٧) ابن حجر، الدرر الكامنة ١/ ٣٧٤.

صاحب ابن كثير ومعاصره، أنَّ الشيخ تقي الدين السبكي كان «يرجحه على العماد ابن كثير في معرفة اصطلاح أهل الحديث»[1]. ولذلك زعم ابن حجر: «ولما توفي المزي أعطاه السبكيُّ مشيخةَ الحديث النُّورية، وقدَّمه على ابن كثير وغيره. ولما شغرت الفاضلية عن الذهبي قدَّمه على سواه من المحدثين. وذكر لي شيخنا العراقي أنَّ السبكي كان يقدِّمه لمعرفته بالأجزاء وعنايته بالرحلة والطلب»[2].

وبعد هذا بلغ ابن حجر إلى نتيجة «أنَّ ابنَ رافع أقرب إلى وصف الحفظ على طريقة أهل الحديث من ابن كثير، لعنايته بالعوالي والأجزاء والوفيات والمسموعات دون ابن كثير، وابن كثير أقرب إلى الوصف بالحفظ على طريقة الفقهاء، لمعرفته بالمتون الفقهية والتفسيرية دون ابن رافع. فيجمع منهما حافظ كامل، وقل من جمعهما بعد أهل العصر الأول»[3].

ولكن لم يعجب رأي ابن حجر بعض المتأخرين، فقاموا بالدفاع عن ابن كثير. فقال السيوطي تعليقاً علىما ذكره ابن حجر في «الدرر الكامنة»: «العمدة في علم الحديث معرفة صحيح الحديث وسقيمه، وعلله واختلاف طرقه، ورجاله جرحاً وتعديلاً. وأما العالي والنازل ونحو ذلك فهو من الفضلات، لا من الأصول المهمة»[4].

واتَّهم جار الله ابن فهد، ابن حجر بالتحيز والتعصب قائلاً: «وإن كان الغالب عليه (على ابن كثير) السَّعة في حفظِ المتون، ولكن لم يكن بحيث لايميِّز العالي من النازل، باعتبار معرفته بطبقات الرواة وأحوالهم، جل ذلك مما لايخفى على من هو دونه بمراحل في معرفة الرجال، كيف وقد لازم المِزي مدة طويلة في

---

(١) ابن حجر، الإنباه ١/ ٦٠، وانظر هامش رقم ٤ من نفس الصفحة.
(٢) نفس المصدر ١/ ٦١ ـ ٦٢.
(٣) نفس المصدر ١/ ٦٢.
(٤) السيوطي، ذيله ٣٦٢.

ذلك، وعني بجمع التكميل؟ وفي تراجم من شهروا بالبراعة تبدو كوامن ابن حجر سامحه الله»[1].

وأشاد المحدث المؤرخ بدر الدين العيني بذكر ابن كثير ـ وكان يعتمد عليه في مؤلفاته ـ قائلاً: «كان قدوة العلماء والحفاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ، سمع وجمع وصنَّف، ودرَّس وحدَّث وألَّف، وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهى إليه علم التاريخ والحديث والتفسير»[2].

أما ابن تغري بردي مؤرخ القرن التاسع الشهير، فقد ذكره في كتابه «المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي» بـ«الشيخ الإمام العلامة»، وقال: «لازم الأشتغال ودأب وحَصَّل وكتب، وبرَع في الفقه والتفسير والحديث، وجمع وصنَّفَ ودرس وحدَّث وألف، وكان له اطلاعٌ في الحديث والتفسير والفقه والعربية وغير ذلك، وأفتى و درس إلى أن توفي»[3].

وقدَّره واعترف بفضله المتأخرون من العلماء والباحثين. فقد لقبه الكتاني بـ«المحدث المتقن البارع»[4]. ووصفه الشيخ أحمد محمد شاكر بقوله: «إمام عظيم من الأئمة الثقات المحققين»[5]. واعتبره «ثالث ثلاثة كانوا كان المسند (للإمام أحمد بن حنبل) كله على أطراف ألسنتهم، وكانوا يعرفونه حقاً»[6] وعده الدكتور صلاح الدين المنجد من «أعظم العلماء المسلمين الدمشقيين في الفقه والتفسير والحديث والتاريخ»[7].

---

(١) انظر هامش رقم ٢ من ذيل الحسيني ٥٨.

(٢) نقله ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ١١/١٢٣، والشيخ أحمد محمد شاكر في أول عمدة التفسير ١/٢٧.

(٣) نقله الشيخ أحمد عبد الرزاق حمزة في أول الباعث الحثيث ١٥.

(٤) الكتاني، الرسالة المستطرفة ١٧٥، الطبعة الثالثة، مطبعة دار الفكر، دمشق سنة ١٣٨٣هـ.

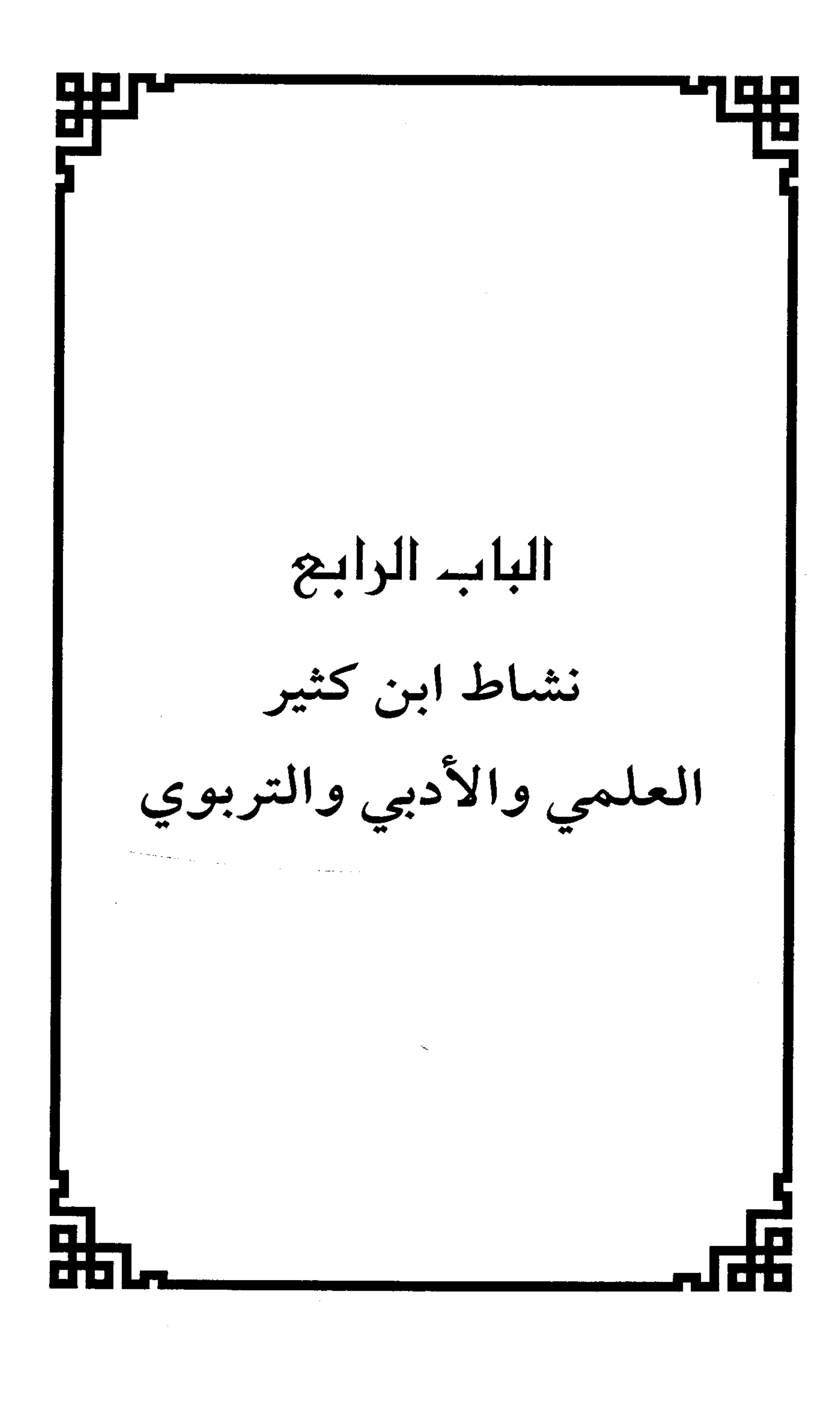
(٥) في أول الباعث الحثيث شرح علوم الحديث لابن كثير.

(٦) في أول مسند الإمام أحمد بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ١/ ٤.

(٧) في أول مولد الرسول (ص) لابن كثير، صفحة ٥.

وبعد هذا نذكر في الباب القادم بعض مظاهر نشاطه العلمي والأدبي من تدريس وإفتاء وشعر، ونشير إلى من تخرَّج عليه من العلماء، وما أنتج من مؤلفات وكتب ورسائل.

* * *



الباب الرابع

نشاط ابن كثير العلمي والأدبي والتربوي

الفصل الأول

الاشتغال بالتدريس

تميَّز عصر ابن كثير بالإكثار من دور التعليم على كل مستوى، من كتاتيب صغيرة ابتدائية، إلى دور التعليم الكبرى للتعليم العالي، يعين فيها أشهر علماء العصر للتدريس. فأصبحت وظيفةُ التدريس ومشيخةُ المدارس مجالَ تنافس العلماء، مثل مناصب القضاء لما فيها من كسب مادي، وشهرةٍ علمية، ومكانة دينية بارزة في نظر الناس، واشتد تنافسهم في هذا الميدان مما كان سبباً في تنازعهم في التدريس، كما يصوره لنا كتب التاريخ والتراجم لهذا العصر.

وقد حدث مثل هذا النزاع لمؤرخنا ابن كثير مع إبراهيم ابن قيم الجوزية (٧٢٦ ـ ٧٦٧)، ولكن لم نعثر على تفاصيل هذا النزاع، لأنَّ المترجمين الذين ذكروا هذا النزاع أشاروا إليه كحادثة طريفة، تدل على حب ابن كثير لشيخه ابن تيمية. فقال الحسيني، ونقل منه ابن حجر: «وقع بينهما منازعة في تدريس الناس، فقال له ابن كثير: أنت تكرهني لأنني أشعري، فقال له إبراهيم: لو كان من رأسك إلى قدمك شعر، ما صدقك الناس في قولك أنك أشعري، إنك لتسخط ابن تيمية. يشير بذلك إلى ما شهر عنه من افتتانه ببعض شواذه»[1].

وكذلك انتزع منه درس الحديث بالأشرفية، كمال الدين عمر بن عثمان بن هبة الله بن معمر المعري (٧١٢ ـ ٧٨٣)[2]، كماسيأتي تفصيله.

(١) الحسيني، ذيله ٥٩، ابن حجر، الدرر الكامنة ١/٥٨.

(٢) ابن حجر، الدرر الكامنة ٣/١٧٧، إنباه الغمر بأبناء العمر ٢/٧٦.

التدريس بالمدارس

١ ـ المدرسة النجيبية[١]:

وبعد أن انتهى ابن كثير من التحصيل وأخذ العلوم على أعظم وأشهر علماء عصره ـ كما أسلفنا ـ بدأ يشتغل بالتدريس. أشار إليه بعض مترجميه بكلمة «ودرس»[٢] أما ابن كثير فقد أشار إلى هذا بشيء من التفصيل فعيَّنَ المدرسةَ التي بدأ التدريس بها أول الأمر، كما حدَّد التاريخ الذي باشر فيه التدريس. فقد درَّس بالمدرسة النجيبية يوم الخميس ١١ جمادى الأولى سنة ٧٣٦هـ، وذلك عوضاً عن الشيخ جمال الدين بن قاضي الزبداني[٣] تركها حين تعيَّن له تدريس الظاهرية الجوانية[٤].

وقد حضر أول درسه ـ على عادة العصر ـ القضاة وأعيان البلد، وكان الدرس في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾، وانساق الكلام فيه إلى مسألة ربا الفضل. وكان الدرس في رأي ابن كثير حافلاً، أثنى عليه

---

(١) وهي دار الشيخ محيي الدين عبد الله بن إبراهيم بن مرزوق (٦٠٢ ـ ٦٦٢) بدمشق المجاورة للمدرسة النورية، وضريح نور الدين الشهيد من جهة الشمال، وهي التي وقفها الأمير جمال الدين آقوش النجيبي (٦٠٩ ـ ٦٧٧) لمدرسة شافعية عرفت بالنجيبية، وبها كانت إقامة ابن كثير منذ قدم دمشق سنة ٧٠٧هـ (البداية والنهاية ١٣/ ٢٤٤، ١٤/ ١٧، ٤٦ الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٤٦٨ ـ ٤٧٢) وقال المنجد: ثم تحولت إلى دور سكن. (مخططة رقم ٦٤).

(٢) ذيل الحسيني ٥٨، ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة نقلاً عن العيني ١١/ ١٢٣.

(٣) هو محمد بن الحسن بن محمد بن عمار متوج الحارثي (٦٨٨ ـ ٧٧٦) ترجمته الدارس للنعيمي ١/ ٣١١، شذرات لابن العماد ٦/ ٢٤٤.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ١٧٣، الدارس للنعيمي ١/ ٤٧٢.

الحاضرون وتعجبوا من جمعه وترتيبه»[1].

ويبدو من ملاحظة لابن كثير في ترجمة أحد العلماء، أنه ما زال يدرس في هذه المدرسة، ويسكن فيها إلى آخر عمره. فقد ذكر في ترجمة الشيخ نور الدين محمد بن أبي بكر بن قوام (٧١٧ ـ ٧٦٥)، «كان يحضر المدارس ونزل عندنا في المدرسة النجيبية»[2]. وهذا لا يعارض ما نشير إليه بعدئذ من توليته مشيخات المدارس الأخرى، ودور الحديث الشهيرة، فقد كان معروفاً لديهم في ذلك الوقت الجمع بين التدريس وتولية المشيخات لأكثر من مدرسة ودور حديث في آن واحد.

٢ ـ الفاضلية:

يبدو مما جاء عند ابن حجر، أنَّ ابن كثير قد ولي تدريس الفاضلية، فقال في ترجمة شمس الدين محمد الموصلي (المتوفى سنة ٧٧٤)، «وولي تدريس الفاضلية بعد ابن كثير»[3]. ولكن لا نعرف متى تولى ابن كثير التدريس في الفاضلية؟ ومتى تركه؟

وقد جاء عند ابن حجر نفسه في ترجمة تقي الدين ابن رافع (٧٠٤ ـ ٧٧٤) «ولما شغرت الفاضلية عن الذهبي (٦٧٣ ـ ٧٤٨)، قدمه (السبكي ابن رافع) على سواه من المحدثين»[4]. ومنهم ابن كثير، فمتى تولى ابن كثير تدريس الفاضلية؟

*** ـ توليه مشيخة الحديث بالمدارس ودور الحديث الكبرى:**

وتولى ابن كثير مشيخة الحديث في دور الحديث الشهيرة، وفي المدارس الكبرى في عصره. وكان ذلك يعتبر سنداً لفضل العلماء الذين يتولونها، واعترافاً لعظمتهم وجلالة شأنهم في الحديث. وأشار ابن كثير إلى إحدى تلك

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ١٧٣، الدارس للنعيمي ١/ ٤٧٢.

(٢) نفس المصدر، ١٤/ ٣٠٦ وترجمة ابن قوام، الدارس للنعيمي ١/ ٧١، شذرات لابن العماد ٦/ ٢٠٥.

(٣) ابن حجر، إنباه العمر بأبناء العمر ١/ ٦٨.

(٤) نفس المصدر ١/ ٦١.

الرئاسة العلمية، وذكر باقيها بعض المؤرخين في ترجمتهم له، بحملها فيما يأتي:

١ ـ المدرسة الصالحية[١]:

صرَّح ابن كثير بتولية مشيخة المدرسة الصالحية يوم الأحد ١٦ ذي القعدة سنة ٧٤٨هـ، بعد وفاة مؤرِّخ الإسلام الشيخ شمس الدين الذهبي(٦٧٣ ـ ٧٤٨) بأسبوعين. وقد أورد ابن كثير في درسه الأول حديث: «إنما نسمة المؤمن طائر معلق في شجرة الجنة، حتى يرجعه إلى جسده يوم يبعثه». وقد حضر هذا الدرس جماعة من أعيان الفقهاء وبعض القضاة، على عادة العصر عند مباشرة أحد المشائخ الدرس في المدارس إكراماً واحتراماً للشيخ الجديد. وكان الدرس في رأي ابن كثير «مشهوداً»[٢].

٢ ـ دار القرآن والحديث التنكزية[٣]:

انفرد الشيخ أبو المحاسن الحسيني في تصريحه بتولي ابن كثير مشيخة الحديث بالتنكزية بعد الذهبي[٤]. ولكن جاء في ذيله على العبر للذهبي ـ على ما نقله عنه النعيمي ـ أن صدر الدين سليمان بن عبد الحكم الباردي المالكي(٦٤٣ ـ ٧٤٩)، كان شيخ التنكزية بعد الذهبي[٥]. أما ابن كثير والمترجمون والآخرون له، فقد سكتوا عن هذا ولم يصرحوا بشيء في ذلك.

---

(١) وهي معروفة بتربة أم صالح غربي الطيبية والجوهرية الحنفية، وقبلي الشامية الجوانية بشرق، وقفها الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل أبي بكر (المتوفى سنة ٦٤٨هـ) من ملوك بني أيوب (البداية والنهاية ١٣/ ١٧٩ ـ ١٨٠، الدارس للنعيمي ١/ ٣١٦ ـ ٣٢٦)، ثم درست وصارت منازل (مخطط المنجد رقم ٥٦).

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٢٢٥.

(٣) وهي شرقي حمام نور الدين الشهيد بسوق البزورية، وكانت حماماً يعرف بحمام سويد، فهدمه النائب تنكز وجعله دار قرآن وحديث معاً، إلى جانب داره المعروفة بدار الذهب (الدارس ١/ ١٢٣ ـ ١٢٧، مخطط، المنجد رقم ٤٤،و ٧٠).

(٤) ذيل الحسيني ٥٨.

(٥) الدارس ١/ ١٢٧.

ولكن لكلام أبي المحاسن الحسيني أهميته لكونه من معاصري ابن كثير ومن أسبق مترجميه.

٣ ـ دار الحديث الأشرفية الجوانية[١]:

صَرَّح تقي الدين بن قاضي شهبة «وبعد موت السبكي ولي(ابن كثير) مشيخة دار الحديث الأشرفية مدةً يسيرة، ثم أُخِذَت منه»[٢] ووافقه على ذلك النُّعيمي[٣]. ولكن لا نعرف متى، ولكم مدة تولاها؟ وأغلب ظننا أنه تولاها بعد سنة ٧٦٣هـ.

فقد ذكر النُّعيمي من ولي مشيخة الأشرفية بالترتيب إلى وفاة تقي الدين السبكي سنة ٧٥٦هـ. ثم قال: «ثم وليها جماعات أُخر لم أتحقق الترتيب بينهم. فمنهم الحافظ العلامة عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير... إلخ[٤] ثم ذكر تاج الدين السبكي (٧٢٧ ـ ٧٧١) وبهاء الدين السبكي (٧٠٧ ـ ٧٧٧) و ولي الدين السبكي (٧٣٥ ـ ٧٨٥) وغيرهم.

أما ابن كثير فيضيف على ترتيب النعيمي بعد تقي الدين السبكي ابنه تاج الدين عبد الوهاب فقال: «وفي صبيحة يوم الأحد ٢٦ من ربيع الآخر(سنة ٧٥٦) توجَّه قاضي القضاة تقي الدين السبكي بعد استقلال ولده

---

(١) وهي بجوار باب القلعة الشرقي، غربي العصرونية، وشمالي القيمازية الحنفية. وكانت داراً للأمير صارم الدين قايماز النجمي (المتوفى سنة ٥٩٦) واقف القيمازية، فاشتراها الملك الأشرف (٥٧٦ ـ ٦٣٥) وأمر بجعلها دار حديث سنة ٦٢٨هـ، فتمت في سنتين، وفتحت سنة ٦٣٠هـ. وهي كانت من أشهر وأكبر المعاهد العلمية في ذلك الوقت، درس فيها أعلام العصر من علماء الحديث أمثال ابن الصلاح (٥٧٧ ـ ٦٤٣) وكان أول شيخ لها. ثم الحرستاني (٥٧٧ ـ ٦٦٢) وأبو شامة (٥٩٩ ـ ٦٦٥) والنواوي (٦٣١ ـ ٦٧٧) والفارقي (٢٣٣ ـ ٧٠٣) وابن الوكيل (٦٦٥ ـ ٧١٦) وابن الزملكاني (٦٦٦ ـ ٧٢٧) وابن الشريشي (٦٥٣ ـ ٧١٨) والمزي (٦٥٤ ـ ٧٤٢) والتقي السبكي (٦٨٣ ـ ٧٥٦) (الدارس ١/ ١٩ ـ ٤٧) ثم التاج السبكي (٧٢٧ ـ ٧٧١) (البداية والنهاية ١٤/ ٢٥٢) وابن كثير؟... إلخ.

(٢) طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٤.

(٣) الدارس للنعيمي ١/ ٣٦.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٢٥٢، ٢٥٩، ٢٩٦.

تاج الدين عبد الوهاب في قضاءالقضاة، ومشيخة دار الحديث الأشرفية، مسافراً نحو الديار المصرية»[٤] وتوفي تقي الدين السبكي بعد نحو من شهر بمصر. وطُلب تاج الدين السبكي إلى الديار المصرية، «معزولاً عن قضاء دمشق»، يوم الإثنين ١٢ من شهر شعبان سنة ٧٦٣هـ[١]، وقدم أخوه بهاء الدين السبكي مكانه يوم الثلاثاء ٤ من شهر رمضان سنة ٧٦٣هـ، «فبدأ بملك الأمراء، فسلَّم عليه، ثم مشى إلى دار الحديث، فصلى هناك. ثم مشى إلى المدرسة الركنية، فنزل بها عند أخيه بدر الدين ابن أبي الفتح قاضي العساكر»[١].

فمن المحتمل أنَّ ابن كثير تولاها في فترة تقع بين سفر تاج الدين السبكي إلى مصر وبين قدوم أخيه بهاء الدين السبكي إلى دمشق، وهي فترة ثلاثة أسابيع تقريباً. ويقوي هذا الاحتمال ما يشير إليه ابن قاضي شهبة والنعيمي بأنه تولاها لـ «مدة يسيرة، ثم أُخذت منه»[١].

ومما يؤكد تولية ابن كثير مشيخة الأشرفية، حكاية النزاع التي أشار إليها ابن حجر في ترجمة كمال الدين عمر بن عثمان بن هبة الله بن معمر المعري (٧١٢ ـ ٧٨٣)، قائلاً: «ومن عجيب أمره أنه أنتزع درس الحديث بالأشرفية من الشيخ عماد الدين ابن كثير» مع أنَّ شرطها أن يكون شيخها«من أعلم أهل البلد بالحديث» وكان ذلك سبباً في إثارة الطلبة على كمال الدين المعري «فمقَتَه الطلبة، وعدوا عليه غلطات وفلتات وتصحيفات»، منها أنه«قال الجهبذ، فنطق بضم الجيم وفتح الهاء»[٢].

ولو صحَّت هذه الحكاية فإنها سوف تضعف من الاحتمال الذي ذكرناه، وهو تولية ابن كثير مشيخة الأشرفية بين فترة تقع بين سفر تاج الدين السبكي إلى مصر وبين قدوم أخيه بهاء الدين السبكي إلى دمشق، وعلى هذا سوف يتغير الترتيب السابق الذي أشرنا إليه. ولكنها لا تؤثِّر على حقيقة تولية ابن كثير مشيخة الأشرفية، بل تؤيدها وتقويها، كما أنها تدلُّ أيضاً على اعتبار الناس ابن كثير من أعلم العلماء بالحديث في دمشق في زمانه، وحب طلابه وتلامذته له.

---

(١) طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٤، الدارس للنعيمي ١/٣٦.

(٢) ابن حجر، الدرر الكامنة ٣/١٧٧، إنباه الغمر بأبناء العمر ٢/٧٦.

وأنها تدل أيضاً على أن ظاهرة معاكسة الأساتذة لم تكن غريبة في ذلك الوقت، فإنَّ بعض الأساتذة مثل المعري المذكور ـ فقدوا احترامهم في نظر الطلاب، بسبب تنافسهم على وظيفة التدريس بأساليب غير سليمة.

*** ـ درس التفسير بالجامع الأموي:**

وقد بلغ ابنُ كثير إلى مكانة رفيعة في زمانه، وكان الناس يحبونه ويقدرون علمه وفضله وتقواه، ويدعونه في مناسبات علمية ودينية واجتماعية، فقد بلغنا أنه دعي لافتتاح درس التفسير الذي أنشأه ملك الأمراء نائب السلطنة سيف الدين منكلي بغا (٧٦٤ ـ ٧٦٨) في الجامع الأموي، حضره ابن كثير صباح يوم ٢٨ شوال سنة ٧٦٧هـ وألقى في هذه المناسبة العلمية درساً حافلاً في أول تفسير سورة الفاتحة، أمام الطلبة بحضور القضاة والأعيان[1].

*** ـ عضوية لجان الامتحان:**

ومما يدل أيضاً على مكانته العلمية والاجتماعية الممتازة أنه كان يُدعى إلى حضور لجان الامتحان الذي كانت تُعقد في عصره لامتحان الصبيان والشبان النابهين. فقد عقدت لجنة لامتحان بدر الدين محمد بن الشيخ كمال الدين ابن الشُّريشني، وكان يحفظ كثيراً من شواهد اللغة، فَدُعيَ ابنُ كثير فيمن دُعِيَ إليها من أعلام عصره من المحدِّثين واللغويين والبلاغيين والأدباء وغيرهم يوم ٢٠ شعبان سنة ٧٦٣هـ. وأحضر نيف وأربعون مجلداً من كتاب المنتهى في اللغة للتميمي البرمكي، ليأخذها العلماء الحاضرون بأيديهم، ويسألوه عن استشهاد الأشعار الواردة في الكتاب. واستمر هذا المجلس العلمي في السؤال والمناقشة، حتى جَزَم الحاضرون والسامعون أنه يحفظ جميع شواهد اللغة،

(١) وقد انتخب الأمير لهذا الدرس الخاص خمسة عشر طالباً من كل مذهب، وجعل لكل منهم عشرة دراهم كمنحة دراسية شهرية، كما قرر للمعيد، ولكاتب الغيبة عشرون، وللمدرس ثمانون درهماً كمرتب شهري، وذلك من أوقاف الجامع الأموي (ابن كثير البداية والنهاية ١٤/ ٣٢١).

ولا يشذُّ عنه منها إلا القليل الشاذ. وكان تعليق ابن كثير عليه أن «هذا من أعجب العجائب وأبلغ الإعراب»[١].

كما امتحن ابن كثير سنة ٧٤٧هـ، صبياً عمره ست سنين، كان قد حفظ القرآن الكريم، وصلى بالناس في شهر رمضان. امتحنه ابن كثير «فإذا هو يجيد الحفظ والأداء، وهذا من أغرب ما يكون»[٢]. نظراً إلى سن الصبي.

* * *

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/٢٩٥ ـ ٢٩٦.

(٢) نفس المصدر ١٤/٢٢٠.

الفصل الثاني

تلامــذة ابن كثير

لا يوجد في كتب التراجم ـ التي اطلعنا عليها ـ إلا ذكر عدد بسيط من تلامذة ابن كثير، الذين استفادوا منه، وسمعوا عليه الحديث، وتلقوا منه العلوم، مع أنه بدأ التدريس في المدارس منذ سنة ٧٣٦هـ كما تقدَّم. ثم تولى مشيخات لأعظم وأشهر المدارس ودور الحديث الكبرى التي كانت مرجع طلاب العلوم الإسلامية من شتى البلاد الإسلامية في عصره في دمشق. فقد كانت القاهرة ودمشق هما المركزان الرئيسيان سياسياً وحضارياً وعلمياً وفكرياً في عصر دولة المماليك البحرية. ثم إننا نرى أنَّ ذكر ابن كثير كان قد انتشر، وأمره كان قد اشتهر، وصيتُه كان قد ذاع حتى وصل إلى بلاد تبريز وخراسان، وأصبح مرجع الطلاب يقصدونه، ويرحلون إليه، ويسافرون من أجله ليستفيدوا من علمه، ويسمعوا عليه الحديث، وكانوا يحرصون على إجازته لهم.

فقد أشار ابن كثير إلى إحدى تلك الحوادث، وهي: أنَّ شاباً أعجمياً من بلاد تبريز وخراسان جاء إلى دمشق[1]، وكان يحفظ صحيحي البخاري ومسلم وجامع المسانيد لابن كثير، والكشَّاف للزمخشري وغير ذلك من المحاضير في فنون أخرى. وكان قصده ـ كما صرح بذلك ـ أن يسمع إلى ابن كثير، ويحصل على إجازة بالسماع منه. فأجاب ابن كثير طلبه، وعمل له ثلاثة مجالس، حضر

---

(١) وهو على ما ذكره ابن حجر، عبد العزيز بن عثمان بن يوسف بن المجد التبريزي، (الدرر ٢/ ٣٧٧)

فيها خلق كثير من العامة والخاصة وجماعة من المحدثين، والقضاة، وقضاة القضاة. وقرأ الشاب في الجامع الأموي بالحائط الشمالي عند باب الكلاَّسة من أول صحيح البخاري من حفظه، وكان ابن كثير «يقابل عليه من نسخة بيده» فأدى جيداً، غير أنه صَحَّف ولحن في بعض الألفاظ لعجم فيه. وكان الناس محتفين به، معجبين من أمره، حتى كان من العامة من يتقرَّب بتقبيل يده. وحين كتب ابن كثير له بالسماع على الإجازة فرح بها جداً وقال: «أنا ما خرجت من بلادي إلا إلى القصد إليك، وأن تجيزني، وذكرك في بلادنا مشهور»(١).

لذلك حين قال بعض المترجمين في ترجمتهم له. أن سارت تصانيفه في البلاد وتناقلها الناس في حياته، وانتفعوا بها بعد مماته(٢). لم يكونوا مبالغين في مقالهم.

وآل أمره في آخر عمره أن كان العلماء يحرصون على كتابته على مؤلفاتهم، فقد روي أنَّ سراج الدين أبا علي عمر بن الملقن (٧٢٣ ـ ٨٠٤) المعروف بإكثاره في التأليف حين رحل إلى دمشق سنة ٧٧٠هـ، ليسمع من محدثيها، لقي بتاج الدين السبكي الذي أعجبه براعته في الفنون، فقرَّظ له بعض مؤلفاته، مثل جزء من تخريج أحاديث الرافعي، وتخريج أحاديث المنهاج. ثم استكتب السبكي على تخريج أحاديث الرافعي لابن الملقن من الحافظ عماد الدين بن كثير(٣)، ليكون له سنداً وشهادة من أحد أعلام عصره، يستفيد بها حين يرجع إلى موطنه.

كما أنَّ جلال الدين عبد الرحمن بن عمر بن رَسْلان المصري المعروف بابن البلقيني (٧٦٣ ـ ٨٢٤) حين ذهب مع أبيه سراج الدين أبي حفص عمر البلقيني (٧٢٤ ـ ٨٠٥) إلى الشام سنة ٧٦٩هـ، وهو صغير (ابن السادسة)، حرص أبوه

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(٢) الدرر لابن حجر ١/ ٣٧٤، ذيل السيوطي ٣٦١ ـ ٣٦٢.

(٣) ابن فهد لحظ الألحاظ ١٩٨.

أن يستجير له من أعلام دمشق تبركاً، وكان في جملتهم الحافظ عماد الدين ابن كثير[١].

أليس غريب حقاً بعد ذلك كله أن يضيع ذكر تلاميذه، حتى لايعرف منهم عدد يعد بهم، وإذا قال بعض مترجميه: «وتلامذته كثيرة»[٢]، أو «أخذ عنه كثيرون»[٣]، أو خرج عدداً من الطلاب»[٤]، فلا يشير منهم إلا إلى أحدهم وهو ابن حجي، فأين ذهبت الكثرة الكاثرة الباقية؟ والسبب عندي في فقدان ذكر تلاميذه، أن كثيراً من كتب التراجم والتاريخ لهذا العصر لم تطبع بعد.

وقد عثرنا على أسماء بعض تلاميذه الذين قرؤوا عليه أو سمعوا منه أو أجاز لهم وذلك حين كنا نتصفح كتب تراجم ذلك العصر المطبوعة، نذكرهم باختصار بالغ مع الإشارة إلى مصادر أخبارهم ومؤلفاتهم:

١ ـ ابن اليونانية (٧٠٧ ـ ٧٩٣)، شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن محمد اليونيني البعلي[٥]. قال ابن العماد: إنه لخص تفسير ابن كثير، وانتفع به»[٦].

٢ ـ ابن سَنَد (٧٢٩ ـ ٧٩٢)، شمس الدين أبو العباس محمد بن موسى بن محمد بن سند بن نعيم اللخمي[٧].

قال مترجموه: «أذن له في الإفتاء العلائي، وابن كثير»[٨].

---

(١) ابن فهد لحظ الألحاظ ٢٨٢.

(٢) شذرات لابن العماد ٦/ ٢٣١، جلاء العينين لابن الآلوسي ٣٤.

(٣) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ٤/ ١٤٤.

(٤) دائرة المعارف للبستاني ٣/ ٤٧٧.

(٥) ترجمته الدرر الكامنة لابن حجر ٤/ ٥٦، وفيه وفاته ٧٨٣.

(٦) شذرات الذهب لابن العماد ٦/ ٣٣١.

(٧) ترجمته: ابن فهد، لحظ الألحاظ ١٧٧ ـ ١٧٨، محمود رزق سليم عصر سلاطين المماليك ٤/ ١٥٦

(٨) الدرر الكامنة لابن حجر ٤/ ٣٤٠، شذرات لابن العماد ٦/ ٣٢٦، ذيل السيوطي ٣٦٩.

٣ ـ يحيى الرحبي (٧١٥ ـ ٧٩٤) محيي الدين أبو زكريا يحيى بن يوسف بن يعقوب بن أحمد بن يحيى الرحبي[(١)].

قال ابن حجر: «لازم ابن كثير، وكتبَ عنه فوائد حديثية، أكثرها يتعلق بالصحيح»[(٧)].

٤ ـ محمد الزركشي (٧٤٥ ـ ٧٩٤) بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي التركي[(٢)].

قال ابن حجر: «رَحَل إلى دمشق، فأخذ عن ابن كثير الحديث وقرأ عليه مختصره في علوم الحديث، ومدحه ببيتين»[(٣)]. لعلهما ما أشار إليه ابن تغري بردي بقوله: «ولما مات (ابن كثير) رثاه بعض طلبته:

لفقدك طلاب العلوم تأسفوا وجادوا بدمع لا يبيد غزير
ولو مزجوا ماء المدامع بالدما لكان قليلاً فيك يا بن كثير»[(٤)]

٥ ـ ابن عنقة البسكري (٠٠٠ ـ ٨٠٤) أبو جعفر محمد بن محمد بن عنقة البسكري ثم المدني[(٥)].

قال ابن العماد: «وحمل عن ابن رافع، وابن كثير»[(٣)].

٦ ـ سعد النواوي (٧٢٩ ـ ٨٠٥) سعد الدين سعد بن يوسف بن إسماعيل بن يوسف النواوي[(٦)].

قال النُّعيمي: «حمل عن ابن كثير، وقرأ عليه تأليفه اختصار علوم الحديث، وأذِنَ له ابن كثير بالفتوى»[(٤)].

---

(١) الدرر الكامنة لابن حجر ٤/ ٣٤٠، شذرات لابن العماد ٦/ ٣٣٧.

(٢) ترجمته: تاريخ ابن الفرات ٩/ ٣٢٦، شذرات لابن العماد ٦/ ٣٣٥، الرسالة المستطرفة للكتاني ١٤٢ بركلمان، ملحق تاريخ آداب اللغة العربية ٢/ ١٠٨، محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ٤/ ١٥٦.

(٣) الدرر الكامنة لابن حجر ٣/ ٣٩٧، وأشار إلى أخذه العلوم عن ابن كثير، السيوطي في حسن المحاضرة ١/ ١٨٥، وفيه اسمه بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ١١/ ١٢٤.

(٥) شذرات الذهب لابن العماد ٧/ ٤٦.

(٦) الدارس للنعيمي ١/ ٣٢٠، شذرات لابن العماد ٧/ ٤٩.

٧ ـ ابن الحريري (٧٣٨ ـ ٨١٣) شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عمر بن رضوان الحريري الدمشقي المعروف بالسلاوي[١].

قال السخاوي: «سمع الحديث على التقي بن رافع، وابن كثير، وقرأ عليهما»[٥].

٨ ـ علي الردماوي (٧٤١ ـ ٨١٣) أبو زيد وأبو الحسن علي بن زيد بن علوان بن صبرط صبرة بن مهدي بن حريز اليمنى الردماوي الزبيدي، وتسمى بآخره عبد الرحمن[٢].

قال السخاوي: «سمع من اليافعي، والشيخ خليل، وابن كثير. . . . إلخ[٣]

٩ ـ ابن الحسباني(٧٤٩ ـ ٨١٥) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إسماعيل بن خليفة ابن عبد العال[٤].

قال ابن فهد: «وأخذ عن الحافظين ابن كثير، وابن رافع»[٥].

١٠ ـ مسعود الأنطاكي (٠٠٠ ـ ٨١٥) شرف الدين مسعود بن عمر بن محمود بن أنمار الأنطاكي النحوي نزيل دمشق[٦].

قال ابن العماد: «قدم دمشق فأخذ عن الصَّفَدي، وابن كثير، وغيرهما»[٤]

١١ ـ ابن حِجيّ السعدي (٧٥١ ـ ٨١٦)، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن العلاء حجي بن موسى بن أحمد بن سعد بن غشم بن غزوان بن علي بن سرور ابن تركي الحسباني[٧].

---

(١) السخاوي، الضوء اللامع ٢/ ٨١، شذرات لابن العماد ٧/ ١٠٠ ـ ١٠١.
(٢) نفس المصدر ٥/ ٢٢١ ـ ٢٢٢، شذرات لابن العماد ٧/ ١٠٢.
(٣) نفس المصدر ٥/ ٢٢١ ـ ٢٢٢، وشذرات لابن العماد٧/ ١٠٢.
(٤) ترجمته: شذرات الذهب لابن العماد ٧/ ١٠٨ ـ ١٠٩.
(٥) ابن فهد، لحظ الألحاظ ٢٤٥، وأشار ابن طولون إلى ابن كثير فيمن سمع عليهم ابن الحسباني. (قضاة دمشق صفحة ١٣٢، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، مطبعة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٥٦م).
(٦) شذرات الذهب لابن العماد ٧/ ١١٤.
(٧) الضوء اللامع للسخاوي ١/ ٢٦٩، لحظ الألحاظ لابن فهد ٢٤٧، عصر سلاطين المماليك لمحمود رزق سليم ٤/ ١٧٦.

وهو الوحيد الذي أشار إليه مترجمو ابن كثير بأنه من تلامذته[١]، كما صرح الذين ترجموا لابن حجي بأنه «تخرَّج في علوم الحديث بالحافظين ابن كثير وابن رافع»[٢]. وقد أثنى ابن حجي على شيخه ابن كثير ثناء جماً[٣]، وصرح بملازمته له ست سنين[٤].

وهو الذي ذَيَّل على تاريخ ابن كثير من سنة ٧٤١ ـ ٧٤٦هـ، ثم بدأ من سنة ٧٦٩هـ فكتب إلى قبيل وفاته بيسير، فكمله بعهد منه تلميذه تقي الدين بن قاضي شهبة الذي بلغ فيه إلى سنة ٨٤٠هـ[٥].

ومن أهم مؤلفات ابن حجي «الدارس من أخبار المدارس»، ذكر فيه ترجمة واقف المدرسة، وشرطه، وتراجم من درس بالمدارس إلى آخر وقته، وهو كتاب نفيس يدل على اطلاع كثير على حد قول النُّعيمي الذي وقف منه على كراريس محرقة، وقال: وقد احترق غالبه في وقعة التتار[٦]. وغالب ظننا أنَّ النُّعيمي عرضت له فكرة تأليف كتابه «الدارس في تاريخ المدارس»، بعد اطلاعه على الكتاب المذكور لابن حجي.

١٢ ـ محمد الحبتي (٧٤٥ ـ ٨٢٥) شمس الدين أبو المعالي محمد بن أحمد بن معالي الحبتي[٧].

قال السخاوي: سمع بدمشق «من متأخري أصحاب الفخر كابن أميلة، والعماد ابن كثير». وسمع ابن حجر بقراءته صحيح البخاري بالقاهرة في عدة

---

(١) طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٥، الدارس للنعيمي ١/ ٣٦ ـ ٣٧، شذرات لابن العماد ٦/ ٢٣١ ـ ٢٣٢.
(٢) الدارس للنعيمي ١/ ١٤٢، شذرات لابن العماد ٧/ ١١٧.
(٣) نقلنا ثناءه عليه فيما تقدم من هذا الكتاب صفحة ٥٧.
(٤) ابن حجر، إنباه الغمر بأبناء العمر ١/ ٤٦.
(٥) الضوء اللامع للسخاوي ١/ ٢٧٠، ١١/ ١٧٦، شذرات ٧/ ١١٧.
(٦) انظر مقدمة الدارس للنعيمي.
(٧) الضوء اللامع ٧/ ١٠٧ شذرات ٧/ ١٧١.

سنين، كما سمع من مباحثه وفوائده ونوادره، وقال أنه «كان ينقل عن شيخه ابن كثير الفوائد الجليلة»[1].

١٣ ـ ابن الجزري (٧٥١ ـ ٨٣٣)، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف الشافعي، مقرىء المماليك الإسلامية، وإمامها في عصره من غير مدافع[2].

صَرَّح ابن الجزري بنفسه بالسماع على ابن كثير في كتابه «المصعد الأحمد في ختم مسند الإمام أحمد»، حيث قال: «أما حديث أم زرع سمعت شيخنا الحافظ الحجة عماد الدين إسماعيل ابن كثير يقول. . . إلخ، وذكره في الكتاب المذكور مرة آخرى بـ «شيخنا» حين الكلام على من رتَّب مسند الإمام أحمد من العلماء، فقال: «ثم إنَّ شيخنا الإمام مؤرخ الإسلام، وحافظ الشام عماد الدين أبا الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير رحمه الله تعالى أخذ هذا الكتاب المرتب من مؤلفه، وأضاف إليه. . . إلخ[3]

وقد عدَّ بعض المترجمين ابن كثير في جملة من سمع عليهم ابن الجزري، وذكروا أنه أخذ عنه الحديث،[4] و«أذن له ابن كثير بالإفتاء»[5]. كما روي أنَّ ابن الجزري حين «عُيِّن لقضاء الشام مدة، كتب توقيعه عماد الدين ابن كثير. ثم عرض عارض، فلم يتم ذلك»[6].

---

(١) الضوء اللامع للسخاوي ٧/١٠٧، شذرات لابن العماد٧/ ١٧١.

(٢) ترجمته، طاشكبري زادة، مفتاح السعادة ١/٣٩٢، ذيل السيوطي ٣٧٦، الأعلام للزركلي ٧/ ٢٧٤.

(٣) المصعد الأحمد لابن الجزري، المنشور في أول مسند الإمام أحمد، بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ١/ ٣١، ٣٩ ـ ٤٠ والمقصود بالمؤلف أبي بكر محمد بن عبد الله بن المحب الصامت الذي رتب الميند على معجم الصحابة، والرواة على ترتيب كتاب الأطراف، وكان هذا الكتاب أصل ابن كثير في تأليف كتابه جامع المسانيد.

(٤) الضوء اللامع للسخاوي ٩/ ٢٥٦ شذرات ٧/ ٢٠٥.

(٥) دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) ١/ ١١٩.

(٦) قضاة دمشق لابن طولون ١٢١، الضوء اللامع ٩/ ٢٥٦، الدارس للنعيمي ١/ ٩.

١٤ ـ عبد العزيز بن عثمان بن يوسف بن المجد التبريزي[١].

أجاز له ابن كثير، وقد مرت حكاية إجازته برواية ابن كثير فيما سبق[٢].

والآن نذكر بعض من عرف عنهم أنهم من تلامذة ابن كثير، ولكن الحقيقة خلاف ذلك.

١ ـ أبو المحاسن الحسيني (٧١٥ ـ ٧٦٥) السيد الشريف أبو المحاسن شمس الدين محمد بن علي بن الحسن بن حمزة الحسيني، صاحب «ذيل على تذكرة الحفاظ» للذهبي[٣].

اقتبس منه الشيخ أحمد محمد شاكر عبارة في ترجمة ابن كثير، باعتبار الحسيني من تلامذة ابن كثير[٤]، وقد صرَّح الحسيني نفسه بقراءته عليه[٥]. ولكن عدَّه الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة ممن أجازوا لابن كثير[٦]. فإذا كان كلام الشيخ حمزة صحيحاً، فليس أمامنا إلا أن نقرر أنَّ الحسيني كان من معاصري ابن كثير وأصحابه، وكانا عالمين جيدين، سمع الاثنان من بعضهما وأجاز كلاهما للآخر بمسموعاتهما.

٢ ـ تقي الدين المقريزي (٧٦٦ ـ ٨٤٥)، أحمد بن علي بن عبد القادر محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد المقريزي، زعم المقريزي «سماع المسلسل على العماد ابن كثير»[٧]. ولكن نظراً إلى صغر سنه حين وفاة ابن كثير سنة ٧٧٤هـ، يبدو هذا بعيداً عن الحقيقة والصواب بالمعنى العلمي للسماع. فإنَّ المقريزي حين وفاة ابن كثير لم يتجاوز الثامنة من عمره، ويستغرب من ابن

---

(١) ترجمته، الدرر الكامنة ٢/ ٣٧٧.

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(٣) ترجمته في أول مجموعة الذيول الثلاثة على تذكرة الحفاظ للذهبي، نشرها جار الله ابن فهد، وانظر لحظ الألحاظ ١٥٠، وذيل السيوطي ١/ ٢٦.

(٤) عمدة التفسير ١/ ٢٦.

(٥) ذيل السيوطي ٥٩، وقد نقلنا تصريحه بكماله فيما تقدم من هذا الكتاب.

(٦) الباعث الحثيث ١٥.

(٧) الضوء اللامع للسخاوي ٢/ ٢١.

الثامنة أن يزعم سماع المسلسلات على أعلام عصره. وهذا في رأينا إما زعم باطل من المقريزي، أو فهم خاطىء لما أراد قوله الذي نقله السخاوي. ومن المحتمل أن يكون قد سقط من العبارة اسم أحد شيوخه بينه وبين ابن كثير، ويكون أصل العبارة مثلاً «أنه سمع المسلسل على. . . عن العماد ابن كثير». أو أن نقول أنه حضر مجالس ابن كثير في صغره للبركة، ثم زعم ما زعم.

٣ ـ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣ ـ ٨٥٢)، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني.

ذكره ابن الآلوسي البغدادي من تلامذة ابن كثير خطأ، ونسب إليه الوصف المشهور لابن حجي في شيخه ابن كثير، وهو «كان أحفظ من أدركناه، لمتون الأحاديث. . . إلخ[١] وخطأ هذا الوهم ظاهر للعيان، فإنَّ ابن حجر ولد قبل وفاة ابن كثير بسنة واحدة، فكيف يمكن أن يأخذ منه العلم؟ ويسمع عليه الحديث؟

وإن مصدر الخطأ كما يبدو لي أنَّ ابن الآلوسي، أخذ العبارة المشار إليها من ابن العماد الحنبلي، إلا أنه أخطأ فقرأ ابن حجر بدل ابن حجي، والظاهر وجه التشابه بين الاسمين في الخط والرسم، إن لم يكن في النُّطق. ثم أضاف عليه «العلامة » و«العسقلاني » من عنده لمكانة كبيرة أشتهر بها. ويقوي هذا الاحتمال ما جاء من تشابه بين عبارة ابن العماد وبين عبارة ابن الآلوسي.

ويبدو من مقارنة نص كلام ابن حجي في ثناء شيخه عند مترجمي ابن كثير أن تقي الدين ابن قاضي شهبة كان أول من نقله بادئاً بـ«وقال تلميذه الحافظ شهاب الدين ابن حجي: كان أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث. . . إلخ[٢] ثم ذكر هذه العبارة بالنص بعده النعيمي، إلا أنه لم يذكر «وقال تلميذه»، بل ذكر مباشرة «وقال الحافظ ابن حجي السعدي. . . إلخ[٣] وطبعاً هو أخذها من ابن قاضي شهبة، وإن لم يصرِّح بذلك. ثم ذكرها بعدهما ابن العماد الحنبلي، ولكنه لم يذكره حرفياً، بل اختصرها، وحذف بعض الكلمات منها، واكتفى في

(١) ابن الآلوسي، جلاء العينين ٣٤.
(٢) طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٥.
(٣) النعيمي، الدارس ١/ ٣٦ ـ ٣٧.

ذكر الاسم بـ«ابن حجي»[1] ولانعرف بالتأكيد هل هو أخذها من ابن قاضي شهبة؟ أو عن واسطة النعيمي؟.

أما ابن الآلوسي وهو من أواخر من نقل العبارة المشار إليها، فلم يختصرها اختصار زائداً، ولم تحذفها حذفاً كثيراً فحسب، بل صحف في الاسم وحرف، وغيَّر فيه وبدَّل[2]، وأضاع معالم الحقيقة وشوَّهها، وشوَّشَ على الباحثين وأضلهم.

وإذا رجعنا إلى ابن حجر في ترجمته لابن كثير، لانجد هناك أي ذكر للعبارة المذكورة أو لمعناها، فإنه لم يشر إلى أحد تلاميذ ابن كثير، ولم يصرِّح بالأخذ منه أو بالسماع عليه[3].

أما ما ذكره طاشكبري زادة في ترجمته لابن كثير من قول منسوب إلى ابن حجر: «ما اجتمعت به قط إلا استفدت منه، وقد لازمته ست سنين»[4]. فهذا أيضاً قول ليس له دليل، ومرجعه أيضاً إلى خطأ في قراءة الاسم. فقد ذكره ابن حجر ولكن منسوباً إلى ابن حجي[5].

* * *

---

(١) ابن العماد، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١ ـ ٢٣٢.

(٢) ابن الآلوسي، جلاء العينين ٣٤.

(٣) ابن حجر، الدرر الكامنة ١/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤، إنباه الغمر بأبناء العمر ١/ ٤٥ ـ ٤٧.

(٤) طاشكبري زادة، مفتاح السعادة ١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٥) ابن حجر، الإنباه ١/٤٦.

الفصل الثالث

مؤلفات ابن كثير

كانت لابن كثير حياة علمية حافلة بالجهد في التحصيل والتدريس والتصنيف في عصر مملوء من علماء العقل والنقل. وقد أشرنا إلى جهده في التحصيل، ثم اشتغاله بالتدريس فيما سبق، ونحن الآن بصدد البحث عن مصنفاته ومؤلفاته.

ألَّف ابن كثير تصانيفَ مفيدة نافعة من كتب مطوَّلة، ومتوسطة الحجم، إلى رسائل مختصرة صغيرة، في التفسير والحديث والفقه والتاريخ وما إلى ذلك، طبعت بعضها، ومازالت بعضها الأخرى مخطوطة محفوظة في مكتبات العالم[1]، ولاتعرف من بعضها للآن إلا أسماؤها كما سيأتي.

---

(١) يراجع لمخطوطات مؤلفات ابن كثير المكتب والفهارس التالية:
بروكلمان، تاريخ آداب اللغة العربية ٢/ ٦١، ملحقه ٢/ ٤٨ ـ ٤٩(باللغة الألمانية) طبعة ليدن، دائرة المعارف الإسلامية(الترجمة العربية)١/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠.
امتياز على عرشي، فهرست المخطوطات العربية في مكتبة رضا، رامبور بالهند ١/ ٢٦٠، ٣٥٤، داؤد الحلبي الموصلي، مخطوطات الموصل ٥٣، خير الدين الزركلي، الأعلام ١/ ٣١٧ ـ ٣١٨، زيدان، آداب اللغة العربية ٣/ ٢٠٨، عزة حسن، فهرست مخطوطات الظاهرية (علوم القرآن) ٢٠٤ ـ ٢٠٥، محمد أسعد طلس، مقاله«المخطوطات وخزائنها في حلب» مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، ١/ ١، ٢٩، ٣١.

الدكتور صلاح الدين المنجد، المؤرخون الدمشقيون وآثارهم المخطوطة ص ٥٦.
وانظر نفس المقال في مجلة معهد المخطوطات العربية ٢/ ١ ص ١٠٢، ١١٦، و٤/ ٢ ص ٣٥٨.
فهرس مكتبة أبا صوفيا ١٠، ٢٠٠، فهرس مكتبة حميدية ٤٨، فهرس مكتبة كوبرلي =

وقد بلغ عدد مجموع مؤلفاته عندنا في هذا الكتاب أربعة وثلاثين كتاباً ورسالة. وهذه الثروة العلمية الضخمة لتدل على جَلَد ابن كثير وصبره في التصنيف والتأليف، واجتهاده في هذا الميدان. وكان ذلك سبباً في كف بصره في آخر حياته كما صرَّح بذلك لتلميذه ابن الجزري الذي نقل عنه هذا التصريح: «وقال لي رحمه الله تعالى: لازلت أكتب فيه (في جامع المسانيد) في الليل، والسراج ينوص، حتى ذهب بصري معه»[(١)].

ويبدو أن ابن كثير كان ولوعاً شغوفاً بالتصنيف والتأليف منذ صغره، فقد قيل أنه «صنف في صغره كتاب «الأحكام على أبواب التنبيه»، و وقف عليه شيخه برهان الدين الفزاري، وأُعجب به، وأثنى عليه»[(٢)].

وكذلك قيل: أن عز الدين ابن جماعة ـ وهو من شيوخ ابن كثير ـ حين قدم إلى دمشق في الرحلة سنة ٧٢٥هـ «استقدم ابن كثير، وانتفع به في تخريج أحاديث الرافعي »[(٣)]. وهذا يدل على نبوغه في العلم والمعرفة، واشتهاره بالتصنيف والتأليف، وهو مازال في ريعان شبابه. لذلك لانستغرب حين نرى شيخه الذهبي يشهد في «المعجم المختص» بأن له «تصانيف مفيدة»[(٤)]. وتبعه العيني قائلاً: «وله مصنفات عديدة مفيدة»[(٥)]. وأشار ابن حجر إلى إكثاره في التصنيف قائلاً: «وصنف التصانيف الكثيرة في التفسير والتاريخ والأحكام»[(٦)].

= زادة ١٥، ٦٧، فهرس مكتبة نور عثمانية ١٣، فهرس مكتبة ولي الدين ١٣٤.

(١) المصعد الأحمد لابن الجزري، المنشور في أول مسند الإمام أحمد بتحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ١/ ٤٠.

(٢) طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٣، ابن حجر، الإنباه ١/ ٤٥ ـ ٤٦، شذرات لابن العماد ٦/ ٢٣١، جلاء العينين لابن الآلوسي ٣٤.

(٣) ابن حجر، الأنباء ١/ ٤٦.

(٤) نقلاً عن ذيل الحسيني ٥٨، وطبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٤، والدرر الكامنة لابن حجر ١/ ٣٧٤.

(٥) نقلاً عن النجوم الزاهرة لابن تغري بردى ١١/ ١٢٣.

(٦) ابن حجر، الأنباء ١/ ٤٦، طاشكبري زادة، مفتاح السعادة ١/ ٢٠٥.

وجاء عند مترجميه أن «سارت تصانيفه في البلاد في حياته، وانتفع بها الناس بعد وفاته»[١].

ومما يدل على شهرة تصانيفه في حياته ما جاء في بعض الأخبار من أن السيرة النبوية لابن كثير ومن خطه قرئت في ميعاد حديث في خلق كثير وجم غفير في شهر رجب سنة ٧٦٣هـ، تحت قبة النَّسر بدمشق على الكرسي الذي كان يقرأ عليه المصحف[٢].

وكذلك ورد أنَّ شاباً أعجمياً من بلاد تبريز وخراسان قدم إلى دمشق ليحصل على الإجازة من ابن كثير. وكان هذا الشاب يحفظ فيما يحفظ جامع المسانيد لابن كثير[٣]، مع أنه لم يكن كمله بعد، فكل هذه الأخبار تدل فيما تدل على اهتمام الناس بمؤلفات ابن كثير وتناقلها وتداولها بينهم، وكذلك على ذيوعها وانتشارها إلى أقصى الشرق في بلاد تبريز وخراسان، وعلى حرص الناس ومسارعتهم في الحصول على أجزاء مؤلفاته أولاً بأول.

وقد أثنى الباحثون في عصرنا على مؤلفاته، وقدروها حق التقدير. فاعتبرها الدكتور صلاح الدين المنجد «من أجود المؤلفات في تراثنا العربي، وأكثرها فائدة. فكل ما كتب ابن كثير جيد، وقلَّ أن نجد عند غيره ما عنده من سعة الاطلاع والتحرير والضبط، وحسن الانتقاء والدقة»[٤].

وقال الأستاذ أحمد الشرباصي: إنها «تدل على طول باعه، وعلو مكانته، وسمو منزلته بين العلماء. وهو ينتقل عادة في كتاباته وتآليفه بين مجالات ثلاث، مجال القرآن الكريم، ومجال السنة النبوية الشريفة، ومجال التاريخ والآثار. وماعدا هذه المجالات يأتي تبعاً أو عرضاً»[٥] وقال عن أسلوبه في

---

(١) الدرر الكامنة لابن حجر ١/ ٣٧٤، ذيل السيوطي ٣٦١ ـ ٣٦٢، البدر الطالع للشوكاني ١/ ١٥٣.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٢٩٤.

(٣) نفس المصدر ١٤/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(٤) ترجمة المنجد لابن كثير في أول مولد الرسول ﷺ لابن كثير صفحة ٨.

(٥) مقالة عن ابن كثير، في مجلة الحج، القاهرة ١٠/ ٢(شعبان سنة ١٣٧٥هـ)/ صفحة =

مؤلفاته: أنه «يميل إلى الوضوح والجلاء، وهو أحياناً يتعمد السجع، وقد يسرف فيه أو يتكلف، ولكنه إذا تخلص من هذا السجع، اندفع يتحدث حديث العالم الذي تشغله الفكرة والمعاني عن التكلف في الأسلوب والمباني»[٤].

ومن عادة المؤرخين أنهم لايذكرون في تراجم المؤلفين من مؤلفاتهم إلا أشهرها بدون استقصاء، وأنهم كثيراً ما يهملون ذكر الرسائل الصغيرة التي كانت في قديم الزمان بمثابة المقالات العلمية في عصرنا، مما كان يؤدي كثيراً إلى ضياع بعض الكتب وأكثر الرسائل ونسيان ذكرها على مدى الدهور، أو نسبتها إلى آخرين. إلا أنه كان من حسن حظنا، ومن حسن حظ العلم أن ابن كثير تعوَّد في كتبه على الإشارة إلى مؤلفاته ورسائله، والإحالة عليها، ليراجع من أراد من القراء موضوعات معينة بسطها ابن كثير في تلك المؤلفات والرسائل. وهذا عاد علينا بفائدة جليلة في معرفة أسماء بعض مؤلفاته وأكثر رسائله أهمل ذكرها المترجمون، فكادت أن تضيع حتى أسمائها، لولا عنايته.

فإن الشيخ عبد الرزاق حمزة أعطانا للآن أطول قائمة لمؤلفات ابن كثير، يبلغ فيها عددها ستة عشر كتاباً ورسالة[١]. وقد بلغ عددها عندنا في هذا الكتاب أربعاً وثلاثين كتاباً ورسالة، جمعتها مستعيناً من إشارات ابن كثير في بعض مؤلفاته المطبوعة، ولا يبعد أن يزداد هذا العدد بالاطلاع على مؤلفات أخرى مطبوعة لم نطلع عليها للآن، أو بنشر مؤلفاته التي مازالت مخطوطة في مكتبات العالم، أو بالعثور على مؤلفاته المفقودة[٢].

= ١٠٤، ١٠٦.

(١) الباعث الحثيث ١٦ ـ ١٨، ثم تبعه في ذلك الشيخ أحمد محمد شاكر (عمدة التفسير ١/ ٣٤ ـ ٣٦).

(٢) وقد زِدْتُ على ما ذكره المؤلف ما رأيته مطبوعاً سبعة كتب وهي:
جامع المسانيد والسنن، والمسائل الفقهية التي انفرد بها الإمام الشافعي، ومناقب الشافعي، وطبقات الفقهاء الشافعيين، ومسند الفاروق أمير المؤمنين أبي حفص عمر ابن الخطاب وإرشاد الفقيه إلى معرفة أدلة التنبيه، وتحفة الطالب بمعرفة أدلة ابن الحاجب واستدركت عليه أيضاً من أسماء الكتب والأجزاء خمسة عشر كتاباً.
فيكون مجموع الكتب إحدى وخمسين كتاباً. انتهى من مصححه.

ونحن في عرض مؤلفاته هنا قدمنا المطبوعة منها على المخطوطة. ثم ذكرنا المفقودة منها، وهي التي عرفت لمترجميه قبلنا، ثم ذكرنا كتباً ورسائل مجهولة، وهي التي لم تعرف قبلنا لأحد من مترجميه الذين اطلعنا للآن على كتبهم، وهي أيضاً كلها مفقودة، ولكن تمييزاً لها من المعروفة عند المترجمين السابقين علينا ذكرناها وحدها. وإنما ذكرنا المفقودة والمجهولة من مؤلفات ابن كثير، ليكون ذلك دليلاً ومرشداً للباحثين الناقبين المختصين بالاشتغال في المخطوطات للعثور عليها في خزائن مكتبات العالم.

* * *

أ ـ المؤلفات المطبوعة

١ ـ تفسير القرآن العظيم:

يمتاز تفسير ابن كثير في تفسيره القرآن بالقرآن، ثم بالأحاديث الصحيحة المشهورة التي يسوقها بأسانيدها، مع تخريجها من دواوين الحديث المختلفة، ثم يتكلم عليها جرحاً وتعديلاً لبيان ما فيها من غرابة أو نكارة أو شذوذ، ثم يدعم ما يرجحه بآثار الصحابة والتابعين وأقوال السلف الصالحين، مشيراً في ذلك كله إلى مصادره التي اختار منها مواده من كتب في التفسير وعلوم القرآن، والحديث وأصوله ورجاله، والتاريخ والفقه والكلام، وما إلى ذلك.

وقد أشار ابن كثير إلى منهجه في التفسير في مقدمة الكتاب فقال: «إنَّ أصحَّ الطرق في ذلك أن يفسَّر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد فُسِّرَ في موضع آخر. فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له...

وإذا لم نجد التفسير في القرآن ولافي السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لاسيما علماءهم وكبراءهم، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين المهديين...

وإذا لم تجد التفسير في القرآن ولافي السنة، ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين...

أما التفسير بمجرد الرأي فهو حرام»[1].

وإذا كانت هناك كتب أخرى في التفسير مثل تفسير ابن جرير الطبري، والدر المنثور للسيوطي وغيرهما، فإن ميزة ابن كثير في تفسيره أنه نجح إلى حد بعيد في اختيار الأحاديث الصحيحة والآثار المسندة، كما حاول الابتعاد عن الإسرائيليات، وكشف ما فيها من مواضع الضعف والدسائس.

وكانت خطته بشأن الإسرائيليات، كما بينها في مقدمة تفسيره، وفي مواضع أخرى منه، نذكر ملخصها فيما يأتي:

«إن الأحاديث الإسرائيلية التي تُذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد على ثلاثة أقسام:

الأول: ما علمنا صحته مما بأيدينا، مما نشهد له بالصدق، فذاك صحيح. قبلناه لموافقته الصحيح.

الثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه رددناه.

الثالث: ما هو مسكوت عنه، لامن هذا القبيل ولا من ذاك، لانؤمن به ولانكذبه. (بل نجعله وقفاً)، تجوز حكايته لما تقدم. (أي للاستشهاد لا للاعتضاد) وغالب ذلك مما لافائدة فيه تعود على أمر ديني. ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيراً، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك... فيما أبهمه الله تعالى في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا في دينهم، ولكن نقل الخلاف في ذلك عنهم جائز»[2].

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٣ـ٥، وانظر أيضاً ٣/٢٤٦، طبعة الحلبي القاهرة سنة ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م

(٢) ولكن الأستاذ أحمد محمد شاكر لم يوافقه على نقل الخلاف في الإسرائيليات المسكوت عنها في تفسير القرآن. لأن إباحة التحدث فيها شيء، و«جعله قولاً أو رواية في معنى الآيات، أو في تعيين ما لم يعين فيها، أو في تفصيل ما أجمل فيها شيء آخر!! لأن في إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله، ما يوهم أن هذا الذي لانعرف صدقه وكذبه مبين لمعنى قول الله سبحانه، ومفصل لما أجمل فيه. وحاشا لله ولكتابه من ذلك. =

وبعد أن ضرب مثالاً لبيان القرآن الخلاف في عدد أصحاب الكهف، وطريقة رده القولين الأولين وسكوته عن الثالث، قال ابن كثير: «فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف، أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام، وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته، لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشغل به عن الأهم فالأهم»[1].

وأوضح ابن كثير هذا المفهوم في معنى (ق) إيضاحاً أكثر، حين روى عن بعض السلف أنه جبل محيط بجميع الأرض، يقال له جبل قاف، فقال: وكان هذا والله أعلم من خرافات بني إسرائيل، التي أخذها عنهم بعض الناس، لما رأى من جواز هذه الرواية عنهم مما لا يصدق ولا يكذب. وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبسون به على الناس أمر دينهم. كما افترى في هذه الأمة مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، وما بالعهد من قدم. فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى، وقلة الحفاظ والنقاد فيهم، وشربهم الخمور، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتاب الله وآياته. وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: (وحدثوا عن بني إسرائيل، ولاحرج) فيما قد يجوزه العقل، أما فيما تحيله، ويحكم فيه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل، والله أعلم. وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، ولله الحمد والمنة... إلخ[2]

لذلك اختار ابن كثير في تفسيره مسلك «الإعراض عن كثير من الأحاديث

= وأن الرسول ﷺ إذا أذن بالتحدث عنهم، أمرنا ألا نصدقهم ولانكذبهم، فأي تصديق لروايتهم وأقاويلهم أقوى من أن نقرنها بكتاب الله. ونضعها منه موضع التفسير أو البيان؟ اللهم غفراً».

(عمدة التفسير عن ابن كثير ١/ ١٥).

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٤، والزيادات من ٣/ ١٨١.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٢١، ١٨١ ـ ١٨٢.

الإسرائيلية، لما فيها من تضييع الزمان، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم، فإنه لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها، كما حرره الحفاظ المتقنون من هذه الأمة»[1].

فإذا تطرقت إلى تفسير ابن كثير بعض الأحاديث والآثار الضعيفة والموضوعة والإسرائيليات المدسوسة، فإنها قليلة جداً بالنسبة لسابقيه. ويكفي لابن كثير ثناءً أن تفسيره يعتبر للآن من أكثر التفاسير اعتماداً على الكتاب والسنة الصحيحة، وأبعدها من الخرافات الإسرائيلية. ولذلك حاز تفسيره إعجاب وثقة العلماء القدامى والمحدثين من المسلمين، وأصبح مرجعاً كبيراً للدارسين والباحثين.

فقد أثنى على هذا التفسير ابن تيمية ـ شيخ ابن كثير ـ على قول البستاني[2] كما اعتبره شيخه الذهبي «مفسراً نقاداً»[3] وقال السيوطي عن هذا التفسير «لم يؤلف على نمطه مثله»[4].

أما الشوكاني فكان يعده «من أحسن التفاسير، إن لم يكن أحسنها» لأنه «جمع فيه فأوعى، ونقل المذاهب والأخبار والآثار، وتكلم بأحسن الكلام وأنفسه»[5]. واعتبره ابن فهد: «من أفيد كتب التفسير بالرواية»، لأنه «يتكلم في

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٢١، ٣/ ١٨١ـ١٨٢.

(٢) دائرة المعارف للبستاني ٣/ ٤٧٧، وإذا صح ما نسبه البستاني إلى ابن تيمية، فمعناه أن ابن كثير ألف تفسيره في حياة شيخه ابن تيمية (المتوفى سنة ٧٢٨هـ)، أو على الأقل أنه بدأ فيه في حياته.

(٣) ذيل الحسيني ٥٨ (نقلاً عن المعجم المختص للذهبي)، وقد أخطأ ابن قاضي شهبة، فنقل «مفسر نقال» (طبقاته ٤٧٤) ثم تبعه ابن حجر (الدرر١/ ٣٧٤) وغيره في ذلك، وإنما صححناه بما عند الحسيني الذي كان من تلامذة الذهبي، ومن معاصري ابن كثير وأصحابه، وقيل من تلامذته.

(٤) ذيل السيوطي ٣٦١.

(٥) البدر الطالع للشوكاني ١/ ١٥٣.

أسانيد الروايات جرحاً وتعديلاً غالباً، ولايرسلها إرسالاً، كما يفعل غالب المفسرين من الرواة»[1].

وعلق الشيخ أحمد محمد شاكر عليه باعتباره من «أحسن التفاسير التي رأينا وأجودها وأدقها، بعد تفسير إمام المفسرين أبي جعفر الطبري، ولسنا نوازن بينهما وبين أي تفسير آخر مما بأيدينا، فما رأينا مثلهما، ولا ما يقاربهما»، واعتبره بجانب فائدته في التفسير «معلماً ومرشداً» لطلاب الحديث، لأن الطالب «يعرف به كيف ينقد الأسانيد والمتون، وكيف يميِّز الصحيح من غيره، فهو كتاب في المعنى تعليمي عظيم، ونفعه جليل كثير»[2].

ولاحظ الدكتور صلاح الدين المنجد بأنه «من أحسن التفاسير المعروفة (لاعتماده فيه) على القرآن وعلى الأحاديث الصحاح، وتلك ميزة ذات شأن. وقد كان ابن كثير واسع العلم، جيد الاستنباط، فأتى تفسيره صحيحاً ممتعاً»[3]. وقال الشيخ أحمد الشرباصي: «تفسيره الجميل للقرآن العظيم يدل على واسع علمه وكبير اطلاعه على السنة»[4].

ويظهر أن تفسير ابن كثير لقي قبولاً عاماً من الناس، فأقبل كثير من النساخ بنسخه[5]، وبعض المؤلفين بإختصاره وتلخيصه، كما يبدو ذلك من الأخبار التي وصلتنا، مع ملاحظة أنه ليس لدينا في الوقت الحاضر كل الأخبار عن مؤلفنا.

فنسخه ناصر الدين محمد بن بهادر الشجاعي بخطه[6]. وانتهى من نسخ التفسير وفضائل القرآن لابن كثير، محمد بن معمر المقري البغدادي،

---

(١) حاشية ذيل الحسيني ٥٨ ـ ٥٩.

(٢) عمدة التفسير١/ ٦.

(٣) مجلة معهد المخطوطات العربية القاهرة ٤/ ١(مايو سنة ١٩٥٨م)/ صفحة ١٦٦.

(٤) مجلة الحج، القاهرة، ١٠/ ٢ (شعبان سنة ١٣٧٥هـ)/ صفحة١٠٣.

(٥) يدل على ذلك وجود مخطوطاته الكثيرة في مكتبات العالم، انظر مراجع مخطوطات مؤلفاته في أول هذا الفصل من هذا الكتاب.

(٦) ابن حجر، الدرر الكامنة٣/ ٣٩٨.

سنة ٧٥٩هـ[١]. وفرغ محمد بن علي الصوفي البواب بالخانقاه السمساطية من كتابته سنة ٨٢٥هـ[٢].

وقد قام بتلخيص تفسير ابن كثير في أربع مجلدات في نصف حجم الأصل شمس الدين محمد بن علي البعلي المعروف بابن اليونانية (٧٠٧ ـ ٧٩٣)[٣].

ثم اختصره عفيف الدين ابن مسعود الكازروني في كتابه البدر المنير[٤]. وقد طبع هذا المختصر الأخير، وعلى هامشه أصله سنة ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م، على قول بروكلمان[٥].

ثم بدأ بتلخيصه ونشره في زماننا الشيخ أحمد محمد شاكر (المتوفى سنة ١٩٥٨م) معتمداً على مخطوطة الأزهر مع مراجعة مصادر ابن كثير من كتب التفسير ودواوين المحدثين وكتب في رجال الحديث والتراجم. وسمي مختصره (عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير)[٦].

وكان الشيخ شاكر ينوي إخراج الكتاب في صورته الأصلية محققاً، مهذباً منقحاً، مصححاً، في طبعة علمية متقنة، بعد فراغه من الاختصار[٧] ولكن وافاه الأجل، فلم ينشر من مختصره إلا أقل من نصف تفسير ابن كثير[٨].

---

(١) فضائل القرآن لابن كثير ٥٨ (في نهاية المجلد الرابع من تفسير ابن كثير، طبعة الحلبي).

(٢) وهذه المخطوطة محفوظة في مكتبة الأزهر (انظر وصفها في عمدة التفسير ١/ ٢٠ ـ ٢١)، وعليها اعتمد الشيخ شاكر في تصحيح النصوص عند نشر عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير.

(٣) الدرر الكامنة لابن حجر ٤/ ٥٦، شذرات لابن العماد ٦/ ٣٣١.

(٤) زيدان، آداب اللغة العربية ٣/ ٣٠٨، وفيه أن من المختصر المذكور نسخة في نور عثمانية.

(٥) بروكلمان، تاريخ آداب اللغة العربية ٢/ ٦١.

(٦) انظر تعريف كتاب عمدة التفسير، في مقال للدكتور المنجد، مجلة المخطوطات العربية ٤/ ١(مايو سنة ١٩٥٨م) ص ١٦٦.

(٧) عمدة التفسير ١/ ١٣٠٧.

(٨) اطلعنا على خمسة أجزاء من المختصر المذكور، طبع في دار المعارف بالقاهرة سنة ١٣٨٦هـ/ ١٩٥٦م، بلغ فيها الشيخ شاكر إلى الآية الثامنة عن سورة الأنفال وهي =

وقد زاد اهتمام الناس بتفسير ابن كثير منذ أن تيسر العلم بانتشار الوسائل الحديثة للطبع والنشر، فطبع مراراً ولكن أكثرها طبعات محرفة، أشرنا إليها في مقالنا عن تفسيره[1]. ونشرت ترجمة تفسيره باللغة الأوردية في خمسة أجزاء من باكستان سنة ١٩٥٢م[2].

٢ـ فضائل القرآن:

يبدو أن الكتاب كان مفقوداً، أو كتبه النساخ في بعض نسخ تفسير ابن كثير، فاختفى وجوده عن أنظار المترجمين لابن كثير، فلم يذكر منهم إلا بروكلمان، فإنه عدَّه من بين مؤلفاته، وسماه (فضائل القرآن وتاريخ جامعيه وكتابته ولغاته)[3] على حين أن المؤلف سماه في تاريخه (فضائل القرآن) فقط[4].

وكان أول ما نشره الأستاذ رشيد رضا رحمه الله، حيث ألحقه بالمجلد التاسع والأخير من تفسير ابن كثير[5]، ثم نشره منفرداً في نحو مئتين صفحة من التقطيع الصغير[6]، وبلغني أن هناك نسخة مطبوعة من هذا الكتاب في فهارس دار الكتب المصرية بالقاهرة، باسم (فضائل القرآن وتاريخه وجمعه وكتابته)[7].

وقد رأيته في آخره الجزء الرابع والأخير من تفسير ابن كثير(طبعة الحلبي) واعتبره ناشره ذيلاً لتفسير ابن كثير قائلاً: «وهو ذيل لتفسير الحافظ ابن كثير، وضعه في آخر التفسير، وجعله متمماً له وجدناه في آخر النسخة المكية

= توافق في طبعة الحلبي من التفسير ٢/ ٢٨٩.

(١) مجلة صوت الجامعة، بنارس بالهند٢/ ٢ (يناير سنة ١٩٧١م)/ ص ٤٦ ـ ٤٧.

(٢) نشرت الترجمة من أصح المطابع، آرام باغ، كراتشي، الباكستان.

(٣) بروكلمان، ملحق تاريخ آداب اللغة العربية ٢/ ٤٩

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ٥/ ٣٤٧

(٥) مطبعة المنار بالقاهرة سنة ١٣٤٣ـ١٣٤٧هـ.

(٦) نفس المطبعة سنة ١٩٤٨م.

(٧) أخبرني بها الدكتور محمد إسماعيل الندوي من القاهرة بتاريخ ٣١/ ١/ ١٩٦٨م.

الوحيدة، المقابلة على نسخة المؤلف، ولكنه غير موجود في النسخة المطبوعة من مطبعة بولاق»[١].

ولحل مشكلة الذيل نرجع إلى ابن كثير، فنجد المؤلف متردداً في تقديم هذا الكتاب على التفسير وتأخيره، فهو حين يعتبره ملحقاً لتفسيره في أول كتابه فضائل القرآن، اقتداء بالإمام البخاري في تقديمه التفسير على الفضائل لأهميته[٢]، يأتي في تأريخه (وهو متأخر زمنياً من تأليف التفسير) فيعتبره مقدمة لتفسيره، فيقول حين الإشارة إلى زيد بن ثابت كاتب الوحي، أثناء الكلام على الاتفاق على مصحف عثمان (رضي الله عنه): «كما قررنا ذلك في كتاب فضائل القرآن، الذي كتبناه مقدمة في أول كتابنا التفسير»[٣]. وعلى هذا يجب أن يكون مكانه المناسب في أول التفسير.

وقد تشابه أمره على الشيخ ضياء الدين الإصلاحي، فاعتبره أولاً «شرح قطعة من البخاري »، وهو من مؤلفات ابن كثير الناقصة المفقودة، ولكن بعد رجوعه إلى تاريخ المؤلف وتفسيره، تعرف على حقيقته بتصريحات المؤلف، فرجع إلى الصواب في نهاية القسط الثالث والأخير من مقاله عن ابن كثير[٤].

وتصريح ابن كثير في التفسير إلى كتابه هذا، يدل على أنه أسبق تأليفاً من

---

(١) انظر صفحة عنوان فضائل القرآن في نهاية تفسير ابن كثير (طبعة الحلبي) وقد أستغرق جزء فضائل القرآن فيها ٥٨ صفحة، ولا أعرف بالضبط ـ لعدم اطلاعي على تفسير ابن كثير طبعة المنار ـ من الذي اعتبره ذيلاً لتفسير ابن كثير؟ هل هو ناشر الحلبي؟ أم هو الأستاذ رشيد رضا؟ الذي هو أول من نشر التفسير وفضائل القرآن معاً ثم اعتمد على طبعته الناشرون بعده. وأغلب ظني أن طبعة الحلبي اعتمدت على طبعة المنار، وإن لم يصرح الناشر بذلك إيهاماً للناس أنها غيرها، ولكن تأكد لي ذلك بعد المقابلة بين فضائل القرآن طبعة الحلبي سنة ١٩٥٢م، وبين فضائل القرآن طبعة المنار سنة ١٩٤٨م أن ناشر الحلبي تابع طبعة المنار في نصها وتعليقها وهوامشها تماماً بالحرف.

(٢) فضائل القرآن لابن كثير، طبعة المنار صفحة ٣، وطبعة الحلبي صفحة ٢، في نهاية المجلد الرابع من التفسير.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ٥/ ٣٤٧.

(٤) مجلة معارف الأوردية، أعظم جره بالهند، ٩٤/ ٥(نوفمبر سنة ١٩٦٤م)/ صفحة ٣٦١، و٩٥/ ١ (يناير سنة ١٩٦٥م)/ ص ٤٢.

تفسيره إذا أتفقت كل مخطوطات التفسير على هذا التصريح، وزال شبهة إضافته فيما بعد.

وأصل هذا الكتاب هو (كتاب فضائل القرآن) في صحيح البخاري[1]. ومنهج ابن كثير فيه أنه يذكر في أول كل تحث ما يختار مما ورد عند البخاري من أحاديث[2]، ثم يشرحها إذا كان في بعض ألفاظها من غموض أو إبهام، ويخرجها من كتب الصحاح والمسانيد، ويتكلم على أسانيدها جرحاً وتعديلاً، ويبيِّن غرابة أو نكارة أو إنفراداً إذا كان في بعضها، ويشير إلى غرض البخاري إذا كان الغرض مبهماً[3]، كما ينبه على الأحاديث التي ليست لها مناسبة بالأبواب التي جاءت فيها[4]، ولاحظ المؤلف في ترتيب كتابه ترتيب أبواب البخاري، إلا أنه يضيف أثناء مباحثه فصولاً يراها ضرورية لإكمال البحث.

وقد تكلمنا على مصادر هذا الكتاب، وعرضنا ما يحتوي عليه من مباحث في مقال خاص[5] فلا حاجة إلى إعادتها هنا.

٣ ـ البدايــة والنهـايــة:

وهي موسوعة نفيسة شاملة معروفة في التاريخ الإسلامي العام، من بدء الخليقة إلى ما يقارب نهاية القرن الثامن الهجري. وهي من أكبر التواريخ الإسلامية حجماً، وأغزرها مادة، وأكثرها فائدة. احتوت على التاريخ القديم، وعلى أطول فترة من تاريخ المسلمين ببسط وتفصيل زائد. جمع فيها ابن كثير حصيلة المجهودات العلمية التي قام بها المسلمون في أكثر من سبعة قرون قبله في ميادين العلوم الإسلامية من تفسير وحديث وسيرة وتاريخ وتراجم وما إلى ذلك.

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٤٥ ـ ١٥٤، مطبعة العثمانية المصرية سنة ١٣٥١هـ.

(٢) ترك ابن كثير الأحاديث التي وردت في البخاري في فضائل السور، لأنه ذكرها في تفسيره. (فضائل القرآن ٣٠) طبعة الحلبي سنة ١٣٧١هـ.

(٣) فضائل القرآن لابن كثير ٣، ٤، ٦، ٣١، ٤٠.

(٤) فضائل القرآن لابن كثير ٧، ٤٨.

(٥) مجلة صوت الجامعة، بنارس بالهند٢/ ٣ـ٤ (يوليو سنة ١٩٧١م) ص ٧٩ ـ ٨٨.

وقد درسنا هذا الكتاب منفرداً بعنوان «ابن كثير كمؤرخ، في ضوء كتابه البداية والنهاية» تكلمنا فيه على مباحثه ومصادره ومنهجه وقيمته التاريخية.

ونشير هنا إلى خلاف أثير حول نسبة ما بعد سنة ٧٣٨هـ من البداية والنهاية إلى ابن كثير. فقد اعتبر ابن كثير كتابه هذا ذيلاً على تاريخ شيخه علم الدين البرزالي (٦٦٥ ـ ٧٣٩)[١]، الذي ذيَّل بتاريخه على تاريخ الشيخ شهاب الدين أبي شامة المقدسي (٥٩٩ ـ ٦٦٥)[٢]. أشار ابن كثير إلى ذلك مراراً، منها ما صرَّح في نهاية حوادث و وفيات سنة ٧٣٨هـ قائلاً: «هذا آخر ما أرخه الحافظ علم الدين البرزالي في كتابه الذي ذيَّل به على تاريخ شهاب الدين أبي شامة المقدسي، وقد ذيلت على تاريخه إلى زماننا هذا. وكان فراغي من الانتقاء من تاريخه يوم الأربعاء ٢٠ جمادى الآخرة من سنة ٧٥١هـ. أحسن الله خاتمتها. آمين . وإلى هنا انتهى ما كتبته من لدن خلق آدم إلى زماننا هذا، ولله الحمد والمنة». ثم تمثل بقول الحريري:

«وإن تجد عيباً فسدَّ الخللا   فجلَّ من لاعيب وعلا»

وأثبت في النهاية اسمه: «كتبه إسماعيل بن كثير بن ضوء القرشي الشافعي عفا الله تعالى عنه»[٣].

فقد كان هذا التصريح وغيره من الوجوه كما ستأتي ـ سبباً في فهم بعض الناس أنَّ هذا آخر كتاب «البداية والنهاية»، وأن مابعده من المطبوع من تاريخه ليس لابن كثير. فقد أشار هنري لاوست إلى ارتياب الأستاذ راغب الطباخ، وتردده في نسبة ما يأتي من تاريخ ابن كثير المطبوع من سنة ٧٣٩ ـ ٧٦٨هـ إلى ابن كثير. وذكر هنري لاوست أنَّ الشيخ محمد أحمد الدهمان خالفه ورد

(١) سمى المنجد تاريخ البرزالي بالمقتفى في التاريخ (المؤرخون الدمشقيون) ٤١، ومجلة معهد المخطوطات العربية ١/٢ (مايو سنة ١٩٥٦م)/ ص١٠١.

(٢) يشير ابن كثير في البداية والنهاية إلى تاريخ أبي شامة بـ«ذيل الروضتين» وجاء اسمه في دائرة المعارف الإسلامية بـ«تاريخ دمشق». (الترجمة العربية ٣/ ٥٣٣).

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/١٨٣ ـ ١٨٤، وانظر أيضاً ١٣/ ١٥٣، ٢٥١، ١٤/ ١٨٥.

عليه[١]. ولكنني لم أستطع مراجعة ما كتبه الأستاذان المحترمان حول هذا الموضوع في مجلة مجمع العلمي العربي بدمشق[٢] لعدم العثور على الأعداد القديمة من المجلة حتى أعرف حجتهما.

وقد تبين لي مراجعة الجزء المذكور من التاريخ أنَّ سبب هذا الوهم، هو ما يلاحظه دارس هذا الجزء من تصريح باسم ابن كثير في بعض الأماكن، و ورود ألقاب التعظيم والتفخيم مع اسمه إجلالاً واحتراماً له، ومن استعمال كلمات الترحيم غفراناً وترحماً عليه. فقد ورد في ذكر وفاة الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام «وقد أخبر القاضي أمين الدين ابن القلانسي رحمه الله، شيخنا الحافظ العلامة عماد الدين ابن كثير رحمه الله... إلخ[٣] و ورد اسمه مصرحاً فيمن اشترك من جانب قاضي القضاة الشافعي في مجلس بدار السعادة لفض النزاع بين القضاة[٣]، وكذلك جاء اسمه مصرحاً في ذكر حضوره درس التفسير بالجامع الأموي، «وحضر الشيخ العلامة عماد الدين ابن كثير درس التفسير الذي أنشأه ملك الأمراء... إلخ»[٣].

فإنَّ هذه العبارات وأمثالها- مع قلتها ـ توهم الباحث وتشككه في نسبة الجزء المذكور إلى ابن كثير. ويمكن تأويلها عندنا بأنها من زيادات أبنائه أو تلامذته الذين نسخوا تأريخه في حياته أو بعده. فقد علمنا أنَّ ابن كثير كان قد أضر في آخر حياته[٤] وعلى هذا يحتمل أنه كان يستعين بأحد أبنائه أو تلاميذته في تكميل مشروعاته العلمية. وكان هذا الكاتب المجهول يضيف إليه ما يراه مناسباً من الكلمات للتوضيح والبيان، وخاصة بما يتعلق بنشاط شيخه الضرير.

ويقوي هذا الاحتمال ما جاء في التاريخ المطبوع من شرح لبعض صيغ

---

(١) مقالة بعنوان «ابن كثير المؤرخ»، مجلة أرابيكا الفرنسية، يناير سنة ١٩٥٥م، صفحة ٦٥.

(٢) مقالهما حول تاريخ ابن كثير، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٨/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧، ٢٠/ ٩٠ ـ ٩٣.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ١٨٨، ٣١٧، ٣٢١.

(٤) ابن الجزري، المصعد الأحمد المنشور مع مسند الإمام أحمد بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر وشرحه ١/ ٤٠، ابن حجر الدرر الكامنة ١/ ٣٧٤.

المتكلم بين خطين. فقد جاء ذكر اجتماع ابن كثير مع الخليفة المعتضد بالله (٧٥٣ ـ ٧٦٣) «وفي يوم. . . اجتمعنا ـ يقول الشيخ عماد الدين ابن كثير رحمه الله ـ بالخليفة. . . إلخ»[١] وكما ورد في ذكر نزاع بين الحنابلة في مسألة المناقلة «وصنف (ابن تيمية) في ذلك رسالة منفردة وقفت عليها ـ يعني الشيخ عماد الدين ابن كثير ـ فرأيتها في غاية الحسن والإفادة. . . إلخ»[٢]، أو ما جاء في ذكر منام غريب: «ورأيت ـ يعني المصنف ـ في ليلة الإثنين. . . إلخ»[٣] وهذا يدل دلالة واضحة على أنَّ الجزء الأخير من البداية والنهاية من تأليف ابن كثير، إلا أن الناسخ أضاف فيه بعض الكلمات للشرح والتوضيح.

والحقيقة أنَّ الطبعة الحالية للبداية والنهاية سقيمة، تحتاج إلى تنقيح وتهذيب جديد على أسس التحقيق الحديثة المعروفة بمراجعة جميع المخطوطات الموجودة في العالم، فإنَّ ناشر الطبعة التي بأيدينا لم يتنبه إلى كثير من الزيادات، وخاصة مما نقلها من النسخة المصورة المحفوظة بدار الكتب المصرية، مع أنها دخيلة كما يبدو لكل من تأملها.

فقد جاء في ترجمة شريح القاضي قوله: كاتب مجهول، وقد تقدمت ترجمته في سنة ٧٨هـ، بما فيها من الزيادة الكثيرة، غير ما ذكره المؤلف هنا وهناك»[٢]. وهناك عديد من مثل هذه الملاحظات أثناء نص ابن كثير[٣]. كما أنَّ هذا الكاتب المجهول أضاف فصلاً طويلاً في نحو ٣٥ صفحة معترضاً على ابن كثير تقديم شاعرين جرير والفرزدق وتطويل ترجمتهما على الحسن بن أبي الحسن، وابن سيرين، ووهب بن منبه، واختصار تراجمهم[٤]، وهكذا نجد هذه الزيادات في كثير من التراجم[٥]. ولكن الناشر لم يصرح بوصف المخطوطة التي صورت منه النسخة المحفوظة في دار الكتب المصرية، فلم

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٢٤٥، ٢٥٤، ٢٩١.

(٢) نفس المصدر ٩/ ٧٤.

(٣) نفسه ٩/ ١١٣، ٢١٤، ٢٦٧، ٢٧٦.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ٩/ ٢٦٧ ـ ٣٠٢.

(٥) نفسه ٩/ ٢٢٤ـ ٢٢٩، ٢٣٥ـ ٢٤٤، ٢٥٠، ٣٠٦ـ ٣٠٩، ٣١٢، ٣١٤ـ٣١٩، ٣٤٤ـ٣٤٨ إلخ.

نعرف اسم ناسخ هذه المخطوطة، ومن كان يملكها حتى نعرف مرجع الزيادات المذكورة وغيرها.

ولكن عندنا بعض الأخبار ترشدنا إلى بعض أولاد ابن كثير، وأحد تلامذته كانوا يعينون الشيخ الضرير في نسخ كتابه، ويلازمونه، أو أنهم ألفوا في التاريخ كتباً مستقلة. فقد قيل: إن عز الدين عمر (٧٣٨ ـ ٧٨٣) أحد أولاد ابن كثير «كتب تصانيف أبيه»، منها جامع المسانيد والسنن لابن كثير[١]. و ورد عن ابن آخر له وهو بدر الدين أبو البقاء محمد (٧٥٩ ـ ٨٠٣) أنه «علق تاريخاً للحوادث التي في زمنه، ذكر فيه أشياء غريبة»[٢].

وقد كان شهاب الدين ابن حجي (٧٥١ ـ ٨١٦) تلميذ ابن كثير، على اتصال قوي بشيخه في آخر حياته، وقد صرح بملازمته له ست سنين[٣]. وهو أيضاً ممن ذيّل على «البداية والنهاية»[٤]. وعلى هذا يبدو أنَّ أحد هؤلاء الثلاثة يمكن أن يكون سبباً في إقحام ما أقحم من الزيادات في بعض العبارات والتراجم في تاريخ ابن كثير.

وكذلك يقوي وهم من يتردد في قبول نسبة الجزء الذي نناقشه إلى ابن كثير، ما يلاحظه من فرق في ترتيب هذا القسم المتأخر من «البداية والنهاية» وبين القسم الذي قبله. وهو أنَّ الوفيات كانت تذكر إلى نهاية سنة ٧٣٨هـ مستقلة منفردة عن الحوادث. أما في هذا القسم المتأخر فإن ذكرها اضمحل كثيراً، كما أنها بدأت تذكر أثناء الحوادث تبع وقوعها باختصار كثير. ولكن يمكن تعليل هذا الموقف بما يلاحظ عند المؤرخين حين يكتبون تاريخ عصرهم من غلبة لون المذكرات اليومية، وهذا حدث لابن كثير بالنسبة لتاريخ عصره.

وبالإضافة إلى ذلك كله، فقد تبين لنا من مراجعة القسم المذكور من تاريخ

---

(١) ابن حجر، إنباه الغمر بأبناء العمر ٢/ ٧٥، ١/ ٤٧.
(٢) السخاوي، الضوء اللامع ٧/ ١٣٩، شذرات لابن العماد٧/ ٣٥.
(٣) ابن حجر، الإنباه ١/ ٤٦.
(٤) السخاوي، الضوء اللامع ١/ ٢٧٠، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ٣١٠، مطبعة العاني، بغداد سنة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م، ابن العماد، شذرات الذهب ٧/ ١١٧.

ابن كثير، بأنَّ هناك عبارات عديدة واضحة وقرائن كثيرة ظاهرة، تتكلم بوضوح وجلاء، وتشير بصراحة متناهية بأنَّ هذا الجزء أيضاً لنفس المؤلف الذي كتب التاريخ قبل سنة ٧٣٩هـ. من ذلك إكثاره من استعمال صيغ المتكلم على عادة المؤرخين في تاريخ عصرهم، أمثال:

«حضرت مجلس دار العدل بدار السعادة»[١]، «وكنت مباشراً لجميع ذلك من أوله إلى آخره»[٢]، «وكنت ممن حضر قريباً منه»[٣]، «والعجب أني وقفت على كتاب »[٤]، «كنت فيمن طلب يومئذ»[٥]. «كنت أول من خطب فيه»[٦]، «ولما ذهبت لتهنئة الأمير ناصر الدين ابن الأقوس، وجدت هناك شاباً»[٧]، «حضرت عنده»[٨]، «اجتمعت به»[٩]، «شاهدته»[١٠]، شاهدت آثاره»[١١]، «ولم أشاهد ذلك»[١٢].

ثم أكثر في أخبار عصره من استعمال الكلمات التالية، قبل إيراد أخباره: «بلغني »[١٣]. و«بلغنا»[١٤]. و«أقرأني »[١٥]. و«أخبرني»[١٦].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ١٨٩.
(٢) نفس المصدر ١٤/ ١٩٠.
(٣) نفسه ١٤/ ٢٥٦.
(٤) نفسه ١٤/ ٢٥٦.
(٥) نفسه ١٤/ ٢٦١.
(٦) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٢٦٣.
(٧) نفس المصدر ١٤/ ٢٤٨.
(٨) نفسه ١٤/ ٢٦٢.
(٩) نفسه ١٤/ ٢٧١.
(١٠) نفسه ١٤/ ٢٦٦.
(١١) نفسه ١٤/ ٢٧٤.
(١٢) نفسه ١٤/ ٣١٣.
(١٣) نفسه ١٤/ ٣٢٣.
(١٤) نفسه ١٤/ ٢٧٦، ٢٧٧.
(١٥) نفسه ١٤/ ٣٢١.
(١٦) نفسه ١٤/ ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٩٠، ٢٩٣، ٢٩٤، ٣٠٠، ٣٠٣، ٣٠٩، ٣١١، ٣١٤، ٣١٩، ٣٢٢، ٣٢٣.

وكذلك ذكر شيخه المزي بـ«شيخنا»[1]، في هذا الجزء على عادته في السابق.

فإن كل هذه وتلك من العبارات والكلمات المذكورة وغير المذكورة، حين يرجع إليها الباحث، وينظر في سياق الكلام وطريقة العرض والأداء وما إليها، يعلم علم اليقين، ويطمئن في قرارة نفسه أنَّ المؤرخ الذي تحدث إلى سنة ٧٣٨هـ، هو الذي يتحدث فيما بعده.

وأخيراً نشير إلى خلاف آخر، وهو تعيين السنة التي بلغ إليها ابن كثير في تأليف تاريخه. فقد سيطر على أذهان الناس أنَّ المطبوع من تاريخه إلى سنة ٨٦٨هـ كامل[2]. ومما زاد في إذعانهم هذا، هو ما نقل عن ابن حجي أنه ذيَّل على تاريخ شيخه ابن كثير من سنة ٧٤١ ـ ٧٤٦هـ، ثم بدأ ذيله من سنة ٨٦٩هـ، فبلغ فيه إلى سنة ٨١٥هـ[3]. وكذلك ما نقله حاجي خليفة عن ابن قاضي شهبة أنه وقف على بعض أجزاء تاريخ ابن كثير، آخرها من سنة ٧٦٢ ـ ٧٦٨هـ[4].

فلم تترك هذه النصوص مجالاً للتفكير في أن المطبوع من تاريخ البداية والنهاية يمكن أن يكون ناقصاً. وكان ذلك سبباً في إعراض الناس عما جاء عند حاجي خليفة نفسه نقلاً عن ابن قاضي شهبة أيضاً، «والمشهور أنَّ تاريخه انتهى إلى آخر سنة ٧٣٨هـ، وهو آخر ما لخصه من تاريخ البرزالي، وكتب حوادث إلى قبيل وفاته بسنتين. انتهى»[5]. إذن فإن ابن كثير بلغ فيه إلى سنة ٧٧٢هـ،

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ١٨٩، ١٩١.

(٢) وقد ذهب بعض المترجمين إلى أن ابن كثير بلغ فيه إلى سنة ٧٦٧هـ فقط. (دائرة المعارف للبستاني ٣/ ٤٧٧، الأعلام للزركلي ٣١٨/١، المنجد، المؤرخون الدمشقيون ٥٥، ومجلة معهد المخطوطات العربية ٢/ ١ (مايو سنة ١٩٥٦م)/ ص١١٥)، وقد خفي عليهم سقوط عنوان السنة ٧٦٨هـ من النسخ التي طبع عليها تاريخه، وقد نبه الناشر على ذلك في هامش البداية والنهاية ١٤/ ٣٢١.

(٣) السخاوي الضوء اللامع ١/ ٢٧٠، الإعلان ٣١٠، شذرات لابن العماد ١١٧/٧.

(٤) حاجي خليفة، كشف الظنون ١/ ٢٢٨.

(٥) حاجي خليفة، كشف الظنون ١/ ٢٢٨.

لأن المترجمين اتفقوا على وفاته سنة ٧٧٤هـ.

ولكن يفيد ما جاء عند ابن حجر أنَّ ابن كثير وصل فيه إلى سنة ٧٧٤هـ (سنة وفاته)، كما تشهد على ذلك الشواهد التالية. فإن ابن حجر اعتبر كتابه «إنباء الغمر بأبناء العمر» ذيلاً على تاريخ ابن كثير، وقد بدأه من سنة مولده ٧٧٣هـ، فقال في مقدمة كتابه: «هذا الكتاب يحسن من حيث الحوادث أن يكون ذيلاً على تاريخ الحافظ عماد الدين ابن كثير. فإنه انتهى في ذيل تاريخه إلى هذه السنة، ومن حيث الوفيات أن يكون ذيلاً على الوفيات التي جمعها الحافظ تقي الدين ابن رافع. فإنها انتهت أيضاً إلى أوائل هذه السنة»[١].

ولكن ابن حجر نفسه نقل أقوال ابن كثير في كتابه الإنباه المذكور في وفيات سنتين ٧٧٣ و ٧٧٤هـ، في تراجم بهاء الدين السبكي (٧١٧ ـ ٧٧٣)، ومحمد بن علي بن العطار السمرقندي (المتوفى سنة ٧٧٤هـ)، والأمير منكلي بغا الشمسي (المتوفى سنة ٧٧٤هـ)[٢]. مما يدل على أنَّ ابن كثير انتهى في تاريخه إلى بعض وفيات سنة ٧٧٤هـ(سنة وفاته).

وقد زعم السخاوي أنه رأى في تاريخ ابن كثير سماع تاج الدين عبد الوهاب ابن إسماعيل (٧٦٧ ـ ٨٤٠) أحد أولاد ابن كثير، سماعه «بمشاركة أبيه» للجزء العاشر من الترمذي كاملاً على ابن أميلة (٦٨٢ ـ ٧٧٨) في رجب سنة ٧٧٤هـ[٢]، مما يدل على استمرار ابن كثير في كتابة تاريخه إلى أواخر حياته، فقد اتفق المؤرخون على وفاته في أواسط شهر شعبان سنة ٧٧٤هـ . .
وعلى هذا فإنَّ التاريخ المطبوع لابن كثير ناقص بيقين حوادث و وفيات نحو ست سنين الأخيرة من حياته، لعلنا نعثر عليها في الأجزاء الأخيرة من مخطوطاته الكثيرة المحفوظة في مكتبات العالم[٣]. وهنا نؤكد مرة أخرى على ضرورة طبع البداية والنهاية من جديد.

---

(١) ابن حجر، الإنباه ١/ ٤، ٢٢، ٦٥، ٧٠.
(٢) السخاوي، الضوء اللامع ٥/ ٩٨.
(٣) انظر مراجع مخطوطات مؤلفات ابن كثير في أول هذا الفصل من هذا الكتاب.

٤ ـ ٥ ـ السيرة النبويـة : (مختصرة ومطولة)

أحال ابن كثير مراراً في كتبه إليها باسم «السيرة النبوية» مطلقاً بدون تصريح مختصرة أم مطولة[١] إلا أنه صرَّح في تفسيره[٢]، في قصة غزوة الخندق بالعبارة التالية : «وهذا كله مقرَّرٌ مفصَّل بأدلته وأحاديثه وبسطه في كتاب السيرة الذي أفردناه موجزاً وبسيطاً»[٣].

إذاً فهما كتابان منفردان مستقلان، ويحتمل أنهما أُلفا قبل التفسير، إذا أبعدنا فكرة إضافة ابن كثير العبارة المذكورة في التفسير بعد تأليفه. لذلك يجب أن نتكلم عليهما على حدة.

أ ـ السيرة النبوية المختصرة (أو الفصول في سيرة الرسول) :

ذكرها بعض المترجمين المتقدمين باسم «سيرة صغيرة»[٤]. أما المتأخرون منهم فيذكرونها باسم «الفصول في سيرة الرسول»[٥]. ولكن نشرتها إحدى المطابع في مصر سنة ١٣٥٨هـ عن مخطوطة مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة باسم «الفصول في اختصار سيرة الرسول»[٦].

ويبدو من مقدمة الكتاب أنَّ المؤلف كان ينوي مع السيرة النبوية تاريخاً مختصراً إلى أيامه. فقد قال ابن كثير فيها : «لا يجمل بأولى العلم إهمال معرفة الأيام النبوية والتواريخ الإسلامية. . . وقد أحببت أن أعلِّق تذكرة في ذلك. . .

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٢٩٤، فضائل القرآن ١٦، (الطبعة الجابية) مولد الرسول ١٤، واكتفى ابن الآلوسي بتصريح اسم «سيرة» فقط. (الجلاء ٣٤)

(٢) في تفسير الآية رقم ٢٦ من سورة الأحزاب.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٨ (طبعة الحلبي).

(٤) طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٤، شذرات لابن العماد ٦/ ٢٣١.

(٥) البغدادي، إيضاح المكنون ٢/ ١٩٤، هدية العارفين ١/ ٢١٥، كحالة، معجم المؤلفين ٢/ ٢٨٤ وتؤيدهم اسم المخطوطة المذكورة في فهرس كتبخانة أيا صوفيا، صفحة ٢٠٠، برقم ٣٣٣٩.

(٦) أحمد محمد شاكر، عمدة التفسير ١/ ٣٥، قال مصححه: ثم أعاد تحقيق الكتاب الأستاذان: محيي الدين مستو و محمد العيد الخطراوي وطبع سنة ١٤٠٠ بدار القلم دمشق، ومؤسسة علوم القرآن عن مخطوطة مكتبة عارف حكمت.

وهي مشتملة على ذكر نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته وأعلامه، وذكر أيام الإسلام بعده إلى يومنا هذا»[1]. ولكن المطبوع السيرة النبوية فقط ولذلك لاحظ الشيخ أحمد محمد شاكر أن «المطبوع غير كامل يقيناً، فلا أدري أقتصر المؤلف على هذا القدر، أم فُقِدَ باقي الكتاب»[1].

ويظهر مما جاء عند الشوكاني أنَّ لابن كثير كتابين في التاريخ«كتاب البداية والنهاية في أربعة وخمسين جزءاً»، ثم ذكر في نهاية قائمة مؤلفاته «وله التاريخ المشهور»[2]. ولا نعرف ماذا قصد الشوكاني من ذكرهما؟ كتاباً واحداً؟ أم كتابان منفردان مستقلان؟ فإذا كان الأخير قصده، فمن المتأكد أنه كان يقصد بالكتاب الثاني السيرة المختصرة. ويؤيد هذا ما جاء عند حاجي خليفة والبغدادي من الإشارة إلى كتاب «الكواكب الدراري» الذي انتخبه ابن كثير من البداية والنهاية[3].

ب ـ **السيرة النبوية المطولة**: لم يذكرها المؤرخون القدامى، إلا أن بعض المتأخرين من المترجمين لابن كثير أشاروا إليها، مستنداً إلى التصريح المذكور للمؤلف في تفسيره[4]. ولكن الأستاذ مصطفى عبد الواحد الذي نشر بتحقيقه «السيرة النبوية» في أربعة أجزاء[5]، و «شمائل الرسول» في مجلد[6]، منفرداً من تاريخ ابن كثير، معتمداً في ذلك على المطبوع من كتاب «البداية والنهاية»، ومخطوطاته[7] والذي بحث موضوع استقلال قسم السيرة من كتاب «البداية

(١) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٢) الشوكاني، البدر الطالع ١/ ١٥٣.

(٣) حاجي خليفة، كشف الظنون ٢/ ١٥٢١، البغدادي، هدية العارفين ١/ ٢١٥.

(٤) عبد الرزاق حمزة، الباعث الحثيث ١٧، أحمد محمد شاكر، عمدة التفسير ١/ ٣٤.

(٥) من مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

(٦) نفس المطبعة سنة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م.

(٧) اعتمد الأستاذ مصطفى في نشر السيرة والشمائل على مخطوطة المكتبة التيمورية (رقم ٢٤٤٣)، وعلى النسخة المصورة عن مكتبة ولي الدين بالآستانة (رقم ٢٣٤٧) المحفوظة في دار الكتب المصرية (رقم ١١١٠، تاريخ). ورجع إلى بعض مصادر ابن كثير في السيرة والشمائل لتصحيح النصوص وتهذيبها، ولكن يبدو أن المحقق كان =

والنهاية» عن التاريخ، يعتبر أن السيرة الواردة في التاريخ، هي السيرة المطولة التي أشار إليها ابن كثير في تفسيره.

فقد قال الأستاذ مصطفى في تقديم السيرة النبوية لابن كثير: «ويبدو أنه حين ألف كتابه الضخم «البداية والنهاية»، قد أدمج تلك السيرة فيه، وأن شهرة ذلك الكتاب وانتشاره في الأنحاء قد جعل الناس يقرؤون تلك السيرة فيه، ولم يعد لها كيان مستقل ككتاب، وإذا كان ابن كثير قد ذكر أن له السيرة النبوية مبسوطة (أي مطوّلة)، فإنه لا يعقل أن يكتب فيها أكثر من ذلك القسم الموجود بكتابه «البداية والنهاية » لذلك اتجه الأستاذ مصطفى إلى نشرها منفرداً عن التاريخ، على اعتبار أن هذا القسم هو السيرة النبوية المطولة التي أشار إليها ابن كثير في تفسيره»[1]. وليس بعيداً أن يكون قصد ابن كثير بالسيرة التي أفردها بسيطاً ذلك القسم الذي ألحقه بتاريخه.

وقد عثرنا على خبر يدل على قبول السيرة النبوية لابن كثير و تداوله بين الناس فقد رتَّب أحد أولاد القاضي عماد الدين الشيرازي ميعاد حديث، وحدث فيه على ما جاء في (البداية والنهاية)، الشيخ عماد الدين ابن السراج، واجتمع عنده خلق كثير وجمٌّ غفير، وقرأ في لسيرة النبوية من خطى (خط ابن كثير)، وذلك في العشر الأول» من شهر رجب سنة ٧٦٣هـ[2]. ولم يوضح ابن كثير هنا أي من السيرتين قُرِئت في هذه المناسبة؟ مختصرة، أم مطولة؟

٦ ـ شمائل رسول الله(ﷺ)، ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه: ولم يذكر أحد من مترجمي ابن كثير، كتاباً مستقلاً له بهذا العنوان، إلا أنَّ الأستاذ مصطفى نشر هذا الكتاب بتحقيقه في مجلد واحد منفرداً عن تاريخ ابن كثير كما مر،

= أكثر اهتماماً بشرح الكلمات الغريبة، والإشارة إلى السور، وأرقام الآيات الكريمات، من التحقق على أسس علمية حديثة معروفة.

(١) السيرة النبوية لابن كثير، بتحقيق الأستاذ مصطفى عبد الواحد١/ ١٢ ـ ١٣، وانظر أيضاً تقديم الشمائل لابن كثير أيضاً بتحقيق الأستاذ مصطفى، صفحة ألف.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٢٩٤.

باعتباره ملحقاً للسيرة النبوية لابن كثير[1].

٧ ـ **سيرة عمر بن عبد العزيز:** هذا كتاب مطبوع لابن كثير، وموجود في فهارس دار الكتب المصرية بالقاهرة كما بلغني[2]. ولكن ما أشار إليه ابن كثير، ولم يذكره أحد من مترجميه، إلا أنَّ ابن كثير ذكر في ترجمته الطويلة الحافلة لعمر بن عبد العزيز بأن «جمع الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي سيرة لعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز. وقد أفردنا سيرة عمر بن الخطاب في مجلد على حدة، ومسنده في مجلد ضخم. وأما سيرة عمر بن عبد العزيز، فقد ذكرنا منها طرفاً صالحاً هنا، يستدل به على ما لم نذكره»[3].

فإن كان ابن كثير ألف في سيرة عمر بن عبد العزيز، أو كان ينوي أن يؤلف سيرته في كتاب مفرد مستقل، لصرَّح بذلك على عادته في الإشارة إلى مؤلفاته التي كان انتهى منها، أو كان يكتبها حين كتابة تاريخه، أو كان ينوي أن يؤلفها في المستقبل ولكنه لم يصرح بشيء من ذلك، وما ذكره أحد من مترجميه، مما يدل على أنه لم يفرد كتاباً مستقلاً حول سيرة عمر بن عبد العزيز.

ولم أستطع الوصول إلى رأي نهائي في الموضوع، لأنني للآن لم أستطع الاطلاع على الكتاب المذكور الذي بلغني أنه طُبع بالقاهرة، حتى أقرر بمقابلته على تاريخ ابن كثير، من أنه كتابٌ مستقل، أو أنه يحتوي على ترجمته الحافلة له في تاريخه في وفيات سنة ١٠١هـ، أخذها أحد الناشرين وطبعها ككتاب مستقل.

ويؤيد هذا الاحتمال الأخير طول ترجمة ابن كثير له في «البداية والنهاية»، فإنها تُعتبر من أطول التراجم الموجودة في هذا التاريخ[4] يمكن منها تكوين كتاب صغير مستقل حول سيرة عمر بن عبد العزيز. فقد جمع ابن كثير في ترجمته له: نسب عمر بن عبد العزيز، ونشأته وتربيته، وأخباره قبل خلافته

---

(١) تقديم كتاب الشمائل لابن كثير، بتحقيق الأستاذ مصطفى، صفحة ألف.

(٢) أخبرني بهذا الدكتور محمد إسماعيل الندوي في رسالته إلي بتاريخ ١٩٦٨/١/٣١م.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ٢٠٧/٩.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ١٩٢/٩ ـ ٢١٩.

وبعد أن تولاها، وأعماله الجليلة في حكمه القصير، كما أشار إلى بعض خطبه ورسائله، وإلى بعض ولاته، ومواعظه وحكمه، وأشعاره والأبيات التي كان يتمثل بها، وكذلك ذكر آراء معاصريه فيه ومن بعدهم من العلماء. وهي تدل كلها على التقدير الجم لهذا الرجل الفاضل الصالح الذي كان يشعر بمسؤوليته الكبيرة أمام الله، وكان دائم التفكير في سعادة أمته برفع المظالم وتوفير أسباب الراحة لها.

٨ ـ **اختصار علوم الحديث لابن الصلاح**: وهو كتاب في مصطلح الحديث مشهور بين أهل العلم، متداول في بعض المناهج الدراسية، ومعروف للمؤلفين في التراجم[١].

اختصر فيه ابن كثير كتاب علوم الحديث، المعروف بمقدمة ابن الصلاح، لأبي عمرو تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن بن موسى الكردي (٥٧٧ ـ ٦٤٣)[٢]، وأضاف إليه الفوائد الملتقطة من «كتاب المدخل إلى كتاب السنن»، وكلاهما للبيهقي[٣]، واستدرك عليه استدراكات كثيرة مفيدة، و زوَّده بمناقشات طريفة، وملاحظات قيمة سديدة، بادئاً بقوله: «قلت». وتدل هذه

---

(١) ذكره حاجي خليفة باسمين: الأول «الأحكام الصغرى في الحديث»، (كشف الظنون ـ ١٩/١)، والثاني «اختصار علوم الحديث»، (كشف الظنون ٢/ ١١٦٢)، ولانعرف هل كان يقصد منه الإشارة إلى كتابين؟ أم هما كتاب واحد؟ وإن عبارة «في الحديث»، سهو بدل «في الفقه» فقد ذكر ابن كثير لنفسه كتابين في الفقه، وهما: الأحكام الكبير، والصغير. (الباعث الحثيث ٢٠٢).

(٢) وهو أحد الفضلاء المقدمين في التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال، صاحب مؤلفات عديدة، منها: كتابه علوم الحديث، اعتبره ابن كثير «من مشاهير المصنفات بين الطلبة لهذا الشأن، وربما عني بحفظه بعض المهرة من الشبان»، (مقدمة المختصر ١٩) وقال ابن حجر أثناء كلامه فيمن صنف في علم أصول الحديث ومصطلحه «اعتنى (ابن الصلاح) بتصانيف الخطيب (المتوفى سنة ٤٦٣هـ) المفرَّقة، فجمع شتات مقاصدها، وضم إليها غيرها من نخب فوائدها، فاجتمع في كتابه ما تفرَّق في غيره. فلهذا عكف الناس عليه، وساروا بسيره، فلا يحصى كم ناظمٍ له ومختصر، ومستدركٍ ومقتصر، ومعارض له ومنتصر». (شرح نخبة الفكر صفحة ٢).

(٣) ابن كثير، في مقدمة اختصاره ١٩ـ٢١.

الملاحظات على نبوغ ابن كثير وإمامته في الفن.

أما منهج ابن كثير في الاختصار، فهو كما صرح بنفسه: «سلكت وراءه (وراء ابن الصلاح)، واحتذيت حذاءه، واختصرت ما بسطه، ونظمت ما فرطه»[1]. وقد اعترض ابن كثير على ابن الصلاح في تنويعه أقسام الحديث إلى خمسة وستين نوعاً وقابلية تقسيم هذه الأنواع إلى ما لا يحصى، قائلاً: «وفي هذا كله نظر، بل في بسطه هذه الأنواع إلى هذا العدد نظر، إذ يمكن إدماج بعضها في بعض، وكان ذلك أليق مما ذكره. ثم إنه فرق بين متماثلات منها بعضها عن بعض، وكان اللائق ذكر كل نوع إلى جانب ما يناسبه. ونحن نرتب ما نذكره على ما هو الأنسب، وربما أدمجنا بعضها في بعض، طلباً للإختصار والمناسبة، وننبه على مناقشات لابد منها»[1].

وكل ذلك «بعبارة سهلة فصيحة، وجمل مفهومة مليحة» فجاء هذا الكتاب مختصراً ليس «اختصاراً مضغوطاً مختلاً» ولا مطولاً «تطويلاً منتشراً مشوشاً»، فكانت خطوة أولى ومرحلة ابتدائية يدرسها الطالب، فيرتقي منها إلى دراسة أصلها، وما بعده من كتب الأئمة[2].

وشعر أهل العلم بأهمية هذا الكتاب وإفادته للطلاب، حين نشره أول مرة الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة، بتصحيحه وشرحه، باسم «اختصار علوم الحديث أو الباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث»[3]، فقررت لجنة المناهج الأزهرية تدريسه في كليتي أصول الدين والشريعة سنة ١٣٥٥هـ[4]، وكان ذلك حافزاً للشيخ أحمد محمد شاكر في القيام بشرحه والتعليق عليه وتصحيحه مرة أخرى باعتباره «فذاً في موضوعه، ألفه إمام عظيم من الأئمة الثقات المحققين»[5] ونشرت الطبعة الأولى منه على الاسم الذي سماه الشيخ

---

(١) ابن كثير، في مقدمة اختصاره ١٩ـ٢١.

(٢) محمد عبد الرزاق حمزة، تقديم المختصر ١٣.

(٣) طبع بالمطبعة الماجدية، مكة المكرمة سنة ١٣٥٣هـ.

(٤) مقدمة الطبعة الأولى للشيخ أحمد محمد شاكر ٥ـ٦ من كتاب الباعث الحثيث.

(٥) نفس المصدر ٦.

حمزة[1]، ثم عدل عنه في الطبعة الثانية، وسماه «الباعث الحثيث، شرح اختصار علوم الحديث»[2]، جمعاً منه بين التسميتين، الأصلية والتي اشتهر بها الكتاب بعد نشره أول مرة[3]. وكان سبباً في توهم بعض المترجمين المتأخرين الذين ذكروه بهذا الاسم الأخير[4].

ويبدو أنَّ هذا الكتاب كان متداولاً في الهند، لأننا وجدنا منه نسخ خطية عديدة في مكتبات الهند القديمة في زيارتنا لها[5].

٩ ـ الاجتهاد في طلب الجهاد: أما الاجتهاد في طلب الجهاد، رسالة صغيرة مطبوعة لابن كثير[6]، كتبها للأمير منجك نائب السلطنة بدمشق حين تولاها مرة ثانية (٧٧١ ـ ٧٧٥)، ليرسلها «إلى ما جاور البحر من البلاد، ليأخذوا بحظهم من الجهاد»[7]. وذلك لدفع الخطر الفرنجي الذي استجدَّ تهديده، منذ أن هجم الفرنج على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ، وعاثوا في أهلها فساداً.

وقد صرح ابن كثير في مقدمة هذه الرسالة بأنه ألفها بأمر الأمير المذكور «لأنه نائب الإمام، وفيما أمر طاعة لله ولرسوله»[8]، ثم أورد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في فضل الجهاد و وجوبه، ليحث الناس على مقاومة الأعداء

---

(١) مطبعة محمود أفندي توفيق الكتبي بالقاهرة سنة ١٣٥٥هـ.

(٢) مطبعة محمد علي صبيح وأولاده سنة ١٣٧٠هـ، واعتمادنا على الطبعة الثالثة من نفس المطبعة سنة ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م.

(٣) مقدمة الطبعة الثانية للشيخ أحمد محمد شاكر، صفحة ٣ـ٤.

(٤) الرسالة المستطرفة للكتاني، هامش صفحة ٢١٥، الأعلام للزركلي ١/٣١٨، وذكره بروكلمان بالاسمين باعتباره كتابين. (ملحق تاريخ آداب اللغة العربية ٢/ ٤٩).

(٥) كتبخانة آصفية حيدر آباد، رقم ٤٣٠ حديث، إيشياتك سوسائيتي بنغال كلكتا، رقم ٣٧٤، فرست مكتبة رضا رامبور ١/ ٣٥٤، ٢/ ٢٣٥.

(٦) عنيت بنشر هذه الرسالة جمعية النشر والتأليف الأزهرية عام ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م، من مطبعة أبي الهول بالقاهرة. قال مصححه: ثم قام الدكتور عبد الله عبد الرحيم عسيلان بتحقيقه ونشره.

(٧) زيدان، آداب اللغة العربية ٣/ ٢٠٩.

(٨) ابن كثير، الاجتهاد في طلب الجهاد صفحة ٥.

دفاعاً عن أرض الإسلام وموطن المسلمين. ثم ذكر هجوم الفرنج على الإسكندرية، وانتقال عصائبهم منها إلى طرابلس، وإفظاعهم بها أهلها الآمنين قتلاً وأسراً وتشريداً، ثم ذكر هجومهم على مدينة أياس ومقاومة المسلمين هناك حتى رجع الفرنج منها ميؤسين.

وبعد ذلك أشار ابن كثير إلى بعض الوقائع الإسلامية في العصور الزاهية من زمن النبي ﷺ إلى عصر المماليك، لإثارة العاطفة الدينية في الثبات أمام الأعداء عند النضال، وذكر أخيراً قصد الفرنج من الهجوم، وهو أخذ بيت المقدس من أيدي المسلمين، ولكن لا سبيل لهم إلى ذلك في نظر المؤلف، وله في ذلك دلائل من الكتاب والسنة.

وبهذا يتجلى للناظر أن هذه الرسالة الصغيرة ليست منشوراً في حث الناس على القتال في سبيل الله زالت أهميته بزوال الدافع الذي كتب من أجله، بل هي وثيقة تاريخية ذات قيمة علمية كبيرة، لما تشتمل على نبذ تاريخية، وإشارات إلى معارك خاضها المسلمون في عصر المؤلف، وذلك إلى جانب أبحاث علمية في فضل الجهاد و وجوبه.

١٠ ـ أخبار هجوم الفرنج على الإسكندرية: أما كتاب أخبار هجوم الفرنج على الإسكندرية، فلم يشر إليه أحد من المترجمين لقرب موضوعه وشبه محتواه من الرسالة السابقة، إلا أن ابن كثير صرَّح في مقدمة الرسالة الصغيرة المذكورة: «وقد كنت جمعت في ذلك مجلداً بسيطاً، فاختصرت منه منهجاً وسطاً وسيطاً. . . إلخ[1] وهذا يدل على أنَّ ابن كثير ألَّف حول هذا الموضوع أولاً كتاباً مبسوطاً مطولاً، ثم لخصه في هذه الرسالة الصغيرة المطبوعة باسم «الاجتهاد في طلب الجهاد» على طلب الأمير منجك. ويؤيد هذا مابلغني من وجود كتاب مطبوع لابن كثير باسم «أخبار هجوم الفرنج على الإسكندرية»، في دار الكتب المصرية بالقاهرة[2]. إذن فهو ذلك «المجلد البسيط » الذي أشار إليه المؤلف،

(١) ابن كثير، الاجتهاد في طلب الجهاد صفحة ٥.

(٢) أخبرني به الدكتور إسماعيل الندوي من القاهرة في رسالة إلي بتاريخ ٣١/١/١٩٦٨م، ولكنه لم يكتب اسم المطبعة وسنة طبعها، إلا أنه أفاد بطبعها في القاهرة.

ولكني لم أستطع الاطلاع عليه حتى أتأكد من أنهما كتابان، أو كتاب واحد نشر باسمين؟ .

١١ـ مولد رسول الله (صلى الله عليه وسلم): واسمه الكامل كما جاء على صفحة العنوان للمخطوطة «مولد رسول الله ﷺ، ورضاعه»[١] .

ولم يذكر المترجمون لابن كثير هذه الرسالة له، وإنما عثر على مخطوطتها الدكتور صلاح الدين المنجد في مكتبة جامعة برنستون بأمريكا[٢]، فنشرها بتحقيقه[٣] وراجع الجزء الخاص بالسيرة في البداية والنهاية لابن كثير، وسيرة ابن هشام لضبط نصوص الكتاب.

ألف ابن كثير هذا المولد تلبية لطلب الشيخ عماد الدين أبي بكر بن حسن المؤذن بالجامع المظفري بدمشق. ذكر فيه نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخبار جده وأبيه وأمه، وصفة مولده، وأخبار رضاعه، وصفاته وشمائله وأخلاقه، ثم ختمه ببعض الأبيات المنسوبة إلى عمي الرسول صلى الله عليه وسلم، أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب.

وجمع ابن كثير مواد الموضوعات المذكورة من «الأحاديث والآثار المنقولة المقبولة عند الحفاظ المتقنين، والأئمة الناقدين»[٤]، مثل مسند الإمام أحمد وصحيحي البخاري ومسلم، وسنن الترمذي، ودلائل النبوة للبيهقي، والمستدرك للحاكم، وسيرة ابن إسحاق، و روض الأنف للسهيلي. وبذا امتاز ابن كثير على المؤلفين المتأخرين في المولد الذين «جعلوا من المولد الشريف أساطير، وجعلوا فيه لوناً من العبادة»[٥] .

لذلك كان الدكتور صلاح الدين المنجد محقاً في اقتراحه في تقديم هذا

---

(١) انظر صورة غلاف المخطوطة على صفحة ١١ من المولد.

(٢) تاريخ المخطوطة سنة ٧٨٦هـ.

(٣) نشر من دار الكتاب الجديد، بيروت سنة ١٩٦١م.

(٤) المنجد، في تقديم مولد الرسول لابن كثير صفحة ١٣ .

(٥) نفس المصدر ٨.

هذا الكتاب حين قال: «هذا المولد الشريف جدير بأن يكون لصحته وثقة مؤلفه في كل بيت، وأن يقرأه الصغار والكبار، وأن يحفظوه ليذكرهم بأعظم رجل عرفه العرب، فكان هدى ورحمة لهم وللعالمين»[1].

* * *

(١) المنجد، في تقديم مولد الرسول لابن كثير، ١٠.

ب ـ المؤلفات المخطوطة[1]

١ـ جامع المسانيد والسنن[2]: هو «كتاب عظيم»[3]، «من أنفع كتبه»[4]، قال ابن الجزري: أن شيخه «أجهد نفسه كثيراً، وتعب فيه تعباً عظيماً، فجاء لا نظير له في العالم»[5].

وقد اختلف الناس في اسم هذا الكتاب، فعلى حين أشار إليه ابن كثير في تاريخه بـ«المسند الكبير»، وبـ«السنن»[6]، سماه الحسيني بـ«كتاب الهدى والسَّنَن في أحاديث المسانيد والسنن»[7]، و وافقه على هذا الاسم ابن فهد، إلا أنه أشار إلى أنه معروف بـ«جامع المسانيد»[8] وقد ذكر ابن حجر أن ابن كثير سماه«جامع المسانيد والسنن»، وقد اخترنا هذا الاسم لشهادة ابن حجر أنه رأى

---

(١) وقد طبع كثير منها وأشرت إلى ما وقفت عليه (مصححه).

(٢) قام الأستاذ صالح أحمد الوعيل بتحقيق جزء من هذا الكتاب وحصل على درجة الدكتوراه عام ١٤٠٥هـ من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، كما نشر الأستاذ عبد الملك بن دهيش عدة مجلدات من الكتاب، من مصححه؟

(٣) حاجي خليفة، كشف الظنون ١/ ٥٧٣.

(٤) ابن فهد، هامش ذيل الحسيني صفحة ٥٨.

(٥) المصعد الأحمد، في أول مسند الإمام أحمد بشرح الشيخ شاكر ١/ ٤٠.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية ٢/ ٣٢٠، ٥/ ٧٧، وانظر أيضاً الرسالة المستطرفة للكتاني ١٧٥.

(٧) ذيل الحسيني ٥٨، وتبعه في ذلك الشوكاني (البدر الطالع ١/ ١٥٣).

(٨) ابن فهد، حاشية ذيل الحسيني ٥٨.

أسبق نسختين من هذا الكتاب، وعليهما الاسم المذكور [١]. أما إسماعيل باشا البغدادي فقد زاد فيه «الهادي لأقوم سنن»[٢].

أما أصل هذا الكتاب، هو (مسند الإمام أحمد) الذي رتبه شمس الدين أبو بكر محمد بن عبد الله بن المحب الصامت (٧١٢ ـ ٧٨٩) على معجم الصحابة، ورتب الرواة حتى في التابعين المكثرين عن الصحابة على ترتيب كتاب الأطراف. أعجب ابن كثير بهذا الكتاب المرتب، فأخذه من مؤلفه، وأضاف إليه ما استحسنه[٣] من كتب الصحاح الستة ومن بعض المسانيد والمعاجم التي اختلف المترجمون في تعيينها، فهي: عند ابن الجزري: معجم الطبراني الكبير، ومسندي البزار، وأبي يعلى الموصلي[٢].

وعند ابن حجر: معجمي الطبراني الكبير والصغير، ومسندي البزار وأبي يعلى[٢].

وعند السيوطي: زوائد الطبراني، ومسند أبي يعلى[٤].

وعند أحمد شاكر: مسانيد البزار، وأبي يعلى، وابن أبي شيبة[٥].

ويمكن الجمع بين هذه الأقوال المتنوعة المختلفة بما جاء عند الكتاني بعد ذكر معجم الطبراني الكبير، ومسندي البزار وأبي يعلى، حيث صرح «وربما يزيد عليه من غيرها»[٦].

وأن الشيخ أحمد محمد شاكر بعد مراجعة ودراسة الجزء السابع، والأخير

---

(١) ابن حجر، إنباه الغمر بأبناء العمر ١/ ٤٧، نسخهما عز الدين عمر (٧٣٨ ـ ٧٨٣) أحد أبناء ابن كثير، نسخ أولاً المسند المرتب على يدي ابن المحب، و وجد عليهما ابن حجر الإلحاقات بخط ابن كثير في الهوامش، والنسخة الثانية بيضها عز الدين مما في المتن والإلحاق، وكتب عليها الاسم المذكور.

(٢) هدية العارفين ١/ ٢١٥، وقال زيدان «لأقدم سنن»، (٣/ ٢٠٨).

(٣) ابن الجزري، المصعد الأحمد في أول مسند الإمام أحمد بشرح الشيخ شاكر ١/ ٣٩ـ٤٠، ابن حجر الإنباه ١/ ٤٧.

(٤) ذيل السيوطي ٣٦١.

(٥) الباعث الحثيث ١٧، عمدة التفسير ١/ ٣٥.

(٦) الرسالة المستطرفة للكتاني ١٧٥.

من هذا الكتاب الذي صوره من نسخة دار الكتب المصرية ـ وفيه معظم مسند أبي هريرة ـ أبدى شكه في أن هذا الكتاب يجمع بين مسانيد البزار وأبي يعلى وابن أبي شيبة، لأنه لم يجد فيه الإشارة إلى تلك المسانيد، كما لم يتعرَّف على خطَّة ابن كثير فيه بدقة[1].

وهذا يجب ألا يكون كافياً في قبول تردده وارتيابه، وذلك لأن هذا الجزء الأخير بالذات ناقص، لم يستطع ابن كثير إكماله قبل وفاته. وقد أشار إلى ذلك ابن الجزري قائلاً: «وأكمله إلا بعض مسند أبي هريرة، فإنه مات قبل أن يكمله، فإنه عوجل بكف بصره، وقال لي رحمة الله تعالى: لازلت أكتب فيه والسراج ينوص حتى ذهب بصري معه، ولعل الله يقيض له من يكمله، مع أنه سهل، فإن معجم الطبراني الكبير لم يكن فيه شيء من مسند أبي هريرة»[2].

وإن الجزء السابع الذي اعتبره الأستاذ شاكر آخر الأجزاء، ليس آخرها. فقد جاء عند إسماعيل باشا البغدادي أن الكتاب في ثماني أجزاء[3]، وأشار جرجي زيدان أن منه نسخة في المكتبة الخديوية في ثماني مجلدات وفي كوبرلي[4].

وقال الزركلي: إن للكتاب مخطوطة في ثماني مجلدات[5]، ثم وصف الكتاب بأنه في رواة الحديث، أي في تراجمهم، وقياسه على كتاب آخر للمؤلف، وهو (التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل)، كما جاء عند زيدان خطأ[6]، لأنه لا يطابق اسم الكتاب، ولا يوافق بما وصفه المترجمون القدامى والمحدثون. غاية ما في الأمر أنه جمع فيه أحاديث الرواة من الصحابة والتابعين المكثرين عنهم. ولا يبعد أنه عقد لهم في أول كل فصل تراجم صغيرة لتعريفهم، يدل على ذلك ما جاء عند الكتاني في وصفه: «رتبه على حروف

---

(١) عمدة التفسير ١/ ٣٥ـ٣٦.

(٢) المصعد الأحمد في أول مسند الأمام أحمد ١/ ٤٠.

(٣) هدية العارفين ١/ ٢١٥.

(٤) آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ٣/ ٢٠٨.

(٥) الأعلام للزركلي ١/ ٣١٨.

(٦) آداب اللغة العربية ٣/ ٢٠٨، وانظر عصر سلاطين المماليك لمحمود رزق سليم ٣/ ١٠١، ٤/ ١٤٤.

المعجم، يذكر كل صحابي له رواية، ثم يورد في ترجمته جميع ما وقع له في هذه الكتب، وما تيسر من غيرها»[1].

فالأصل في هذا الكتاب أنه موسوعة في الأحاديث النبوية المروية عن الصحابة والتابعين المكثرين عنهم، وليس كتاب تراجم لرواة الحديث. وقد اتفق المترجمون على أن ابن كثير رتبه على حروف المعجم كما أخذه من ابن المحب[2]، إلا أنَّ ابن فهد أشار إلى أنه مرتب على الأبواب[3]، مما يوهم الناس أنه مرتب على الأبواب الفقهية. ولكن الحكاية ليست كذلك، فقد درس الشيخ شاكر الجزء السابع منه طويلاً كما مر، فكانت ملاحظته أنه «رتب فيه الأحاديث عن مسند أحمد على أسماء التابعين الرواة عن أبي هريرة على حروف المعجم»[4].

وقد مرت حكاية شاب أعجمي من بلاد تبريز وخراسان، كان يحفظ فيما يحفظ أجزاء من جامع المسانيد، وهو ما زال تحت تأليف ابن كثير[5]، مما يدل على ذيوعه وانتشاره في أقصى البلاد.

٢ ـ التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل: أجمع المترجمون على اسم هذا الكتاب[6]، ووصفه بأن ابن كثير اختصر فيه «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» لشيخه جمال الدين يوسف المزي (٦٥٤ ـ ٧٤٢)[7]، وأضاف إليه

---

(١) الرسالة المستطرفة للكتاني ١٧٦.

(٢) ذيل السيوطي ٣٦١، زيدان، آداب اللغة العربية ٣/٢٠٨، الرسالة المستطرفة للكتاني ١٧٦.

(٣) حاشية ذيل الحسيني صفحة ٥٨.

(٤) عمدة التفسير ١/ ٣٥.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٢٩٤ـ٢٩٥.

(٦) وقد ذكر حاجي خليفة و البغدادي بـ«التكملة في أسماء الثقات والضعفاء». (كشف الظنون ١/ ٤٧١، هدية العارفين ١/ ٢١٥).

(٧) أما المزي فقد اختصر في كتابه (تهذيب الكمال) كتاب الكمال في أسماء رجال الحديث لأبي محمد عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي الجماعيلي (٥٤١ ـ ٦٠٠)، ثم لخصه الذهبي في (تذهيب تهذيب الكمال) طبقات السبكي ٥/ ٢١٧، الدرر لابن حجر=

ما تأخر في «ميزان الاعتدال في نقد أسماء الرجال» لشيخه شمس الدين أبي عبد الله محمد الذهبي (٦٧٣ ـ ٧٤٨)[١]، أو أنه جمع بينهما مع زيادات مفيدة في الجرح والتعديل[٢].

وقد أكثر مؤلفنا من الإشارة إليه في تراجم الأعيان من تاريخه، وأحال إليه فيها[٣]. فاختصر في بعض التراجم في البداية والنهاية اختصاراً بالغاً[٤]، واكتفى في بعضها الأخرى بالإشارة إلى هذا الكتاب للمراجعة[٥]، مما كان سبباً في الأخذ عليه اختصاره الزائد في بعض تراجم الأعيان في تاريخه[٦]، إلى حد أن أحد المجهولين قام بعده بالإضافة في كثير من التراجم، منها تراجم الحسن بن أبي الحسن، وابن سيرين، ووهب بن منبه اليماني[٧].

وقد صرح ابن كثير بجمعه بين كتابي شيخيه المزي والذهبي، وسماه بـ«التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل»، واعتبره «من أنفع شيء للفقيه البارع، وكذلك للمحدث»[٨]. كما صرح بترتيبه على حروف المعجم في ترجمته لأبي هريرة في تاريخه[٩].

وقد اختلف الناس في حجم الكتاب فقالوا: «خمس مجلدات»[١٠]، وقيل

= ٣/ ٣٣٧ ـ ٤/ ٤٥٩ ـ شذرات لابن العماد ٦/ ١٣٧ ـ ١٥٥.

(١) طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٣ ـ شذرات لابن العماد ٦/ ٢٣١.

(٢) السخاوي، الإعلان ٢٢١، ٣٣٢، ذيل الحسيني ٥٨، الباعث الحثيث ١٧، عمدة التفسير ١/ ٣٦.

(٣) يمكن معرفة عدد كبير من الأعلام التي وردت في «التكميل» من تلك الإشارات في تاريخه.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ٩/ ١٤٠ ـ ٢٧٦، ١١/ ٣٧ ـ ٨٢.

(٥) نفس المصدر ٩/ ١٧٧ـ ٢٢٠ـ ٢٥٩ـ ٣٣٩ـ ١٠/ ٢١ـ ٦١ـ ٧٣ـ ١٧٤ـ ١١/ ٣٧ـ . . . إلخ.

(٦) نفس المصدر ٩/ ٧٤ـ ١١٣ـ ٢١٤ـ ٢٦٧ـ ٢٧٦.

(٧) ابن كثير، البداية والنهاية ٩/ ٢٦٦ـ ٣٠٢.

(٨) ابن كثير، اختصار علوم الحديث ٢٤٣، وانظر أيضاً ٢٠٢، ٢٣١.

(٩) ابن كثير، البداية والنهاية ٨/ ١٠٣.

(١٠) الشوكاني، البدر الطالع ١/ ١٥٣.

«عشر مجلدات»[1]، وقد رأى الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة المجلد الأخير منه في إحدى مكتبات المدينة بخط قديم، منسوخ في حياة المؤلف من نسخته، وقال: «وهو تسع مجلدات»[2].

ومعروف أن ابن كثير كان من ألزم وأقرب تلاميذ المزي، تزوج بابنته، و«سمع عليه أكثر تصانيفه»[3]، و«قرأ عليه تهذيب الكمال»[4]، الذي هو أصل كتاب التكميل، فليس غريباً أن يكون كتابه هذا من أنفع كتبه، في دقته العلمية، وحسن ترتيبه.

٣ ـ **طبقات الشافعية**: هذا كتاب معروف لابن كثير، ذكره أكثر المترجمين له، ومنه مخطوطات ما زالت في مكتبات العالم[5].

وقد صَرَّح ابن كثير غير مرة، بأنه أفرد للإمام الشافعي ترجمة مطولة في أول كتابه «طبقات الشافعية»، فقال: أفردنا له ترجمة مطولة في أول كتابنا «طبقات الشافعيين» وذكر في آخر الترجمة: وقد ذكرنا من شعره في السنة، وكلامه فيها، وفيما قال من الحكم والمواعظ طرفاً صالحاً في الذي كتبناه في أول طبقات الشافعية، فصيغ المؤلف تدل على أن المناقب جزءٌ من كتاب «الطبقات» لا كتاباً مستقلاً[6].

وقد ذكر ملخصاً من ترجمته المذكورة في ترجمته له في تاريخه، فذكر نسبه ونشأته وتربيته العلمية، وتوليته الحكم بنجران، وما جرى له مع الخليفة هارون الرشيد بسبب الوشاية، ثم ذكر تنقله في البلاد، وتصنيف كتابه الأم، وثناء كبار

---

(١) زيدان، آداب اللغة العربية ٣/ ٢٠٨.

(٢) الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير، هامش رقم ٢، صفحة ٢٠٢.

(٣) ابن العماد، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١.

(٤) ابن حجر، الدرر الكامنة ١/ ٣٧٤.

(٥) طبع هذا الكتاب بمصر في دار أحمد عمر هاشم وطبع من قبل قسماً منه الدكتور إبراهيم صندقجي «المسائل الفقهية التي انفرد بها الإمام الشافعي من دون إخوانه من الأئمة» مكتبة العلوم والحكم ١٤٠٦، وطبع الدكتور خليل إبراهيم ملا خاطر «مناقب الإمام الشافعي» في مكتبة الإمام الشافعي ١٤١٢.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية ٦/ ٢٥١، ١٠/ ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٤.

الأئمة عليه، ثم نقل بعض أشعاره، وأحال إلى بعضها الأخرى، وما قال من الحكم والمواعظ[1].

وقد سمى بعض مترجمي ابن كثير الجزء الخاص بترجمة الإمام الشافعي في الطبقات بـ(الواضح النفيس في مناقب الإمام إدريس)[2]، واكتفى آخرون حين ذكر طبقات الشافعية من مؤلفات ابن كثير بقولهم: «ومعه (مناقب الشافعي)»[3]، إلا أنَّ السخاوي اعتبرهما كتابين مستقلين منفردين عن بعضهما، حيث ذكر طبقات الشافعية في ذكر من ألف في الفقهاء الشافعية، وذكر ترجمة الإمام الشافعي فيمن أفردوا في مناقب الإمام الشافعي[4]. أما عندي فهو على ما ذكرهما ابن كثير كتاب واحد، ولذلك نعتبر تسمية ترجمة الإمام الشافعي بـ«الواضح النفيس» من عمل المتأخرين[5].

أما طبقات الشافعية فقد أكثر مؤلفنا من الإشارة إليها في تراجم تاريخه[6].

ويبدو من ملاحظة لابن قاضي شهبة أنَّ طبقات ابن كثير كانت مبسوطة مطولة، فاضطر ابن قاضي شهبة إلى تأليف طبقات أخرى تلائم حاجة الطلاب، مقتصراً على أعيان العلماء من الشافعية، فقال في ذكر مؤلفات ابن كثير: «وطبقات الشافعية رتبها على الطبقات، لكنه ذكر فيه خلائق ممن لاحاجة لطلبة

---

(١) نفس المصدر ١٠/ ٢٥١ـ ٢٥٤.

(٢) حاجي خليفة، كشف الظنون ٢/ ١١٠٥، إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين ١/ ٢١٥.

(٣) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة ١١/ ١٢٣، الداودي، طبقات المفسرين ١/ ١١٠، أحمد محمد شاكر، عمدة التفسير١/ ٣٦.

(٤) السخاوي، الإعلان ١٨٨، الجواهر والدرر المنشور مع الإعلان ٣٦٥

(٥) قال مصححه عفا الله عنه: بل هو من عمل المتقدمين كتاب «الواضح النفيس في مناقب الإمام محمد بن إدريس »للإمام الحسن بن الحسين ابن حكمان الهمداني المتوفى سنة ٤٠٥هـ. وانظر: هدية العارفين ١: ٢١٥، والذيل على كشف الظنون ٢: ٧٠٠، ومعجم المؤلفين ٣: ٢١٨.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية ١١/ ٣٦، ٣٧، ٤٨، ٦٩، ٨٥، ١١٣، ١٢٣، ١٢٩، ١٤٩، ١٦٧، ١٧١، ١٨٧، ١٩٣، ٢٣٠، ٢٣٦، ٢٣٩، ٢٥٩، ٢٩٩، ٣٤١، ١٢/ ٥٥، ٧٩، ٨٠، ١٧٤، ٢٣٥، ٢٧٦، ٣٣٤، ٣٤٧، ١٣/ ٥٥، ١٣١.

العلم إلى معرفة أحوالهم، فلذلك جمعنا هذا الكتاب»[1]. ولكن صرح محمد عبد الرزاق حمزة أنها في «مجلد وسط»[2]، ويؤيد هذا ما جاء في وصف مخطوطة دبلن أن ترجمة الإمام الشافعي منها في ٣٧ ورقة، والطبقات في ١٤١ ورقة[3].

وذيل على طبقات ابن كثير عفيف الدين عبد الله بن محمد بن أحمد بن خلف المطري (المتوفى سنة ٧٦٥)، وقد استفاد السخاوي من هذا الذيل في كتابه الحافل في التراجم على حروف المعجم[4].

٤ـ الكواكب الدراري: ذكر هذا الكتاب حاجي خليفة وإسماعيل باشا البغدادي في مؤلفات ابن كثير، وقالا عنه: «انتخبه (ابن كثير) من تاريخه الكبير»[5]. إذاً فهو ملخص «البداية والنهاية». وقد مر ذكره أثناء كلامنا على السيرة النبوية لابن كثير.

٥ و ٦ ـ سيرة الصديق والفاروق ومسندهما: يشير إليهما بعض مترجمي ابن كثير باسم «مسند الشيخين»[6]، وكذلك أشار إليهما ابن كثير عدة مرات بهذا

---

(١) طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٣

(٢) محمد عبد الرزاق حمزة، الباعث الحثيث١٧

(٣) فهرس Chester Beatty Library Dublin Ireland ٢/ ٦١ والمخطوط محفوظة فيها برقم ٣٣٩٠ (١، ٢)، زهي مؤرخة جمادى الثانية سنة ٧٤٩هـ، مكة المكرمة. ومن الطبقات مخطوطات أخرى في بعض مكتبات العالم، منها:
١ـ نسخة عتيقة عند أحد أفاضل مكة، وعنها نسخت نسخة هي ملك الدكتور محمد صادق تاجر الأدوية بالقاهرة (المنجد، المؤرخون الدمشقيون ٥٦)
٢ـ ومخطوطة بمكتبة الكتاني، فاس، المغرب، وفي أولها خط ابن كثير بالإجازة بها للقليوبي، ولكاتبها البشنوني وهي مؤرخة سنة ٧٤٦هـ.
٣ـ ومخطوطة أخرى في مكتبة الكتاني بخط مشرقي. المنجد، في مقاله «نوادر المخطوطات في المغرب»، مجلة معهد المخطوطات العربية ١٦٥(مايو سنة ١٩٥٩)/ ص١٨٤، ١٨٨.

(٤) السخاوي الإعلان ١٨٨ ٦٢٦.

(٥) كشف الظنون ٢/ ١٥٢١، هدية العارفين ١/ ٢١٥.

(٦) ذيل السيوطي ٣٦١، شاكر، عمدة التفسير ١/ ٣٦، واعتبرهما الشيخ ضياء الدين الإصلاحي جزءاً من أجزاء جامع المسانيد لابن كثير، وهو وهم منه (مجلة معارف الأوردية أعظم جرة بالهند ٩٤/ ٥ (نوفمبر سنة ١٩٦٤م) / ص٣٥٩).

الاسم[١]، ومن حسن حظنا أننا نستطيع معرفة اسمه الصحيح، وتحديد وصفه ومحتواه وترتيبه ومجلداته، بعد مراجعة ودراسة الإشارات المفيدة الكثيرة التي أوردها ابن كثير في تاريخه، وهي التي أرشدتنا إلى الوصول إلى النتائج التالية:

أن اسم «مسند الشيخين»، الذي اتفق عليه المترجمون الذين عرفوا هذا الكتاب ليس صحيحاً، ولم يستعمل ابن كثير هذا التعبير إلا قليلاً، بل هو أكثر في أماكن أخرى عديدة في تاريخه من استعمال عناوين وتعبيرات آتية:

سيرة أبي بكر[٢]، سيرة الصديق[٣]، أيام الصديق[٤]، ترجمة الصديق[٥]. وسير ة الفاروق[٦] السيرة العمرية[٧] سيرة عمر بن الخطاب[٨] ترجمة عمر بن الخطاب[٩].

كما جمع بينهما في مكان واحد بقوله: «وقد استقصينا كيفية إسلام أبي بكر وعمر في (سيرتهما)، على انفرادها»[١٠].

وجاءت في وصف هذين الكتابين عبارة صريحة تنبئنا عن حقيقتهما، قال ابن كثير: «وقد ذكرنا ذلك في كتابنا الذي أفردناه في سيرة أبي بكر، وأوردنا فضائله وشمائله، وأتبعنا ذلك بسيرة الفاروق أيضاً، وأوردنا ما رواه كل منهما عن النبي ﷺ، وما روى منه من الآثار والأحكام والفتاوى، فبلغ ذلك ثلاث

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٥/ ٢٨٨، اختصار علوم الحديث ٥٧، فضائل القرآن ٢٨.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٣/ ٢٧.
(٣) نفس المصدر ٣/ ١٨٠، ٥/ ٢٨٨، ٦/ ٣٠٢، ٧/ ١٨، ٣١.
(٤) نفسه ٦/ ٢٦٨.
(٥) نفسه ٧/ ١٨، ٣٥.
(٦) نفسه ٣/ ٢٧.
(٧) نفسه ٣/ ٢٠٧.
(٨) نفسه ٦/ ٢٠١، ٧/ ٥٨، ٥٩، ٩٣، ٩/ ٢٠٧، أختصار علوم الحديث ٢٣٨.
(٩) نفسه ٥/ ٣٥٢، ٧/ ١٨.
(١٠) نفسه ٣/ ٣١.

مجلدات»[١]. «سيرة الصديق في مجلد»[٢]، وسيرة الفاروق في مجلدين»[٣].

ويتضح من مراجعة إشارات ابن كثير إلى هذين الكتابين أن كلاًّ منهما يحتوي على قسمين[٤]:

أ ـ **قسم الترجمة**: وهو يحتوي على سيرة الصديق والفاروق وأحوالهما وأخبارهما وشمائلهما وفضائلهما[٥].

ب ـ **قسم المسند**: وفيه ما رواه كل منهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأحاديث المرفوعة، والآثار الموقوفة، والأحكام، والفتاوى[٦]، ومارآه كل منهما من الفقه النافع الصحيح، ورتبه على أبواب الفقه المصطلح عليها اليوم[٧].

إذاً فالكتاب أصلاً في سيرة الصديق والفاروق، ألحق به مروياتهما عن الرسول ﷺ، وآراؤهما الاجتهادية في الفقه، مرتباً على أبواب الفقه. وأنه ليس كتاب واحد، بل كتابان في ثلاثة مجلدات، بالترتيب الآتي:

١ـ كتاب في سيرة الصديق ومسنده، في مجلد.

٢ـ كتاب في سيرة الفاروق ومسنده، في مجلدين. الأول في سيرته، والثاني في مسنده[٨].

٧ ـ **شرح البخـــاري**: يتفق أكثر مترجمي ابن كثير على أنه «شرح قطعة من

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٣/ ٢٧، اختصار علوم الحديث ١٨٣.

(٢) نفس المصدر٧/ ١٨.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ٥/ ٣٥٢، ٧/ ١٨، ٥٨، ٥٩، ١٤١، ٩/ ٢٠٧.

(٤) نفس المصدر ٣/ ٢٧، ٥/ ٣٥١، ٣٥٢، ٦/ ٣٠٢، ٧/ ١٨، ٥٨، ٥٩، ٨١، ١٤١، ٩/ ٢٠٧.

(٥) نفسه ٣/ ٢٧، ٣١، ٥/ ٣٥١، ٣٥٢، ٦/ ٢٠١، ٧/ ١٨، ٣١، ٣٥، ٥٨، ٥٩.

(٦) نفسه ٣/ ٢٧، ٧/ ٥٨.

(٧) نفسه ٥/ ٢٨٨ـ ٢٨٩، ٧/ ٥٨، ١٤١، وجاء «مبوبة على أبواب العلم »، (البداية والنهاية ٦/ ٣٠٢).

(٨) واسمه: مسند الفاروق أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأقواله على أبواب العلم. وقد حققه الأستاذ: مطر الزهراني وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة أم القرى بمكة المكرمة. انتهى من مصححه. =

البخاري»[١]. أو أنه «شرع في شرحه»[٢]، و «لم يكمله»[٣]. وقد أحال ابن كثير إليه أيضاً في تاريخه، ولكن جاء في كل هذه الإشارات التصريح «في أول شرح البخاري »[٤]، مما يؤكد ما ذهب إليه بعض المترجمين بأنه «شرح قطعة من أوله»[٥] ولكن إلى أي حد بلغ ابن كثير في شرحه؟ الحقيقة أنه لا يمكن الإجابة على هذا السؤال باليقين، فالإشارات التي جاءت في تاريخه تفيد:

ـ أنه صدر شرحه بترجمة حافلة للإمام البخاري[٦].

ـ ويبدو أنه قام في مقدمة شرحه بمقارنة بين منهجي البخاري ومسلم في صحيحيهما، كما يفهم من ترجمته للإمام مسلم في تاريخه، فقد كان ابن كثير يعتبر صحيح مسلم في المنزلة تلو صحيح البخاري. ويخالف في ذلك ما ذهب إليه المغاربة وأبو علي النيسابوري من المشارقة إلى تفضيل صحيح مسلم على صحيح البخاري، ويرد حجتهم قائلاً: «فإن أرادوا تقديمه عليه في كونه ليس فيه شيء من التعليقات إلا القليل، وأنه يسوق الأحاديث بتمامها في موضع واحد، ولا يقطعها كتقطيع البخاري لها في الأبواب، فهذا القدر لا يوازي قوة أسانيد البخاري، واختياره في الصحيح لها، وما أورده في جامعه معاصرة الراوي لشيخه وسماعه منه. وفي الجملة فإن مسلماً لم يشترط في كتابه الشرط الثاني كما هو مقرر في علوم الحديث. وقد بسطت ذلك في أول شرح البخاري»[٧].

أما باقي الإشارات فإنها تدور حول الباب الأول(وهو كيف كان بدء الوحي) والكتاب الأول (وهو كتاب الإيمان) من صحيح البخاري فقد أشار ابن كثير إلى

---

(١) طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٣، شذرات لابن العماد٦/٢٣١، الجلاء لابن الآلوسي ٣٤.

(٢) الدرر الكامنة لابن حجر ١/٣٧٤، سركيس، معجم المطبوعات ١/٢٢٥، محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ٤/١٤٥.

(٣) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ١١/١٢٤، الأعلام للزركلي ١/٣١٨، حمزة، الباعث الحثيث ١٨، شاكر، عمدة التفسير١/٣٦.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ٣/٣، ١٢٢، ١٢٦، ٤/٢٥٨، ٢٦٦، ١١/٢٤، ٣٣.

(٥) حاجي خليفة، كشف الظنون ١/٥٥٠، البغدادي، هدية العارفين ١/٢١٥.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية ١١/ ٢٤.

(٧) ابن كثير، البداية والنهاية ١١/٣٣.

باب: كيف كان بدء الوحي من صحيح البخاري في المناسبات الآتية:

ـ باب كيفية بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلخ: نقل ابن كثير في أوله حديث عائشة من البخاري، ثم قال: «وهذا الحديث قد رواه الإمام البخاري في كتابه في مواضع منه، وتكلمنا عليه مطولاً في أول شرح البخاري في كتاب الوحي إسناداً ومتناً»(١).

ـ فصل كيفية إتيان الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: بدأه أيضاً بحديث عائشة من البخاري: ثم أورد شواهد الحديث ونظائره من كتب أخرى، وقال: «وقد ذكرنا أنواع الوحي إليه في أول شرح البخاري، وما ذكره الحليمي وغيره من الأئمة»(٢).

ـ كتاب بعث رسول الله ﷺ إلى ملوك الآفاق، وكتبه إليهم... إلخ: ذكر في أوله قصة أبي سفيان مع هرقل برواية مسلم، ثم أورد رواية البخاري لهذه القصة «ليعلم ما بين السياقين من التباين وما فيهما من الفوائد»، ثم قال: «وقد رواه البخاري في مواضع كثيرة من صحيحه بألفاظ يطول استقصاؤها... وقد تكلمنا على هذا الحديث مطولاً في أول شرحنا لصحيح البخاري بما فيه الكفاية، وذكرنا فيه من الفوائد والنكت المعنوية واللفظية»(٣).

أما كتاب الإيمان من صحيح البخاري، فقد أشار إليه ابن كثير في الأماكن الآتية:

ـ فصل في وفاة أبي طالب عم رسول الله ﷺ: ذكر فيه ابن كثير «أنه كان يعلم أنَّ رسول الله صادق بار راشد، ولكن مع هذا لم يؤمن قلبه، وفرق بين علم

---

(١) نفس المصدر ٣/ ٢ـ٣، وهو الحديث الثالث في صحيح البخاري في باب كيف كان بدء الوحي.

(٢) نفسه٣/ ٢١ـ٢٢، وهو الحديث الثاني للبخاري في الباب المذكور.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ٤/ ٢٦٢ ـ ٢٦٦، وهو الحديث السادس للبخاري في صحيحه في باب: كيف كان بدء الوحي.

القلب وتصديقه، كما قررنا ذلك في شرح كتاب الإيمان من صحيح البخاري»[1].

ـ فصل في فضل الأمراء الثلاثة (الشهداء في غزوة مؤتة): وجاء في فضل عبد الله بن رواحة ما ذكره البخاري من قول ابن معاذ «اجلس بنا نؤمن ساعة» ثم قال ابن كثير بعد ذكر روايات في هذا المعنى: «وقد استقصينا الكلام على ذلك في أول شرح البخاري»[2].

ويتضح من هذا أن ابن كثير شرح هذه الأجزاء الأولية من صحيح البخاري، وبعد ذلك لا نعلم إلى أين وصل في شرحه؟

٨ ـ **اختصار كتاب المدخل إلى كتاب السنن للبيهقي**: وهما كتابان للبيهقي (٣٨٤ ـ ٤٥٨). أما السنن فمعروف، وأما المدخل إليه، فقد ذكره بعض المترجمين للبيهقي[3].

واختصر ابن كثير المدخل المذكور على طريقة اختصاره لكتاب علوم الحديث لابن الصلاح، كما صرح بذلك في اختصار مقدمة علوم الحديث لابن الصلاح، كما صرح بذلك في اختصار مقدمة علوم الحديث. ويبدو من تصريحه هذا بأنه استفاد من المدخل في اختصار علوم الحديث المذكور، وأضاف إليه الفوائد الملتقطة من كتاب الحافظ الكبير أبي بكر البيهقي، المسمى بـ (**المدخل** إلى كتاب السنن)، وقد اختصرته أيضاً بنحو من هذا النمط، من غير وكس ولا شطط»[4]. إذاً فاختصـار كتاب المدخل مقدَّم على اختصار علوم الحديث لابن الصلاح. وقد قيل: إنه مخطوط[5]، ولكن لا نعرف مكان المخطوطة.

٩ ـ **كتاب المقدِّمات**: عثر على اسم هذا الكتاب الشيخ عبد الرزاق حمزة،

---

(١) نفس المصدر ٣/ ١٢٦.
(٢) نفسه ٤/ ٢٥٨، وهو كتاب الإيمان من صحيح البخاري ١/ ١٨.
(٣) الذهبي، تذكرة الحفاظ ٣/ ٣١٠، اليافعي مرآة الجنان ٣/ ٨٢، دائرة المعارف الإسلامية حيدر آباد بالهند، سنة ١٣٣٧ ـ ١٣٣٩هـ.
(٤) ابن كثير، اختصار علوم الحديث ١٩.
(٥) مصطفى عبد الواحد، في تقديم السيرة النبوية لابن كثير١/ ١٠.

حين نشر كتاب اختصار علوم الحديث لابن كثير[١]، ثم تبعه آخرون[٢]، وقد صرَّح ابن كثير باسمه، وأحال عليه في مختصره المذكور ثلاث مرات[٣]. ولانعرف عن هذا الكتاب وعن محتواه أكثر مما قاله الشيخ أحمد محمد شاكر، وهو قوله «ولعله في المصطلح»[٤]، مستنداً إلى نوعية الإشارات التي وردت في مختصر ابن كثير.

١٠ ـ **الأحكام الكبرى في الحديث**: أشار إليه المؤلف في كثير من مؤلفاته الأخرى كالبداية والنهاية، ومختصر علوم الحديث لابن الصلاح[٥]، والتفسير[٦]

١١ ـ **كتاب الأحكام الكبير**: وهو في الفقه، معروف عند أكثر مترجميه، وهم متفقون على أنَّ ابن كثير شرع في كتاب كبير حافل في الأحكام، ولكنه لم يتمه، كتب منه مجلدات إلى الحج[٧].

وأشار ابن كثير إلى كتابه هذا مراراً وتكراراً، وأحال عليه في بعض مؤلفاته. وكان يذكره بـ«كتاب الأحكام»[٨] أو بـ«كتاب الأحكام الكبير»[٩] ونحن نستطيع

---

(١) الباعث الحثيث ١٧.

(٢) شاكر، عمدة التفسير ١/٣٦، مصطفى، في أول السيرة النبوية ١/١١.

(٣) اختصار علوم الحديث ٩٧، ١٠٢، ١٣٢.

(٤) عمدة التفسير ١/٣٦.

(٥) الباعث الحثيث ص٥٧، ٢٠٢.

(٦) تفسير القرآن العظيم ٤/٥٩٩.

(٧) طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٣، الدرر لابن حجر ١/٣٧٤، ذيل السيوطي ٣٦١، شذرات لابن العماد ٦/٢٣١.

(٨) ابن كثير البداية والنهاية ١/٢٢٥، ٢/١٤٤، ٣/١١٨، ٢٤٦، ٤/٨٥، ٨٧، ١٨٤، ١٩٢، ١٩٤، ٢١٩، ٢٣٢، ٣٠٥، ٣١٨، ٣٤٠، ٥/١٩٩، ٧/٥٩، ٧٥، ٨/٢٦٣، أختصار علوم الحديث ٣٥.

(٩) نفس المصدر ٢/١٥٤، ٣/٢٢٠، ٢٣٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٩٣، ٤/٨٣، ٩١، ٣٤٠، ٥/١٦٦، ٢٣٦، ٢٧٦، ٦/٨، ٧/٤٧، اختصار علوم الحديث ٣١ـ ٥٧ـ ٢٠٢. قال مصححه: هذه الإحالات ليس إلى كتاب «الأحكام الكبير» لأن هذا الكتاب وصل فيه إلى كتاب الحج. وإنما الإحالة إلى كتابه «الأحكام الكبرى » في الحديث، لذلك =

من الرجوع إلى تلك الإشارات معرفة محتوى الكتاب، وبعض الكتب والأبواب التي أدخلها فيه ابن كثير، أو كان يريد إدخالها فيه، مثل كتاب النكاح[١]، وكتاب المناسك[٢]، وكتاب الجنائز[٣]، وكتاب البيع[٤]، وكتاب المزارعة[٥]، وكتاب اللباس[٦]، وباب الحيل[٧]، وباب الأذان[٨].

وكان يريد أن يرتبه على الأبواب الفقهية المعروفة عند الأئمة المصنفين، فقال: «وسنذكر جميع ما يختص بالأنبياء مع خصائص نبينا في أول كتاب النكاح من كتاب الأحكام الكبير، حيث ذكره الأئمة المصنفون، اقتداء بالإمام الشافعي رحمه الله»[٩].

١٢ ـ كتاب الأحكام الصغير، أو كتاب أحكام التنبيه: عثرنا على اسم هذا الكتاب من ملاحظة لابن كثير في كتابه اختصار علوم الحديث، حيث قال: «وقد تكلمنا على ذلك في مواضع من كتابنا التكميل، وفي الأحكام الكبير والصغير»[١٠]. فلم تترك لنا مجالاً للارتياب في تأليفه كتابين في الأحكام.

ولكن لم نجد أحداً من مترجميه من يصرح بذلك بوضوح تام. فقد وردت عندهم الأسماء التالية المتشابهة حول هذا الكتاب، وهي: «أحكام التنبيه»[١١]،

= أحال فيه إلى الكتب المذكورة أعلاه، وأحال إليه أيضاً في تفسيره: إلى الصناع (تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٣٦) وإلى أحكام عشرة النساء (تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٢٩) انتهى من مصححه.

(١) البداية والنهاية ٢/ ١٥٤، ٤/ ٩١.
(٢) نفس المصدر ٣/ ٢٢٠.
(٣) نفسه ٣/ ٢٩٣.
(٤) نفسه ٤/ ٨٧.
(٥) نفسه ٤/ ٢١٩.
(٦) نفسه ٦/ ٨.
(٧) نفسه ١/ ٢٢٥، ٢/ ١٤٤.
(٨) البداية والنهاية ٣/ ٢٣٣.
(٩) نفس المصدر ٢/ ١٥٤.
(١٠) اختصار علوم الحديث لابن كثير ٢٠٢.
(١١) ابن حجر، إنباه الغمر بأبناء العمر ١/ ٤٥، شذرات لابن العماد ٦/ ٢٣١، البغدادي، =

و«الأحكام على أبواب التنبيه»[1]، و«الأحكام الكبير»[2]، وقد مر ذكره آنفاً.

وقد كنا نظن أنَّ هذه الأسماء كلها تدل على مسمى واحد، إلا أنَّ التصريح المذكور لابن كثير هدانا إلى إدراك فرق بين كتاب «أحكام التنبيه»، أو «كتاب الأحكام على أبواب التنبيه»، وبين «كتاب الأحكام الكبير»، فالاسمان السابقان نعتبرهما الآن «كتاب الأحكام الصغير»، الذي أشار إليه المؤلف.

وقد أيدنا في ذلك ابن قاضي شهبة، والداودي، وابن العماد بالتفريق الذي عملوه في ذكر الكتابين، فقد صدروا في بيان مؤلفات ابن كثير بذكر ما نعتبره الآن «الأحكام الصغير»، قائلين: «وصنف في صغره كتاب الأحكام على أبواب التنبيه» ثم قالوا بعد ذكر مؤلفات أخرى: «وشرع في الأحكام كثيرة حافلة، كتب منها مجلدات إلى الحج»[2]. فتأكد لنا أنَّ المقصود من «الأحكام على أبواب التنبيه»، هو كتاب الأحكام الصغير الذي أشار إليه المؤلف.

أما حاجي خليفة، فإنه لم يذكر الأحكام الكبير من مؤلفات ابن دثير، إلا أنه ذكر كتاب «الأحكام الصغرى في الحديث»[3]. فجعل الوصول إلى حقيقة هذا الكتاب صعباً بإضافة عبارة «في الحديث»، ولانعرف لابن كثير كتاباً صغيراً في أحكام الحديث إلا «اختصارعلوم الحديث». وقد ذكره حاجي خليفة منفرداً في ذكر مختصرات علوم الحديث لابن الصلاح[4]. فإذا اعتبرنا العبارة المذكورة سهواً أو وهماً من حاجي خليفة، بدلاً «في الفقه»، كان ذكره لهذا الكتاب تأييداً لما أشار إليه المؤلف من أن له كتاب صغير في الأحكام.

ويبدو أن الأحكام الصغير لابن كثير من أول مؤلفاته، فقد قال بعض

= هدية العارفين ١/ ٢١٥، جلاء العينين لابن الآلوسي ٣٤.

(١) طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٣، الداودي في طبقات المفسرين، نقلاً عن ترجمة ابن كثير في أول رسالة الجهاد لابن كثير، صفحة ٤، عبد القادر الأندونسي، الخزائن السنية ٤.

(٢) طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٣، الداودي في طبقات المفسرين، نقلاً عن ترجمة ابن كثير في أول رسالة الجهاد لابن كثير، صفحة ٤، عبد القادر الأندونسي، الخزائن السنية ٤.

(٣) حاجي خليفة، كشف الظنون ١/ ١٩، ٢/ ١١٦٢.

مترجميه أنه «ألف في صغره أحكام التنبيه»[1]. ومع أنه ألفه في صغره، فقد نقل بعض مترجميه إعجاب شيخه برهان الدين الفزاري بهذا الكتاب، وثناءه عليه[2].

١٣ـ شرح التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي: أشار ابن كثير إلى هذا الكتاب مرة واحدة في ترجمة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي في تاريخه، وسماه «شرح التنبيه»[3]، و وافقه على ذلك ابن قاضي شهبة، والداودي، وجاء عندهما ما يدل أنه لم يكمله. فقال ابن قاضي شهبة: وشرح «قطعة من التنبيه»[4]. وقال الداودي شرح «قطعة كبيرة »منه[5].

أما كتاب «التنبيه »، أصل هذا الشرح، فهو كتاب فقه في فروع الشافعية، ألفه أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي (٣٩٣ ـ ٤٧٦). وانتشر صيته حتى أصبح من أكثر الكتب رواجاً لدى الشافعية، فاهتمَّ بحفظه الطلاب في أوائل سنن الدراسة، وبالغ في حفظه وإتقانه أكثر علمائهم، وقد كتب عليه الكثيرون منهم شروحاً لا يحصرها العد[6].

ويدل على اهتمام ابن كثير بهذا الكتاب منذ صغره إلى آخر حياته ما قيل من أنه «حفظ التنبيه، وعرضه سنة ٧١٨هـ»[7]، أو «حفظ كتباً في علوم عدة، منها التنبيه»[8]، وكان «يستحضر التنبيه إلى آخر وقت »[9] أو «يحفظ التنبيه إلى آخر

---

(١) طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٣، الأنباء لابن حجر ١ـ٤٥، شذرات لابن العماد ٦/ ٢٣١، الجلاء لابن الآلوسي ٣٤.
(٢) طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٣، الإنباه لابن حجر ١/ ٤٥ـ ٤٦.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١٢/ ١٢٥.
(٤) طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٣.
(٥) طبقات المفسرين للداودي نقلاً عن ترجمته في أول رسالة الجهاد ٤.
(٦) انظر كلامنا على الحالة العلمية في عصر ابن كثير في أول هذا الكتاب صفحة ٧ـ١٣.
(٧) الإنباه لابن حجر ١/ ٤٥، مفتاح السعادة لطاشكبري زادة ١/ ٢٠٤، شذرات لابن العماد ٦/ ٢٣١.
(٨) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ٤/ ١٤٤.
(٩) الإنباه لابن حجر ١/ ٤٦.

وقت»[١]. ثم إنَّ ابن كثير لم يكتف بحفظ الكتاب وإتقانه والتعاهد عليه بالاستذكار والاستحضار، بل قام بشرحه، وتخريج أحاديثه وجعله أسوة لترتيب الأحكام الصغير على أبوابه كما مر آنفاً.

وصرح ابن كثير أنه صدر شرحه بـ«ترجمة مستقصاة مطولة» للشيرازي مؤلف التنبيه[٢].

١٤ـ إرشاد الفقيه إلى معرفة أدلة التنبيه[٣]: ذكره له كثير من مترجميه[٤]، وقام الأستاذ محمد إبراهيم السامرائي بتحقيقه.

١٥ـ تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب[٥]: أجمع المترجمون لابن كثير أنه «خرج أحاديث مختصر ابن الحاجب»[٦]، وزاد بعضهم كلمة (الأصلي) فقالوا: «خرج أحاديث مختصر ابن الحاجب الأصلي»[٧]. وقال الداودي: «وشرح الأحاديث التي في مختصر ابن حاجب»[٨]، وأشار ابن كثير إلى كتابه هذا بقوله: «وقد منَّ الله عليَّ، وجمعت كراريس في الكلام على ما أودعه فيه عن الأحاديث النبوية، ولله الحمد»[٩].

أما المختصر، فهو لأبي عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الفقيه

---

(١) طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٣، الدارس للنعيمي١/ ٣٧.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٢/ ١٢٥.

(٣) هذا الكتاب زيادة من المصحح (مجد).

(٤) الدرر الكامنة لابن حجر ١/ ٣٧٤، ذيل السيوطي ٣٦١ ومنه نسخة بمكتبة فيض الله بتركيا تحت رقم ٧٨٣/ ٢.

(٥) واسمه الكامل «تحفة الطالب بمعرفة أحاديث مختصر ابن الحاجب» وقد قام بتحقيق الكتاب الأخ الأستاذ عبد الغني الكبسي معتمداً على نسخة فيض الله أفندي سنة ٧٤٤، في حياة المؤلف، ونسخة دار الكتب المصرية وطبع الكتاب في دار حراد بمكة المكرمة عام ١٤٠٦. انتهى من مصححه.

(٦) طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٣، الدرر لابن حجر ١/ ٣٧٤، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ١/ ١٢٣، ذيل السيوطي ٣٦١.

(٧) حمزة، الباعث الحثيث١٧، محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ٤/ ١٤٥.

(٨) طبقات المفسرين للداودي نقلاً عن رسالة الاجتهاد لابن كثير ٤.

(٩) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ١٧٦.

المالكي المعروف بابن الحاجب (٥٧٠ ـ ٦٤٦)، وهو من كبار العلماء بالعربية، وصاحب مصنفات عديدة في الفقه المالكي وأصوله، وفي النحو والصرف العربي، منها هذا المختصر في أصول الفقه، لخصه من كتابه الكبير «منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل»، وسماه(مختصر المنتهى)[١]، إلا أنه عرف بـ(مختصر ابن الحاجب)[٢]. وقال ابن كثير فيه: إنه «استوعب فيه عامة فوائد الأحكام لسيف الدين الآمدي»(٥٥١ ـ ٦٣١)[٣].

وقد ذاع المختصر في المالكية، فحفظوه، وعلقوا عليه، وشرحوه،[٤] وابن كثير مع اتباعه المذهب الشافعي حفظه كما عرف عنه[٥]، وقد صرح بذلك قائلاً: «وقد منَّ الله تعالى علي بحفظه»[٦].

ويدل على اهتمام العلماء بعمل ابن كثير العلمي في تخريج أحاديث المختصر، ومنزلته بينهم، ما روي من أنَّ رفيق ابن كثير وصاحبه ومعاصره تقي الدين ابن رافع السلامي (٧٠٤ ـ ٧٧٤)، «كتب لنفسه منه نسخة»[٧]، وقد رأى ابن حجر «نسخة من تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب(لابن كثير)، لم يبيضها، بخط تقي الدين ابن رافع»[٨].

ولا نعرف متى انتهى ابن كثير من تخريج مختصر ابن الحاجب، وكذلك من شرح التنبيه المذكور وتخريج أحاديثه، إلا أننا عثرنا على خبر يفيد أن قاضي القضاة عز الدين أبا عمر عبد العزيز بن جماعة(٦٩٤ ـ ٧٦٧) حين قدم دمشق

---

(١) وهما مطبوعان، (الأعلام ٤/ ٣٧٤) ولكن لم أستطع الاطلاع عليهما.

(٢) زيدان، آداب اللغة العربية ٣/ ٥٧.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ١٧٦، وهو أيضاً مطبوع، (الأعلام ٥/ ١٥٣)، ولم أطلع عليه.

(٤) انظر كلامنا على الحالة العلمية في عصر ابن كثير في أول هذا الكتاب صفحة ٦ـ١٢.

(٥) ابن حجر، الإنباه ١/ ٤٥، مفتاح السعادة لطاشكبري زادة ١/ ٢٠٤، شذرات لابن العماد ٦/ ٢٣١.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ١٧٦.

(٧) ابن حجر، الدرر الكامنة ٣/ ٤٣٩.

(٨) ابن حجر، الإنباه ١/ ٤٦.

سنة ٧٢٥هـ، وأراد تخريج أحاديث الرافعي، أشرك ابن كثير في عمله هذا، فقد قال ابن حجر «انتفع به في تخريج أحاديث الرافعي»[١].

وهذا يدل على أنَّ ابن كثير كان قد انتهى من تخريج أحاديث مختصر ابن حاجب، ومن شرحه على التنبيه للشيرازي، وتخريج أحاديثه، في هذا السن الباكر، واشتهر أمره بين أهل العلم في هذا المجال، فكان ذلك سبباً في اشتراك ابن جماعة له في تخريج أحاديث الرافعي، والانتفاع به فيه، ويؤيد هذا ما أسلفنا من تأليف ابن كثير في صغره أحكام التنبيه، وثناء شيخه الفزاري له عليه.

وإذا فرضنا أنَّ ابن كثير لم يقم بهذين العملين في هذا السن، فيدل هذا الخبر على الأقل أن عمل ابن كثير مع عالم بازر من علماء عصره كان دليلاً له ومرشداً فيما بعد في حياته العلمية الحافلة التي خدم فيها ابن كثير العلم، وخاصة علم الحديث خدمة عظيمة نافعة.

١٦ـ رسالة في السماع: انفرد حاجي خليفة بالإشارة إلى هذه الرسالة لابن كثير. فقد ذكر أن مسألة السماع من جملة ما اختلف فيه أهل الظاهر والباطن، ونقل من رسالة للشيخ أحمد بن إبراهيم الواسطي الشافعي (المتوفى سنة ٦٩٤هـ) أن السماع بدعة ظهرت بعد المئتين ببغداد، وقد تكلم عليه الإمام الشافعي، وأنكر عليهم في هذا العصر. كما نقل من رسالة أخرى للشيخ محمد الخضيري الشافعي مفتي الشام (المتوفى سنة ٨٩٤هـ) أنه لم يرد في تحريمه وإباحته نص صحيح صريح. ثم ذكر أن العلماء اختلفوا في استماع الغناء بألحان على وجوه، وهي مسألة طويلة الذيل، اختلفت فيها الآراء، وتباينت فيها الأقوال، حتى خصَّها كثيرٌ من المتقدمين والمتأخرين بالتصنيف. وذكر من المتأخرين الذين ألَّفوا في هذه المسألة كمال الدين جعفر الأدفوي، وشمس الدين ابن قيم الجوزية، والحافظ عماد الدين ابن كثير، وخلائق[٢].

١٧ـ سيرة منكلي بغا الشمسي: انفرد السخاوي بذكر هذه السيرة من مؤلفات

(١) ابن حجر، إنباه الغمر بأبناء العمر ١/ ٤٦.
(٢) حاجي خليفة، كشف الظنون ٢/ ١٠٠١.

ابن كثير. فقال: «وللعماد ابن كثير سيرة منكلي بغا»[1]. كما صرح في كتاب آخر له باسم هذه السيرة قائلاً: «وأفرد العماد ابن كثير سيرة منكلي بغا، سماها: ما ينتقى ويبتغى في سيرة المعز (؟) السيفي منكلي بغا»[2].

ومنكلي بغا هذا، هو أحد مماليك الملك الناصر حسن (٧٥٥ ـ ٧٦٢)، أمره طبلخانة سنة ٧٥٨هـ، ثم أمره على مأة سنة ٧٥٩هـ. ثم تولى نيابة البلاد، منها نيابة حلب سنة ٧٦٣هـ، ونقل منها إلى دمشق، فحكم بها أكثر من أربع سنين (٢٧ ذو القعدة سنة ٧٦٤ ـ ٢١ محرم الحرام سنة ٧٦٨هـ) وأعيد ثانية إلى حلب، ومنها إلى نيابة السلطنة بمصر سنة ٧٦٩هـ، ثم أتابكاً بها في نفس السنة، ونظر المارستان، ولم يزل بها حتى توفي سنة ٧٧٤هـ. وكان «مهاباً عاقلاً، يتكلم في عدة علوم»[3].

ويظهر أنه كان يحترم ابن كثير، ويكرمه ويقدر شخصيته، فكان حريصاً على الاتصال به دائماً، يطلبه للمشورة ولحضور مجالس التحقيق لإزالة الخلافات بين علماء عصره[4]. وقد أنكر ابن كثير عليه مصادرة أموال النصارى لعمارة ما خرب من الإسكندرية، بسبب الهجوم الفرنجي الغادر عليها سنة ٧٦٧هـ[2].

ويبدو أنَّ ابن كثير أحب شخصية النائب، فلاحظ أنه كان «مشكور السيرة»[2] في حكمه في دمشق، كما ذكر تأسف الناس على نقله إلى حلب ودعاءهم له[2]. وهذا التقدير والإعجاب هو الذي جعل ابن كثير يؤلف سيرته، ولكن كما ذكرنا لولا السخاوي سجل اسمها في كتابيه، لضاع اسمها، وذهب أثرها.

* * *

---

(١) السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ١٨٦.

(٢) السخاوي، الجواهر والدرر، المنشور منه جزء مع كتاب الإعلان، صفحة ٣٦٩.

(٣) ابن حجر، الدرر الكامنة ٤/ ٣٦٧، وجاء فيه اسمه بمنكلي بغا الشمسي.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٣٠٥، ٣٠٧، ٣١٤ ـ ٣١٨، ٣٢١ ـ ٣٢٢، وقد جاءت الإشارة إلى النائب المذكور أثناء كلامنا على الحالة السياسية في عصر ابن كثير في أول هذا الكتاب.

ج ـ المؤلفات المفقودة[1]

وهذه مؤلفات ابن كثير ما زالت مجهولة لمترجميه، وأكثرها بصورة رسائل صغيرة حول موضوعات معينة، لتوضيح بعض الأحاديث وما تتعلق منها من مسائل. عثرنا على أسمائها، في تاريخ ابن كثير نسجل هنا أسماءها، عسى أن يعثر عليها في خزائن مكتبات العالم في المستقبل، كما ننقل نصوص ملاحظات ابن كثير حولها، لتكوين فكرة عن هذه المؤلفات ومحتواها. فإن هذه الملاحظات هي المصدر الوحيد عندنا للآن.

١ـ **الحواشي على زيادات مسلم ورواياته**: لم نعثر على اسم هذا الكتاب عند أحد من مترجمي ابن كثير، إلا أنه يبدو من بعض ملاحظات ابن كثير في تاريخه أنه كتب فيه، فإنه قال: «وقد رمزنا في الحواشي على زيادات مسلم و رواياته، ولله الحمد»[2] وليس لدينا عن هذا الكتاب علم أكثر من هذا. فإن جميع مترجميه قد سكتوا عنه، كما سكتوا عن كتب أخرى، ورسائل صغيرة كثيرة له.

٢ـ **زواج أم سلمة من رسول الله ﷺ وولاية الابن لأمه في عقد النكاح**: ذكر ابن كثير أن القاصد بين أم سلمة وبين رسول الله ﷺ كان عمر بن الخطاب، فقد بعثة الرسول ﷺ مراراً ليخطبها له. «وقالت لعمر آخر ما قالت له: قم فزوج النبي ﷺ، تعني قد رضيت وأذنت. فتوهم بعض العلماء أنها تقول لابنها عمر بن

---

(١) وبعضها معروف طبع وقد أشرت إلى ما انتهى إليه علمي من ذلك (مصححه).

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٣/٣، وكذلك انظر ١٤٧/٥، ١٤٩، قال مصححه: ولعل هذه الحواشي على زيادات مسلم ورواياته، وضعها في كتابه «جامع المسانيد والسنن» فلا يصح أن يعد كتاباً مستقلاً والله أعلم.

أبي سلمة، وقد كان إذ ذاك صغيراً لا يلي مثله العقد. وقد جمعت في ذلك جزأ مفرداً بيّـنت فيه الصواب في ذلك. وأن الذي ولـيَ عقـدها عليه، ابنها سلمة بن أبي سلمة، وهو أكبر ولدها. وساغ هذا لأن أباه ابن عمها، فللابن ولاية أمه إذا كان سبباً لها من غير جهة البنوة بالإجماع. وكذا إذا كان معتقاً أو حاكماً. فأما محض البنوة، فلا يلي بها عقد النكاح عند الشافعي وحده، وخالفه الثلاثة، أبو حنيفة، ومالك، وأحمد رحمهم الله»[1].

٣ـ بطلان وضع الجزية عن يهود خيبر: صرح ابن كثير أنه كتب في بطلان وضع الجزية عن يهود خيبر، مصنفاً مفرداً[2].

وقد اهتم العلماء المسلمون بالبحث في الموضوع حين قام اليهود الخيابرة بمحاولة وضع الجزية عنهم في أزمان متأخرة بعد الثلاثمئة هجرية، وذلك بتقديم كتاب مزوَّر، منسوب إلى النبي ﷺ، وفيه إسقاط الجِزْية عنهم، حتى اعتقد بعض الفقهاء المتقدمين بصحة هذا الكتاب، فقالوا بوضع الجزية عنهم، مثل الشيخ أبي علي ابن خَيْرون الشافعي[3].

ولكن لم يسلم بصحته العلماء المسلمون عامة، فقام في أزمان مختلفة منهم من أثبت تزوير هذا الكتاب على النبي ﷺ، مثل محمد بن جرير، وأبي بكر الخطيب[4]. وكان منهم من ألَّف في ذلك مثل ابن الصباغ في مسائله، والشيخ أبي حامد في تعليقه، وابن المسلمة الذي صنف فيه مفرداً للرد عليه[4]، وذكره الماوردي في الحاوي، وصاحب الشامل[4].

وقد كان اليهود يقومون من زمن إلى آخر بمحاولاتهم الميؤوسة لوضع الجزية عنهم، مستندين إلى ذلك الكتاب المزور، آخرها كان في زمن المؤلف سنة ٧٠١هـ، حين «حاققهم شيخ الإسلام ابن تيمية، وبيَّن لهم خطأهم

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٤/ ٩٠ ـ ٩١.
(٢) نفس المصدر ٤/٢١٩، ٥/٣٥٢، ١٢/١٠٢، ١٤/١٩.
(٣) نفس المصدر ٤/٢١٩.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ١٢/١٠٢، ٤/٢١٩ ـ ٢٢٠، ١٤/١٩.

وكذبهم، وأنه مزوَّر مكذوب، فأنابوا إلى أداء الجزية، وخافوا أن تستعاد منهم الشؤون الماضية»[٤].

وقد وقف ابن كثير على هذا الكتاب المنسوب إلى النبي ﷺ، فكان ذلك داعياً إلى تصنيف كتاب حول هذا الموضوع. فألف في ذلك جزءاً مفرداً، بيَّن فيه بطلان الكتاب واختلاقه و وضعه من وجوه عديدة، منها:

- أن فيه شهادة سعد بن معاذ الذي كان قد مات يوم الخندق سنة خمس هجرية، قبل خيبر بنحو من سنتين.

- وفيه شهادة معاوية بن أبي سفيان، ولم يكن أسلم يومئذ.

- وفي آخره «وكتبه علي بن أبو طالب»، وهذا لحن وخطأ، لا يمكن صدوره عنه، وإليه أسند علم النحو عن طريق أبي الأسود الدؤلي.

- وفيه وضع الجزية، ولم تكن قد شرعت بعد، فإنها شرعت أول ما شرعت، وأخذت من أهل نجران الذين وفدوا في حدود سنة تسع هجرية[١].

جمع ابن كثير في هذا الكتاب مفرق كلام الأئمة حول هذا الموضوع، وذكر فيه ما جرى أيام القاضي الماوردي (المتوفى سنة ٤٥٠هـ)[٢].

٤- بيع أمهات الأولاد: جاءت الإشارة إلى هذا المصنف في فصل سراري رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين ولدت له جاريته مارية، إبراهيم. فذكر ابن كثير قوله(ص): «أعتقها ولدها»، ثم صرح ابن كثير: «وقد أفردنا لهذه المسألة، وهي بيع أمهات الأولاد، مصنفاً مفرداً على حدته. وحكينا فيه أقوال العلماء، بما حاصله يرجع إلى ثمانية أقوال، وذكرنا مستند كل قول. ولله الحمد والمنة»[٣].

٥- إنكار رسول الله ﷺ الزواج من عزة بنت أبي سفيان: ذكر ابن كثير حديثاً جاء فيه، طلب أبي سفيان من رسول الله ﷺ ثلاثة أشياء، وهي:

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٢/١٠٢، ٤/٢١٩ - ٢٢٠، ١٤/١٩.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٥/٣٥٢، ١٤/١٩.

(٣) نفس المصدر ٥/٣٠٤.

ـ أن يؤمَّر على مقاتلة الكفار، حتى يقاتلهم كما كان يقاتل المسلمين قبل ذلك.

ـ وأن يولي معاوية بين يديه الكتابة. (وقد أجيب إليهما).

ـ وأن يتزوج رسول الله ﷺ بابنته عزة، واستعان على ذلك بابنته أم حبيبة رملة، أم المؤمنين. فاعتذر الرسول ﷺ قائلاً: «إن ذلك لا يحل لي» لأن الجمع بين الأختين حرام.

وهنا صرَّح ابن كثير أنه أفرد لهذا الموضوع مصنفاً على حدة، ذكر فيه أقوال الأئمة، واعتذارهم عنه صلى الله عليه وسلم[1].

٦ـ جزء في الأحاديث الواردة في المهدي: أشار ابن كثير إلى هذا الجزء المفرد في المهدي الذي يكون في آخر الزمان، ويسلم الخلافة إلى عيسى ابن مريم، حين ينزل إلى الأرض، وذلك في الأخبار الواردة عن دولة بني العباس، ضمن باب ما أخبر به الرسول ﷺ من الكائنات المستقبلة، فذكر الأحاديث التي أشارت إلى الخلفاء العباسيين، السفاح، والمنصور، والمهدي، ثم قال: «ولاشك أن المهدي الذي هو ابن المنصور، ثالث خلفاء بني العباس، ليس هو المهدي الذي وردت الأحاديث المستفيضة بذكره، وأنه يكون في آخر الزمان، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً. وقد أفردنا للأحاديث الواردة فيه جزأ على حدة، كما أفرد أبو داود كتاباً في سننه»[2].

٧ـ جزء في حديث كفارة المجلس: جاءت الإشارة إلى هذا الجزء المفرد، في ترجمة مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح، حين ذكر ابن كثير سؤال مسلم للبخاري عن علة حديث كفارة المجلس. فقال: «وقد أفردت لهذا الحديث جزءاً على حده وأفردت فيه طرقه وألفاظه ومتنه وعلله»[3].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٥/ ٣٥٤، ٨/ ٢١، ١١٩

(٢) نفس المصدر ٦/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨، قال مصححه: وأشار إلى ذلك أيضاً في كتابه «النهاية» حيث قال: ١/ ٣٠ وقد أفردت في ذكر المهدي جزءاً على حدة ولله الحمد.

(٣) نفسه ١١/ ٣٤

٨ـ جزء في فضل يوم عرفة[١]: جمع فيه الأحاديث الواردة في فصل يوم عرفة، وقد أشار إلى ذلك المؤلف عند تفسيره الآية ١٩٩ من سورة البقرة. من تفسيره(١/ ٤٣٠)

٩ـ جزء في الصلاة على النبي ﷺ في التشهد الأخير[٢]: ذكر ابن كثير في «مناقب الشافعي» في المسائل الفقهية التي انفرد بها الإمام الشافعي: ومذهب الشافعي أن الصلاة في التشهد الأخير فرض لا تصح الصلاة من دونه ثم قال: وقد أفردت في ذلك مصنفاً[٣].

١٠ـ جزء في الأحاديث الواردة في قتل الكلاب: صرح ابن كثير بجمع هذا الجزء، حين ذكر أمر نائب السلطنة بقتل الكلاب يوم ٢١ جمادى الأولى سنة ٧٤٩هـ، نظراً إلى كثرتها بأرجاء البلد، وإضرارها الناس بقطع الطريق أثناء الليل، وذلك بالإضافة إلى تنجيسها الأماكن. فقد عمَّ الابتلاء بها، وشقَّ الاحتراز منها. قال ابن كثير بعد ذلك: «وقد جمعت جزءاً في الأحاديث الواردة في قتلهم، وإختلاف الأئمة في نسخ ذلك. وقد كان عمر رضي الله عنه يأمر في خطبته بذبح الحمام وقتل الكلاب. ونص مالك في رواية ابن وهب على جوازه قتل كلاب بلدة بعينها، إذا أذن الإمام في ذلك للمصلحة»[٤].

١١ـ آداب الحمامات[٥] حققه الأستاذ الشيخ أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري.

١٢ـ ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية: لا ندري هل أوفى ابن كثير بالعهد الذي قطعه على نفسه، لتأليف ترجمة شيخه الذي كان له أثر كبير في تكوين شخصيته، وهو شيخ الإسلام ابن تيمية.

---

(١) من زيادة المصحح.
(٢) هذا المصنف من زيادة المصحح.
(٣) المسائل الفقهية ص٨٦.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٢٢٧.
(٥) هذا المصنف من زيادة المصحح.

فقد صرح ابن كثير في أول وفيات سنة ٧٢٨هـ في ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية قائلاً: «وسنفرد له ترجمة على حده إن شاء الله تعالى»[(١)]. وذلك لأن «له فضائل كثيرة، وأسماء مصنفاته، وسيرته، وما جرى بينه وبين الفقهاء والدولة، وحبسه مرات، وأحواله، لا يحتمل ذكر جميعها هذا الموضع، وهذا الكتاب»[(٢)].

وكان ابن كثير يريد أن يجمع ترجمة شيخه من التراجم الكثيرة التي صنفها له جماعة من الفضلاء وغيرهم إلى عصره، فقال في ترجمة شيخه بين حوادث سنة ٧٢٨هـ: «وسألخص من مجموع ذلك ترجمة وجيزة، في ذكر مناقبه وفضائله وشجاعته وكرمه ونصحه وزهادته وعبادته ، وعلومه المتنوعة الكثيرة المجودة، وصفاته الكبار والصغار التي إحتوت على غالب العلوم ومفرداته في الاختيارات التي نصرها بالكتاب والسنة، وأفتى بها»[(٣)].

ولا يساعدنا في هذا المجال مترجمو ابن كثير، فإنهم سكتوا عن هذا الكتاب كما سكتوا عن كتب أخرى كثيرة له . فلا نعرف هل استطاع ابن كثير تحقيق أمنيته بتأليف ترجمة شيخه، أم لم يستطع؟

١٣ـ أقوال العلماء في معنى الصلاة الوسطى[(٤)]

١٤ـ كتاب صفة النار

١٥ـ كتاب الصيام

١٦ـ رسالة الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها

١٧ـ مصنف في تحريم الجمع بين الأختين

١٨ـ جزء في إسناد حديث الشفاعة

---

(١) نفس المصدر ١٤/ ١٤١.

(٢) نفسه ١٤/ ١٣٧.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ١٣٩

(٤) هذا الكتاب رقم /١٣/ وما يليه من مصنفات وأجزاء إلى رقم /٢٣/ من زيادة المصحح، وأكثرها مستفاد من تفسير ابن كثير. وانظر: الإمام ابن كثير المفسر للشيخ مطر الزهراني. انتهى من مصححه.

١٩ـ جزء في تقصي طرق حديث ابن عباس في فضل العمل في عشر ذي الحجة

٢٠ـ جزء في تكذيب حديث ذكره الخطيب في تاريخه عن ابن عمر أن السجل كاتب النبي

٢١ ـ جزء في دخول مؤمني الجن الجنة

٢٢ـ جزء في فتح القسطنطينية

٢٣ـ جزء في مسألة هل الأخوان تسمى أخوة

٢٤ـ أحاديث التوحيد ورد الشرك: نسب بروكلمان هذا الكتاب إلى ابن كثير، وذكر أنه نشر مع «جامع البيان في تفسير القرآن »، لمعين الدين ابن صفي الدين، في دهلي سنة ١٢٩٧هـ[١].

وقد تبيَّن لنا من مراجعة هذا الجزء الصغير[٢] أنه ليس لابن كثير، بل هو ملحق شرع في جمعه محمد بن عبد الله الغزنوي، كاتب الحواشي على تفسير جامع البيان، ولكنه مات قبل إكمال الملحق، فأتمه أخوه عبد الله بن عبد الله الغزنوي. فقد جاء في آخر الملحق:

«وهذه المسألة وجب بسطها، وهممنا ذلك، ولكن ما شاء الله لاقوة إلا بالله، أجاب أخي محمد رحمه الله داعي الأجل قبيل إتمام تلك الضميمة، ليلة الخميس ٦ ذي القعدة سنة ١٢٩٦هـ، غفر الله له، ورضي عنه. . .، ثم تولى إتمامها أخوه عبد الله بن عبد الله الغزنوي، فعجل أولو الأمر، وضيقوا في النفقة، وحبسوا مواد الإكمال، لا جرم أجملت، ولم أجد بداً، فالتقطت من الإغاثة والدر النضيد على عجل. تقبل الله عز وجل. . . إلخ[٣]

---

(١) بروكلمان، ملحق تاريخ آداب اللغة العربية ٣/ ٤٩

(٢) نشر جزء أحاديث التوحيد ورد الشرك على هامش الفوز الكبير للشاه ولي الله الدهلوي الذي ألحق في نهاية تفسير جامع البيان في تفسير القرآن، ، لمعين الدين ابن صفي الدين. مطبعة الفاروقي، دهلي سنة ١٢٩٥ ـ ١٢٩٧هـ.

(٣) أحاديث التوحيد ورد الشرك صفحة ٢٨، في آخر المجلد الثاني من جامع البيان في تفسير القرآن.

وسبب وهم بروكلمان في نظرنا في نسبة هذا الجزء الخاص بأحاديث التوحيد ورد الشرك إلى ابن كثير، هو أن الغزنوي بدأ هذا الجزء بنقل ملخص كلام ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ من تفسير ابن كثير، ففهم بروكلمان أنَّ هذا كتاب من مؤلفات ابن كثير. ولم يلتفت إلى تصريح الغزنوي في نهاية كلام ابن كثير بقوله «انتهى»[1]. ولا إلى تصريح أخيه المذكور في نهاية هذا الجزء.

* * *

(١) نفس المصدر، انظر هامش صفحة٢٥.

الفصل الرابع

الإفتـــاء

كان ابن كثير من المفتين الكبار في عصره، فقد وصفه شيخه الذهبي بـ«الفقيه المفتي»[(١)]، وبـ«الإمام الفقيه»[(٢)]، وبـ«الإمام المفتي البارع»، وبـ«فقيه متقن متفنن»[(٣)]. كما أشار ابن حبيب معاصره إلى انتشار فتاواه في البلاد، حيث قال: «وطارت أوراق فتاواه إلى البلاد»[(٤)]. وقد أذن له في الإفتاء الشيخ جمال الدين أحمد بن محمد المعروف بابن القلانسي (٦٦٩ ـ ٧٣١)[(٥)]. كما أذن ابن كثير بدوره في الإفتاء لتلميذه ابن سند، وسعد الدين النواوي[(٦)].

ويدل على مرتبته السامية التي بلغها ابن كثير في هذا المجال، من أن الحكام كانوا يطلبونه دائماً فيمن يطلبونهم من المفتين للمشورة في مسائل تمس الشعب

---

(١) الذهبي، تذكرة الحفاظ ٤/ ٢٩٠.

(٢) الذهبي، المعجم، ورقة ٣٣، من المخطوطة المحفوظة في مكتبة جامعة عليجرة الإسلامية بالهند.

(٣) نقله مترجمو ابن كثير من «المعجم المختص» للذهبي، انظر ذيل الحسيني ٥٨، طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٤، الدرر الكامنة لابن حجر ١/ ٣٧٤، ذيل السيوطي ٣٦١، شذرات الذهب لابن العماد٦/ ٢٣١.

(٤) مفتاح السعادة لطاشكبري زادة ١/ ٢٠٥، شذرات الذهب لابن العماد ٦/ ٢٣١، جلاء العينين لابن الآلوسي ٣٤.

(٥) الدرر الكامنة لابن حجر ١/ ٣٠١، الدارس للنعيمي ١/ ١٩٧.

(٦) الدرر الكامنة ٤/ ٣٤٠، شذرات الذهب ٦/ ٣٢٦، ٧/ ٤٩، ذيل السيوطي ٣٦٩، الدارس للنعيمي ١/ ٣٢٠.

والبلاد[١]، أو لحضور مجالس تعقد للفصل بين نزاعات العلماء وخلافاتهم في عصره[٢].

وقد رويت له مؤلفات في الفقه وأصوله، وهي الأحكام الكبير والصغير، وشرح التنبيه في فروع الشوافع، وتخريج أحاديث مختصر ابن حاجب في أصول الفقه المالكي كما أسلفنا[٣]. ولكن فقدت هذه الكتب فيما فقدت من مؤلفات ابن كثير، وكذلك لم يعثر على مجموعة فتاواه ـ إذا كانت هناك مجموعة من هذا النوع ـ حتى يستطيع الباحث أن يحكم على آرائه الفقهية، إلا اننا عثرنا على بعض الوقائع في تاريخه، تعطينا فكرة عن طريقة تفكيره في المسائل الفقهية، وتصرفه في معضلات الأمور.

فحين ركب باب من حديد سنة ٧٣٣هـ في الكعبة، وكان مرصعاً من السبط الأحمر، كأنه آبنوس، عليه صفائح من فضة، زنتها خمس وثلاثون ألفاً وثلاثمئة، وذلك مكان الباب العتيق الذي كان من خشب الساج، وعليه صفائح زنتها ستون رطلاً، تسلمها بنو شيبة، فباعوها تبركاً كل درهم بدرهمين. اعتبر ابن كثير هذا البيع خطأً، لأنه ربا، وقال: «كان ينبغي أن يبيعوها بالذهب لئلا يحصل ربا»[٤].

وصدر مرسوم سلطاني في ذي الحجة سنة ٧٦١هـ بإلزام القلندرية ترك حلق لحاهم وحواجبهم وشواربهم، وبعدم السماح بالدخول إلى بلاد السلطان من لم يلتزم بذلك، وتعزيره شرعاً. أشار ابن كثير في ذكر هذا المرسوم إشارة مجملة إلى مذهب العلماء بين تحريم وكراهية حلق اللحية باعتباره زياً مبتدعاً، إلا أنه اعتبر منعهم من أكل الحشيش أمراً أولياً، يظهر ذلك من قوله: «وكان اللائق أن

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٢٦١، ٣١٥ ـ ٣١٧.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٣٠٧، ٣١٥ ـ ٣١٧.
(٣) راجع الفصل الخاص بمؤلفات ابن كثير المفقودة من هذا الكتاب.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ١٦٢.

يؤمروا بترك الحشيشة الخسيسة، وإقامة الحد عليهم بأكلها وسكرها، كما أفتى بذلك بعض الفقهاء»[1].

وكان ابن كثير يعتبر الوقيد بالجامع الأموي بدمشق احتفالاً بليلة النصف من شعبان بدعة، يتولد منها شرور كثيرة في البلد، وقد استقرت هذه البدعة من سنة ٤٥٠هـ، فحين أبطلها الملك الناصر حسن في سلطنته الأولى (٧٤٨ ـ ٧٥٢) سنة ٧٥١هـ بعد ثلاثمئة سنة، عبر ابن كثير عن فرح وسرور بالغ، ودعا لإطالة عمر السلطان دعاءً حاراً[2].

ونجد عنده من البصيرة النافذة، والتفرس يدرك بهما ما كان يرمي إليه المستفتي. فقد أراد الأمير بيدرا نائب الشام في نزاعه مع الأمير يلبغا مدبر الدولة في مصر أن يقوي جانبه بفتاوى العلماء، فأرسل استفتاء إلى أبرز علماء دمشق، كان منهم ابن كثير، ونص الاستفتاء كما يلي:

«ما تقول السادة العلماء في ملك اشترى غلاماً، فأحسن إليه، وأعطاه، وقدمه، ثم إنه وثب على سيده، فقتله، وأخذ ماله، ومنع ورثته منه، وتصرف في المملكة، وأرسل إلى بعض نواب البلاد ليقدم عليه ليقتله، فهل له الامتناع منه؟ وهل إذا قاتل دون نفسه وماله حتى يقتل يكون شهيداً أم لا؟ وهل يثاب الساعي في خلاص حق ورثة الملك المقتول من القصاص والمال؟ أفتونا مأجورين»[3].

أدرك ابن كثير ما كان يرمي إليه الأمير بيدار، فقال للذي جاء من جهة الأمير: «أن كان مراده خلاص ذمته فيما بينه وبين الله تعالى فهو أعلم بنيته في الذي يقصده، ولايسعى في تحصيل حق معين إذا ترتب على ذلك مفسدة راجحة، فيؤخر الطلب إلى وقت إمكانه بطريقه. وإن كان مراده بهذا الاستفتاء أن يتقوى بها في جمع الدولة والأمراء عليه، فلا بد أن يكتب عليه كبار القضاة

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٢٧٤، ٢٣٥، ٢٤٠.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤، ٢٧٤، ٢٣٥، ٢٤٠.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٢٨١ ـ ٢٨٢.

والمشائخ أولاً، ثم بعد ذلك بقية المفتين بطريقه، والله الموفق للصواب»[1].

وكذلك امتنع ابن كثير عن الأدلاء برأيه، حين أراد الأمير أيد غمش نائب دمشق تغريم قاضي القضاة تقي الدين السبكي لدفعه أموال الأيتام إلى الطنبغا والفخري، امتنع ابن كثير عن الإفتاء في ذلك، «لما فيها من التشويش على الحكام»[2].

* * *

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٢٨١ ـ ٢٨٢.

(٢) نفس المصدر ١٤/ ٢٠٤.

الفصل الخامس

الشعـــر

قال ابن كثير بعد نقل قصيدة غزلية لأبيه: «الله يغفر له ما صنع من الشعر»[١]. ولكن يبدو أنه كان يقصد بملاحظته هذه، الشعر الذي ليس منه فائدة علمية أو أدبية، أو الشعر الذي ليس له هدف سام، فإنه نفسه كان يقول الشعر، كما صرح بذلك تلميذه ابن حجي بقوله: «وينظم الشعر»[٢].

ولكننا لم نعثر للآن على كمية مناسبة من شعره، حتى نحكم عليه بالجودة أو غيرها. فإنَّ ابن حجر ذكر له بيتين من الشعر[٣]، واكتفى بنقلهما المترجمون بعده[٤]. إلا أنَّ فؤاد أفرام البستاني أضاف إليهما بيتاً آخر، نقلاً عن السخاوي الذي صرح أن ابن كثير قال هذه الأبيات سنة ٧٦٨هـ[٥]. فأصبحت عدة هذه الأبيات ثلاثة. وهي.

تمـر بنـا الأيـام تتـرى[٦] وإنمـا نسـاق إلـى الآجـال والعيـن تنظـر

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٣٣.

(٢) طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٥، الدارس للنعيمي ١/ ٣٧.

(٣) ابن حجر، الإنباه ١/ ٤٧.

(٤) الداودي في طبقات المفسرين، نقلاً من أول رسالة الجهاد لابن كثير، صفحة ٤، طاشكبري زادة مفتاح السعادة ١/ ٢٠٥، ابن العماد، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، شاكر، عمدة التفسير ١/ ٢٨، الشرباصي، مجلة الحج ١٠/ ٢(شعبان سنة ١٣٧٥)/ ص١٠٨.

(٥) دائرة المعارف للبستاني ٣/ ٤٧٧.

(٦) في دائرة المعارف للبستاني «مرا»، بدل تترى. (٣/ ٤٧٧).

فلا عائد ذاك الشباب الذي مضى ولازائل[1] هـذا المشيب المكـدر
ومن بعد ذا، فالعبد إما منعم كريم، وإما بالجحيم يسعر

ولاحظ ابن حجر على البيت الثاني، أنه لو قال «صفو الشباب»، لكان أمتع[2].

وعثر خير الدين الزركلي على بيت آخر من شعر ابن كثير بخطه في مخطوطة ثبت النذرومي، أجاز به ابن كثير قائلاً:

أجزتهم ما قد سئلت بشرطه وكاتبه إسماعيل بن كثير[3]

وقد روي عنه أنه «أجاز لمن أدرك حياته»[4].

وهناك أرجوزة لابن كثير، ذكرها في تاريخه بعد ذكر سقوط الخلافة العباسية في بغداد على أيدي التتار، فنقل أولاً أرجوزة لأحد الفضلاء ـ ولم يسمه ـ فيها الإشارة إلى جميع الخلفاء من الراشدين والأمويين والعباسيين[5]. ثم سجل ابن كثير أرجوزته التي تحتوي على أربعين بيتاً في ثلاثة فصول.

الفصل الأول: وجاءت فيه الإشارة إلى ابتلاء التتار، وذكر الخلفاء العباسيين بالقاهرة في دولة المماليك البحرية، من الخليفة المستنصر بالله (٦٥٩ ـ ٦٦٠) إلى الخليفة المعتضد بالله (٧٥٣ ـ ٧٦٣) في ستة عشر بيتاً[6]، تنقل منها الأبيات التي أشار فيها المؤلف إلى خلفاء بني العباس بالقاهرة، لأن فيهم من عاصرهم في حياته.

وشغرت من بعده[7] الخلافة ولم يؤرخ مثلها من آفة

---

(١) في دائرة معارف للبستاني «آيل» بدل زائل. (٣/ ٤٧٧).
(٢) ابن حجر، الإنباه ١/ ٤٧، ونقله عنه طاشكبري زادة «أصنع»، (مفتاح السعادة ١/ ٢٠٥)
(٣) الزركلي، الأعلام ١/ ٣١٧، وانظر الصورة الشمسية لهذه الإجازة من المخطوطة المحفوظة في مكتبة الزركلي. (دائرة المعارف للبستاني ٣/ ٤٧٧).
(٤) ابن حجر، الإنباه ١/ ٤٦ ـ ٤٧.
(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٢٠٦ ـ ٢٠٩.
(٦) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٢٠٩ ـ ٢١٠.
(٧) الإشارة إلى الخليفة المستعصم بالله (٦٤٠ ـ ٦٥٦) آخر خلفاء بني العباس في بغداد.

ثم قال الملك أعني الظاهرا[1] خليفة أعني به المستنصرا[2]
ثم ولي من بعد ذلك الحاكم[3] ميسم بيبرس الإمام العالم
ثم ابنه الخليفة المستكفي[4] وبعض هذا للبيب يكفي
ثم ولي من بعده جماعة[5] ما عندهم علم ولا بضاعة
ثم تولى وقتنا المعتضد[6] ولا يكاد الدهر مثله يجد
في حسن خلق واعتقاد وحلي وكيف وهو من السيم الأولي
سادوا البلاد والعباد فضلا وملؤوا الأقطار حكماً وعدلا
أولاد عم المصطفى محمد وأفضل الخلق بلا تردد
صلى الله عليه ذو الجلال ما دامت الأيام والليالي

الفصل الثاني: في الخلفاء الفاطميين الأربعة عشر، وختمه بقوله:

أصلهم يهود ليس شرفاً بذاك أفتى السادة الأئمة
أنصار دين الله من ذي الأمة[7]

الفصل الثالث: في خلفاء بني أمية الأربعة عشر، واعتبرهم نواصب قائلاً:

وكلهم قد كان ناصبيا إلا الإمام عمر التقيا[8]

---

(١) الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨ ـ ٦٧٦).
(٢) الخليفة الأول أبو القاسم أحمد بن الظاهر بن العادل العباسي (٦٥٩ ـ ٦٦٠).
(٣) الخليفة الثاني أبو العباس أحمد بن الظاهر بن العادل العباسي (٦٦١ ـ ٧٠١).
(٤) الخليفة الثالث أبو الربيع سليمان بن أحمد (٧٠١ ـ ٧٤٠).
(٥) يقصد بها الخليفتين الرابع والخامس، أبو إسحاق إبراهيم الواثق بالله (٧٤٠ ـ ٧٤٢) وأبو القاسم أحمد الحاكم بأمر الله الثاني (٧٤٢ ـ ٧٥٣).
(٦) الخليفة السادس أبو الفتح ابن المستكفي أخو الحاكم الثاني (٧٥٣ ـ ٧٦٣)، وقد اجتمع به مؤلفنا في دمشق يوم ١٠ شعبان سنة ٧٥٣هـ، وقرأ عنده جزءاً فيه ما رواه الإمام أحمد عن الإمام الشافعي في مسنده. ويبدو أن المؤلف نظم هذه الأرجوزة قبل خلافة أبي عبد الله محمد المتوكل على الله (٧٦٣ ـ ٧٧٩) الخليفة السابع الذي عاصره، ولذلك لم يذكره في هذه الأرجوزة.
(٧) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ٢١٠.
(٨) يقصد به الخليفة الأموي الراشد عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١).

وختمه بقوله:

والحمـــد لله علـــى التمـــام كـــذاك نحمـــده علـــى الإنعـــام
ثـــم الصـــلاة مـــع تمـــام العـــدد علـــى النبـــي المصطفـــى محمـــد
وآلـــه وصحبـــه الأخيـــار فـــي ســـائـــر الأوقـــات والأعصـــار
وهـــذه الأبيـــات نظـــم الكـــاتـــب ثمـــانيـــة تتمـــة المنـــاقـــب[1]

وكان رأي ابن حجر في شعره أنه «ينظم نظماً وسطاً»[2]، وتبعه آخرون في رأيه[3]. وقد لاحظ البستاني على شعره، أنه «شعر عالم فقيه»[4]. وذلك صحيح بالنسبة للأبيات المعروفة له للآن، إلى أن نعثر على مجموعة أخرى من شعره، فنضطر إلى تغيير رأينا فيه.

* * *

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ٢١٠

(٢) ابن حجر، الإنباه ١/ ٤٦

(٣) طاشكبرى زادة، مفتاح السعادة ١/ ٢٠٤، ابن العماد، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، الشرباصي، مجلة الحج ١٠/ ٢ شعبان سنة ١٣٧٥)/ ص١٠٧ ـ ١٠٨

(٤) دائرة المعارف للبستاني ٣/ ٤٧٧

القسم الثاني

منهج ابن كثير في
«البداية والنهاية»

التقدمة

الحمد لله الذي علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على رسوله النبي الأمي الذي أضاء بنور نبوته أبواب المعرفة للإنسانية جمعاء، وبعد:

فإن تاريخ ابن كثير لم يدرس دراسة مستقلة جامعة شاملة، ولا نجد عنه في الأبحاث التاريخية الحديثة المعاصرة إلا ملاحظات عابرة لا تشفي الغليل، مع أنَّ مكانة ابن كثير كمؤرخ ليست أقل من شهرته وامتيازه في التفسير والحديث اللذين عُرِفَ بهما، بل إنَّ رسوخَه في العلوم الإسلامية كان سبباً في تحقيق الأحداث الإسلامية، وإبداء الآراء القاطعة فيها. وهذا هو الذي يميِّز مؤرخنا من غيره من المؤرخين الذين يقتصرون في تواريخهم على سَرْد الحوادث دون تحقيقها، والتعليق عليها، وبيان وجه العبرة فيها.

فقمت في الباب الأول من هذا الكتاب بعرض سريع لما يحتوي عليه كتاب «البداية والنهاية» من مواد غزيرة في التاريخ الإسلامي المجيد وآراء أصيلة أبداها مؤرخنا في الحوادث الإسلامية الحساسة، كما بحثت فيه مصادره قسماً بعد قسم.

فقد استفاد مؤرخنا في قسم المبتدأ وقصص الأنبياء من تاريخه بكتب التفسير ودواوين المحدثين والكتب السماوية على أوسع نطاق، إلى جانب كتب التاريخ بالطبع. فأقر ما وجده موافقاً لما ثبت من الكتاب والسنة، ورد ما وجد مخالفاً لهما، مع بيان الدليل ووجه الإنكار.

وجمع أطول سيرة للرسول عليه الصلاة والسلام في كتابه التاريخي العام، استغرق نحو ثلث تاريخه الكبير، وقد ألحق بالسيرة موضوعات أفردها العلماء

المسلمون بالتأليف، وهي شمائل الرسول ﷺ ودلائل نبوته، وخصائصه وفضائله، وكان اعتماده في ذلك كله على كتب السير والمغازي والتاريخ، إلى جانب الاستفادة من كتب الحديث والتراجم.

أما في تاريخ الإسلام بعد الرسول عليه الصلاة والسلام، فقد أبدى ابن كثير آراء صريحة في الأحداث الإسلامية الحساسة التي اختلف فيها المسلمون قديماً، ولا يزالون مختلفين فيها. وقد اعتمد في ذلك كله عصراً بعد عصر على مؤرخين اشتهروا مثله بالتعمق في دراسات الحديث وعلومه، فلم يلتفت إلى من لم يلتزم منهم بما يلتزم به الحفاظ المحدثون من الدقة والضبط والإتقان.

وإليه يرجع الفضل في تسجيل تاريخ عصره الذي كتبه معتمداً على مشاهداته ومسموعاته، وما بلغه ممن وثق فيهم، وما اطلع عليه من بعض الوثائق الرسمية والرسائل الشخصية.

وبسطت في الباب الثاني من هذا الكتاب بيان المنهج الذي أشار إليه المؤلف في مقدمة تاريخه، ثم أعاده مراراً وتكراراً في مواضع شتى منه، وهو يتعلق بقبول الإسرائيليات أو ردها، وكان موقف ابن كثير فيها أنَّ الإسرائيليات المسكوت عنها تجوز روايتها للاعتبار فقط، ولا تتخذ حجة تبنى عليها. ولا يمكن تطبيق هذا المنهج إلا في قسم المبتدأ وقصص الأنبياء حيث توسَّع ابن كثير في تطبيقه. أما فيما سواه فلم يحدِّد لنا ابن كثير منهجه إلا ما يلاحظ من اتباعه في أقسام أخرى من تاريخه لمناهج أهل السير والمغازي والتاريخ الذين اعتمد عليهم في استقاء المواد التاريخية، وفي ترتيب كتابه.

وذكرت في الباب الثالث من هذا الكتاب أسلوبه الذي يتميّز بالوضوح والسهولة، وصحة العبارة وسلامتها، يتخلله أحياناً قليلة السجع والإكثار من المرادفات، محاولة منه في تحسين العبارة وتزيينها، ولكنه لا يسير في هذا الميدان طويلاً، بل سرعان ما يعود إلى أسلوبه العفوي البسيط.

وسلك ابن كثير في ترتيب الكتاب من أول قسم المبتدأ إلى أول التاريخ الإسلامي على طريقة «التأريخ» التي يُراعى فيها الترتيب الزمني في ذكر الوقائع كاملة في مكان واحد. واختار منذ هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى نهاية

كتابه تسجيل الحوادث على طريقة «الحوليات» التي تخضع لتعاقب السنين المفردة. فيذكر في كل سنة الحوادث أولاً، ثم التراجم أخيراً. وقد توسع ابن كثير في ذكر التراجم اتباعاً للمؤرخين المتأخرين.

وفي الباب الرابع: تكلمت على قيمة تاريخ ابن كثير الذي أبعد من تاريخه كثيراً من الإسرائيليات والأحاديث الموضوعة والأساطير الخرافية، ونبَّهَ عليها في ضوء القرآن والسنة. كما أدلى بآراء صريحة جريئة في الأحداث الإسلامية الكبرى، بناها على العلم والتحقيق والدليل، واجتنب التحيُّز والتعصب والميل مع الهوى. وفي كل هذا يكمن قيمة تاريخ ابن كثير الذي هو مصدر رئيسي كبير من مصادر التاريخ الإسلامي، ومرجع أساسي لمن جاء بعده من المؤرخين والباحثين في التاريخ العربي والإسلامي.

وهنا أشير مرة أخرى إلى المشكلات والصعوبات التي تعترض طريق الدارسين في العلوم الإسلامية، والباحثين في الدراسات العربية في الهند، بسبب نقص المصادر والمراجع في المكتبات الهندية، وصعوبة الحصول عليها عند الحاجة في الوقت المناسب. وأرجو من إخواني العلماء العرب المتخصصين في الدراسات العربية الإسلامية الصفح عما زلَّ قدمي في هذا البحث، وما نقص فيه من المواد، والتنبيه ـ مشكوراً ـ بما يجب إضافته إلى هذا الكتاب، وتعديله أو حذفه منه. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم، والحمد لله رب العالمين.

تحريراً في ١١ ربيع الثاني سنة ١٣٩٩هـ
الموافق ١٠ مارس سنة ١٩٧٩م

مسعود الرحمن خان الندوي
غريب خانه
١٣ ـ مسجد شكور خان رود بهوبال بالهند

الباب الأول

المواد التاريخية في تاريخ ابن كثير ومصادره

كان ابن كثير واسع العلم والمعرفة، ذا ثقافات متعددة متنوعة، فإنه مفسِّر محدِّث، فقيه مؤرخ، أكمل تفسيره الشهير قبل تاريخه، وأحال عليه كثيراً في البداية والنهاية. كما ألف كتباً كثيرة في علم الحديث والفقه، وقد أشرنا إليها في الفصل الخاص عن أعماله العلمية ومؤلفاته.

وحين يبدأ الباحث في دراسة تاريخه، وخاصة من قسم المبتدأ إلى نهاية السيرة النبوية يشعر بأثر الثقافات المختلفة المتعددة المذكورة. فإنه جمع مواد تاريخه في القسمين المذكورين من موارد موثوقة معتبرة قديمة، تناسب ثقافته العلمية، مثل القرآن الكريم، وتفاسيره الشهيرة والكتب السماوية الأخرى، كما رجع إلى دواوين المحدثين من الصحاح والمسانيد والسنن وكتب الجرح والتعديل، وقد استفاد من كتب السيرة والمغازي والتاريخ، وكتبٍ أخرى متنوعة ألفت في موضوعات شتى.

وبذلك امتاز ابن كثير عن غيره من المؤرخين، واكتسبَ مزيَّةً يتفرَّدُ بها على من سبقه، في جمعه بين ما كتبه أهل السِّير والتاريخ والأخبار وبين ما رواه أهل الحديث. وعلى هذا يعتبر تاريخه عصارة المجهودات العلمية القيمة القديمة التي قام بها المسلمون في ميادين العلوم الإسلامية من تفسيرٍ وحديث وسيرة وتاريخ في القرون السبعة السابقة على عهد ابن كثير.

ومن حسنات ابن كثير أنه يلتزم دائماً بذكر مصادره في كتابه البداية والنهاية،

وهذه هي طريقته في جميع مؤلفاته، وهذه الأمانة العلمية لا بد أن تشكر، فإنه بذلك أعطى كل ذي حق حقه، وأعاد إلى كل صاحب فضل فضله، وأخلى بذلك تبعته مما جاء عند مؤلفين آخرين، كما أنه بذلك سهل على الباحثين دراسة أعماله العلمية، ووفَّر عليهم مجهوداً كبيراً في البحث عن مصادره ومآخذه.

تجمعت مادة تاريخ ابن كثير من كتب التفسير والحديث والسيرة والمغازي والتاريخ. وقد كان الغالب على قسم المبتدأ أثر كتب التفسير ودواوين المحدثين، وعلى قسم السيرة النبوية أثر كتب السير والمغازي، وعلى مصادر تاريخ الإسلام من الخلافة الراشدة إلى عصر المؤلف أثر الكتب التاريخية. وهذا الكلام طبعاً بالنسبة للصفة الغالبة والطابع العام، وأنه لا يمنع أن يذكر كتاب كمصدر في قسمين أو أكثر. فإن أكثر كتب الحديث كانت مصدر ابن كثير منذ أول الكتاب إلى تاريخ العصر الأموي. وسيرة ابن إسحاق نجد الإشارات إليها في قسم المبتدأ إلى نهاية السيرة، ولكن الاعتماد الحقيقي عليها في قسم السيرة النبوية. وتاريخ ابن جرير الطبري نجد ذكره من قسم المبتدأ إلى نهاية السيرة، ولكنه يلعب دوراً رئيسياً في تكوين تاريخ الإسلام إلى أواخر القرن الثالث الهجري.

وقد قررنا أن نتكلم على كل مصدر مرة واحدة في قسم يناسبه، مع الإشارة في هذا المكان إلى دوره العام في جميع تاريخ ابن كثير، وقصدنا بذلك أن نتجنب الإعادة والتكرار. فكتب التفسير، والكتب السماوية ودواوين المحدثين نتكلم عليها في قسم المبتدأ، وكتب السيرة والمغازي ودلائل النبوة نبحثها في قسم السيرة النبوية، كما أنَّ كتب التاريخ نناقشها في قسم تاريخ الإسلام. وهذا القسم الأخير ينقسم بدوره تبع العصور كما سيأتي.

وبعد ذلك نتحدث على منهج ابن كثير وتطبيقه في تاريخه، ثم ترتيب الكتاب وأسلوبه فيه، وأخيراً نذكر قيمته التاريخية وأهميته كمصدر عند المؤرخين الذين جاؤوا بعده.

والآن نبدأ في عرض المواد التاريخية من تاريخ ابن كثير عرضاً سريعاً، وما يحتوي عليه من آراء مؤرخنا، نتبعها بذكر المصادر التي استقى منها ابن كثير

هذه المواد، واعتمد عليها. وقد قسمنا هذا الباب إلى ثلاثة فصول رئيسية تالية:

١ ـ المبتدأ وقصص الأنبياء، ومصادرهما.

٢ ـ السيرة النبوية الشريفة، ومصادرها.

٣ ـ تاريخ الإسلام، ومصادره.

ويتفرع عن الفصل الثالث ثلاثة مطالب فرعية، وهي:

أ ـ الخلافة الراشدة والدولة الأموية، ومصادرهما.

ب ـ الخلافة العباسية، ومصادرها.

ج ـ دولة المماليك البحرية، ومصادرها.

* * *

الفصل الأول

المبتدأ وقصص الأنبياء ومصادرهما

وهو القسم الذي يذكر فيه المؤرخون بدء الخليقة وقصص الأنبياء السابقين على زمان محمد عليه الصلاة والسلام. وهكذا سار ابن كثير في تاريخه.

فبدأ الفصل الأول من البداية والنهاية بآيتين قرآنيتين ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ..﴾ و﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ...﴾، وحكى إجماع العلماء قاطبة على ذلك، وإن كان هناك خلاف في مقدار هذه الأيام، هل هي كأيامنا هذه؟ أم كل يوم كألف سنة مما تعدون؟ ثم ذكر الخلاف فيما إذا كان قبل خلق السموات والأرض شيء؟ وإذا كان قبلهما شيء. فما هو؟ العرش أو القلم؟ أو غيرهما من السحاب الرقيق أو الماء أو النور أو الظلمة؟ ووصل إلى نتيجة أنَّ العرش أول المخلوقات مطلقاً، والقلم أول المخلوقات من هذا العالم، وبهذا ينتهي الفصل الأول.

ثم ذكر بالترتيب التالي وفي فصول على حدة صفة خلق المخلوقات من العرش والكرسي واللوح المحفوظ، والأراضي السبعة وما فيها من البحار والأنهار، وما في البراري والبحار من المخلوقات، وخلق السموات وما فيهن من الآيات البينات، والمجرة وقوس قزح، والملائكة وصفاتهم، والجانّ وقصة الشيطان، حتى بلغ إلى خلق آدم، فذكر خلقه وسجود الملائكة له وقصة ابنيه قابيل وهابيل.

أما في قصص الأنبياء، فقد ذكر بعد آدم، شيثاً وإدريس، ونوحاً وهوداً

وصالحاً، وشعيباً وإبراهيم وإسماعيل، وأيوب ويونس وموسى وهارون، وإلياس واليسع وشمويل، وداود وسليمان، وزكريا ويحيى وعيسى. وبعد ذلك أشار إلى أخبار الماضين من بني إسرائيل وغيرهم، ثم ذكر أخبار العرب قديماً، وأحداث الجاهلية، وبعض حوادث وقعت في زمن الفترة إلى أن انتهت النبوة إلى أيام محمد عليه الصلاة والسلام، آخر الأنبياء وخاتمهم.

المصـــادر

جمع ابن كثير مواد هذا القسم من تاريخه من كتب تاريخية قديمة مثل كتاب المبتدأ لابن إسحاق، وتاريخي الطبري وابن عساكر وغيرهما. ولكن الصفة الغالبة عليه في هذا القسم هو الاهتمام بالآيات القرآنية، وبما جاء في تفسيرها عند المفسرين. ثم العناية بالأحاديث النبوية، وذكر ما جاء في دواوين المحدثين عن بدء الخليقة وقصص الأنبياء، مع الرجوع عند الضرورة إلى الكتب السماوية السابقة.

ونبدأ بيان مصادر هذا الفصل بكتب التفسير، ثم نذكر الكتب السماوية، ونشير بعد ذلك إلى دواوين المحدثين التي رجع إليها ابن كثير، واستمد منها مواد تاريخه.



المطلب الأول
كتب التفسير

لقد كان علم التفسير من العلوم التي تضافرت على نماء التاريخ وتطوره. فقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين، وكان من الواجب دراسة أحوال الرسل والأنبياء السابقين، ونوع رسالتهم، والبحث عن أحوال الأمم التي اتبعت الرسالة الإلهية أو رفضتها، كمقدمة لمعرفة تاريخ الرسالة المحمدية، وسيرة الرسول ﷺ نفسها.

وقد أشار القرآن الكريم نفسه إلى قصص الأنبياء وشعوبهم موجزاً للعظة والاعتبار. وهذا الذي أثار تطلع العلماء إلى حد أبعد فسعوا في معرفة تفاصيل ما أجمل في القرآن. ومن ناحية أخرى «وجدت طائفة من علماء الكتاب الفضوليين الذين سدوا ثغرات[1] القرآن، بما تعلموه من اتصالهم باليهود والنصارى، وأتموا بما تلقوه عنهم من القصص التي كثيراً ما رددوها عن سوء فهم لها بنتاج خيالهم الخاص، وأرسلوا كل ذلك على أنها تفسير القرآن»[2]. لذلك قال الإمام أحمد بن حنبل: «ثلاثة أشياء لا أصل لها: التفسير والملاحم والمغازي»[3]. والمقصود هنا بدون شك التفسير الذي من القبيل المذكور.

---

(١) ليست في القرآن ثغرات، وإنما أراد المستشرق جولد زيهر بها ما أجمل في القرآن (تعليق الدكتور عبد الحليم النجار، مترجم مذاهب التفسير الإسلامي لجولد زيهر ٧٥ مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة، سنة ١٩٥٥ م).

(٢) جوله زيهر مذاهب التفسير الإسلامي ٧٥ ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة سنة ١٩٥٥.

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ٨٨٦، طبعة كلكتا، سنة ١٨٥٧ م.

أما مؤلفنا ابن كثير، فقد اختار لنفسه في تفسير القرآن مسلكاً آخر، وهو «تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالسنة وآثار الصحابة والتابعين، مستخرجاً ذلك من دواوين المحدثين القديمة الشهيرة. أما التفسير بمجرد الرأي فحرام عنده»[1].
أما خطته بشأن الإسرائيليات فهي كما بينها في أول تاريخه وفي مقدمة تفسيره، أن الأحاديث الإسرائيلية إذا كانت موافقة لما عندنا قبلناها لموافقتها الصحيح، وإذا كانت مخالفة لما عندنا رددناها، وإذا كانت مسكوتاً عنها، فلا نؤمن بها ولا نكذبها، بل نجعلها وقفاً، تجوز حكايتها للاستشهاد لا للاعتضاد[3].

وقد طبق ابن كثير هذا المسلك في تفسيره الشهير الذي أحال عليه مراراً وتكراراً في شتى مباحث تاريخه، وهذا هو الأسلوب الذي نرى أثره واضحاً في تاريخه أيضاً من بداية كتابه إلى نهاية السيرة النبوية الشريفة، وخاصة في قسم المبتدأ، أي من مبدأ المخلوقات إلى نهاية قصص الرسل والأنبياء، فلا نكاد نجد فصلاً من فصوله في هذا القسم إلا وهو يفتتحه بآيات قرآنية يجمعها في أول الفصل، ثم يشير إلى شروح وتفاسير مختلفة إذا كان هناك خلاف في معنى الآية ومفهومها. ثم يذكر مضمون مادلت عليه هذه الآيات الكريمات، وما يتعلّق بها من الأحاديث النبوية وآثار الصحابة والتابعين الواردة في دواوين المحدثين بأسانيدها، ويتكلم على أسانيدها جرحاً وتعديلاً، فيبين ما فيها من غرابة أو نكارة أو شذوذ، أو أثر للقصص الإسرائيلية، وكان هذا المنهج هو السبب في كثرة ذكر كتب التفسير عند ابن كثير، والاعتماد عليها في تاريخه.

أما كتب التفسير التي اعتمد عليها ابن كثير، فمنها تفسير الطبري، وتفسير ابن أبي حاتم، فإنه اعتمد عليهما في الدرجة الأولى، وكثيراً ما قَرَن بذكرهما[2].

أما **تفسير ابن جرير الطبري** (٢٢٤ ـ ٣١٠ هـ) فهو دائرة معارف غنية، غزيرة الثروة من التفسير المأثور عن الصحابة والتابعين. فقد قال أبو حامد

---

(١) ابن كثير، تاريخه ١/٦ ـ ٧، وتفسيره ١/٣ ـ ٥، و٣/١٨١ ـ ١٨٢، وسوف نناقش منهجه هذا حين كلامنا على منهجه في التاريخ في الباب الثاني من هذا البحث.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١/١٣، ١٥، ٢١، ٥٥، ٨٩، ٩١، ٩٦، ١١٣، ١٩٩، ٢١٠، ٢٢٢، ٢٢٧، ٢٣٢.

الأسفرائيني: «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل كتاب تفسيره لم يكن ذلك كثيراً»[1]. وقال الخطيب البغدادي: «لم يصنف أحد مثله»[2] وقال ابن كثير: «لا يوجد له نظير»[3]. لذلك أخذ منه ابن كثير في تفسيره وتاريخه، واعتمد عليه كثيراً.

ورد اسم تفسير الطبري وتاريخه من أول الكتاب إلى نهاية قسم السيرة، ولكن كان اعتماد ابن كثير على تفسير الطبري في قسم المبتدأ، وقصص الأنبياء أكثر من تاريخه الذي كان الاعتماد الأول عليه في قسم السيرة وما بعدها في أخبار الخلفاء من الراشدين وبني أمية وبعض خلفاء بني العباس.

ولم يقبل ابن كثير جميع روايات الطبري في تفسيره، بل كان ينقد بعضها، ويخالف بعضها الآخر، ويرد بعض ما ذهب إليه الطبري في أقواله واختياراته، فمثلاً جاء عند الطبري عن الحسن البصري أن الكرسي هو العرش، وهنا يقول ابن كثير: «وهذا لا يصح عن الحسن، بل الصحيح عنه وعن غيره من الصحابة والتابعين أنه غيره»[4]. كما رد ما رواه ابن جرير عن ابن عباس بأن المأمورين بالسجود لآدم في الآية هم ملائكة الأرض قائلاً: «فيه انقطاع، وفي السياق نكارة»، والأظهر عنده «من السياقات جميع الملائكة، كما دل عليه عموم الآيات وهو قول الجمهور»[5]. وخالف ابن كثير الطبري في اختياره أنَّ أصحاب الرس هم أصحاب الأخدود[1]. وكذلك لم يقبل في قصة زكريا عليه السلام موافقة ابن جرير للشيعة في تفسير آية: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ بأنَّ المراد هنا وراثة المال، والمقصود عند ابن كثير وراثة النبوة

---

(١) الذهبي تذكرة الحفاظ ٢/٢٥٢.

(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ٢/١٦٣، مطبعة السعادة، مصر سنة ١٣٤٩ هـ ١٩٣١ م.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١١/١٤٥.

(٤) نفس المصدر ١/١٣، ٧٣، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢/٤٨ ـ ٤٩، ١٢٣، ١/٨، ٢، ٩٣، ٣٠٧، ٢/٢٦، ١/٢٦٥، ٢/٩٣ ـ ٩٤، ١/٣١٩، ٢/٣١٢، ١/٢٠٧.

(٥) نفس المصدر ١/١٣، ٧٣، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢/٤٨ ـ ٤٩، ١٢٣، ١/٨، ٢، ٩٣، ٣٠٧، ٢/٢٦، ١/٢٦٥، ٢/٩٣ ـ ٩٤، ١/٣١٩، ٢/٣١٢، ١/٢٠٧.

والحكم، لأنه إذا ثبت ما يدعيه الشيعة، استدلوا على حق فاطمة وغيرها في ميراث النبي ﷺ، وأن الثابت عند ابن كثير عنه «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة» وقد أجاب ابن كثير على ذلك من وجوه[1]. وكذلك في قصة (أصحاب السبت) خالف ابن كثير فيما رواه الطبري وابن أبي حاتم في معنى آية ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أنه مسخت قلوبهم، ولم يمسخوا قردة وخنازير، قائلاً: «وهذا صحيح إليه، وغريب منه جداً، ومخالف لظاهر القرآن، ولما نص عليه غير واحد من السلف والخلف»[1].

وحمل ابن كثير بعض روايات الطبري على أنها متلقى من الإسرائيليات، مثل قصة عوج ابن عنق مع موسى عليه السلام[1]، وحديث جاء فيه أن موسى وقع في نفسه، هل ينام الله عز وجل.. إلخ[1]، وحديث الفتون المتضمن قصة موسى عليه السلام مبسوطة[1]. وكذلك قصة سليمان عليه السلام مع الجان، وحكاية وفاته[1]. كما علق ابن كثير على بعض روايات الطبري تضعيفاً لها بقوله: «وهو غريب»[1]، أو «غريب جداً»[1]، أو «إسناد غريب عجيب»[1]، أو «فيه نظر»[1]، أو «فيه نكارة»[1]، أو «ضعيف من كل وجه»[1].

أما **ابن أبي حاتم** (٢٤٠ ـ ٣٢٧ هـ) فهو أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي، من كبار حفاظ الحديث ونقاده، كان «بحراً في العلوم ومعرفة الرجال»[1]. ذكر له المترجمون كتاب التفسير في عدة مجلدات. أخذ عنه ابن كثير، وصرح باسم تفسيره مراراً وتكراراً، وقرن اسمه باسم الطبري في مصادر تاريخه، وفضل تفسيره على تفسير الطبري وغيره حيث قال: «وله التفسير الحافل الذي اشتمل على النقل الكامل الذي يربو فيه على تفسير ابن جرير الطبري وغيره من المفسرين إلى زماننا»[2].

كان اعتماد ابن كثير على تفسير ابن أبي حاتم في قسم المبتدأ وقصص

---

(١) الذهبي تذكرة الحفاظ ٣/٤٦ ـ ٤٧، الطبعة الثانية، حيدرآباد بالهند سنة ٣٣ـ ١٣٣٤ هـ.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١١/١٩١، ١/٣٧ ـ ٣٧، ٩٦، ١٠٠، ١١٤، ٢٩٢، ٣٠٧، ٤٧، ٢٥٤، ٢٩٤، ٨١، ٣٩.

الأنبياء، أما ما بعد ذلك في السيرة فليس له مكان ممتاز، وإن كان ورد ذكره عدة مرات، وخاصة في المغازي.

وقد تكلم ابن كثير على بعض رواياته وحملها على الإسرائيليات، منها حكاية الزهرة التي قيل أن حسنها في النساء كان كحسن الزهرة في سائر الكواكب، راودها الملكان هاروت وماروت على نفسها. فأبت إلا أن يعلماها الاسم الأعظم، فما أن علماها حتى قالته، فرفعت إلى السماء كوكباً. عد ابن كثير رواية ابن أبي حاتم «أحسن لفظ روي في هذه القصة»، إلا أنه اعتبر الحكاية في أصلها من وضع الإسرائيليين[١]. كذلك حكاية حواء التي قيل أنه لم يكن يعيش لها ولد، فسمت عبد الحارث فعاش[١]. وقصة إدريس عليه السلام الذي قيل أنه قبض روحه في السماء الرابعة[١]، وما جاء في طوفان نوح من حكاية أم الصبي[١]، وسؤال بني إسرائيل من موسى هل ينام ربك؟ . . . إلخ[١]، وحديث الفتون[١]. كما ضعف بعض رواياته قائلاً: «فيه نظر»[١]، أو «في صحته نظر»[١]، أو «غريب من هذا الوجه، وفيه انقطاع»[١].

ومن الغريب أن ابن كثير نقل عن ابن أبي حاتم بسنده عن محمد بن مسلم خبراً غريباً، ولم يعلق عليه، وهو «أن البرق ملك له أربعة وجوه، وجه إنسان، ووجه ثور، ووجه نسر، ووجه أسد، فإذا مصع بذنبه، فذاك البرق»[١]. وما أشبه هذا الملك بآلهة المشركين وتماثيلهم التي يتفننون في صنعها على أشكال وهيئات عجيبة غريبة.

يليهما في المرتبة أقدم كتاب ألف في التفسير، وهو تفسير السدي الكبير (المتوفى سنة ١٢٧ هـ) وهو أبو محمد إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة القرشي الكوفي الأعور، تابعي حجازي الأصل، سكن الكوفة. ذكر له ابن النديم التفسير[١]، لكنه كان موضع شك وريبة عنه بعض المحدثين، حيث قيل عنه وعن الكلبي «كان بالكوفة كذابان: السدي، والكلبي»[٢].

---

(١) ابن النديم، الفهرست ٥١، المطبعة الرحمانية بالقاهرة سنة ١٣٤٨ هـ.

(٢) ابن حجر، تهذيب التهذيب ١/ ٣١٤ دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد بالهند سنة ١٣٢٥ ـ ١٣٢٦ هـ.

وقد عثرنا على ملاحظة لابن كثير، تفيدنا عن رأيه في السدي، فهو يعلق على أحد أسانيده ـ وهو عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة الهمذاني عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قائلاً: «هذا الإسناد يذكر به السدي أشياء كثيرة فيها غرابة، وكأنَّ كثيراً منها متلقى من الإسرائيليات»[1]. ومع ذلك أكثر مؤلفنا من نقل روايات السدي عن السند المذكور[3] وعن غيره، واعتمد عليه في تفسيره وتاريخه كثيراً. كما اعتمد عليه «الطبري وابن أبي حاتم وغيرهما في تفاسيرهم»[2].

وكان اعتماد ابن كثير عليه في تاريخه أصلاً في المبتدأ وقصص الأنبياء، أما في قسم السيرة فليس له إلا ذكر قليل.

وقد نقده ابن كثير في بعض المواضع، وحمل بعض أخباره على الإسرائيليات، مثل خبره في خلق السموات والأرض[3]، وفي خلق آدم[5]، وفي وفاة سليمان عليه السلام[5]، كما خالفه في أنَّ سارة زوجة إبراهيم عليه السلام، هي ابنة الملك حران قائلاً: «وهو غريب، والمشهور أنها ابنة عمة هاران الذي ننسب إليه حران، ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط. . . فقد أبعد النجعة، وقال بلا علم، وادعى أن تزويج بنت الأخ كان إذ ذاك مشروعاً، فليس له على ذلك دليل. ولو فرض أنَّ هذا كان مشروعاً في وقت، كما هو منقول عن الربابيين من اليهود فإن الأنبياء لا تتعاطاه»[4].

ولم يقبل ابن كثير قول السدي في عدة جيش طالوت «لأنَّ أرض بيت المقدس لا تحتمل أن يجتمع فيها جيش مقاتلة يبلغون ثمانين ألفاً»[1]. ولم

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١/١٨ ١/٩، ٥٥، ٧٤، ٨٥، ٩٢، ٢٣٨، ٣١٨، ٢/٥، ١٧، ٣١، ٨٢، ٣/٢٥١.

(٢) جواد علي، موارد تاريخ الطبري، مجلة المجمع العلمي العراقي ١١ أيلول سنة ١٩٥٠م/٢٢٤.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١/١٧ ـ ١٨، ٨٦، ٢/٣١، ١/١٥٠، ٢/٨، ١٢٠ ـ ١٢٥، ١/٣١٨، ٢/٩، ٣/٣٠٣.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ١/١٧ ـ ١٨، ٨٦، ٢/٣١، ١/١٥٠، ٢/٨، ١٢٠ ـ ١٢٥، ١/٣١٨، ٢/٩، ٣/٣٠٣.

يوافقه على تفسير (حرد) المذكور في الآية ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ أنه اسم حرثهم[1]، وخالفه في تعيين صخرة معينة في وصية لقمان عليه السلام لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾[1] كما رد بعض مروياته قائلاً: «في بعض هذا السياق نكارة وغرابة»[1] أو «في بعض هذا نظر ونكارة»[1]، أو «في هذا نظر»[1].

ورد اسم السدي في البداية والنهاية نحو ٨٣ موضعاً، منها ثلاثة مواضع بتصريح اسم تفسيره مثل «وذكر أو قال السدي في تفسيره عن. . . إلخ[1]، وهذا يوحي أنَّ ابن كثير أخذ رواياته وأقواله مباشرة من كتابه التفسير، في حين أننا نجد بعض رواياته أخذت بواسطة ابن جرير الطبري[2]، وابن أبي حاتم[2]، والبيهقي[2] مما يجعلنا نشك في استفادة ابن كثير من تفسير السدي بلا واسطة.

ثم يأتي دور تفسير عبد الرزاق (١٢٦ ـ ٢١١ هـ)، وهو أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع بن وهب الصنعاني، شيخ البخاري، كان من حفاظ الحديث الثقات، يحفظ نحواً من سبعة عشر ألف حديث، نعته الذهبي بقوله: «كان من أوعية العلم»[2]. ووصفه ابن كثير بـ «صاحب المصنف والمسند»[3]، ولم يزد على ذلك، ولكنه أشار إلى تفسيره مرتين في أول تاريخه كمصدر له[4]، والجامع الكبير الذي هو «خزانة علم» في رأي الذهبي[5].

ورد اسم عبد الرزاق في تاريخ ابن كثير منذ بدء الكتاب إلى عهد هارون الرشيد أكثر من مئة مرة، وبالنظر إلى مضمون الروايات التي وردت في قسم المبتدأ وقصص الأنبياء ـ وهو الجزء الذي فيه اعتماد ابن كثير على تفسيره أصلاً ـ وبعض روايات السيرة، نرى أنها تتصل بالحوادث التي أشار إليها

---

(١) نفس المصدر ١/ ٥٥، ١٨٦، ٣/ ٢٥١، ١/ ٩، ١٥٠، ٢/ ٤٩، ١/ ٨٠، ١٦٣.

(٢) الذهبي، تذكرة الحفاظ ١/ ٣٣١.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١٠/ ٢٦٥، ١/ ٣٧، ٤٨.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ١٠/ ٢٦٥، ١/ ٣٧، ٤٨.

(٥) الذهبي، ميزان الاعتدال ٢/ ١٢٦، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٢٥ هـ.

القرآن، مما يوحي أنَّ ابن كثير رجع إلى تفسير عبد الرزاق. أما في السيرة وما بعدها فلم يصرّح ابن كثير من أي مؤلفاته أخذ روايات عبد الرزاق، هل أخذ من مصنفه أو من مسنده المذكورين؟ أم من دواوين المحدثين الذين رووا عنه أقواله ومروياته؟

وقد خالفه ابن كثير ـ على عادته في عدم قبول المرويات على علاتها ـ في طول آدم، فقد أورد عنه روايات جاء فيها، أنَّ آدم حين أهبط إلى الأرض نقصه الله إلى ستين ذراعاً، وهذا يفيد أن طوله كان أكثر من ذلك حين خلقه الله، وحين كان في الجنة، على حين أن الثابت عند ابن كثير أن طوله عند خلقه كان ستين ذراعاً، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن[1]. وكذلك يخالفه في حياة الحضر، فإن ابن كثير ينصر مذهب الذين يقولون بموته[3].

أما الحافظ أبو بكر ابن مردويه (٣٢٣ ـ ٤١٠)، فهو أحمد بن موسى بن مردويه بن فورك الأصفهاني، ويقال له ابن مردويه الكبير، وهو حافظ مؤرخ مفسر، قال عنه الذهبي: «صاحب التفسير والتاريخ»[2]. وذكره ابن كثير من أول تاريخه إلى حوادث غزوة بدر في عشرين موضعاً، منها في ستة مواضع صرح ابن تفسيره[3]. مما يدل على رجوعه إلى تفسير ابن مردويه واستفادته منه.

وقد ذكر ابن كثير ما رواه ابن مردويه وآخرون من حديث صحيح يقتضي حصر الكمال في ثلاث نسوة، وهنَّ مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد. وعلله بقوله: «لعل المراد بذلك في زمانهن، فإن كلاًّ منهن كفلت نبياً مرسلاً، وأحسنت الصحبة، وصدقته، فلا ينفي كمال غيرهن من هذه الأمة[1]. ونقل ابن كثير ما رواه ابن حبان وابن مردويه من حديث أبي ذر، وفيه عدد الأنبياء والرسل، ثم قال: إن ابن الجوزي ذكره في الموضوعات، ثم خرج طرقه وألفاظه، وضعف كلها[1]. وذكر ما رواه ابن أبي

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١/٩٢، ٣٣٤.

(٢) الذهبي، تذكرة الحفاظ ٣/٢٣٨.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١/١٣، ٩١، ٩٦، ٢/١٥٢، ٦٣، ١٢٩، ٢/٦١، ٣/١٢٩، ٢/١٥١ ـ ١٥٢، ١/٢٩٤، ٢٦٥، ١٧٠.

حاتم وابن مردويه من حديث مرفوع: «لولا أن بني إسرائيل استثنوا، لما أعطوا» في تفسير آية في حكاية البقرة. وكان في صحته عند ابن كثير نظر[1]. واستغرب معنى الطوفان بالموت عن عائشة، رواه ابن جرير وابن مردويه[1]. كما رد بعض رواياته قائلاً: «هذا حديث غريب من هذا الوجه، وله شواهد من وجوه أخر»[1].

وهناك تفاسير أخرى ذكرها ابن كثير في تاريخه كمصدر لمعلوماته التاريخية ومواده، ولكن ليس لها حظ كبير في تكوين تاريخه، فإن ذكرها قليل بالنسبة للكتب السابقة في التفسير، لذلك نكتفي على سرد أسماء مؤلفيها، نحو تفسير شجاع بن مخلد الفلاس (١٥٥ ـ ٢٣٥)[1]، وتفسير عبد بن حميد (المتوفي سنة ٢٤٩ هـ)، وقد كان من الأئمة الثقات، قال عنه الذهبي: «مصنف المسند الكبير والتفسير وغير ذلك.. إلخ[2]. وذكره ابن كثير بـ «صاحب التفسير الحافل»[3]. وصرح باسم تفسيره كمصدر له في تاريخه[4].

أما أبو بكر محمد بن الحسن النقاش (٢٦٦ ـ ٣١٥)، المفسر المقرىء، صاحب كتاب «شفاء الصدور» في التفسير، فقد كان متهماً لوهن فيه عند الذهبي، فذكر أنه كان يكذب في الحديث، والغالب عليه القصص، ونقل عن أبي القاسم اللالكائي أن تفسيره «شقاء للصدور»[4]، أو كما نقل ابن كثير عن بعضهم «سقام الصدور»، وصرح بأنه «تفرَّد بأشياء منكرة»، ومع ذلك قال: «إنه كان رجلاً صالحاً في نفسه عابداً ناسكاً»[5]، وأورد في تاريخه أقواله، منها مرة مع الإشارة إلى تفسيره[1]، ولكن الغالب أنه لم يأخذ منه مباشرة، بل أخذ عن طريق كتاب «التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأعلام»، أو كتاب «الروض الأنف»، كلاهما لأبي القاسم السهيلي. لأن ابن كثير بعد أن حكى قول

---

(١) نفس المصدر ١/ ١٣.
(٢) الذهبي، تذكرة الحفاظ ٢/ ١٠٤.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١١/ ٤، ١/ ١١.
(٤) الذهبي تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٥ ـ ١١٦.
(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ١١/ ٢٤٢، ٢/ ١٧٤، ١/ ٤٦.

النقاش في خلق الملائكة، قال مباشرة: «حكاه السهيلي في كتاب التعريف... إلخ[1]، وقال في مكان آخر: «كما حكاه السهيلي عن القتيبي والنقاش»، ثم نقل زعمهما أنَّ سارة زوجة إبراهيم هي ابنة هاران (أخي ملك حران)، أخت لوط[1]. وقد وجدنا هذا القول عنهما عند السهيلي في كتابه «الروض الأنف»[2]. ثم في موضعين آخرين حكى ابن كثير قول النقاش، وأتبعه بما قال السهيلي، فكل هذا يدل على أن المصدر الحقيقي لابن كثير في أقوال النقاش هو الكتابان المذكوران للسهيلي.

وقد كان النقاش من مصادر السهيلي في كتابه «الروض الأنف»، الذي هو من مصادر ابن كثير في تاريخه، فلا يبعد اعتماد ابن كثير على السهيلي في أقوال النقاش، ويقوي هذا ما نجد من مطابقة في قصة أبرهة بينهما عن النقاش[3].

أما كتاب «التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأعلام»، لأبي القاسم السهيلي فلم نستطع الرجوع إليه، وهو من مصادر ابن كثير في تاريخه، اعتمد عليه في توضيح مبهمات القرآن، وصرح باسمه في عدة مواضع من تاريخه[4]. وكان اعتماده على هذا الكتاب أصلاً في قسم المبتدأ وقصص الأنبياء فقط، فلم يرد اسمه في قسم السيرة إلا مرة واحدة[1]، وحل محله في قسم السيرة الروض الأنف للسهيلي، كما سيأتي ذكره أثناء كلامنا على مصادر السيرة.

وقد أشار ابن كثير إلى تفاسير تالية[1] في نقل حكاية الخلاف في الجنة التي دخلها آدم، هل هي في السماء أم هي في الأرض؟ ثم لم يذكرها بعد ذلك إلا نادراً، وهي: تفسير القاضي المنذر بن سعيد البلوطي (٢٧٣ ـ ٣٥٥)، والمصنف الذي أفرده في هذا الخلاف[5]. وتفسير أبي محمد بن عطية (المتوفى

---

(١) نفس المصدر ١/ ١٥٠، وقد أسلفنا رد ابن كثير على السدي في هذا الموضوع، انظر صفحة ٢٠ من هذا الكتاب.

(٢) الروض الأنف للسهيلي ١/ ١١، مطبعة الجمالية، مصر سنة ١٣٣٢ هـ/ ١٩١٤ م.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ٢/ ١٧٤ ـ ١٧٥، الروض الأنف للسهيلي ١/ ٤٥.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ٤٦، ١٧٥، ٣٣٦، ٢/ ٢٢٧، ١/ ٧٥ ـ ٧٦.

(٥) وكان رأيه في ذلك «أن الجنة التي سكنها آدم، وأهبط منها كانت في الأرض، وليست بالجنة التي أعدها الله لعباده في الآخرة» (البداية والنهاية ١١/ ٢٨٨).

سنة ٣٨٣ هـ) وأبي عيسى الرماني[١]، وتفسير القاضي الماوردي (٣٦٤ - ٤٥٠)[٢]، وتفسير فخر الدين الرازي (٥٤٤ ـ ٦٠٦)[٣]، وتفسير القرطبي (المتوفى سنة ٦٧١ هـ)[٤].

* * *

(١) لعله ابن عيسى الرماني (٢٩٦ ـ ٣٨٤) الذي ذكر له ابن كثير وآخرون تفسيراً كبيراً (البداية والنهاية ١١/ ٣١٤) وقد جاءت الإشارة إلى الرماني في مسألة نبوة الخضر، بدون تصريح تفسيره (البداية والنهاية ١/ ٣٢٨).

(٢) وقد ورد اسمه في موضعين آخرين، منهما مرة بتصريح اسم تفسيره (البداية والنهاية ٤/ ١١٠، ٥/ ٣٠١).

(٣) أشار ابن كثير إليه مرة أخرى حين الكلام على تحريف الكتب السماوية، ونقل عنه مذهب أكثر المتكلمين بأن «التبديل إنما وقع في معانيها، لا في ألفاظها» (البداية والنهاية ٢/ ١٤٩) وأشار إلى كتاب آخر له، وهو «السر المكتوم في مخاطبة الشمس والقمر والنجوم» وذاك أثناء الكلام على الكواكب السبعة التي بنى عليها اليونان الأبواب السبعة في مدينة دمشق قديماً، وجعلوا على رأس كل باب هيكلاً على صفة الكواكب السبعة» (البداية والنهاية ١/ ٣٤).

(٤) أشار ابن كثير في مكان آخر إلى كتاب آخر له، وهو «التذكرة في أحوال الآخرة» وذلك في قصة وفادة لقيط بن عامر إلى الرسول عليه الصلاة والسلام (البداية والنهاية ٥/ ٨٣).

المطلب الثاني

الكتب السماويــة

إنَّ اعتراف الإسلام بالأنبياء السابقين وأديانهم كان سبباً في تشجيع المسلمين على دراسة أحوالهم ورسالاتهم من الكتب السماوية التي نسبت إليهم، إما بمطالعتها أو بمدارستها ومذاكرتها مع علماء أهل الكتاب. فقد كان ابن إسحاق يحمل عن اليهود والنصارى، ويسميهم في كتبه أهل العلم الأول[1].

وقد ترجم التوراة في العصر الأموي على يد أحمد بن عبد الله بن سلام الإنجيلي للخليفة هارون الرشيد[1]. وقد ذكر المسعودي أسماء جماعة من اليهود والنصارى الذين ترجموا التوراة والإنجيل[2].

وكانت الكتب السماوية القديمة من مصادر المؤرخين المسلمين منذ أول اهتمامهم بالتاريخ، أخذوا منها القصص التاريخية والأسطورية في كيفية خلق العالم وأحوال الأمم الغابرة، وحوادث الأنبياء والرسل السابقين. وخير شاهد على ذلك تواريخ الطبري واليعقوبي والمسعودي. وهكذا كان مؤرخنا قد رجع إلى الكتب السماوية، ولكن رجوعه إليها كان للرد عليها أكثر منه للاعتماد عليها، واستقاء الأخبار منها، على خلاف المؤرخين السابقين الذين استقوا منها المواد التاريخية، ولم يتنبهوا أو تجاهلوا ما فيها من خلاف عما يعتقده المسلمون.

---

(١) ابن النديم، الفهرس ١٣٦، ٣٢ المطبعة الرحمانية بالقاهرة، سنة ١٣٤٧ هـ.

(٢) المسعودي، التنبيه والأشراف ١١٢ ـ ١١٤، طبعة مصورة من طبعة ليدن، نشرت من مكتبة الخياط، بيروت، سنة ١٩٦٥ م.

رجع ابن كثير إلى الكتب السماوية، وأحال عليها، فمنها الأسفار الخمسة للتوراة، وسفر زبور داود، وصحف أشعيا وحزقيل وأرميا، وكتاب النبوات والإنجيل. وجاءت الإشارة إليها مجتمعة في الجزء الخاص بالدلائل في بيان البشارات بظهور النبي عليه الصلاة والسلام في الكتب المتقدمة[١]. كما أكثر مؤرخنا من الأخذ بالتوراة والرد عليها في قصص الأنبياء. وقد صرح في عدة أماكن بأن الذي ينقله رآه بعينه، مثل قوله: «في الكتاب الذي بأيدي أهل الكتاب»[١]، أو «هذا نصهم فيما رأيته»[١]، أو «هكذا رأيت في كتبهم»[١]، مما لا يدع مجالاً للشك في أخذ ابن كثير من الكتب السماوية مباشرة، والاستفادة بها، دون الاعتماد في ذلك على التواريخ السابقة التي نقلت منها.

وهذا ليس غريباً عن عالم مثل ابن كثير، فقد جاء في تاريخه أنه تكلم مع البطرك بشارة الملقب بميخائيل في دين أهل الكتاب، ونصوص ما يعتقده كل من الطوائف الثلاث الملكية واليعقوبية والنسطورية، وكان تعليقه على البطرك بعد مناقشته: «فإذا هو يفهم بعض الشيء»[١]. وهذا يدل فيما يدل على أن مؤرخنا كان قد درس كتبهم ودياناتهم دراسةً عميقة واسعة. لذلك نرى أنه ينبه أهل الكتاب على ما فاتهم من أخبار في كتبهم مع أن نبيهم أخبرهم بها. فقال في قصة عاد وثمود: «أنَّ هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهل الكتاب، وليس لهما ذكر في كتابهم التوراة، ولكن في القرآن ما يدل على أن موسى أخبرهم عنهما، فقد جاء على لسانه في القرآن: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ الآية. والظاهر أنَّ هذا من تمام كلام موسى مع قومه، ولكن لما كانت هاتان الأمتان من العرب، لم يضبطوا خبرهما جيداً، ولا اعتنوا بحفظه، وإن كان خبرهما مشهوراً في زمان موسى عليه السلام»[١]. وكذلك قال في ذكر آسية امرأة فرعون التي آمنت بموسى: «لا علم لأهل الكتاب بخبرها»[١].

وقد كان موقف ابن كثير نحو علماء أهل الكتاب موقفاً شديداً، يلسعهم

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٧٨/٦ ـ ١٨١، ٩٥/١، ٢٢٠، ٢٧٥، ٣١٩/١٤ ـ ٣٢٠، ١٣٢/١، ٢٦٨، ١١٤، ٢٠٩.

بالنقد اللاذع، ويسميهم: «الكذبة الكفرة»، و«زنادقة وفجاراً أعداء الأنبياء»[١]، و«الجهلة الثيران من قراي وربان»[١]. لأنهم «استحفظوا على ما بأيديهم من الكتب، فلم يقدروا على حفظها، ولا على ضبطها وصونها، فلهذا دخلها ما دخلها من تغييرهم وتبديلهم، لسوء فهمهم، وقصورهم في علومهم، ورداءة قصودهم، وخيانتهم لمعبودهم، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، ولهذا يوجد في كتبهم من الخطأ البيِّن على الله وعلى رسوله ما لا يحد ولا يوصف، وما لا يوجد مثله ولا يعرف»[١].

ومما يدل على اهتمام ابن كثير بهذا الموضوع أنه عقد فصلاً طويلاً في «تعريف أهل الكتاب وتبديلهم أديانهم» في آخر قصص الأنبياء، فبيَّن كيف حَرَّف أهل الكتاب كتبهم، وبدلوا وغيَّروا وأولوا، ونقل مذاهب العلماء في ذلك[١]. ولذلك كان حكمه في أخبار هذه الكتاب بأن كل ما «لم يخبر ويصح سنده إلى معصوم، فهو مردود على قائله»[١].

وقد أعاد ابن كثير موقفه هذا بتكرار في تعليقاته على أخبار هذه الكتب، فيها تشنيع على علمائهم، وبيان لخطئهم وضلالهم. فإنه ردَّ ما جاء في التوراة من أن آدم وحواء كانا في الجنة عريانين، لا يخجلان[٢]، قائلاً: «وهذا الذي في هذه التوراة التي بأيديهم غلط منهم وتحريف وخطأ في التعريب، فإن نقل الكلام من لغة إلى أخرى لا يكاد يتيسر لكل أحد، ولا سيما ممن لا يعرف كلام العرب جيداً، ولا يحيط علماً بفهم كتابه أيضاً، فلهذا وقع في تعريبهم لها خطأ كثير لفظاً ومعنى. وقد دلَّ القرآن على أنه كان عليهما لباس في قوله تعالى: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ﴾ فهذا لا يرد لغيره من الكلام»[٣].

وكان عند ابن كثير في أعمار أولاد قابيل وشيث التي نقلها عن التوراة[٤]

---

(١) نفس المصدر ١/ ٣١٥، ٢/ ١٤٧ ـ ١٥١، ١/ ٢١.

(٢) التكوين، الإصحاح الثاني، اعتمادنا على الطبعة العربية من الكتاب المقدس، نيويارك سنة ١٨٦٧ م.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ٧٨.

(٤) التكوين، الإصحاح الخامس.

نظر. فقال: «وفي كون هذه التواريخ محفوظة فيما نزل من السماء نظر، كما ذكره غير واحد من العلماء طاعنين عليهم في ذلك. والظاهر أنها مقحمة فيها، ذكرها بعضهم على سبيل الزيادة والتفسير، وفيها غلط كثير»[1].

وردَّ ابن كثير المدة التي بين وفاة آدم وبين مولد نوح، وهو في قول أهل الكتاب مئة وست وأربعون سنة، وذلك لما ورد في الأحاديث أن بينهما عشرة قرون، وعلى هذا يكون بينهما ألف سنة لا محالة، إذا كان المراد بالقرن مئة سنة. أما إذا كان المراد بالقرن الجيل من الناس، فعلى هذا يكون بينهما ألوف من السنين، نظراً إلى أعمارهم الطويلة[2].

وكان في عمر نوح عند ابن كثير نظر، وهو فيما يزعمه أهل الكتاب تسعمئة وخمسين سنة[3]. وقال ابن كثير: «إن لم يكن الجمع بينه وبين دلالة القرآن فهو خطأ محض. فإن القرآن يقتضي أنه مكث في قومه بعد البعثة وقبل الطوفان ألف سنة إلا خمسين عاماً. فإن كان ما ذكر محفوظاً عن ابن عباس أنه بعث وله أربعمئة وثمانون سنة، وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمئة وخمسين سنة، فيكون قد عاش على هذا ألف سنة وسبعمئة وثمانين سنة»[4].

واعتبر ما جاء عند بعض المفسرين في خبر عوج بن عنق أنه كان كافراً متمرداً جباراً عنيداً، وأنه كان من قبل زمان نوح إلى زمان موسى، وأن طوله كان ثلاثة آلاف وثلاثمئة وثلاث وثلاثين ذراعاً.. إلخ. اعتبر ابن كثير هذا كله من هذيانات المفسرين والمؤرخين. لأن الثابت عنده أن آدم كان أطول الناس على الإطلاق، وأنه لا يعقل أن يهلك في الطوفان «ولد نوح لكفره، ولا يهلك عوج ابن عنق، وهو أظلم وأطغى... إلخ. ثم قال: وما أظنه إلا اختلافاً من بعض زنادقتهم وفجارهم الذين كانوا أعداء الأنبياء»[4].

وخالف ابن كثير أهل الكتاب فيما يزعمون من أن الذبيح هو إسحاق،

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ٩٥ ـ ٩٦.

(٢) نفس المصدر ١/ ١٠١.

(٣) التكوين، الإصحاح التاسع.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ١١٩ ـ ١٢٠، ١١٤.

وعماده في ذلك تصريح التوراة بالوحيد البكر[1]، وما جاء في القرآن: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾. فكيف يكون إسحاق الذبيح، وقد وقعت البشارة بوجوده، ووجود ولده يعقوب... إلخ[2].

وكذلك ما جاء في قصة لوط عليه السلام، حين أحاط ببيته رجال المدينة، يريدون سوءاً بضيوفه الملائكة، فخرج إليهم لوط عليه السلام، وقال لهم: «لا تفعلوا شراً يا إخوتي. هو ذا لي ابنتان لم تعرفا رجلاً، أخرجهما إليكم، فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم»[3]. فقال ابن كثير: «هذا تصحيف عليهم، كما أخطئوا في قولهم أن الملائكة كانوا اثنين، وأنهم تعشوا عنده، وقد خبط أهل الكتاب في هذه القصة تخبيطاً عظيماً»[4].

ورد عليهم في قصة يوسف في مواضع عديدة[3]، أما قصة يوسف مع زليخا، فأعرض عنها ابن كثير لأن أكثرها «متلقى من كتب أهل الكتاب، فالإعراض عنه أولى بنا»[3]. كذلك في قصة موسى خالفهم في أماكن عدة[3]. ولم يوافقهم على اعتبار مريم نبية يوحى إليها[5]. فهذا عند ابن كثير استعارة مثل ما يقال الأميرة لمن في بيت الأمير[6]. كما أن المدة التي جاب فيها الخضر الأرض يدعو أهلها إلى عبادة الله، فيها عند ابن كثير نظر[5].

وقد حاول ابن كثير في بعض الأماكن أن يجمع بين ما جاء عند أهل الكتاب، وبين ما هو في القرآن والحديث عند المسلمين. ومن أمثلة ذلك عمر آدم في التوراة تسعمئة وثلاثين سنة[7]. وفي الحديث المرفوع ألف سنة. فقد جمع ابن كثير بين القولين ببيان الفرق بين السنين الشمسية والقمرية، وبإضافة مدة

---

(١) التكوين، الإصحاح ١٨.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ١٦١ ـ ١٦٢.

(٣) التكوين، الإصحاح ١٩.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ١٨٠، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٤، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٤، ٢١٨، ٢٣٨، ٢٥٠، ٢٧٥، ٢٨٧، ٢٩٥.

(٥) خروج الإصحاح: ١٥.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ١٧٦، ٢/ ١٠٧.

(٧) التكوين، الإصحاح الخامس.

إقامة آدم في الجنة[1]. وكذلك ما جاء في حكاية السفينة عند طوفان نوح من أمر حمل سبعة أزواج من كل ما يؤكل، وزوجين مما لا يؤكل[2]. قال ابن كثير: «هو مغاير لمفهوم القرآن ﴿ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾، أن جعلنا ذلك مفعولاً به، وأما إن جعلناه توكيداً لزوجين، والمفعول به محذوف فلا ينافي»[3].

وكذلك قال ابن كثير فيما جاء في قصة موسى من عدد بنات شعيب صاحب مدين، أنهن كن سبع بنات[4]، «وهو أيضاً من الغلط، وكأنهن كن سبعاً، ولكن إنما كانت تسقي اثنتان منهن. وهذا الجمع ممكن إن كان ذاك محفوظاً، وإلا فالأظهر أنه لم يكن له سوى بنتين»[5].

* * *

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ٩٩.
(٢) التكوين، الإصحاح السابع.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ١١١.
(٤) خروج الإصحاح الثاني.
(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ٢٤٣.

المطلب الثالث

دواوين المحدثين

أما دواوين المحدثين التي تحتوي على مادة تاريخية غزيرة، وكانت مصدراً كبيراً من مصادر التاريخ الإسلامي، فقد لعبت دوراً كبيراً في تكوين تاريخ «البداية والنهاية». استقى ابن كثير منها مواد تاريخه أكثر من أي مصدر آخر من قسم المبتدأ إلى نهاية السيرة النبوية الشريفة، وحتى إلى ما بعد السيرة نرى أثراً ملموساً لها إلى نهاية الدولة الأموية، إلا أنه يغلب عليه هنا أثر كتب التاريخ.

وقد كانت لثقافة ابن كثير العلمية نواحٍ متعددة منها تخصصه في الحديث، وهو الغالب عليه كعالم. فقد كان الرجل حافظاً محدثاً إماماً، كثير التصنيف في الحديث. شَرَع في شرح البخاري ولم يكمله، وجمع في مسنده الكبير بين الكتب الستة الصحيحة، وبين مسانيد الإمام أحمد والبزار وأبي يعلى وابن أبي شيبة، ومعجمي الطبراني الكبير والصغير. وألف كتاب «التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل» إلى غير ذلك من الكتب في الحديث وعلومه. والظاهر أن دراسته هذه أكسبته علماً غزيراً، ونظراً واسعاً في فن الحديث إسناداً ومتناً، كما أكسبته قدرة فائقة في تمييز الحديث الصحيح من الزائف.

ولا شك أنَّ عمله التاريخي ـ الذي نحن بصدد البحث عنه، ودراسة مصادره وموارده ـ يعدُّ خير شاهد له على ذلك. فقد كان ابن كثير قوي الذاكرة، حادَّ الذهن لا يذكر حديثاً أو خبراً أو رواية من كتاب إلا وينتقل ذهنه إلى مصادر أخرى، يستخرج منها شواهده، ويجمع بعضها فوق بعض، ثم يبحث ما فيها من

صحيح أو خطأ، أو غرابة أو نكارة أو شذوذ، ولو جرَّه ذلك إلى البحث في نقد الروايات والأسانيد ورجالها لانجر إلى ذلك، حتى يخيل أحياناً للقارىء أنه لا يدرس كتاباً في التاريخ، بل هو يدرس كتاباً في علم الحديث وفنه.

ويبدو أن من عذر المؤلف في ذلك أنه يريد أن يقدِّم علمه ومعرفته الواسعة للناس، ولو كان ذلك على حساب الموضوع التاريخي لوقت قليل، وكذلك من عذره أنه يريد أن يقدم تاريخاً صحيحاً في نظره، فلا بد من تطبيق البحث العلمي وقواعده التي يطمئن إليها المؤلف كمحدث. وهي طريقة المحدثين التي تستند أولاً وقبل كل شيء إلى سلامة السند. فإن كان هناك شيء في المتن يناقض وجهة نظر المؤلف، فلا بد من البحث والتحقيق في سلسلة الرواية، وتضعيف واحد أو أكثر من الرواة حتى لا تستطيع أن تقوم الرواية مقام الاعتماد والاعتبار.

والآن نشير إلى دواوين المحدثين التي تكرر ذكرها في تاريخ ابن كثير، واعتمد عليها مؤلفنا، فمنها:

الموطأ، للإمام مالك بن أنس (٩٣ ـ ١٧٩). أكثر مؤرخنا من نقل رواياته والاعتماد عليها في قسم السيرة. وقد صرح ابن كثير في بعض الأماكن بأن مصدره في رواياته كتابه الموطأ[١].

أما مسند الإمام أحمد بن حنبل، فقد كان ابن كثير مولعاً به إلى حد أن عده الشيخ أحمد محمد شاكر ثالث ثلاثة «كانوا كأن المسند على أطراف ألسنتهم، وكانوا يعرفونه حقاً»[٢]. وهم شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذاه الحافظان الكبيران ابن القيم وابن كثير. وبالنظر إلى تاريخ ابن كثير وتفسيره يصدق هذا القول بالنسبة لابن كثير ليس على المسند وحده، بل على دواوين المحدثين القديمة الشهيرة الأخرى، فإن أكثرها كانت على طرف لسانه، وكان يعرفها معرفة صحيحة حقة، وقد علم كيف يستعملها في تاريخه.

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ٩، ٥/ ١١١.

(٢) أحمد محمد شاكر، في تقديمه لمسند الإمام أحمد الذي نشره بتحقيقه ١/ ٤، الطبعة الثالثة دار المعارف بالقاهرة سنة ٦٨ ـ ١٣٧١ هـ.

لعب مسند الإمام أحمد[1] دوراً هاماً كبيراً في تكوين تاريخ ابن كثير، ولا يقارن به في هذا المجال أي كتاب من الكتب المعتمدة عنده إلا الصحيحان للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤ ـ ٢٥٦)[2]، وللإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (٢٠٤ ـ ٢٦١)، فإن روايات المسند والصحيحين إن لم ينقل كلها، فقد نقلت أكثرها؛ لذلك لا نكاد نجد فصلاً من فصول تاريخ ابن كثير منذ أول الكتاب إلى نهاية السيرة النبوية حالياً من مروياتهم، أما بعد السيرة النبوية فقد بدأ يقل ذكرهم شيئاً فشيئاً من عصر الخلفاء الراشدين إلى العصر الأموي، حتى إذا بلغنا العصر العباسي نجد أنه يكاد يقتصر ذكرهم في التراجم مع قلة هذه المواضع.

وطريقة عرض ابن كثير لرواياتهم مثل طريقته لعرض سائر روايات المحدثين، أي أنه يذكر الروايات مع أسانيدها، ثم يسرد أشباهها ونظائرها بما وردت في كتب الحديث الأخرى، كما يذكر رواياتهم نظيراً وشاهداً لما جاء في الكتب الأخرى من المسانيد والسنن وما إلى ذلك.

وهنا يذكر بمناسبة مسند الإمام أحمد، الزيادات على مسنده، لابنه عبد الله (٢١٣ ـ ٢٩٠)، فإنه زاد فيها على مسند أبيه نحو عشرة آلاف حديث، نقل ابن كثير أقواله ورواياته في نحو من خمسين موضعاً من تاريخه، ولم يذكر مصدره فيها إلا مرة واحدة حيث صرح باسم الزيادات[3]. ولكنه كثيراً ما يذكر رواياته قائلاً: «رواها عبد الله بن الإمام أحمد من مسند أبيه بخطه»[2]، مما يدل

---

(١) أشار ابن كثير إلى كتابين آخرين له، وهما كتاب الرد على الجهمية، في ذكر خلق السموات والأرض (البداية ١/ ١٥)، وكتاب الزاهد الذي أشار إليه في ترجمة لقمان، وقال إنه ذكر فيه فوائد جمة مهمة (البداية ٢/ ١٢٧)، وقال في ترجمته للإمام أحمد «صنف في الزهد كتاباً حافلاً عظيماً لم يسبق إلى مثله، ولم يلحقه أحد فيه». (البداية ١٠/ ٣٢٩).

(٢) وقد نقل ابن كثير بعض روايات البخاري وأقواله من التاريخ الكبير للبخاري مثل الأماكن التالية في البداية والنهاية ٣/ ٤٢، ٢٢١، ٤/ ٣٣٢، ٥/ ٣٢٥، ٦/ ٢٥٩، ٢٩٢، ٧/ ١٩١.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ٧٦، ٢/ ١٥٢، ١٥٨، ٥/ ٤، ٢١٠، ٧/ ٣٤٦.

على أن الزيادات المذكورة التي روى فيها عبد الله عن أبيه هو أيضاً من مصادر ابن كثير.

وكذلك يذكر هنا المستدرك على الصحيحين للحاكم أبي عبد الله النيسابوري (٣٢١ ـ ٤٠٥)، وقد نقل ابن كثير عنه الروايات الصحيحة التي استدركها الحاكم على الصحيحين مع رعاية شرائطهما، إلا أن ابن كثير ضعف بعض مروياته مثل ما جاء في تعزية خضر لرسول الله عليه وسلم[١]. كما تعجب ابن كثير من الحديث الذي أخرجه الحاكم عن أنس بن مالك في طول إقامة إلياس عليه السلام ومقابلته النبي ﷺ وأكلهما سواء على مائدة نزلت من السماء. علق ابن كثير عليه هما بقوله: «إن هذا مما يستدرك به على المستدرك، فإنه حديث موضوع، مخالف للأحاديث الصحاح من وجوه، ومعناه لا يصح أيضاً. .» إلخ[٢]. وكذلك كان في الحديث الذي رواه الحاكم في أن «ماء زمزم لما شرب له» عند ابن كثير نظر[٢].

وقد استعان ابن كثير ببعض شروح البخاري ومسلم في بعض المواضع. فذكر شرح البخاري للمهلب بن أبي صفرة، في نقل الخلاف في الإسراء[٢]، مما يوحي أنه أخذ منه أقواله مباشرة، ولكن تبين لنا من مراجعة «الروض الأنف» للسهيلي، أنه كان مصدر ابن كثير في نقل ذلك[٣].

وقد جاءت الإشارة إلى شرحين على مسلم، للقاضي عياض (٤٧٦ ـ ٥٤٤)[٤]، ولمحيي الدين النواوي (٦٣١ ـ ٦٧٦)[٤]. أما النواوي فقد نقل منه في عدة مواضع، ولكن بدون تصريح اسم كتابه[٤]. ويبدو نظراً إلى مضمون تلك الروايات أنَّ مصدر ابن كثير في تلك المواضع أيضاً شرحه على مسلم.

ومما يتعلق أيضاً بصحيحي البخاري ومسلم كتب الأطراف التي رجع إليها

---

(١) نفس المصدر ١/٢٩٩، ٣٣٨، ٢/٢٤٧، أشار ابن كثير إلى كتاب آخر له، وهو الإكليل (٣/٢٤٢).

(٢) نفس المصدر ٣/١١٥.

(٣) السهيلي، الروض الأنف ١/٢٤٤.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ٣/٨، ٢/١١٠، ٣/٧، ٨، ٦/٢٧٧، ١/٧، ٨٢.

ابن كثير، فمنها: كتاب الأطراف لأبي مسعود، إبراهيم بن محمد الدمشقي (المتوفى سنة ٤٠١)[٤] الذي كانت له عناية بالغة بالصحيحين[١]. أما كتاب الأطراف لشيخ ابن كثير الحافظ جمال الدين بن الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المزي (٦٥٤ ـ ٧٤٢)[٢]، وهو المعروف بـ «تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف»، فقد كان عليه اعتماد ابن كثير أكثر من الكتاب السابق[٣].

ويذكر هنا بمناسبة الصحاح، صحيح ابن خزيمة (٢٢٣ ـ ٣١١) الذي كان من «أنفع الكتب وأجلها» عند ابن كثير، كما كان ابن خزيمة عنده «من المجتهدين في دين الإسلام»[٤]. ورد اسمه في البداية والنهاية نحو عشرة مواضع، منها مرتين بتصريح اسم صحيحه[٣]. أما صحيح ابن حبان (المتوفى سنة ٣٥٤) فهو أكثر ذكراً من الكتب السابقة عند مؤلفنا[٥]. اعتمد على رواياته منذ بدء الخليقة إلى نهاية السيرة. ثم ذكر أقواله في توثيق أو تضعيف بعض رجال العصر الأموي[٦]. ولم يوافقه على ما ذهب إليه ابن حبان من أن بين سليمان وبين إبراهيم أربعين سنة[٥].

ويأتي في كتب الحديث بعد دور مسند الإمام أحمد وصحيحي البخاري ومسلم، دور كتب السنن التي نالت حظاً وافراً في «البداية والنهاية»، ولعبت دوراً هاماً في تكوين الجزء الخاص ببدء الخلق وقصص الأنبياء والسيرة النبوية منها:

سنن أبي داود (٢٠٢ ـ ٢٧٥)، نقل ابن كثير روايات كثيرة عن سننه، كما

---

(١) ابن عساكر، التاريخ الكبير ٢/ ٢٨٧، مطبعة روضة الشام، دمشق سنة ٢٩ ـ ١٣٣٢ هـ.
(٢) أشرنا إليه في شيوخ ابن كثير في كتابنا عن حياة ابن كثير.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ٣/ ٢٦١، ٤/ ٢٠٤، ٥/ ١٠١، ١٠٨، ١٤٥، ١٤٦، ١٧٨، ٦/ ٣٤، ٦١، ١٣٠، ٨/ ١٨.
(٤) نفس المصدر ١١/ ١٤٩، ٣/ ٢٠٩، ١٢/ ٣٢٦.
(٥) نفسه ١/ ٣٧، ٦٥، ٨٥، ٨٦، ٨٨، ٨٩، ٩٩، ١٠١، ١٢٠، ١٥٧، ١٧٤، ١٨٥، ٢٠٨، ٣١٧، ٢/ ٩٨، ١٠٠، ١٥١ إلخ.
(٦) نفسه ٨/ ٦١، ٩/ ١٦٣، ١٦٦، ٢٢٣، ١/ ١٦٢.

صرح باسمها في عدة مواضع[1]، وقد استفاد ابن كثير من كتاب آخر له، وهو المراسيل[٦]، جمع فيه أبو داود الأحاديث المرسلة. أما كتاب القدر الذي صرح ابن كثير من الأخذ به، فيبدو أنه كتاب مستقل لأبي داود، فإن الروايات التي وردت في «البداية والنهاية» عن كتاب القدر[2]، لم نجدها في باب القدر من سننه[3].

سنن **ابن ماجه** (٢٠٩ ـ ٢٧٣)، كان اعتماد ابن كثير عليه في الجزء الخاص بالسيرة أكثر من بدء الخلق وقصص الأنبياء، ولم يصرح باسم سننه إلا مرة واحدة[4].

سنن **النسائي** (٢١٥ ـ ٣٠٣)، وقد وقع لابن كثير سماع سننه الكبرى والصغرى. ووصفه ابن كثير بحفظ وإتقان وصدق وإيمان وعلم وعرفان[4]. وأخذ رواياته منذ بدء الخليقة، إلا أنه أكثر عنه في السيرة، وقد صرح في بعض الأماكن باسم سننه وأبوابها التي أخذ منها مروياته[4]. وقد اعتمد على كتب أخرى له، منها: اليوم والليلة[4]، وأشار إلى كتابه خصائص علي[4]، حين مناقشته لحديث غدير خم المعروف في فضل علي. وأحال ابن كثير على كتاب السير للنسائي مرة واحدة في تاريخه[5].

أما سنن **الدارقطني** (٣٠٦ ـ ٣٨٥) فيبدو أن ابن كثير لم يرجع إليه. وقد صرح باسم كتاب آخر له وهو **الإفراد**[4]، وعظم أمر هذا الكتاب حين قال في ترجمته للدارقطني: «لا يفهمه فضلاً أن ينظمه من الحفاظ الأفراد، والأئمة النقاد، والجهابذة الجياد»[4]. ثم أن أكثر ما ورد عن الدارقطني في «البداية

---

(١) نفسه ٢/ ٢٥، ٣/ ٢٥٥، ٤/ ٤٢، ٣٣٢، ٥/ ١٧٦، ٦/ ٢، ٢٠٩، ٧/ ٢٩٣، ٥/ ٧٧، ٢٦١.

(٢) نفسه ٢/ ٣١، ٧٩، ٨/ ١٢.

(٣) انظر باب القدر في كتاب الفتن من سنن ابن داود ٢/ ٦٤٤، اعتمادنا على مطبعة نامي كانبور، بالهند.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ٢٤٤، ١١/ ١٢٣، ١/ ١٧، ٣٠٠، ٤/ ٢٥٢، ٥/ ٢٠٩، ١/ ٧٨، ٣/ ٢٧٦، ٤/ ٣٩، ٢٥٤، ٥/ ٣٢٢، ١٦٣، ٢١٠.

(٥) ابن كثير البداية والنهاية ٤/ ٢٥٣، ١/ ٣٣٣، ١١/ ٣١٧.

والنهاية» هو أقواله في توثيق الرواة وتضعيفهم[1]، أما الروايات فقليلة[2] وقد تبين لنا من مراجعة أقوال الدارقطني في تراجم العصر العباسي أنَّ أغلب أقواله التي وردت في البداية، نقلت أيضاً في المنتظم لابن الجوزي[3] الذي كان من مصادر ابن كثير، وهذا يشير إلى احتمال أن يكون المنتظم مرجع ابن كثير في الأقوال المذكورة للدارقطني.

ومن كتب الحديث التي رجع إليها ابن كثير **الجامع الكبير** للترمذي (٢٠٩ ـ ٢٧٩)، اعتمد عليه منذ أول تاريخه إلى نهاية السيرة وما بعدها في التراجم إلى أوائل العصر العباسي، وقد صرح ابن كثير باسم جامعه في عدة أماكن[4]. أما كتاب «**الشمائل**» للترمذي الذي كان لابن كثير سماع متصل إليه، فإنه وإن كان ورد اسمه في آخر السيرة في بعض الأماكن، إلا أن الاعتماد عليه في المقام الأول كان في الجزء الخاص بالشمائل الذي ألحقه بتاريخه، فقد قال في ذلك: «ومن أحسن من جمع في ذلك فأفاد وأجاد الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي رحمه الله، أفرد في هذا المعنى كتابه المشهور بالشمائل، ولنا به سماع متصل إليه. ونحن نورد ما أورده فيه، ونزيد عليه أشياء مهمة لا يستغنى عنها المحدث والفقيه[2].

ويأتي بعد دور السنن دور كتب **المسانيد** التي اعتمد ابن كثير على رواياتها في شتى مباحث تاريخه من أول الكتاب إلى نهاية السيرة وما بعدها، ولكن ليس دورها كالكتب السابقة من السنن. فمن المسانيد:

مسند **أبي داود الطيالسي** (١٣٣ ـ ٢٠٤) أكثر مؤلفنا منه في الجزء الخاص بالسيرة، وصرح باسم مسنده مرتين[2].

---

(١) نفسه ١/ ٢٩، ٣٨، ٢٦٠، ٢/ ١٩٤، ٢١٢، ٢٣١، ٢٨١ إلخ.

(٢) نفسه ٢/ ٤، ٢١، ٣/ ١٥١، ٣٣٣، ٣٤٤، ٢٣٣ إلخ.

(٣) انظر بالترتيب في البداية والنهاية والمنتظم الصفحات التالية: البداية والنهاية ١١/ ٥٣، ٥٨، ٧٤، ٧٦، ٧٩، ٩٦، ١٠٣، ١٠٧ إلخ المنتظم. المجلد الخامس، القسم الثاني ٩٢، ١٠٧، ١٦٢، ١٦٥، ٦/ ٣، ٣٦، ٦٦، ٧٩ إلخ.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ٣/ ١٦٩، ٤/ ٩٢، ٧/ ٢٠٩، ٦/ ١١، ١/ ٧٧، ٤/ ٣٣١.

مسند **الإمام الشافعي** (١٥٠ ـ ٢٠٤)، نقل ابن كثير روايات كثيرة عنه، أغلبها في آخر السيرة، وقد صرح باسم مسنده في موضعين[١].

مسند **أبي بكر البزار** (المتوفي سنة ٢٩٢)، وهو الكتاب الذي أكثر مؤلفنا من إيراد مروياته والاعتماد عليه منذ أول التاريخ إلى نهاية السيرة، وقد صرح باسم مسنده كثيراً[٢].

مسند **أبي يعلى الموصلي** (المتوفي سنة ٣٠٧)، وهو أيضاً من الكتب التي استفاد منها ابن كثير من بدء الخليقة، إلا أنه أكثر من إيراد مروياته في آخر السيرة، وقد أشار إلى مسنده كمصدر عدة مرات[٣].

وإضافة إلى ذلك أشار ابن كثير إلى مسانيد أخرى، ولكن لم يتجاوز ذكرها من عدة موات، منها: مسند **عبد بن حميد**[٤] (المتوفى سنة ٢٤٩)، ومسند **رفاعة بن رافع**[٣]، ومسند **القاضي أبي بكر** أحمد بن علي سعيد[٣].

وهنا يذكر مصنف ابن **أبي شيبة**(المتوفى سنة ٢٣٥) الذي ورد اسمه أكثر من ثلاثين موضعاً من البداية والنهاية، أشار في بعض الأماكن منها إلى مصنفه[٥]، الذي كان رأى ابن كثير فيه أنه «لم يصنف أحد مثله قط، لا قبله ولا بعده»[٤].

أما كتاب **السنة** لابن أبي عاصم (٢٠٦ ـ ٢٨٧)، وهو «في أحاديث الصفات على طريقة السلف»، فقد ورد اسمه ثلاث مرات، منها مرة بتصريح اسم كتابه[٦].

وقد اعتمد ابن كثير على مؤلفات الطبراني (٢٦٠ ـ ٣٦٠)، وهي: كتاب السنة[٧]، والتاريخ[٦]، والمناسك[٦]، ولكن أكثر من الاعتماد على معجمه

---

(١) نفس المصدر ١/ ٣٣٢، ٥/ ١٥٢.

(٢) نفسه ١/ ٢٤، ٥١، ٨٢، ١١٥، ١٩٩، ٢٣٤، ٢/ ١٣٩، ٣/ ١٢٥ إلخ.

(٣) نفسه ١/ ١٩٩، ٢/ ٦٧، ٥/ ١١٣.

(٤) نفسه ٣/ ٦٢، ١٤١، ٦/ ٢٧٦، ٣/ ٢٨٧، ٢/ ١٨١.

(٥) نفسه ٢/ ٢٦٠، ٥/ ١١١، ٦/ ٢٧٦، ١/ ٣١٥.

(٦) نفسه ١١/ ٨٤، ١/ ١١، ٢/ ٣٢٢، ٦/ ٢٨٣.

(٧) نفسه ١/ ١١، ٢٦٠، ٥/ ١٧٥.

الكبير[١]، واستحسن ابن كثير سياق الطبراني في أخبار أمية بن أبي الصلت، ونفاه بتمامه[٢]، كما رد عليه في كثير من المواضع، مثل أن المجرة، هي لعاب حية تحت العرش. علق ابن كثير عليه قائلاً: «إنه حديث منكر، والأشبه أنه موضوع»[٣]. وكذلك الحديث الذي جاء فيه: أن لله ملكاً لو قيل له التقم السموات والأرضين بلقمة واحدة لفعل. اعتبره ابن كثير: «حديثاً غريباً جداً»[١]. وعارضه في أن يأجوج ومأجوج من ولد آدم قائلاً: «وهو حديث غريب جداً، وإسناده ضعيف، وفيه نكارة شديدة»[١].

وكذلك نقل ابن كثير من «معجم الصحابة» للبغوي (٢١٣ ـ ٢١٧) بعض رواياته وأقواله، وصرح باسم كتابه «معجم الصحابة» في عدة أماكن[٤]، وكذلك ذكر ابن كثير كمصدره كتاب معرفة الصحابة[٥]، لأبي عبد الله محمد بن إسحاق بن منده (٣١٠ ـ ٣٩٥)، كما أشار إلى كتاب آخر له، وهو «معجم الصحابة»[٦]. ولا نعرف أنهما كتابان أم كتاب واحد؟ وبالنظر إلى اسم الكتابين وموضوعهما، يحتمل أن يكون الاسمان لمسمى واحد.

أما في نقد **الرجال**، فقد أورد ابن كثير إلى جانب أقوال المحدثين المذكورين أقوال أئمة النقد القدماء مثل يحيى بن معين (١٥٨ ـ ٢٣٣)، وعلي ابن المديني (١٦١ ـ ٢٣٤)، وعمرو بن علي الفلاس (١٦٠ ـ ٢٤٩) وأبي سليمان الجوزجاني المتوفى (سنة ٢٥٩)، وأبي زرعة الدمشقي (المتوفى سنة ٢٨١)، وأبي حاتم الرازي (١٩٥ ـ ٢٧٧).

وبالإضافة إلى أقوال هؤلاء الأئمة أشار ابن كثير إلى بعض كتب أئمة علماء النقد، مثل كتاب الكامل لابن عدي (٢٧٧ ـ ٣٦٥) والاستيعاب في معرفة

---

(١) نفسه ٢/ ٢٣٠، ٤/ ٣٦٦، ٥/ ٥٩، ٦/ ٤٠، ٨/ ٢٠٨.
(٢) نفسه ٢/ ٢٢١ ـ ٢٢٤.
(٣) نفسه ١/ ٣٨ ـ ٣٩، ٤٣، ٢/ ١١٠.
(٤) نفسه ٥/ ٣١٣، ٣١٥، ٣٣٢.
(٥) نفسه ٣/ ١٢٧، ٣٤٦.
(٦) نفسه ٥/ ٣٣٢.

الأصحاب لابن عبد البر (٣٦٨ ـ ٤٦٣).

أما أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٥٥٥ ـ ٦٣٠)، فقد اعتمد عليه ابن كثير في سيرة الرسول ﷺ، وفي تراجم الصحابة، وأحال بتكرار على كتابه المذكور[١]. أما بعد ذلك فكان اعتماده على كتابه التاريخي (الكامل) كما سنذكره فيما بعد.

وأشار ابن كثير إلى كتاب «مشكل الحديث» للطحاوي (٢٣٩ ـ ٣٢١) في حديث حبس الشمس عن الغروب لعلي رضي الله عنه، وكان رأي الطحاوي أن الحديث صحيح، على حين يضعفه ابن كثير[٢]. ثم ذكر أقواله في ترجمة الإمام زفر والنسائي[٢]، ويبدو لنا أن اعتماده في ذلك إما كان على كتاب آخر له، وهو التاريخ الكبير الذي ذكره ابن كثير في ترجمته له[٢]. أو نقلها من المؤرخين الذين ذكروا أقواله.

وقد رجع ابن كثير إلى كتاب «الموضوعات» لابن الجوزي (٥٠٨ ـ ٥٩٧) مثل ما ذكره في تضعيف رواية في عدد الأنبياء[٣]، وتضعيف حديث حبس الشمس، أو ردها بعد المغيب لعلي رضي الله عنه[٣]. كما استفاد ابن كثير بكتاب آخر له في قصة الخضر، وهو كتاب «عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر»[٣]: ثم كان اعتماده على تاريخه «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» الذي سوف نذكره في مصادر تاريخ العصر العباسي.

واستفاد ابن كثير في تاريخه من «تهذيب الكمال»: لشيخه المزي[٤] كثيراً، كما سجل بعض ما سمعه من شيخه من الفوائد في الحديث وعلومه[٥]. وكذلك

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية ٣/١٥٦، ١٦١، ١٦٣، ٢٢٩، ٢٣٠، ٣٠٧، ٤/٩ إلخ.
(٢) نفس المصدر ٦/٨٥، ٨٦، ٢٨٧، ١٠/٢٠٢، ١١/١٢٤، ١٧٤.
(٣) نفسه، ٢/١٥٢، ٦/٧٨، ٧٩، ٨٢، ٨٤، ٨٥، ٢٨٢، ١/٣٣٠، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥.
(٤) نفسه ٢/١٩٨، ٣/٣١٥، ٨/١٠٣، ٣٢٦، ١٠/٨٠، ٣٢٦، ١١/٣٣.
(٥) نفسه ١/١٣٧، ٣٠٧، ٤/١٩٤، ٥/٣٤٧، ٦/٢٤٤، ٢٥٨، ٢٧٦، ٨/٩٢، ١١/١٢٤، ١٣/٣٠٢.

أشار إلى كتاب ميزان الاعتدال[1] لشيخه الذهبي (٦٧٣ ـ ٧٤٨)، ونقل ما سمع منه من الفوائد[٦]. واستفاد من الجزء الخاص الذي ألفه الذهبي في حديث الطير[٦].

أما كتاب غريب الحديث، لقاسم بن ثابت العوفي (٢٥٥ ـ ٣٠٢) الذي أشار إليه ابن كثير في حلف الفضول كمصدره[٢]، فقد تبيَّن لنا من مراجعة الروض «الأنف» للسهيلي[٣]، إن اعتماد ابن كثير في الأصل كان في ذلك على السهيلي وكذلك وجدنا عند السهيلي ما رواه ابن كثير عن كتاب «الدلائل» للعوفي المذكور[٤].

* * *

(١) نفسه ١٠/ ١١٣، ١٢/ ١٤٣، ٩/ ١٥٩، ٧/ ٣٥٠، ٣٥٢، ٣٥٣.
(٢) نفسه ٢/ ٢٩٢.
(٣) السهيلي، الروض الأنف ١/ ٩١.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ٣/ ٢٧٢، ٣٠٨، وانظر في الروض الأنف للسهيلي ١/ ٦٩، ٨٥.

الفصل الثاني

السيرة النبوية الشريفة ومصادرها

ما إن ينتهي ابن كثير من قسم المبتدأ، ويدخل في أخبار العرب حتى يصبح أكثر اعتماده على كتب السير والمغازي، مع الاستعانة بدواوين المحدثين لتصحيح وردٍّ ما جاء عند أصحاب السير والمغازي في السيرة النبوية.

يناقش ابن كثير في أخبار العرب أصولهم وأنسابهم، فيرد قول من قال: أن جميع العرب ينتسبون إلى إسماعيل عليه السلام؛ لأن الصحيح عنده أن العرب العارية ـ وهم عاد وثمود وطسم وجديس وأمم وجرهم وغيرهم ـ كانوا قبل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. أما العرب المستعربة ـ وهم العدنانيون من عرب الحجاز ـ فهم من ذرية إسماعيل. أما عرب اليمن ـ وهم حمير ـ فالمشهور أنهم من قحطان. أما قضاعة فقد اختلف فيهم بين عدنان وقحطان. وهنا نقل ابن كثير قول النسَّابة البصري محمد بن سلام حين سُئل عن العدنانية والقحطانية: أيهما أكثر؟ فقال: «ما شاءت قضاعة، إن تيامنت فالقحطانية أكثر، وإن تعددنت فالعدنانية أكثر»[1]. وهذا كان دليلاً على تلونهم في النسب عند ابن كثير.

ثم قدم ذكر القحطانية، فذكر فيهم قصة سبأ، وقصة ربيعة بن نصر أحد ملوك حمير التبابعة، وقصة تبع أبي كرب ملك اليمن مع أهل المدينة، ووثوب لخنيعة على ملك اليمن، وخروج ملك اليمن من حمير إلى الحبشة السودان. ثم

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٢/١٥٧، ١٥٦، ١٨٤.

ذكر خروج أبرهة وامتلاكه اليمن، وقصة الفيل لخراب الكعبة إلى أن رجعت اليمن إلى سيف بن ذي يزن الحميري، فذكر ما آل إليه أمر الفرس باليمن، وقصة الساطرون صاحب الحضر، وأخيراً خبر ملوك الطوائف(١).

وأخر ابن كثير ذكر العدنانية، ليكون متصلاً بسيرة الرسول ﷺ(١)، فبدأ هذا الفصل بذكر إسماعيل، وما آل إليه أمر العرب بعده من الجهل وعبادة الأوثان وقتل الأولاد. ثم تكلم على عدنان جد العرب الذي ينتهي إليه نسب النبي عليه الصلاة والسلام. فذكر أصول أنساب قبائل عرب الحجاز إلى عدنان، وتكلم على قريش نسباً واشتقاقاً وفضلاً، وانتزاع ولاية البيت من خزاعة وإعادتها إلى قريش(٢).

ثم ألحق ابن كثير في تاريخه فصلاً في الأحداث التي وقعت في زمن الجاهلية، ذكر فيه أخبار حاتم الطائي، وعبد الله بن جدعان، وامرىء القيس، وأمية بن أبي الصلت، وبحيرا الراهب، وقس بن ساعدة الأيادي، وزيد بن عمرو بن نفيل. وهنا عاد اهتمام ابن كثير بكتب الحديث في استقائه المعلومات والأخبار منها، فذهبت كتب التفسير في المقام الثاني، إلى أن بدأ ابن كثير ذكر حوادث زمن الفترة. فرجع إلى كتب السير مرة أخرى في ذكر بنيان الكعبة، وتجديد حفر زمزم، وخبر كعب بن لؤي، ونذر عبد المطلب ذبح ابنه عبد الله (والد الرسول عليه الصلاة والسلام)، ثم تزويجه آمنة (والدة الرسول عليه الصلاة والسلام).

وهنا بدأ ابن كثير السيرة النبوية الشريفة، وظل اهتمامه بكتب السير واعتماده عليها في المقام الأول، مع التوسع في الاستعانة بكتب الحديث.

وقد ذكر في السيرة نسب الرسول ﷺ، ومولده ومنشأه إلى أن بلغ الحلم، فشهد حرب الفجار، وحلف الفضول، واشترك في تجديد بناء الكعبة، وتزوج بخديجة. ثم ذكر مبعث الرسول عليه الصلاة والسلام، وأول من آمن برسالته، ومناوأة قريش لدعوته وإيذائهم لأتباعه، مما كان سبباً في هجرة الصحابة أولاً

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٢/١٥٨، ١/١٨٤ ـ ٢١٠.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٢/١٥٨، ١/١٨٤ ـ ٢١٠.

إلى الحبشة، ثم هجرتهم مع الرسول ﷺ إلى المدينة. فذكر بدء التاريخ الإسلامي، وكيفية اتفاق المسلمين على وضعه في زمن عمر، واختيارهم شهر المحرم كرأس السنة. ومن هنا تبدأ وقائع السنة الأولى من الهجرة النبوية. فيذكر الحوادث والوقائع والغزوات على طريقة الحوليات التي راعى فيها ترتيب السنين.

ثم بدأ ابن كثير «كتاب المغازي» من السنة الثانية من الهجرة، فذكر في كل سنة غزوات وسرايا وحوادث وقعت فيها إلى وفاة الرسول ﷺ، سنة إحدى عشر، من الهجرة، وهنا ذكر أخذ البيعة لأبي بكر الصديق في سقيفة بني ساعدة، وبيعة علي والزبير له. ورد زعم القائلين بالوصية لعلي بالخلافة، ثم جمع فصولاً في أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام، وسراريه، وأولاده، وإمائه، ومواليه، وخدّامه، وكتابه، وأمنائه، وآثاره، ومراكبه.

ثم أضاف إلى السيرة النبوية في كتابه التاريخي العام لأول مرة في المؤرخين المسلمين أربعة أنواع في فصل طويل، أفردها العلماء قبله بالتأليف في كتب مستقلة، وهي: شمائل الرسول عليه الصلاة والسلام، ودلائل نبوته، وفضائله، وخصائصه. وهو فصل طويل توسع فيه ابن كثير جداً، وانصرف اهتمامه هنا مرة أخرى إلى دواوين المحدثين التي تكاد تكون عليها وحدها اعتماد ابن كثير إلى جانب كتب الدلائل والفتن والملاحم.

أراد ابن كثير أن يتكلم في هذا الجزء الأخير من السيرة على «أسماء الرسول ﷺ وشمائله ـ وهي صفاته الظاهرة وأخلاقه الطاهرة ـ، ودلائل نبوته، وفضائل منزلته»[(١)]. باعتبارها من متعلقات السيرة النبوية الشريفة. فقد صرح في بداية هذا الفصل «هذا أوان إيراد ما بقي علينا من متعلقات السيرة الشريفة، وذلك في أربعة كتب: الأول في الشمائل، الثاني: في الدلائل، الثالث: في الفضائل، الرابع: في الخصائص»[(١)].

ولكنه لم يذكر أسماء الرسول عليه الصلاة والسلام كما لم يذكر فضائله

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٢/٢٦٦، ٦/١١، ٢٥٧، ٢٥٨.

وخصائصه منفرداً مستقلاً، ولم يتكلم في هذا الفصل إلا على شمائل الرسول عليه الصلاة والسلام، ودلائل نبوته، حيث بدأهما بلفظ «كتاب» حسب ترتيبه الذي بينه في أول هذا الفصل، ثم لم يبدأ غيرهما من أبواب هذا الفصل أبداً بلفظ «كتاب»، ولكنه أحال في نهاية الدلائل إلى كتاب الخصائص كأنه انتهى من تأليفه[1]. وهو لم يوجد في المخطوطات التي طبع عليها الناشرون «البداية والنهاية» أولاً. ثم الجزء الخاص بالشمائل منفرداً[1]. وبالإضافة إلى ذلك فإن الإشارة إلى «كتاب الخصائص» في الأماكن التي وردت تخالف ترتيب ابن كثير نفسه، فإنه اعتبره آخر الكتب الأربعة كما مر آنفاً.

ونحن لا نوافق الأستاذ مصطفى عبد الواحد الذي نشر الشمائل منفرداً من السيرة من تاريخ ابن كثير على اعتباره (باب معجزات الرسول ﷺ مماثلة لمعجزات الأنبياء السابقين، وأعلى منها... إلخ) ككتاب الفضائل[2] الذي أشار إليه ابن كثير. فإن صلة هذا الباب بما جاء عند ابن كثير في الدلائل من المعجزات السماوية والأرضية والكائنات الماضية والمستقبلة أولى ـ في نظرنا ـ من غيرها.

وكان سبب ما ذهب إليه الأستاذ مصطفى ما جاء عند ابن كثير من تصريح في أول (باب المعجزات المماثلة لمعجزات الأنبياء السابقين) بأنه اطلع على مولد مختصر من سيرة ابن إسحاق لشيخه ابن الزملكاني (٦٦٦ ـ ٧٢٧) الذي ذكر في آخره فضائل الرسول عليه السلام، ولكنه في نظر ابن كثير لم يستوعب الكلام، فسأله بعض أصحابه تكميله فأجاب إلى ذلك[3]. وهذا صحيح. ولكن الذي جاء في هذا الباب ليس إلا إعادة وتكراراً في صورة مقارنات لما جاء قبله بدون مقارنة. إذاً فهو استمرار لكتاب الدلائل الذي وردت فيه هذه المعجزات.

---

(١) نشر الأستاذ مصطفى عبد الواحد بتحقيقه السيرة النبوية في أربعة مجلدات، والشمائل في مجلد من «البداية والنهاية» على اعتبارها السيرة النبوية المطولة من مؤلفات ابن كثير، وقد بحثنا هذا الموضوع عند كلامنا عن مؤلفات ابن كثير.

(٢) مصطفى عبد الواحد، في تقديمه لشمائل ابن كثير، مطبعة الحلبي بالقاهرة سنة ١٣٨٦ هـ/١٩٦٧ م.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ٦/٢٥٨.

والحقيقة أن كثيراً من الروايات التي تدل على خصائص الرسول عليه الصلاة والسلام وفضائله أوردها ابن كثير في كتاب الدلائل كشواهد لدلائل نبوة الرسول ﷺ، ولكنه لم يوفق في فرزها وترتيبها منفرداً مستقلاً في كتابين كما كان يريد.

ألحق ابن كثير هذا الفصل بالسيرة في تاريخه أول مرة، فإن العلماء قبله قد اهتموا بجمع الأحاديث في الشمائل والدلائل منذ فجر التدوين، ولكنها كانت منثورة في كتب الصحاح والمسانيد والسنن بين أبواب العبادات والمعاملات والأخلاق والآداب والزهد وغيرها، أو جمعت في أبواب مثل شمائل الرسول عليه الصلاة والسلام، أو معجزاته أو علامات النبوة، ثم جاء دور أفرد فيه العلماء والمحدثون هذه المواضيع بكتب مستقلة في دلائل النبوة مثل كتب «الدلائل» لأبي زرعة الرازي، وأبي نعيم الأصبهاني، والبيهقي، و«أعلام النبوة» للقاضي الماوردي وغير ذلك.

ولكن إلحاق هذا الفصل بالسيرة النبوية، وخاصة في التاريخ العام مثل كتاب «البداية والنهاية»، لم يسبق إليه ابن كثير في التاريخ العلمي للمسلمين، وسببه كما يبدو لنا هو حرص ابن كثير كعالم موسوعي على الجمع والاستقصاء لما له أدنى علاقة بالموضوع الذي يتطرقه. فإنه حينذاك ينسى موضوعه التاريخي، ويرسل نفسه في بيان الموضوعات الفرعية إرسالاً عجيباً. وخير شاهد على ذلك فصل الشمائل والدلائل الذي نحن بصدد البحث عنه، فقد ذكر ابن كثير في أول هذا الفصل شمائل الترمذي كمصدر من مصادره، ثم قال: «ونحن نورد ما أورده (الترمذي) فيه، ونزيد عليه أشياء مهمة، لا يستغني عنها المحدث والفقيه»[1]. فهو هنا لا يفكر إلا فيما تعود فائدته على المحدث والفقيه، لذلك نرى أنه يتطرق كثيراً إلى الأبحاث الفقهية في تاريخه[2]. ويرجع إلى مؤلفات في أصول

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٦/ ١١.

(٢) انظر للأبحاث الفقهية في تاريخ ابن كثير الموضوعات التالية على سبيل المثال: حكم اللائط عند الأئمة (١/ ١٨٢)، نسخ تأخير الصلاة في الجهاد بصلاة الخوف (٢/ ٢٥، ٤/ ٨٢، ١١٠)، إيراد صلاة الظهر (٣/ ٦٠)، عنق (٣/ ٢٩٦) حق رجوع الزوج إلى امرأته بدون نكاح جديد إذا أسلم بعدها (٣/ ٣٣٣) ولاية الابن لأمها (٤/ ٩١)، علامة البلوغ (٤/ ١٢٥)، وجوب الحج على المستطيع (٤/ ١٨٠)، مسائل =

الفقه وفروعه، ويأخذ منها ويحيل عليها[1]، مثل طريقته في الأبحاث التي تتعلق بالحديث وعلومه. مع أنه كان من الأولى به أن يفكر في منفعة هذه الفئات من العلماء في كتبه التي خصصها لهذين الموضوعين الجليلين.

المصادر

استقى ابن كثير مواد هذا القسم من تاريخه من كتب السير والمغازي والتاريخ، ومن مؤلفات في الدلائل والفتن والملاحم، كما توسَّع في الأخذ من دواوين المحدثين القديمة الشهيرة. وقد تكلمنا على كتب الحديث كمصدر ابن كثير في تاريخه، أثناء كلامنا على مصادر قسم المبتدأ وقصص الأنبياء من البداية والنهاية، والآن جاء دور الكلام على كتب السير والمغازي، ثم نتبعه بذكر كتب الدلائل وما إليها.

* * *

= الحج (٥/ ١١٠، ١٤٢، ١٥٨، ١٦٤ ـ ١٦٦) نكاح المتعة (٤/ ١٩٣ ـ ١٩٤، ٣١٨) نسخ اقتداء الإمام في صلاته جالساً (٥/ ٢٦٣) العمل بقبول القافة في اختلاط الأنساب (٥/ ٣١٢) مسح الخف (٦/ ٢٤) إلخ.

(١) انظر المؤلفات الفقهية التي وردت الإشارة إليها في تاريخ ابن كثير.
الرسالة للإمام الشافعي (١٥٠ ـ ٢٠٤) ٥/ ١٤٢.
كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام (١٥٧ ـ ٢٢٤) ٣/ ٣٤٥.
كتاب المناسك لأبي ذر عبد بن أحمد بن محمد الهروي المعروف بابن السماك (المتوفى سنة ٤٣٦) ٥/ ١٦٣.
المسائل لابن الصباغ (٤٠٠ ـ ٤٧٧) ٤/ ٢٢٠.
تعليقة في الخلاف لأبي حامد محمد بن يونس الفقيه (٥٣٥ ـ ٦٠٨) ـ ٤/ ٢٢٠.
فتاوى الحناطي، وفتاوى النواوي (٦٣١ ـ ٦٧٦) ٢/ ١٤٩، ٣/ ١١٢.

المطلب الأول

كتب السير والمغازي

تعتبر **سيرة ابن إسحاق** (المتوفى سنة ١٥١ هـ) من أعظم المصادر في تكوين الجزء الخاص بالسيرة النبوية من البداية والنهاية لابن كثير. يعاونه في ذلك ابن هشام والسهيلي وغيرهما من أصحاب السير والتاريخ والمغازي، وقد كان مؤرخاً معجباً بالسيرة المذكورة لابن إسحاق إلى حد أن جعلها في أكثر المواضع أصلاً في قسم السيرة من تاريخه، واعتبرها «علماً يهتدى به وفخراً يستحلى به، والناس كلهم عيال عليه في ذلك كما قال الشافعي»[١]. وقد أعاد هذا القول المنسوب إلى الإمام الشافعي بتكرار إشادته بابن إسحاق، واحتفائه برواياته وترجيحاته واختباراته[١].

ورد اسم ابن إسحاق في قسم المبتدأ من تاريخ ابن كثير نحواً من ستين موضعاً، ولكن ما أن بلغ المؤلف إلى أخبار العرب، ثم بعدها إلى السيرة النبوية الشريفة، حتى احتلت سيرة ابن إسحاق مقام الصدارة بين جميع مصادر ابن كثير في قسم السيرة، فإن أكثر فصول هذا القسم أخذها ابن كثير من سيرة ابن إسحاق، وقدم مروياته وسياقاته وفضلها على غيره[٢]، ثم زاد عليها بما رآه مناسباً وضرورياً من كتب الحديث والتاريخ وغيرهما. أما في الخلافة الراشدة فقد اضمحل ذكره، فلم يتجاوز من عدة مروياته وبعض أقواله، كما اقتصر ذكره

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٠/١٠٩، ٣/٩٥، ٤/٦٣، ١٤٩.

(٢) انظر فيما استحسن من سياق ابن إسحاق على موسى بن عقبة البداية ٣/٧٦ وعلى البيهقي ٣/١٥١.

في العصر الأموي على التراجم فقط، آخرها في ترجمة ابن شهاب الزهري سنة ١٢٤ هـ[١].

صرح ابن كثير في أماكن عديدة من تاريخه باسم السيرة النبوية لابن إسحاق[٢]، كمصدر من المصادر التي اعتمد عليها، كما أشار إلى مغازيه[١] في غزوات الرسول عليه الصلاة والسلام، مما يدل على أنه استفاد مباشرة من تلك السيرة التي قيل فيها أنها كانت تحوي أقساماً ثلاثة[٣]:

١ ـ المبتدأ، أي تاريخ الرسل والأنبياء منذ خليقة العالم.

٢ ـ المبعث، أي تاريخ حياة النبي ﷺ إلى هجرة المدينة.

٣ ـ المغازي، أي تاريخ حياة النبي عليه الصلاة والسلام من الهجرة إلى وفاته.

وقد اعتبر الدكتور جواد علي المبعث والمغازي قسماً واحداً، وعد كتاب تاريخ الخلفاء لابن إسحاق الجزء الثالث من سيرته[٤]. ومهما يكن الأمر فإن هذا الوصف يطابق ما جاء عند ابن كثير من مواد عن ابن إسحاق منذ أول الكتاب إلى تراجم عصر الدولة الأموية، وهذا يجعلنا نفكر في احتمال أخذ ابن كثير بدون واسطة من كتاب ابن إسحاق، فإن السيرة المأخوذة منه لابن هشام لا يحتوي على قسم المبتدأ، ولا على تاريخ الخلفاء.

ولكن الذي يجعل الباحث يشك في رجوع ابن كثير واستفادته من سيرة ابن إسحاق، هو ضياع سيرته وفقدانها. وعلى هذا يكون اعتماد ابن كثير فيما رواه عن ابن إسحاق على كتب أخرى احتوت على مقتبسات من سيرته، مثل سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري وغيرهما، فإن ابن هشام في السيرة التي نسبت

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٩/٣٤٣.

(٢) نفس المصدر ١/٣٦، ١٣٧، ٢/١١٣، ١٦٠، ٣/٢٠، ٢٨٢، ٤/٢١٢، ٦/٢٩٤، ٣/٢٤٢، ٤/٤٩، ٨٥، ١١٩.

(٣) ابن النديم، الفهرس ١٣٦، المطبعة الرحمانية بالقاهرة سنة ١٣٤٨ هـ.

(٤) مقالة عن موارد الطبري، مجلة المجمع العلمي العراقي ١/١ (سبتمبر سنة ١٩٥٠) ٢٠٦.

إليه جمع سيرة ابن إسحاق، وهذبها من جديد برواية زياد بن عبد الله البكائي[1] (المتوفى سنة ١٨٣ هـ). وأبعد منها قسم المبتدأ من آدم إلى إبراهيم، واقتصر من بعد إبراهيم على ما له علاقة بالنسب النبوي، كما حذف من الأخبار ما يسوء. ومن الشعر ما لم يثبت، وأضاف إليها ما فات ابن إسحاق.

أما ابن جرير الطبري فقد خَلَّد في تاريخه الجزء الكبير من سيرة ابن إسحاق، بما فيه قسم المبتدأ والسيرة وتاريخ الخلفاء، فإذا لم يثبت رجوع ابن كثير إلى كتاب ابن إسحاق تكون سيرة ابن هشام مصدره في مروياته في السيرة والمغازي، ويكون تاريخ الطبري مصدره فيما أورده عن ابن إسحاق في المبتدأ وتاريخ الخلافة الراشدة.

وقد وردت روايات زياد البكائي ويونس بن بكير في تاريخ ابن كثير لتكميل ما جاء عند ابن إسحاق والزيادة عليه، وأكثر رواياتهما وردت عن ابن إسحاق. فالبكائي تلميذ ابن إسحاق وراوي سيرته، ورد اسمه في «البداية والنهاية» ثلاث عشرة مرة، وذلك كله في السيرة النبوية[2] إلا مرة واحدة حيث ذكر رواية له في ترجمة سعد فيما حصلت له يوم القادسية من جروح، منعته من الاشتراك في القتال[2]. ولم يذكر له المترجمون كتاباً، كما لم يذكر ابن كثير مصدره في استقاء رواياته، مما يدل على أنه أخذها من مؤلفين آخرين، حفظوا رواياته في كتبهم.

أما يونس بن بكير (المتوفى سنة ١٩٩)، وهو مؤرخ حافظ من أهل الكوفة، كان أكثر حظاً من سابقه ورد اسمه أكثر من تسعين موضعاً في تاريخ ابن كثير، وأكثر رواياته أيضاً عن ابن إسحاق[3] منذ خبر دانيال[4] إلى نهاية السيرة. ثم

---

(١) ابن خلكان، الوفيات ٢/ ٨٦، مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ٤٨ ـ ١٩٤٩ م.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٢/ ٣٠٥، ٣/ ٥٠، ٦٣، ٧٤، ٧٦، ٧٧، ٧٩، ١٣٤، ٢٢٢، ٢٢٣، ٣٢٠، ٤/ ٢٩١، ٨/ ٧٦.

(٣) منها اثنتا عشرة رواية عن غير ابن إسحاق ٢/ ٢٩٤، ٣/ ٤٢، ١١٠، ١٣١، ١٣٣، ٢٨١، ٤/ ٩٨، ٥/ ١٨، ١٠٩، ٢٦١.

(٤) نفس المصدر ٢/ ٤٠، ٧/ ١٠٢، ٢٢٣، ٣٤٦، ٨/ ٣٠٢، ٩/ ٢٨٩.

وردت رواياته في بعض التراجم[٢] آخرها في ترجمة وهب ابن منبه سنة ١١٠ هـ[٢].

وهو صاحب المغازي عرفه الذهبي واليافعي هكذا[١]. وأشار ابن كثير أيضاً إلى مغازيه أثناء ذكر مروياته[٢]. كما سمى كتابه مرة بـ «زياداته على السيرة»[٤]، أي على سيرة ابن إسحاق، والظاهر أنه كان يقصد بذلك مغازيه. وهذا يدل على أن ابن كثير حصل على مروياته من مغازيه بدون واسطة.

ولكن الذي يجعلنا نشك في هذا، هو ما جاء عند ابن كثير في وفاة أبي طالب عم الرسول ﷺ، وعقابه بنعلين من نار على كفره «وفي مغازي يونس بن بكير يغلي منهما دماغه، حتى يسيل على قدميه. ذكره السهيلي»[٣]. وقد وجدنا هذه الرواية عند السهيلي[٤] مما يدل على اعتماد ابن كثير في ذلك عليه، ولكن لا يصح هذا القول بالنسبة لجميع رواياته، فإن أكثرها لم نجدها عند السهيلي.

وتحتل سيرة ابن هشام (المتوفى سنة ٢١٨)، و«الروض الأنف» للسهيلي، بعد ابن إسحاق مكانة هامة في تكوين السيرة عند ابن كثير. فإن ابن هشام إن لم يتردد اسمه كثيراً في قسم المبتدأ، إلا أنه أكثر عنه من أخبار العرب إلى نهاية السيرة.

ففي المبتدأ جاء ذكره في أربعة مواضع[٥]، وقد أشار إلى كتاب «التيجان» كمصدر[١]. ولكن يبدو لنا أن اعتماد ابن كثير في ذلك كان على كتاب «التعريف والإعلام» للسهيلي الذي كان من مصادر ابن كثير في قسم المتبدأ كما أسلفنا.

---

(١) الذهبي، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٩٩، واليافعي، مرآة الجنان ١/ ٤٦٠.

(٢) ابن كثير البداية والنهاية ٣/ ١٢٥، ٤/ ٣٣٢، ٦/ ٢٨٢، وجاء في نفس الصفحة اسم «زياداته على السنن»، وهو تصحيف.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ٣/ ١٢٥.

(٤) السهيلي، الروض الأنف ١/ ٢٥٨.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ٣٦، ١٥٢، ٢/ ١٠٥، ١٠٩، ١/ ١٥٢، ٢/ ٢١٨، ١/ ١٥٢، ٢/ ١٠٥، ١٠٩.

فقد صرح ابن كثير في ذكر دخول إبراهيم عليه السلام إلى مصر رواية عن ابن هشام من كتابه «التيجان»، ثم قال في آخرها: نقله السهيلي[1]، وكذلك نقل عن السهيلي ما جاء في اسم ذي القرنين عن ابن هشام[1]، ثم ذكر ما تشابه على الناس من أمر ذي القرنين والاسكندر الثاني، وقد جعلهما ابن هشام وغيره شخصاً واحداً. وهذا لم يكن صحيحاً عند ابن كثير، فهما عنده شخصان، وأشار هنا إلى مخالفة السهيلي الذي أنكر على ابن هشام «إنكاراً بليغاً، ورد قوله رداً شنيعاً، وفرق بينهما تفريقاً جيداً»[1]. وكل هذا يدل على أنَّ مصدر ابن كثير في روايات ابن هشام من كتابه «التيجان» كان كتاب «التعريف» للسهيلي.

أما سيرة ابن هشام، فقد كان مرجع ابن كثير في قسم السيرة، حيث أكثر من الأخذ بها، لتفصيل ما أجمل عند ابن إسحاق، وإيضاح ما أبهم عنده وإكمال ما فاته واستدرك عليه ابن هشام، وقد استحسن ابن كثير أكثر ملاحظات ابن هشام، كما اقتصد في ذكر نماذج من القصائد التي أنكرها ابن هشام على ابن إسحاق قائلاً: «وما منعنا من إيرادها بتمامها إلا أن الإمام عبد الملك بن هشام ـ وكان إماماً في اللغة ـ ذكر أن أكثر أهل العلم بالشعر ينكرها»[1]. ومع هذا التقدير خالف مؤرخنا رأي ابن هشام في نسبة قصيدة إلى أبي طالب، أعلن فيها عن دفاعه عن الرسول عليه الصلاة والسلام بحياته، ولم يصح نسبتها إليه عند ابن هشام[2]. ولكن ابن كثير يصر على نسبتها إليه كما ذكرها ابن إسحاق، ويثني عليه ثناءً جماً قائلاً: «هذه قصيدة عظيمة بليغة، لا يستطيع أن يقولها إلا من نُسبت إليه، وهي أفحل من المعلقات السبع، وأبلغ في تأدية المعنى فيها جميعاً»[3].

وقد أخذ ابن كثير على ابن هشام ـ وهو كثير المؤاخذات على ابن إسحاق ـ أخذ عليه ذكر قدوم أعشى بن قيس قبل الهجرة للإسلام، لما جاء فيه من ذكر

---

(١) نفسه ٣/ ٢٤٤.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٢٨٠، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة، سنة ١٣٧٥ هـ/ ١٩٥٥ م.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ٣/ ٥٧، ١/ ١٠٢ ـ ١٠٣، ٣/ ٢٢٧، ٢/ ١٨٣، ١٢/ ٣١٨.

تحريم الخمر، مما يدل على دقة نظره في تاريخ الأحداث، فقال ابن كثير: «فإن الخمر إنما حرمت بالمدينة بعد وقعة بني النضير فالظاهر أنَّ عزم الأعشى على القدوم للإسلام إنما كان بعد الهجرة، وفي شعره ما يدل على ذلك فكان الأنسب والأليق بابن هشام أن يؤخر ذكر هذه القصة إلى ما بعد الهجرة، ولا يوردها هنا»[1]. وكذلك شك ابن كثير في صحة ما جاء عند ابن هشام من ذكر المؤاخاة بين جعفر بن أبي طالب وبين معاذ بن جبل، لأن جعفر إنما قدم المدينة حين فتح خيبر في أوائل السنة السابعة الهجرية[1].

أما «**الروض الأنف**» لأبي القاسم السهيلي (٥٠٨ ـ ٥٨١)، فقد ألفه السهيلي شرحاً على سيرة ابن هشام، وكان ابن كثير معجباً بحسن ترتيبه ووضوح بيانه[1]، لما اشتمل عليه من النكات التي لم يسبق إليها، كما كان معترفاً بقوة قريحة مصنف هذا الكتاب، وجودة ذهنه، وحسن تصنيفه[1]. فلا عجب أن ينقل مؤرخنا منه في كتابه فوائد وزيادات واستدراكات وملاحظات أوردها السهيلي على ابن هشام، منذ أخبار العرب إلى نهاية السيرة، فقد حكى ابن كثير عنه في تسعين موضعاً من تاريخه، مع الإشارة إلى كتابه «الروض الأنف» في عدة مناسبات[1].

أما أقوال السهيلي ومروياته في التراجم فليست كثيرة، ويبدو أنها أخذت من مؤلفين آخرين نقلوا عنه تلك الأقوال، فقد نقل ابن كثير قول السهيلي عن حكاية ابن خلكان في وفاة ابن هشام سنة ٢١٣ هـ، مع أن الصحيح عند ابن كثير وفاته سنة ٢١٨ هـ[2].

وأخذ ابن كثير على السهيلي ـ على عادته في كل ما ينقل من مصادره ـ فلم يوافقه على موت النجاشي سنة تسع من الهجرة؛ لأنَّ الصحيح عنده وفاته سنة

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٢/١٨٣، ٢٩٧، ٣/٣٤١، ٥/٢٥٦، ٢٨١، ١٠/٢٦٧، ٢٨٢.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٢/١٨٣، ٢٩٧، ٣/٣٤١، ٥/٢٥٦، ٢٨١، ١٠/٢٦٧، ٢٨٢.

سبع بعد فتح خيبر[1]. وخطأه على حمل الآية الكريمة: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ . . ﴾ على مسجد قباء فإن المقصود عنده هو المسجد النبوي في المدينة[2]. ولم يعترف ابن كثير بصحة الحديث الذي جاء فيه سماع النبي ﷺ كلمات الأذان ليلة الإسراء في السماء على لسان ملك، لأنه تفرد به أبو الجارود، وهو من المتهمين، ولو صحَّ هذا لأمر النبي عليه الصلاة والسلام بالنداء بعد الإسراء فوراً[3]. ورد ما جاء عند السهيلي من ذكر اسم فرس جبريل بـ «حيزوم»[4]. واستبعد إباحة المتعة وتحريمها ثلاث مرات أو أربع كما رواه السهيلي[5]. كما خالفه في صلاة الفتح بأنها ثماني ركعات بتسليمة واحدة، وهي عند ابن كثير بتسليمة في كل ركعتين[6].

وبالإضافة إلى هذه المصادر احتوى تاريخ ابن كثير على روايات **أقدم من اشتغل بالسيرة والمغازي**. مثل عروة بن الزبير (٢٣ ـ ٩٤)، وابن شهاب الزهري (٥٨ ـ ١٢٤)، وموسى بن عقبة (المتوفى سنة ١٤١). وهم من أهل المدينة الذين يميلون إلى منهج أهل الحديث، وهؤلاء يعتبرون أول روَّاد فن السير والمغازي، وأنهم يكوِّنون حلقة اتصال بين أجيال ثلاثة في استمرار وتقدم هذا الفن، فقد كان الزهري تلميذ عروة، كما كان موسى بن عقبة تلميذ الزهري.

فإذا كان عروة بن الزبير «أول من صنف في المغازي»[7]، فإن ابن شهاب الزهري «أسس المدرسة التاريخية في المدينة»[8]، وقام بعمل عظيم في سيرته

---

(١) السهيلي، الروض الأنف ١/ ٢١٦، وانظر من البداية ٣/ ٧٨.

(٢) السهيلي، الروض الأنف ٢/ ١١، وانظر من البداية ٣/ ٢٠٩.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ٣/ ٢٣٣.

(٤) السهيلي، الروض الأنف ٢/ ٧١، وانظر من البداية ٣/ ٢٨١.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ٤/ ١٩٣.

(٦) السهيلي، الروض الأنف ٢/ ٢٧٣، وانظر من البداية والنهاية ٤/ ٣٠.

(٧) حاجي خليفة، كشف الظنون ٢/ ١٧٤٧ ونقل ابن كثير ذلك في ترجمته له عن الواقدي في تاريخه (٩/ ١٠١).

(٨) الدكتور عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ١٠١، المطبعة الكاثوليكية، بيروت سنة ١٩٦٠.

أو مغازيه كما يسميه البعض[1]. وقد كان لعمله أثر جليل في تطور فن المغازي والتاريخ، وذلك بمقابلة الأحاديث والأخبار المختلفة في حادثة واحدة، والتوفيق فيما بينها سعياً منه لإدماجها في سياق واحد[2]، وبذلك كان هو أول من أعطى السيرة هيكلاً محدداً، ورسم خطوطها بوضوح. أما موسى بن عقبة فهو في مغازيه قدم دراسات شيخه الزهري مع الاهتمام الخاص بذكر تواريخ الأحداث. ويظهر من ثناء كبار العلماء على مغازيه أنه كان كتاباً مهماً، رواه عنه حفيده إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة[3].

ومما يدل على اهتمام ابن كثير بهؤلاء الثلاثة الذين يكوّنون مدرسة تاريخية متصلة الحلقات، أنه اعتبر الزهري «أحد أعلام أئمة الإسلام»، وأطنب في ترجمته له[4]. كما رد حكاية إجماع الواقدي في قتلى المشركين يوم بدر وأسراهم، لمخالفة عروة وموسى لأنهما كانا «من أئمة هذا الشأن، فلا يمكن حكاية الاتفاق بدون قولهما، وإن كان قولهما مرجوحاً بالنسبة إلى الحديث الصحيح»[6]. ولكن من سوء حظ العلم أنَّ مؤلفات هؤلاء الأعلام ضاعت، فلم تصلنا منها إلا مقتطفات مبعثرة في كتب المؤرخين والمحدثين ومنها تاريخ ابن كثير «البداية والنهاية».

وردت روايات **عروة بن الزبير** وأقواله في نحو من أربعين موضعاً من «البداية والنهاية»، من بداية مولد الرسول ﷺ[5]، ثم غزواته مثل بدر والخندق وفتح مكة وحنين وتبوك[1]. وقد قيل إنه «امتد اهتمام عروة بالتاريخ إلى فترة الخلفاء

---

(١) أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني ١٩/٥٩، طبعة الساسي.

(٢) جواد علي مقالة عن موارد تاريخ الطبري، مجلة المجمع العلمي العراقي (١/١ إيلول سنة ١٩٥٠)/ ١٥٤.

(٣) طبقات ابن سعد ٣/٢١، دار صادر بيروت سنة ١٩٥٧ م.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ٩/ ٣٤٠ ـ ٣٤٨، ٣/٣٢٨، ٣/٣٠١، ٤/٩٣، ٣٢٢، ٣٤٥، ٥/٨، ٢١٦.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ٩/ ٣٤٠ ـ ٣٤٨، ٣/٣٢٨، ٣/٣٠١، ٤/٩٣، ٣٢٢، ٣٤٥، ٥/٨، ٢١٦.

الراشدين فتناول الردة ومعركة القادسية واليرموك»[1] ولكن ابن كثير لم يذكر رواياته في سرد هذه الأحداث إلا أنه ذكر أقواله ومروياته في بعض تراجم الخلافة الراشدة والدولة الأموية[2].

وصرح ابن كثير باسم مغازيه في ثلاثة مواضع كمصدر لرواياته[3]، مما يدل على أخذه منه مباشرة بدون واسطة، كما أنه يدل على أنَّ مغازي عروة كانت في أيدي العلماء، إلى القرن الثامن الهجري عصر ابن كثير.

أما **روايات ابن شهاب الزهري** وأقواله، فقد وردت في «البداية والنهاية» نحواً من مئة موضع، منها سبعة مواضع في قسم المبتدأ[4]، ونحواً من ستين موضعاً في قسم السيرة، ما بين أحداث تتعلق بحياة الرسول عليه الصلاة والسلام، وغزوات غزاها بنفسه، وسرايا أرسلها، والباقي في تاريخ الإسلام. إلا أن كثيراً مما جاء عنه في تاريخ الخلافة الراشدة والدولة الأموية، هو في تراجم أعيان الصحابة والتابعين، إلى جانب بعض الروايات تشير إلى الدهشة التي استولت على الصحابة بوفاة النبي عليه الصلاة والسلام. ثم ما جرى في سقيفة بني ساعدة من نزاع بين المهاجرين والأنصار على الخلافة، وما وقع في معركة صفين من كثرة القتلى[4].

---

(١) الدكتور عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ٢٢.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٧/ ٣٣، ٣٤، ٨/ ٥٨، ٩٢، ١٠٠.

(٣) نفس المصدر ٤/ ١٤١، ٥/ ٢٥٤، ٢٥٥، ١/ ١٥٩، ١٨٠، ٢٢٩، ٢٩٨، ٢/ ٨٠، ١٣٠، ١٧٠، ٥/ ٢٤٢، ٢٤٦ _ ٢٤٨، ٧/ ٢٧٤، ٢٧٧، ٢/ ٢٩٦، ٣٠٠، ١/ ٢٢٩، ٣/ ١٥٠، ١٨٥، ٤/ ٩٤، ١٦٤، ٢٨٥، ٥/ ٣، ٢٤٨، ٢/ ١٨٠، ٤/ ٢٨٧، ٣/ ١٣، ١٤٩، ٤/ ٩٣، ٢١٠، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٣/ ٣، ١٦٨، ١٨٣، ١٨٧، ٤/ ٢٨٥، ٢٨٨، ٣١٧، ٥/ ٣٤٨، ٤/ ١٣، ٢١٠، ٢٨٥، ٢٩١.

(٤) نفس المصدر ٤/ ١٤١، ٥/ ٢٥٤، ٢٥٥، ١/ ١٥٩، ١٨٠، ٢٢٩، ٢٩٨، ٢/ ٨٠، ١٣٠، ١٧٠، ٥/ ٢٤٢، ٢٤٦ _ ٢٤٨، ٧/ ٢٧٤، ٢٧٧، ٢/ ٢٩٦، ٣٠٠، ١/ ٢٢٩، ٣/ ١٥٠، ١٨٥، ٤/ ٩٤، ١٦٤، ٢٨٥، ٥/ ٣، ٢٤٨، ٢/ ١٨٠، ٤/ ٢٨٧، ٣/ ١٣، ١٤٩، ٤/ ٩٣، ٢١٠، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٣/ ٣، ١٦٨، ١٨٣، ١٨٧، ٤/ ٢٨٥، ٢٨٨، ٣١٧، ٥/ ٣٤٨، ٤/ ١٣، ٢١٠، ٢٨٥، ٢٩١.

ولم يشر ابن كثير إلى سير الزهري إلا مرتين، أولهما حكاية عن السهيلي[1]، وثانيهما رواية عن يعقوب بن سفيان[1]. أما باقي روايات الزهري وأقواله فقد وردت بدون ذكر كتابه. ومعنى هذا أنه اعتمد فيها على مؤرخين ومحدثين احتوت مؤلفاتهم مقتطفات من سير الزهري. وقد تبين لنا حين تتبعنا رواياته وأقواله في «البداية والنهاية»، أن بعضها أخذت عن طريق مؤلفين قدامى مثل ابن إسحاق[1]، وابن هشام[1]، وموسى بن عقبة[1]، والبخاري[1]، والبيهقي[1]، وغيرهم، وعلى هذا يبدو أن مصدر ابن كثير في الزهري كانت مجموعة كتب قديمة في الحديث والتاريخ والسير.

أما **موسى بن عقبة** فقد قيل إنه: «لم يكن بالمدينة أعلم بالمغازي منه»[1]. وروي عن مالك بن أنس: «عليكم بمغازي موسى بن عقبة، فإنه ثقة»[2]. وجاء في رواية أخرى: «عليكم بمغازي الرجل الصالح موسى بن عقبة، فإنها أصح المغازي» وإنه «رجل ثقة، طلبها على كبر السن، ولم يكثر كما أكثر غيره»[3]. وقد اعتبر حاجي خليفة مغازيه من «أصح المغازي»[4].

احتلت مغازي موسى بن عقبة في تاريخ ابن كثير مقاماً أكبر وذكراً أكثر، من المصدرين السابقين، فحين وردت روايات عروة والزهري مفرقةً مبعثرة في «البداية والنهاية» بدون خطة محددة، نجد أنَّ روايات موسى وردت بانتظام مع سياقات ابن إسحاق، لتكميلها ولتنبيه القارىء إلى ما بينهما من اختلاف أو زيادة أو نقصان، وذلك منذ أحداث الجاهلية إلى نهاية السيرة. ثم بعدها في تراجم الإعلام وردت أقوال موسى ورواياته، آخرها سنة ١٠٧ هـ. وقد قدم ابن كثير ذكر سياق موسى على سياق ابن إسحاق في بعض الفصول[5]. ثم وردت بعض

---

(١) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٣١٦/١٠، دائرة المعارف العثمانية حيدرآباد بالهند، سنة ٢٥ ـ ١٣٢٧ هـ.

(٢) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل، المجلد الرابع، القسم الأول ١٥٤، دائرة المعارف العثمانية حيدرآباد بالهند، سنة ٥٢ ـ ١٩٥٣ م.

(٣) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٣١٦/١٠.

(٤) حاجي خليفة. كشف الظنون ١٧٤٧/٢.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ٤٦/٤، ٤٨.

رواياته وأقواله في تراجم الإعلام إلى سنة ١٠٧ هـ، وبذلك حفظ ابن كثير ثروةً علمية تاريخية قيمة في تاريخه من الممكن جمعها في كتاب صغير.

ويبدو أنَّ حظ موسى بن عقبة كان خيراً من سابقيه، فحين أعفى الدهر على مؤلفات عروة والزهري، ظلت **مغازي موسى** متداولة قروناً كثيرة. فقد صرَّح الذهبي، أنه قرأ مغازي موسى بالمزّة على أبي نصر الفارسي[١]. والذهبي يعدُّ من شيوخ ابن كثير، فلا عجب أنه قرأها عليه، وأخذها عن طريقه، وعلى كل فإنَّ وجود الكتاب إلى عصر الذهبي يؤكِّد لنا اعتماد ابن كثير عليه مباشرة بدون واسطة. ولذلك أكثر مؤرخنا من الإشارة إليه بصراحة كاملة[٢] لا تدع مجالاً للشك في أنَّ مغازي موسى من المصادر الأولية لابن كثير في الجزء الخاص بالسيرة من «البداية والنهاية».

وهنا يذكر **أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي** (١٣٠ ـ ٢٠٧) العالم «بالمغازي والسيرة والفتوح واختلاف الناس في الحديث والأحكام»[٣]. وهو من الروّاد الأول الذين أرسوا دعائم فن الطبقات. وقد أنكر عليه النقاد المحدثون وضعفوه في الحديث. ولكن المؤرخين يوثقونه في التاريخ ويعتمدون عليه، لامتيازه على من سَبَقه في تحديد تواريخ الأحداث والمغازي وضبطها، وتعيين أسماء الأماكن والأشخاص. فقد أشار إلى ذلك ابن كثير في أول السرايا قائلاً: «والواقدي رحمه الله عنده زيادات حسنة، وتاريخ محرر غالباً، فإنه من أئمة هذا الشأن الكبار، وهو صدوق في نفسه مكثار، كما بسطنا القول في عدالته وجرحه في كتابنا «التكميل»»[٤].

اعتمد ابن كثير عليه في جزء كبير من تاريخه، فقد أورد بعض رواياته في

---

(١) الذهبي، تذكرة الحفاظ ١/ ١٤٠.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٣/ ٤، ١٨٣، ١٩٦، ٢٥٠، ٣٠٥، ٤/ ٢٠، ٣٢، ٦٦، ٧٢، ٩٩، ١١٨، ١٤٠، ١٤١، ٢١٧، ٢٤٧، ٢٦٧، ٣٣٠، ٣٧٣، ٥/ ٢٥٥، ٣٠٢.

(٣) ابن سعد، طبقاته ٥/ ٣١٤.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ٣/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥، ٢/ ١٩١، ٢٤٠، ٢٤١، ٦/ ٣٢٦، ٣٤٢، ٣٥٤.

حوادث الجاهلية[1]. ثم أكثر عنه في السيرة خاصة في المغازي حيث نقل مروياته في الحوادث والغزوات، وأقواله في تحديد تواريخها، أثناء سياقات ابن إسحاق، وكذلك يأتي ذكره في وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، وبيان أزواجه وأولاده وعبيده وإمائه وخدَّامه وكُتَّابه وشمائله ودلائل نبوته.

ثم يضمحل ذكره في تاريخ خلافة أبي بكر، وأخبار الردة، فلم يتجاوز من أربعة مواضع[1]، مع أنَّ الواقدي ألَّف كتباً في بيعة أبي بكر في السقيفة، وسيرته ووفاته وفي أخبار الردة[1]. ولكن كان اعتماد ابن كثير في ذلك على مرويات سيف بن عمر اتباعاً للطبري كما سيأتي. أما في أيام عمر وعثمان وعليّ فقد عاد اهتمام ابن كثير بالواقدي، فأورد رواياته مع مرويات سيف، وخاصة في تألُّب الأحزاب على عثمان ثم مقتله[2].

أما في الدولتين الأموية والعباسية، فأكثر ذكر الواقدي يقتصر على ذكر من حج بالناس، وتعيين من غزا في الصيف والشتاء والبر والبحر، وفي ذكر تولية العمال وعزلهم في شتى البلاد الإسلامية، وأخبار الأوبئة، إلى جانب مروياته في بعض التراجم والحوادث والحروب والفتن، مثل ما جاء عنده في هدم الكعبة وبنائها أيام عبد الله بن الزبير سنة أربع وستين هجرية[3]. وفي حروب بلاد المشرق سنة ٦٤ ـ ٦٥ هـ طلباً لثأر الحسين[3]، وفي فتنة ابن الزبير[1]، ووقعة دير الجماجم[4]، وخطبة الوليد بن عبد الملك عند بيعته بالخلافة سنة ٨٦ هـ[2] وخطبة خالد بن عبد الله القسري عند ولايته إمرة مكة سنة ٨٩ هـ. وهنا نبَّه ابن كثير على غرابة إسناد الواقدي؛ لما تتضمن من كلمات الكفر إنْ صحَّ عن قائله. وهذا غير صحيح عن خالد[2]. كما أخذ ابن كثير على الواقدي

(١) ابن النديم، الفهرس ١٤٤.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٧/١٦٧ ـ ١٦٩، ١٧٢ ـ ١٧٣، ١٧٥ ـ ١٧٧، ١٨٩، ١٩١، ١٩٢، ٢١٤، ٢١٦، ٨/٢٥١، ٢٤٦، ٣٥١، ٣٢٩.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ٧/١٦٧ ـ ١٦٩، ١٧٢ ـ ١٧٣، ١٧٥ ـ ١٧٧، ١٨٩، ١٩١، ١٩٢، ٢١٤، ٢١٦، ٨/٢٥١، ٢٤٦، ٣٥١، ٣٢٩.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ٩/٤٠، ٤٨، ٧٠، ٧٦ ـ ٧٧، ١٦٥، ١٧٤ ـ ١٧٥، ٢٣٣، ١٠/٩١، ١٧٤، ٤/١٩.

قوله في ترجمة الوليد بن عبد الملك، بأنه كان جباراً. . . إلخ والمقصود بهذا الكلام عند ابن كثير الوليد بن يزيد الفاسق[٢]. كما ذكر روايته في غزو القسطنطينية عصر سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨ هـ، وأيام هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥ هـ[٢]، ونقل عنه خبر خروج إبراهيم بن عبد الله بن حسن سنة ١٤٥ هـ[٢] وآخر مرة ورد ذكره عند ابن كثير في ترجمة الإمام مالك بن أنس سنة ١٧٩ هـ في تحديد سنه عند الوفاة ومكان دفنه[٢].

لم يفصح ابن كثير ـ على خلافِ عادته ـ عن مصدره في ذكر روايات الواقدي إلا مرةً واحدة أشار إلى كتاب الردة[٢]، حين الكلام يوم أحد على وحشي قاتل الحمزة، وهو الذي قتل بعد ذلك مسيلمة الكذاب أيام أبي بكر. والظاهر أنَّ هذا الكتاب إن ثبت رجوع ابن كثير إليه، لا يمكن أن يكون مصدره في جميع روايات الواقدي التي وردت في «البداية والنهاية». أما غيره من مؤلفات الواقدي مثل «المغازي» و«التاريخ الكبير»[١]، فلم يصرح ابن كثير باسمهما، ولم يُحل على غيرهما في تاريخه، مما يدل على أنه أخذ ما أخذ عن الواقدي من مصادر أخرى احتوت على رواياته وأقواله، وقد تبيَّن لنا ذلك بعد مقارنة ما جاء عند ابن كثير عن الواقدي، وما جاء عنه في المغازي المطبوع، وما نقله الطبري عنه في تاريخه.

فإنَّ كتاب المغازي للواقدي الذي نشره الدكتور مارسدن جونس في ثلاث مجلدات[٢]، يبدأ من أول السرايا بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، وينتهي بغزوة أسامة بن زيد التي نفذت مرتين في أواخر أيام حياة النبي ﷺ، ثم بعد وفاته أيام أبي بكر. لم نجد فيه أكثر روايات الواقدي التي وردت في «البداية والنهاية» في مغازي الرسول عليه الصلاة والسلام. كما أنَّ الروايات التي عثرنا عليها وجدنا فيها فروقاً ظاهرة عما جاء في «البداية والنهاية»، ووجدنا روايات الطبري عن الواقدي مطابقة لما جاء عند ابن كثير،

---

(١) انظر لمؤلفاته، فهرست لابن النديم ١٤٤، ودائرة المعارف الإسلامية ٤/٤٨٧، (الترجمة العربية).

(٢) نشر من مطبعة جامعة اكسفورد سنة ١٩٦٦ م.

مما يدل على اعتماد ابن كثير على الطبري في ذلك. فإنَّ سرايا حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن أبي الحارث، فيهما ذكر لواء أبيض عقده الرسول عليه الصلاة والسلام لهما، ولا يوجد في المغازي المطبوع، وإنما جاء ذكره عند الطبري(١). وكذلك جاء في غزوة بواط عند ابن كثير أن الرسول ﷺ كان في مئتي راكب، وأن لواءه كان مع سعد بن أبي وقاص، لم نجد في المغازي المذكور، وجاء ذلك في الطبري(٢). وهكذا في غزوة الأبواء جاء أن لواء الرسول عليه الصلاة والسلام كان مع عمه حمزة، ولم يرد ذلك في مغازي الواقدي، وإنما ذكره الطبري(٣).

وإضافة إلى ذلك فقد أورد ابن كثير بعض روايات الواقدي عن ابن جرير(٤)، وصرح في أماكنٍ أخرى بعبارات آتية: «ذكره ابن جرير من طريق الواقدي»(٥). أو «ساق ابن جرير تبعاً للواقدي»(٥). أو «قال ابن جرير فيما حكاه عن الواقدي»(٥). وهذا كله يؤيد ما ذهبنا إليه من اعتماد ابن كثير على الطبري في روايات الواقدي. وخاصة منذ تاريخ الخلافة الراشدة إلى أوائل العصر العباسي، في تحديد تاريخ الحوادث والحروب وعزل الولاة وتعيينهم، وأمراء الحج، وفي أخبار الغزوات السنوية صيفاً وشتاءً وبراً وبحراً، وفي أخبار الأوبئة، وما إلى ذلك كما اتَّضَحَ لنا من مقارنة بين تاريخي الطبري وابن كثير.

أما قبل تاريخ الخلافة الراشدة، في الجزء الخاص بالسيرة، فقد كان أكثر اعتماده في روايات الواقدي على «دلائل النبوة» للبيهقي، فقد صرَّح في كثير من الأماكن بعد إيراد روايات الواقدي «رواه البيهقي»(٥)، وقال في فصل السرايا

(١) تاريخ ابن كثير، ٣/ ٢٣٤، مغازي الواقدي ١/ ٢، ٩ ـ ١١، تاريخ الطبري ٢/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

(٢) تاريخ ابن كثير ٣/ ٢٤٦، مغازي الواقدي ١/ ٢، ١٢ تاريخ الطبري ٢/ ٤٠٧.

(٣) تاريخ ابن كثير ٣/ ٢٤٣، مغازي الواقدي ١/ ٢، ١١ ـ ١٢، تاريخ الطبري ٢/ ٤٠٧.

(٤) ابن كثير البداية والنهاية ٣/ ٢٣١، ٢٣٤، ٤/ ٢٧٠، ٧/ ١١٢، ٨/ ٤٥، ٧/ ١٥٣، ٩/ ٣٢٧، ٧/ ١١٣، ٨/ ٣١٧، ٣/ ٢٩، ٢٨٩، ٤/ ٦١ ـ ٦٢، ٨٠ ـ ٨١، ٢٤١، ٢٤٤، ٤/ ١٧٨، ٢٢٠ ـ ٢٢٣، ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٤١.

(٥) ابن كثير البداية والنهاية ٣/ ٢٣١، ٢٣٤، ٤/ ٢٧٠، ٧/ ١١٢، ٨/ ٤٥، ٧/ ١٥٣، =

والبعوث «وتلخيص ذلك ما أورده البيهقي عن الواقدي»[1]. كما نقل ابن كثير ما أورده البيهقي عن الواقدي في باب جماع أبواب السرايا من دلائله[1]. وكذلك نجد روايات الواقدي عن طريق البيهقي في تاريخ ابن كثير في آخر عمرة القضاء[1]، وفي سرية ابن أبي العوجاء[1]، وفي أول إسلام عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وعثمان بن أبي طلحة[1]. وكل هذا يقوي ما ذهبنا إليه من اعتماد ابن كثير على البيهقي في روايات الواقدي في الجزء الخاص بالسيرة من «البداية والنهاية».

وإلى جانب المصدرين المذكورين أشار ابن كثير إلى مغازي ابن عائذ الدمشقي أيضاً كمصدره في أقوال الواقدي فيمن شهد بدراً[1].

وهو **محمد بن عائذ** بن أحمد القرشي الدمشقي (١٥٠ ـ ٢٣٣) «صاحب المغازي»[2]، الكاتب من حفاظ الحديث. وقد جاء ذكر مغازيه عدة مرات عند ابن كثير في ذكر أسماء أهل بدر شهدوا المعركة[3]، منها مرة صرح باسم مغازيه[1].

وقد كان أصل ابن كثير في جمع هذه الأسماء[1] كتاب «الأحكام الكبير» للحافظ ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي (٥٦٩ ـ ٦٤٣)، وقد استدرك عليه ابن كثير، وزاد مما جاء في كتب الحديث والتاريخ والسير والمغازي، ومنها مغازي ابن عائذ المذكور.

ورد اسم ابن عائذ في ذكر أولاد الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم نقل عنه

= ٣٢٧/٩، ١١٣/٧، ٣١٧/٨، ٢٩/٣، ٢٨٩، ٦١/٤ ـ ٦٢، ٨٠ ـ ٨١، ٢٤١، ٢٤٤، ١٧٨/٤، ٢٢٠ ـ ٢٢٣، ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٤١.

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٣/ ٣١٧.

(٢) نفس المصدر ١٠/ ٣١٢، وانظر كذلك شذرات الذهب لابن العماد ٢/ ٧٨، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٩/ ٢٤١، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٢/ ٢٦٥، ودائرة المعارف للبستاني ٣/ ٣٢٩.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ٣/ ٣١٥، ٣١٩، ٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٥، ٣١٧، ٣١٤ ـ ٣٢٨، ٣٠٧/٥، ٥/٧، ٢٤، ٥٧، ٦١، ١٨١، ١٩٢، ١٩٤، ٣٦٧، ١٤٨/٩، ٣٣١ ـ ٣٣٣، ٧٦/٨، ١٢٤.

بعض رواياته في غزوة اليرموك عصر أبي بكر، وفتح دمشق وبصرى وبيت المقدس عصر عمر الفاروق، وفي فتنة عثمان. أما في عصر الدولة الأموية، فقد وردت عنه رواية في بناء جامع دمشق، ثم اقتصرت رواياته في تاريخ ابن كثير في تراجم سعد بن أبي وقاص ومعاوية وأبي يحيى عبد الله البطال الذي نقل ترجمته كاملة عن ابن عائذ[١]. وكانت أكثر رواياته عن الوليد بن مسلم الدمشقي من مشاهير محدثي الشام.

أما ابن سعد (١٦٨ ـ ٢٣٠) الذي اشتهر بكتابه «الطبقات» التي اعتمد عليها ابن كثير خاصة في تراجم الصحابة والتابعين فهو كاتب الواقدي وتلميذه، قيل فيه: إنه ألف كتبه من مؤلفات أستاذه الواقدي. وكان ثقةً مستوراً عالماً بأخبار الصحابة والتابعين، نسب إليه ابن النديم كتاب أخبار النبي[١] عليه الصلاة والسلام. ولا يبعد أن يكون هذا الكتاب هو نفس السيرة التي نجدها في أول كتاب «الطبقات» لابن سعد كما ذهب إليه المستشرق متفوخ (E. MITTWOCH)[٢].

وردت في «البداية والنهاية» عن ابن سعد رواية باختصار في ترتيب الأنبياء، وهو مبسوط في الطبقات، وكان في ترتيبه عند ابن كثير نظر[٣]. ثم رواية في قصة داود فيها اعتراض اليهود على النبي عليه الصلاة والسلام على كثرة نسائه. وردَّ ابن كثير عليهم بما جاء في نساء داود وسليمان[٤]. وبعد ذلك روايتان في أحداث الجاهلية في زيد بن عمرو بن نفيل ووفاته[٢]، ثم بعض روايات في نسب الرسول عليه الصلاة والسلام، ومولده، وخروجه إلى الشام، وصرف

---

(١) ابن النديم، الفهرس ١٤٥.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٩٠، الترجمة العربية) طبع بالقاهرة، سنة ١٩٣٣ م، أما السيرة المذكورة فانظر المجلدين الأوّلين من الطبقات الكبرى لابن سعد، طبعة دار صادر، بيروت، سنة ١٩٥٧ م.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ٣٣٧، انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٥٤ ـ ٥٥.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ٢/ ١٥، ٢٥٦، ٢٦٣، ٢٦٤، ٣/ ٢٥٢، ٣١٥، ٣١٦، ٤/ ٣٠٤، ٥/ ٣٤٧، ٢٥٥، ٢٦٧ ـ ٢٦٩، ١٠/ ١٣٤، ٥/ ٣٢٢، ٣٢٣، ٧/ ١١٨، ٨/ ٥٠، ٥٣، ٢٥٧.

القبلة ومن شهد بدراً من الصحابة، وفتح مكة، وتسمية رجل بايع الصديق قبل عمر، ثم أخباره في وفاة الرسول ﷺ، ومدة قيامه في المدينة[٢].

ولكن دور ابن سعد الحقيقي يلاحظ في تراجم الصحابة والتابعين، حيث أكثر مؤرخنا من نقل رواياته في تراجمهم، وأقواله في تواريخ وأماكن وفاتهم. وهذا يبدأ من الفصل الطويل الذي جمعه ابن كثير في أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام، وأولاده وعبيده وخدامه وكتابه، وينتهي إلى تراجم أوائل العصر العباسي. وآخر رواية وردت عنه عند ابن كثير في ترجمة سفيان الثوري، في تحديد تاريخ ومكان وفاته بالبصرة سنة ١٦١ هـ، وعمره يوم مات كان أربعاً وستين سنة[٢].

يبدو أنَّ ابن كثير رجع إلى طبقات ابن سعد، واستفاد منها مباشرة، كما صرح بذلك في عدة أماكن[٢]، إلا أننا نجد بعض رواياته أخذت عن طرق الطبري، كما صرَّح بذلك في تحديد تاريخ القِبْلة يوم الثلاثاء، النصف من شعبان سنة اثنتين من الهجرة، وكان في هذا التحديد عند ابن كثير نظر[١]، وكذلك ما جاء عند ابن سعد وأبي معشر في مسيرة معاوية سنة تسع وثلاثين من الهجرة في جيش كثيف إلى دجلة[٢]. وإن لم يصرح ابن كثير هنا بأخذه عن الطبري، ولكن سياق الحوادث التي نقلها من الطبري يدل على ذلك، فقد ذكره الطبري برواية ابن سعد عن الواقدي، وبروايته عن أبي معشر مثله[١]. ولكن هناك كثير من الروايات عن ابن سعد وردت في «البداية والنهاية»، ولم يذكرها الطبري مثل خروج الحسين من مكة إلى العراق سنة ستين هجرية، ثم مقتله، فإنه استحسن هنا سياق ابن سعد، وأورده كاملاً إلى جانب روايات أخرى عنه في هذه الحادثة المؤلمة، وفي فضائل الحسين[٣]. وكل ذلك لم يرد في تاريخ الطبري، مما يدل على ما ذهبنا إليه من رجوع ابن كثير إلى طبقات ابن سعد، أو

(١) تاريخ ابن كثير، ٣/ ٢٥٢، وانظر تاريخ الطبري ٢/ ٤١٦، دار المعارف بالقاهرة، سنة ٦٠ ـ ١٩٦٨ م.
(٢) تاريخ ابن كثير، ٧/ ٣٢٠، وانظر تاريخ الطبري ٥/ ١٣٦.
(٣) ابن كثير «البداية والنهاية» ٨/ ١٦١ ـ ١٦٥، ١٦٩، ٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٧.

أنه اعتمد في ذلك على المؤرخين الذين حفظوا رواياته في مؤلفاتهم.

وأخيراً نشير إلى **مغازي سعيد بن يحيى الأموي** (المتوفى سنة ٢٤٩) الذي حدث عن أبيه، وعمه سعيد[١]. أما أبوه يحيى بن سعيد بن العاص الأموي (المتوفى سنة ١٩٤) فقد كان من خاصة أصحاب ابن إسحاق «حمل المغازي عنه، واعتنى بها وزاد فيها»[٢]، كما روى عنه كتاب «الخلفاء»[٣]. وبذلك توفر لسعيد بن يحيى مواد كثيرة ألف بها مغازيه التي رآها ابن كثير، كما صرَّح في ذكر حديث غريب أوردها عن أبي سليمان الجوزجاني، جاء فيه: «أنَّ رسول الله ﷺ داوى وجهه يوم أحد بعظم بال» ثم قال: «هذا حديث غريب، رأيته في أثناء كتاب المغازي للأموي في وقعة أحد»[٤]. وبعد ذلك تردد اسم مغازيه كثيراً في «البداية والنهاية» حين ذكر مروياته[٦]، وسماها مرة بالسيرة[٦]، ونقل ابن كثير عن الأموي روايات وأخباراً وأشعاراً وأقوالاً لم يجدها عند ابن إسحاق في السيرة.

كان اعتماد ابن كثير على مغازي الأموي في السيرة النبوية أصلاً، وخاصة في غزوة بدر، حيث أكثر من الأخذ به جداً، إلا أنه ذكر عنه في أول التاريخ في فصل خلق الملائكة رواية من أوائل كتاب المغازي للأموي[٥]، وكذلك أورد رواياته في قصة إسماعيل[١]، مما يدل على أنَّ مغازي الأموي لم تكن في السيرة النبوية فقط، وإنما كانت مثل الكتب المعروفة في التاريخ، تبحث في المبتدأ

---

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ٩/ ٩٠، وانظر أيضاً «تذكرة الحفاظ» للذهبي ١/ ٢٩٨، و«ميزان الاعتدال» للذهبي ٣/ ٢٣٠، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٤/ ٧٩.

(٢) ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ١/ ٣٤١.

(٣) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب ٦/ ٤٠١.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ٤/ ٣٠، ١/ ٤٢، ٢/ ١٩، ٢/ ٢٤٧، ٢٤٨، ٣/ ٣٧، ١٣٧، ١٨٦، ٤/ ٢٦، ٨/ ٢٦، ٢٩٠، ٢٩٢، ٣٣٩، ٣٤٣، ٤/ ٢٨، ٣٠، ٧/ ٢٣، ٣/ ٣١٥، ١/ ٤٢، ٢/ ١٩٢، ٧/ ٢٢، ٢٣.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ٤/ ٣٠، ١/ ٤٢، ٢/ ١٩، ٢/ ٢٤٧، ٢٤٨، ٣/ ٣٧، ١٣٧، ١٨٦، ٤/ ٢٦، ٨/ ٢٦، ٢٩٠، ٢٩٢، ٣٣٩، ٣٤٣، ٤/ ٢٨، ٣٠، ٧/ ٢٣، ٣/ ٣١٥، ١/ ٤٢، ٢/ ١٩٢، ٧/ ٢٢، ٢٣.

والمبعث والمغازي، ولا تقف عند انتهاء السيرة، بل تستمر إلى ما بعدها. فقد وردت أقوال الأموي في فتح دمشق سنة أربع عشرة، وفي وقعة اليرموك سنة خمس عشرة في خلافة عمر بن الخطاب[1].

* * *

المطلب الثاني

كتب الدلائل

رجع ابن كثير إلى كتب ألفت في «دلائل النبوة» ليس في الجزء الخاص بالدلائل الذي ألحقه في نهاية السيرة، وإنما أيضاً في قصص الأنبياء وسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام. ولكنه أكثر من الأخذ بها والاعتماد عليها في الفصل الخاص بالدلائل، كما استفاد في هذا الفصل أيضاً من كتب أخرى أُلِّفَت في الفتن والملاحم. فمن المؤلفين في دلائل النبوة:

أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤ ـ ٤٥٨)، وهو من أئمة الفقهاء والمحدثين، صاحب مؤلفات كثيرة، أشار ابن كثير منها إلى عدة كتب رجع إليها في تاريخه، وهي: «السنن»[١]، و«الأسماء والصفات»[١]، و«مناقب الإمام أحمد»[١]، و«الخلافيات»[١]، و«البعث والنشور»[١].

أما «دلائل النبوة» للبيهقي. فكان أكبر اعتماد ابن كثير عليها وليس في الجزء الخاص بالدلائل فقط، وإنما أكثر من الاستفادة بها أيضاً في أحداث الجاهلية والسيرة، وخاصة قسم المغازي منها، كما اعتمد عليه في نقل روايات الواقدي. وقد وجدنا دور «دلائل النبوة» للبيهقي في تكوين تاريخ ابن كثير، مماثلاً لدور مسند الإمام أحمد وصحيحي البخاري ومسلم في السيرة وما بعدها. أما قبل السيرة في المبتدأ وقصص الأنبياء فلم نجد ذكر البيهقي فيهما إلا قليلاً.

ومما يدل على بالغ اهتمام ابن كثير بهذا الكتاب، أنه اتبعه في ترتيب كثير

(١) نفس المصدر ٥/١١٢، ١٥٨، ١٦٣، ٢/٢٥٢، ١٠/٣٢٦، ٥/١٣٩، ٨٣.

من أبواب تاريخه[1]، وجعله مصدراً في نقل أقوال المؤرخين والمحدثين القدامى مثل الواقدي، ويعقوب بن سفيان وغيرهما. ومع ذلك نقده وخالفه وعارضه على عادته في البحث والتحقيق والتدقيق، فلم ينقل ابن كثير ما جاء عند البيهقي في حكاية ذي القرنين لسقوطه عنده[2]. وخالفه في ذكر تجديد بناء الكعبة قبل تزويج الرسول عليه الصلاة والسلام بخديجة. لأنَّ زواجه بها كان قبل عشر سنين من تجديد الكعبة. كما لم ينقل ابن كثير هنا ما جاء عند البيهقي من إسرائيليات في بناء الكعبة في زمن آدم، لعدم صحتها عنده، لأنَّ ظاهر القرآن يقتضي أنَّ أول من بناه إبراهيم، فردَّ ما جاء عند البيهقي من وجود بيت الله الحرام قبل خلق الأرض بألفي سنة لغرابته، واعتبره من الزاملتين اللتين أصابهما عبد الله بن عمر يوم اليرموك، وكانت فيهما إسرائيليات ومنكرات وغرائب، ويحمل ما جاء عن ابن عمر من حج الأنبياء قبل إبراهيم على أنه الحج إلى محل الكعبة، وإن لم يكن هناك ثم بنائه[1].

وكذلك فضَّل في إسلام سلمان الفارسي سياق ابن إسحاق على البيهقي، لأنه «أقوى إسناداً وأحسن اقتصاصاً، وأقرب إلى ما رواه البخاري»[1]. وخالفه في كون سورة الفاتحة أول ما نزل من القرآن[1]، كما كان في صحة الأشعار التي رواها البيهقي على لسان ورقة بن نوفل عند ابن كثير نظر[1]، وخالفه في استحباب دخول المسجد الحرام من باب بني شيبة[1]. وعارضه في معنى حديث: «منعت العراق درهمها وقفيزها...» إلخ من أنهم يسلمون، فيسقط عنهم الخراج، بل الظاهر عند ابن كثير أنهم يرجعون عن الطاعة، ولا يؤدون الخراج المضروب عليهم[1]. ولا يوافق على ما ذهب إليه البيهقي من أنَّ المقصود في الحديث بالخلفاء الاثني عشر، هم المتتابعون إلى زمن الوليد بن يزيد بن عبد الملك، لأنَّ عدتهم إليه أكثر من ذلك. ومسلك ابن كثير عدم

---

(١) انظر الأبواب الواردة في الصفحات التالية من البداية والنهاية تجد فيها تصريحات ابن كثير في اتباعه البيهقي، أو تجد في أولها أقوال البيهقي ٢/ ٢٩٥، ٣/ ٣٤، ٣٦، ٨٣، ١٠٧، ١٠٨، ٢١٣، ٣٠٧، ٤/ ٨١، ١٤٣، ١٤٩، ١٧٨ إلخ.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٢/ ١٠٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣١٦، ٣/ ١٠، ١١، ٥/ ١٥٢، ٦/ ١٩٦، ٢٤٨ ـ ٢٥٠.

التتابع فيهم، فهم مفرقون في الأمة، والثابت عنده من هؤلاء الخلفاء، الخلفاء الراشدون الأربعة، وعمر بن عبد العزيز بلا خلاف[1].

وقد كان البيهقي مصدر ابن كثير في روايات يعقوب بن سفيان الفسوي (المتوفى سنة ٢٧٧) كما ذكرنا من قبل. وهو من كبار حفاظ الحديث من أهل فسا بإيران، وهو صاحب «التاريخ الكبير»، و«المشيخة»[1]، والتاريخ الكبير اسمه «المعرفة والتاريخ» كما أشار إليه ابن كثير[2]، ولعله في التراجم على حروف المعجم، كما جاء عند السخاوي[3]. وقد اتهم يعقوب بالتشيع، لأنه كان يتكلم في عثمان، ولكن هذا لا يصح عنه عند الذهبي وابن كثير[4].

وقد أشار ابن كثير إلى تاريخه كمصدر له في «البداية والنهاية» في أول ذكر له، حين أورد عنه خبراً غريباً في رفع عيسى عليه السلام، جاء فيه أنَّ الرسول ﷺ أخبر فاطمة بوفاته على رأس الستين من عمره، أي نصف عمر عيسى، لأنَّ الأنبياء يعيشون نصف عمر النبي الذي سبقهم[5]. وعلى هذا يمكن أن يكون هذا التاريخ مصدره فيما جاء عنه في «البداية والنهاية» في الخلافة الراشدة من روايات في بعض المعارك والفتوح والأحداث الإسلامية الهامة، مثل إرسال أبي عبيدة إلى الشام أيام عمر، وقد صححه ابن كثير بأنَّ هذا كان في أواخر أيام أبي بكر[5]. أو قوله في فتح الجابية وبيت المقدس سنة ست عشرة[5]. أو بعض روايات في خروج الخوارج[5]، وقتل أهل عذراء حجراً وأصحابه أيام معاوية[5]. وروايته في تكميل بناء بغداد سنة ١٤٦ هـ[5]. كما أنَّ

---

(١) الذهبي، تذكرة الحفاظ ٢/ ١٤٥، تهذيب التهذيب لابن حجر ١١/ ٣٨٥. وقد طبع بتحقيق أكرم ضياء العمري.

(٢) ابن كثير ١١/ ٥٩.

(٣) السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ٦٨٥، ٦٩٨، مطبعة العاني، بغداد، سنة ١٣٨٢ هـ/ ١٩٦٣ م.

(٤) الذهبي، تذكرة الحفاظ ٢/ ١٤٦، تاريخ ابن كثير ١١/ ٦٠.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ٢/ ٩٥، ٧/ ٢٣ ـ ٢٤، ٥٧، ٢٨١، ٢٩٧، ٨/ ٥٥، ١٠/ ٩٩، ٧/ ١٨١، ١٩٤، ٢٠٤، ٣٥٥، ٨/ ٤٤، ١١٤ إلخ ١٠/ ١٢٠، ٢/ ٣٢٧، ٦/ ٢٤٧، ٣/ ١٦٢، ٦/ ٢١٧، ٢٤٥، ١٢.

كتاب «المعرفة» يمكن أن يكون مصدره فيما جاء في فضائل عثمان وعلي وفي تراجم العصر الأموي[٥]. وقد وردت آخر روايته في تاريخ ابن كثير في تحديد سنة وفاة الأوزاعي (المتوفى سنة ١٥٧)[٥].

ولكن مصدر ابن كثير فيما جاء عن يعقوب بن سفيان في السيرة النبوية، وخاصة في الشمائل والدلائل حيث أكثر من إيراد رواياته، هو «دلائل النبوة» للبيهقي. وذلك لأنَّ مؤرخنا صرَّح في كثير من الأماكن بعبارات لا تدع مجالاً للشك. مثل قوله: «هكذا رواه البيهقي في «دلائل النبوة» من طريق يعقوب بن سفيان»[١] أو «روى البيهقي من طريق يعقوب بن سفيان»[١]. أو أتبع بعض مروياته بقوله «رواه البيهقي»[١]. وقد أورد سند البيهقي في مكان هكذا: «أخبرنا أبو الحسن بن الفضل، أخبرنا عبد الله بن جعفر درستويه، حدثنا يعقوب بن سفيان. . إلخ[١]. وهذا كله يدل دلالة قاطعة على أنَّ مصدر مؤرخنا في ذلك البيهقي، كما يفيد أنَّ البيهقي جمع في دلائله قدراً كبيراً من مرويات يعقوب بن سفيان، إما بسماعه شفوياً بسنده إليه، أو نقلاً من مؤلفاته.

أما **أبو نُعيم الأصفهاني** (٣٣٦ ـ ٤٣٠) فقد كان اعتماد ابن كثير عليه بعد البيهقي، اعتمد في تاريخه على كتابين من تصانيف الحافظ أبي نعيم، أولهما «دلائل النبوة»، وقد وصفه ابن كثير بـ «أنه كتاب حافل في ثلاث مجلدات»[٢]. كما أثنى على أبي نعيم «استقصاءه في الدلائل إسلام من أسلم من الأعيان استقصاءً حسناً»[٢]. واستحسن ما جاء عنده من الأخبار الغريبة في مولد الرسوله عليه الصلاة والسلام قائلاً: «وقد أكثر الحافظ أبو نعيم من إيراد الآثار والأخبار عن الرهبان والأحبار والعرب، فأكثر وأطنب، وأحسن وأطيب»[٢].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٢/ ٩٥، ٧/ ٢٣ ـ ٢٤، ٥٧، ٢٨١، ٢٩٧، ٨/ ٥٥، ١٠/ ٩٩، ٧/ ١٨١، ١٩٤، ٢٠٤، ٣٥٥، ٨/ ٤٤، ١١٤ إلخ ١٠/ ١٢٠، ٢/ ٣٢٧، ٦/ ٢٤٧، ٣/ ١٦٢، ٦/ ٢١٧، ٢٤٥، ١٢.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٦/ ٢٥٨، ٢٦٢، ٣/ ٣٧، ٢/ ٣١٩، ٦/ ٢٩٨، ٢/ ٢٣١، ٢٣٧، ٢٥١، ٢٦٧، ٢٧٥، ٢٩٣، ٣١٠، ٣٢١، ٣٢٥، ٣٣٠، ٣٣٣، ٣٣٧، ٣٤٢ إلخ، ١٢/ ٤٥، ١٣/ ٣٩، ٥/ ٩٤، ٢/ ٢٦٥، ٣/ ٢٢٩، ٥/ ٢٢٧.

وكان اعتماد ابن كثير على «الدلائل» لأبي نعيم في أحداث الجاهلية ومولد رسول الله عليه الصلاة والسلام، ومبعثه، ثم في آثاره وشمائله ودلائله. وقد صرَّح في هذه الأبواب باسم الدلائل كثيراً[٢].

وثانيهما: كتاب «معرفة الصحابة»، وقد كان عند ابن كثير منه نسخة بخط أبي نعيم كما صرح بذلك[١]. ولكن لم يصرح ابن كثير باسم هذا الكتاب إلا مرة واحدة في تاريخه[١]، إلا أنه يبدو لنا أنَّ الروايات والأقوال التي نقلها ابن كثير عنه في ذكر زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام وأولاده وعبيده وإمائه وكُتَّابه، هي كلها مأخوذة عن كتاب «معرفة الصحابة».

وخالفه ابن كثير على عادته في عدة مواضع، منها إنكاره على أبي نعيم في ولادة الرسول عليه الصلاة والسلام «مختوناً مسروراً» قائلاً: «وقد ادعى بعضهم صحته لما ورد له من الطرق، حتى زعم بعضهم أنه متواتر. وفي هذا كله نظر»[١]. ولم يقبل ما ذهب إليه أبو نعيم من أنَّ أسعد بن زرارة كان نقيباً على بني ساعدة، والصحيح عند ابن كثير أنه كان نقيباً على بني النجار[١]، وخالفه في أنَّ نزول سورة والضحى تأخر بسبب «جرو كلب مات تحت سرير الرسول عليه الصلاة والسلام، فلما أخرجوه نزل قوله تعالى: ﴿والضحى..﴾ إلخ[١].

وقد نقل ابن كثير بعض روايات أبي نعيم مع ضعفها وغرابتها، لما رأى فيها من الفوائد، مثل ما قال في قصة سطيح الكاهن: «هذا أثر غريب كتبناه لغرابته، وما تضمَّن من الفتن والملاحم»[٢]. أو ما جاء في عرض رسول الله ﷺ نفسه على أحياء العرب: «هذا غريب جداً، كتبناه لما فيه من دلائل النبوة ومحاسن الأخلاق ومكارم الشيم وفصاحة العرب»[٢]. ويبدو أن ابن كثير حين أكثر من

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٢٥٨/٦، ٢٦٢، ٣٧/٣، ٣١٩/٢، ٢٩٨/٦، ٢٣١/٢، ٢٣٧، ٢٥١، ٢٦٧، ٢٧٥، ٢٩٣، ٣١٠، ٣٢١، ٣٢٥، ٣٣٠، ٣٣٣، ٣٣٧، ٣٤٢ إلخ، ٤٥/١٢، ٣٩/١٣، ٩٤/٥، ٢٦٥/٢، ٢٢٩/٣، ٢٢٧/٥.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٣٥٦/٢، ١٤٥/٣، ٣٢٦/١، ٧٥/٦، ٧٧، ٢٧٨، ٢٨٣، ٢٥٩/٤، ١٣٧/٦، ١٤٢، ١٤٨، ٢٦٣، ١٤٣، ٢٥٨، ٢٦٣، ٢٧٧، ٢٧٠ ـ ٢٧٣، ٢٨٠ ـ ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٩٨، ١٣٦، ١٤٣، ١٤٩، ١٥٠، ٢٧٠ ـ ٢٧١.

إيراد مثل هذه الغرائب ـ وهو أعرف الناس بها ـ كان قصده من ذلك أن يرد وينبه على ما ذاع بين الناس، واشتهر حتى بين أهل العلم منهم، لكي يعرف الناس حقيقة هذه الروايات، فلا يهتموا اهتمامهم الزائد بها.

وهناك كتب أخرى في الدلائل، رَجَع إليها ابن كثير واستفاد منها، ولكن ليس أمرها كأمر الكتب السابقة.

فقد أشار ابن كثير إلى **«دلائل النبوة» لأبي زرعة عبيد الله بن عبد الكريم** الرازي (٢٠٠ ـ ٢٦٤)، أشار إليه في عدة مواضع من تاريخه[١]، وكان رأيه فيه أنه «كتاب جليل»[١]. وقد دلَّ سكوته على جميع رواياته على قبوله لها، وثقته في هذا الكتاب الجليل.

أما **«دلائل النبوة» لأبي محمد عبد الله بن حامد الفقيه**، فذكرها ابن كثير أيضاً كمصدر من مصادر تاريخه في عدة مواضع[١]، وأثنى عليه مراراً بقوله: «وهو كتاب أو مجلد كبير حافل، كثير الفوائد، يشتمل على فوائد نفيسة أجاد فيه ابن حامد، وأفاد»[١]. واستحسن ابن كثير المقارنات التي عملها ابن حامد بين ما أوتي الأنبياء السابقون وبين ما أوتي محمد عليه الصلاة والسلام، ونقلها وما وردت فيها من أحاديث وأخبار بكثرة في تاريخه[١].

أما ما رواه ابن حامد من إطاعة الحيوانات للرسول عليه الصلاة والسلام، وسجودها وشهادتها برسالته وما إلى ذلك من الغرائب كدلائل لنبوة محمد عليه الصلاة والسلام، فقد نسبه ابن كثير إلى ما في أسانيد هذه الروايات ومتونها من غرابة أو نكارة[١]. فلم يوافق ابن كثير على ما ذكره أبو نعيم وابن حامد من الحجب التي ألقيت بين إبراهيم ونمرود قائلاً: «وهذا الذي قاله غريب، والحجب التي ذكرها لإبراهيم لا أدري ما هي؟ كيف وقد ألقى نمرود إبراهيم في النار... إلخ[١].

وقد كان اعتماد ابن كثير عليه في قسم الدلائل من السيرة النبوية من تاريخه،

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٢/ ٣٥٦. ٣/ ١٤٥، ١/ ٣٢٦، ٦/ ٧٥، ٧٧، ٢٧٨، ٢٨٣، ٤/ ٢٥٩، ٦/ ١٣٧، ١٤٢، ١٤٨، ٢٦٣، ١٤٣، ٢٥٨، ٢٦٣، ٢٧٧، ٢٧٠ ـ ٢٧٣، ٢٨٠ ـ ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٩٨، ١٣٦، ١٤٣، ١٤٩، ١٥٠، ٢٧٠ ـ ٢٧١.

فلم نجد له ذكراً في أماكن أخرى من تاريخه.

أما «**دلائل النبوة**» **لأبي حفص عمر بن أحمد بن شاهين (١٩٧ ـ ٣٨٥)** فهي أقل ذكراً من بين كتب الدلائل في تاريخ ابن كثير، فقد جاءت الإشارة إليها مرة واحدة كمصدر في كتاب المبعث من السيرة النبوية[(١)]، ثم ورد اسم ابن شاهين في الجزء الخاص بالدلائل، ولكن بدون تصريح كتابه[(١)].

وهنا نشير إلى كتب أحال عليها ابن كثير في الجزء الخاص بالدلائل فقط، ثم لم يأت ذكرها في مكان آخر من تاريخه. فمنها:

كتاب المبعث[(٢)]، **لهشام بن عمار (١٥٢ ـ ٢٤٥)**، ورد ذكره في الجزء الخاص بالدلائل من تاريخ ابن كثير، وأشار مؤرخنا إلى اثنين من أبواب كتابه، وهما: باب ما أعطي الرسول عليه الصلاة والسلام، وما أعطي الأنبياء قبله[(٣)]. وباب كلام الأموات وعجائبهم، تصديقاً لنبوة الرسول ﷺ، وقال ابن كثير عن هذا الباب، أنه آخر كتابه[(٣)].

ونقل ابن كثير بعض روايات ابن عمار في قصة عيسى عليه السلام، وفي بناء جامع دمشق عن ابن عساكر[(٣)]، وفي صلح الحديبية عن البخاري[(٣)]، أما في تراجم علي ومعاوية وقيس بن سعد وأبي هريرة والأوزاعي فلم يصرح ابن كثير عن مصدره فيها[(٣)].

وجاء ذكر كتاب «**الفتن والملاحم**» **لأبي صالح الخليل بن أحمد بن عيسى بن الشيخ** مرةً واحدة في تاريخ ابن كثير، حيث نقل عنه رواية عن عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب بأنه لا يلي الخلافة أحد من أهل البيت أبداً[(٣)].

أما كتاب «**الفتن والملاحم**» **لنعيم بن حماد الخزاعي** (المتوفى سنة ٢٢٨)،

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٢/ ٣٠٧، ٦/ ٧٨.

(٢) نفس المصدر ٦/ ٢٧٠، ٢٨١، وقد وقع تصحيف في اسم هذا الكتاب في عدة أماكن في المطبوع من تاريخ ابن كثير، فذكره الناشر بكتاب البعث، وهو خطأ. وانظر تصحيفه في المطبوع من البداية والنهاية ٦/ ١٥٧، ١٥٨، ٢٦٥، ٢٧٨.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ٦/ ٢٨١، ١٥٨، ٧٩٢، ٩/ ١٥٤، ١٥٩ ـ ١٦٠، ٤/ ١٧٣، ٨/ ١٠١، ١٠٥، ١٢٢، ١٣٤، ١٠/ ١٢٠، ٦/ ٢٣٢.

شيخ البخاري فقد اعتمد ابن كثير عليه في نقل روايات أخبر فيها الرسول ﷺ بغيوب مستقبلة، وصرَّح ابن كثير باسم كتاب «الفتن» في أكثر المواضع[1]، مما يدل على رجوعه إليه. أما أقواله في التراجم فلم يصرح بمصدره فيها[1]، والأغلب أنه اعتمد في ذلك على المؤرخين والمترجمين الذين ذكروا أقواله ورواياته.

ونقل ابن كثير فصلاً طويلاً في الدلائل المعنوية من كتاب شيخه تقي الدين ابن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨) الذي رد فيه على النصارى واليهود، وهو «**الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح**»، ذكر ابن تيمية في آخره دلائل النبوة، تكلم فيها على سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، وأخلاقه وأفعاله باعتبارها دلائل نبوته، وقد استحسنها ابن كثير وأثنى عليه قائلاً: «سلك فيها مسالك حسنة صحيحة منتجة بكلام بليغ يخضع له كل من تأمَّله، وفهمه»[1]. ولهذا نقل ابن كثير هذا الفصل جميعه[1].

ثم ورد ذكر ابن تيمية في حديث ردِّ الشمس بعد مغيبه لعلي رضي الله عنه، ونقل رأيه: «أنَّ فضل علي وولايته وعلو منزلته عند الله معلوم بطرق ثابتة، أفادت العلم اليقيني، لا يحتاج معها إلى ما لم يعلم صدقه، أو يعلم أنه كذب»[1]. وذكر قوله في الأئمة الاثني عشر «أنهم مفرقون في الأمة، ولا تقوم الساعة حتى يوجدوا، وغلط كثير ممن تشرَّف بالإسلام من اليهود، فظنوا أنهم الذين تدعو إليهم الفرقة الرافضة»[1]. ولعل هذين القولين الأخيرين أخذهما ابن كثير من كتاب شيخه «**منهاج السنة في نقض كلام الشيعة والقدرية**». وقد أشار إليه ابن كثير كمصدر في وقعة صفِّين من تاريخه، ولكن لم يسمه، بل قال: «الكتاب الذي ردَّ فيه ابن تيمية على فرقة الرافضة»[1].

* * *

---

(١) نفس المصدر ٦/٢٠٤، ٢٠٥، ٢١٠، ٢١١، ٢٣٠، ٢٣٣، ٢٣٩، ٢٤٢ ـ ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٠ ـ ٢٥٢، ٨/١٣١، ٩/١٩٢، ٢٤٢، ٦/٧٠ ـ ٧٤، ٨٣، ٨٥ ـ ٨٦، ٢٥٠، ٧/٢٥٢ ـ ٢٥٣.

الفصل الثالث

تـاريخ الإسـلام ومصـادره

وحين انتهى ابن كثير من السيرة النبوية بدأ في جمع وتدوين تاريخ الإسلام منذ خلافة أبي بكر الصديق إلى آخر حياته سنة ٧٧٤هـ كما قررنا ذلك أثناء ذكر مؤلفاته في الجزء الخاص بحياة ابن كثير، أو إلى سنة ٧٦٨ هـ، وعلى هذا حفظ ابن كثير في هذا الكتاب تاريخ القرون الثمانية الأولى من الإسلام.

رتَّب ابن كثير تاريخه منذ هجرة المدينة على طريقة «الحوليات»، التي اتبعها أكثر المؤلفين في التاريخ العام. تسجل في هذه الطريقة الحوادث على السنين، للحفاظ على التسلسل التاريخي، وللإحاطة بأهم أخبار السنة. ولكن كان ذلك على حساب تسلسل الحوادث التي وقعت في أكثر من سنة، فإنها كانت تقطع وتجزأ على السنين التي وقعت فيها.

اختار ابن كثير هذه الطريقة والتزمها في تاريخه، فوزَّع كل سنة إلى قسمين، يبدؤها قائلاً: ثم دخلت سنة كذا، ثم يتبعها بالوفيات بقوله: وفيها توفى كذا أو ممن توفي فيها من الأعيان.

يذكر في القسم الأول أهم الحوادث والحروب الخارجية والفتن الداخلية، ويشير إلى حكام البلاد الإسلامية إذا حصل فيهم أي تغيير، ومن حج بالناس في السنة، ومن شتا في بلاد الأعداء وصيف، ومن غزا في البحر ومن حارب في البر. ثم ازداد اهتمامه منذ العصر العباسي بذكر الأحداث العربية، والزلازل والأمراض والأوبئة والمجاعات، وموجات الحر والبرد، وسقوط الثلج والبرد،

وغلاء الأسعار ونقصانها، وطلوع النجوم والكواكب، وانقضاض النيازك والشهب، وشبوب الحرائق، ووقوع الفتن المذهبية، وما تبعها من مشاغبات ومناوشات بين المسلمين أنفسهم.

كما أنه بدأ يذكر بناء المدارس الجديدة وأخبارها منذ عصر الوزير العالم نظام الملك (٤٥٦ ـ ٤٨٥)، ومن تولى فيها التدريس من الشيوخ الكبار أو عزل منها، كما بدأ يشير إلى أخبار القضاة وتعيينهم وعزلهم منذ أيام الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨ ـ ٦٧٦) الذي ولي القضاة من المذاهب الفقهية الأربعة، بعد أن كان من المتبع منذ أيام صلاح الدين الأيوبي (٥٦٧ ـ ٥٨٩) تولية القضاء لعالم شافعي المذهب فقط.

أما في الوفيات فيذكر ابن كثير فيها تراجم الأعلام والأعيان وخاصة من العلماء والمحدثين والشعراء والأدباء والمؤرخين، والأمراء والخلفاء والسلاطين، وكل من له أثر وشهرة في المجتمع الإسلامي في ناحية تخصصه. وإن ذكر التراجم في نهاية كل سنة في كتاب في التاريخ العام مثل «البداية والنهاية»، والتوسع فيها وتطويلها، يشوِّش على القارىء، ويقطع اتصاله بالحوادث التي تفرق ذكرها في سنين عديدة. وخاصة التراجم التي ليست لها صلة بالحوادث، ومع ذلك فإن لذكرها ميزةً لا تنكر، وهي حفظ كثير من أخبار أهل العلم والأدب، وتخليد أسمائهم وأسماء مؤلفاتهم التي أنتجوها، مما يسهل على الباحثين دراسة تقدم العلوم الإسلامية وتطورها وتوسعها على مر السنين والدهور.

وكان من الصعب استقصاء تاريخ هذه الحقبة الطويلة الزاخرة بالأخبار والأعمال والرجال ببسط وتفصيل، لذلك اعتمد ابن كثير في تاريخه على التلخيص والاختصار، فقلما نجد عنده النقل الحرفي من المؤرخين السابقين، فإنه يستوعب في ذهنه ما ذكره المؤرخون قبله في الحوادث والوقائع، ثم يسردها على لسانه ملخصاً في سياق واحد مركّز، وينبه حين الضرورة إلى أسماء المؤرخين في مواضع الخلاف أو ما إلى ذلك. وهذا يعلل ما أخذ على ابن كثير من عدم التزام نصوص مصادره.

ونحن هنا سوف نوزع كلامنا في عرض المادة التاريخية من تاريخ الإسلام في «البداية والنهاية»، وفي تقديم آراء مؤرخنا فيه، وفي ذكر مصادره التي اعتمد عليها، نوزع كلامنا في ذلك كله على المطالب التالية:

المطلب الأول ـ الخلافة الراشدة، والدولة الأموية، ومصادرهما، جمعنا بينهما في الذكر لوحدة المصادر بين القسمين وتشابههما.

المطلب الثاني ـ الخلافة العباسية، ومصادرها، ويدخل فيها ذكر الدول المعاصرة لها.

المطلب الثالث ـ دولة المماليك البحرية، ومصادرها، وتدخل فيها أخبار التتار.

وبعد ذلك نبحث منهج ابن كثير في تاريخه، وأسلوبه، وقيمة كتابه التاريخية في أبواب مستقلة.

* * *

المطلب الأول

الخلافـة الراشدة والدولة الأموية ومصادرهما

بسط ابن كثير في ذكر تاريخ الخلافة الراشدة والدولة الأموية من تاريخ صدر الإسلام؛ لما تحمله هذه الحقبة الحساسة من أهمية بالغة في توسيع نطاق الدولة الإسلامية من جانب، وفي اختلاف المسلمين وتفرقهم من جانب آخر.

اعتمد ابن كثير في ذلك كله على الكتب التاريخية القديمة مع الرجوع إلى دواوين المحدثين في المسائل التي اختلفت فيها الآراء، وتشعبت فيها وجهات النظر بين شتى طوائف المسلمين؛ وذلك ليقدِّم تاريخ لقرون الأولى للإسلام والمسلمين صحيحاً صادقاً، خالياً من الشوائب، مطابقاً لوجهة نظره، وهو يمثل موقف أهل السنة كعالم وفقيه شافعي المذهب؛ لذلك لا نستغرب حين نجد عنده الرد العنيف على من يخالف مواقف أهل لسنة من المسائل الخلافية التي كانت سبباً في تكوين فرق وطوائف لهم كيانهم وآرائهم ومذاهبهم يدينون لها، ويعتقدون في التمسك بها النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة.

فأول خلاف وقع في المسلمين بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام كان في حق الخلافة بين المهاجرين والأنصار، إذ أنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام لم يعهد بالأمر بعده إلى رجل معيّن، وإنما فوَّض أمر نيابته في الصلاة في مرض وفاته إلى أبي بكر الصديق، مما جعل عامة المسلمين يفهمون أنه نائبه في الحكم بعده. وقد تمكَّن المسلمون من حل هذا الخلاف حين عرف الأنصار الحديث النبوي الشريف بأنَّ الخلفاء من قريش، فتنازلوا عن حقهم وبايعوا الصديق مع عامة المسلمين، وكأنه لم يكن هناك خلاف أبداً، وكانت هذه البيعة

في نظر ابن كثير من أهم الأمور بعد وفاة الرسول ﷺ «وأعظمها وأجلها وأيمنها بركة على الإسلام وأهله»[1].

أشار ابن كثير إلى بيعة الصديق في أوائل الخلافة الراشدة باختصار، لأنه تحدَّث عنها بتفصيل بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام في فصل خاص عقده (في ذكر أمور هامة وقعت بعد وفاة النبي ﷺ، وقبل دفنه)، ذكر فيه قصة سقيفة بني ساعدة، ورد مزاعم الشيعة في تفضيل علي بن أبي طالب على أبي بكر الصديق، وإثبات حق الخلافة له. اعتمد ابن كثير في ذلك كله على روايات الإمام أحمد والبخاري والبيهقي إلى جانب ما ذكره ابن إسحاق[2].

وقد ثبتت عند ابن كثير بيعة علي بن أبي طالب للصديق في أول أو ثاني يوم البيعة[1]. لذلك حمل ما روي عن بيعته له بعد وفاة فاطمة ـ أي بعد ستة أشهر من تولي الصديق الخلافة ـ على أنها البيعة الثانية، تجديداً للبيعة الأولى، لإزالة ما وقعت بينهما من الوحشة، بسبب الكلام في ميراث الرسول عليه الصلاة والسلام[1]. ولكن قامت فيما بعد طائفة ـ وفيها من له مطامع سياسية، ومطامح ذاتية ـ واعتبرت خلافة الصديق ظلماً وعدواناً وغَصْباً لحق عليّ، فوضعوا الأحاديث في جلالة قدره ورفيع منزلته وعديد فضائله وجليل مناقبه، وحقه الثابت في الخلافة، وأشاعوها بين الناس لتعبئة الرأي العام في صالح علي.

أما ابن كثير فهو على رأي أهل السنة، لا ينقص من قدر علي ومنزلته وعلو شأنه، ولا ينكر كثرة فضائله وجليل مناقبه، بل يشيد بها ويفتخر، فإنه توسَّع في ترجمته وبيان فضائله[1]، ما لم يتوسع في ترجمة أحد من سابقيه من الخلفاء أو لاحقيه، إلا أنه لا يوافق الشيعة على ما ذهبوا إليه من تفضيل عليّ على غيره من الخلفاء السابقين أبي بكر وعمر وعثمان. فكان هذا سبباً في مؤاخذته عليهم، ورد مزاعمهم ورفض مختلقاتهم في كل مكان تسمح له الفرصة لذلك. مثل

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٥/ ٢٤٤.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٥/ ٢٤٤، ٢٥٤، ٦/ ٣٠١ ـ ٣٠٢، ٥/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠، ٢٨٦، ٦/ ٣٠٢، ٣٣٤، ٧/ ٣٢٨، ٨/ ١٤، ٣/ ٢٥ ـ ٢٩، ٧/ ٣٣٣، ٥/ ٢٥٢، ٢٤٩ ـ ٢٥٠، ٢٨٨، ٢٤٩، ٢٩٠ ـ ٢٩١، ٦/ ٣٣٣.

ما زعموا في أولوية إسلام عليٍّ على غيره[1]، وأنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام أوصى إليه بالخلافة[1]، وأنَّ علياً لم يرض بخلافة الصديق، ولم يبايعه إلا مكرهاً بعد وفاة فاطمة[1]، وإن أبا بكر منع فاطمة من ميراث الرسول ﷺ ظلماً[1]، وكذلك يراجع هنا ما كتبه ابن كثير على أحاديث مثل حديث غدير خم، وحديث المؤاخاة، وحديث الطير، وما إلى ذلك من الأحاديث[1].

وقد فرضت طبيعة هذه الموضوعات أن يرجع ابن كثير ـ وهو عالم محدِّث أولاً وقبل كل شيء ـ إلى دواوين المحدثين. فإنَّ ولع ابن كثير بالحديث باعتباره من أوثق المصادر يجعله يكثر منه في تاريخه في كل مكان يمكنه ذلك. فإننا نجد في موضوعات مثل حصر عثمان وقتله، ثم فضائله[2]، وفي خروج الخوارج على عليّ[2]، ثم مقتله وفضائله[2]، وفي فضائل الحسن[2]، والحسين[2]، ومعاوية[2] وغيرهم من الصحابة والتابعين، والعلماء والصالحين، والأمراء والقواد في تراجم القرن الأول، مُلِئت عشرات الصفحات بالأحاديث وإيراد طرقها المتعددة. ولذلك نلاحظ أنَّ كتب الحديث ما زالت محافظة على دورها كما كانت في الأقسام السابقة، ولكن هنا يأتي دورها بعد كتب التاريخ طبعاً.

وعلى هذا امتاز ابن كثير في تاريخ القرن الأول بجمع ما جاء من المواد التاريخية في دواوين المحدثين مع ما جاء في كتب التاريخ القديمة. وبذلك سهل على الباحثين في الأحداث الإسلامية الأولى مهمة بحث وتنقيب المادة التاريخية بجمعه في مكان واحد كل ما أمكن جمعه من المواد المنتشرة في الحديث والتاريخ.

وبعد أن انتهى ابن كثير من كلامه على بيعة الصديق، ذكر تنفيذ جيش أسامة

---

(١) نفسه ٥/٢٠٨ ـ ٢١٤، ٧/٣٣٣ ـ ٣٦١، ورد عبد الحسين أحمد الأميني النجفي في كتابه «الغدير في الكتاب والسنة والأدب» (١/٤٠٥ ـ ٤١١) على ابن كثير تزييفه حديث يوم الغدير. دار الكتاب العربي بيروت سنة ١٣٨٧ هـ.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٧/١٧٦ ـ ١٨٠، ١٩٢ ـ ٢١٣، ٢٨٩ ـ ٣٠٦، ١١/٣٢٣ ـ ٣٢٥، ٣٣٢ ـ ٣٦١، ٨/١٧ ـ ١٩، ٢٠٤ ـ ٢٠٨، ٢٠ ـ ٢١، ١١٧ ـ ١٤٠، ٦/٣٤٢.

مع ارتداد أكثر أحياء العرب حول المدينة، وامتناع آخرين من أداء الزكاة مما كان سبباً في إظهار قوة المسلمين ومنعتهم، كما أنَّ مقتل الأسود العنسي الكذاب باليمن كان أول خطوة مبشِّرة لفتوح أيام أبي بكر، تلاها قتال أهل الردة، ومانعي الزكاة وإخضاعهم «لتمهيد قواعد الإسلام، وقتال الطغاة من الأنام، حتى رجع الحق إلى نصابه، ورد شارد الدين بعد ذهابه، وتمهدت جزيرة العرب، وصار البعيد الأقصى كالقريب الأدنى»[١].

ثم إن أبا بكر الصديق لما فرغ من أمر الجزيرة العربية، بسط يمينه إلى العراق والشام، فبعث خالد بن الوليد إلى العراق، وعدداً من الأمراء إلى الشام، فهزم المسلمون الفرس والروم في بعض المواقع، ولكن الصديق توفي قبل أن يرى فوز جيوشه على الأعداء، بعد حكم قصير دام سنتين وثلاثة أشهر. وقد عهد أمر الخلافة في مرض موته إلى عمر بن الخطاب.

امتاز عهد الفاروق بالهدوء والاستقرار في البلاد، فوسَّع حدود المملكة الإسلامية، وأخضع الفرس والروم، «ففتح الفتوح، ومصَّر الأمصار، وجنَّد الأجناد، ووضع الخراج، ودوَّن الدواوين، وفرض الأعطية، واستقضى القضاة، وكوَّر الأكوار»[٢]. إلى آخر أعماله الجليلة التي أصبح بها عصره عصراً نموذجياً في العدل والإحسان، والتقدم والعمران، والفتوحات ونشر الإسلام.

استشهد عمر على يدي أبي لؤلؤة فيروز المجوسي غلام المغيرة بن شعبة بعد نحو من عشر سنين من حكمه الزاهر، وأوصى أن يكون الأمر بعده شورى في ستة، توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض. تخلى منهم أربعة عن حق الخلافة، وجعلوا من بينهم أمر اختيار الخليفة من بين عثمان وعلي إلى عبد الرحمن بن عوف الذي اجتهد ثلاثة أيام، وسأل من أمكنه السؤال من أهل الشورى وغيرهم، فلم يجد اثنين يختلفان في تقدّم عثمان إلا ما ينقل عن عمار والمقداد، فاختار

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٧/ ١٧٦ ـ ١٨٠، ١٩٢ ـ ٢١٣، ٢٨٩ ـ ٣٠٦، ١١/ ٣٢٣ ـ ٣٢٥، ٣٣٢ ـ ٣٦١، ٨/ ١٧ ـ ١٩، ٢٠٤ ـ ٢٠٨، ٢٠ ـ ٢١، ١١٧ ـ ١٤٠، ٦/ ٣٤٢.

(٢) ابن كثير البداية والنهاية ٧/ ١٣٣.

عثمان للخلافة. وهنا نقد ابن كثير ما يذكره كثير من المؤرخين مثل ابن جرير[1] وغيره «عن رجال لا يعرفون، أنَّ علياً قال لعبد الرحمن: خدعتني، إلى غير ذلك من الأخبار المخالفة لما ثبت في الصحاح، فهي مردودة على قائليها وناقليها، والمظنون بالصحابة خلاف ما يتوهم كثير من الرافضة وأغبياء القُصَّاص الذين لا تمييز عندهم بين صحيح الأخبار وضعيفها ومستقيمها وسقيمها»[2].

سار عثمان بن عفان في خلافته سيرة الفاروق في رفع علم الجهاد، وتطهير الحدود الإسلامية من الفرس والروم «فَفَتَح الله على يديه كثيراً من الأقاليم والأمصار، وتوسَّعت المملكة الإسلامية، وامتدت الدولة المحمدية، وبلغت الرسالة المصطفوية في مشارق الأرض ومغاربها»[1]. إلى أَنْ ثارت الفتنة لكبرى التي قُتِلَ فيها الخليفة الثالث الراشد. وذكر ابن كثير بوادر هذه الفتنة في «البداية والنهاية» منذ سنة إحدى وثلاثين هجرية، في غزوة الصواري، وكلام محمد بن أبي حذيفة، ومحمد بن أبي بكر في عثمان، وعينهما له في مخالفته أبا بكر وعمر، واتهامات أخرى مما جعل دمه حلالاً في نظرهما[3]. ثم ذكر إجلاء جماعة من قرّاء أهل الكوفة والبصرة إلى الشام سنة ثلاث وثلاثين هجرية لكلامهم فيه[2]. ثم تألّب الأحزاب عليه في السنة القادمة[2]، وكان مقتله سنة خمس وثلاثين هجرية[2].

اعتمد ابن كثير في ذلك على ابن جرير الطبري، وعن طريقه أخذ ما ذكره الواقدي وسيف بن عمر التميمي، كما رجع إلى ابن عساكر، وإلى دواوين المحدثين التي نقل عنها روايات في حصار الخليفة الثالث عثمان بن عفان وقتله وسيرته وفضائله ببسط وتفصيل زائد. واعتبر ابن كثير فتنة عثمان دليلاً من «دلائل النبوة»، وتصديقاً للحديث الذي جاء فيه «أنَّ رحا الإسلام ستدور لخمس

---

(١) ابن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك ٤/٢٣٨، دار المعارف بالقاهرة، سنة ٦٠ ـ ١٩٦٨ م.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٧/١٤٧، ٤/٢٠٠.

(٣) نفس المصدر ٧/١٥٧، ١٦٥ ـ ١٦٧، ١٧٠، ٢١٨ ـ ٢١٩، ٢٤٦.

وثلاثين سنة ولكن الله سلم، ووقى بحوله وقوته ببيعة علي»[٢].

أما خلافة علي بن أبي طالب فبدأها بترجمته، بيَّن فيها فضائله ومكانته، وردَّ مزاعم الشيعة في مبالغتهم في شأنه بأحاديث موضوعة، تساهل في إيرادها ابن إسحاق وابن عساكر وغيرهما من أصحاب السير والمغازي والتاريخ. ثم ذكر بيعة علي، وما تبعها من فتن وحروب بين المسلمين، منها وقعة الجمل سنة خمس وثلاثين بين علي وعائشة أم المؤمنين. ذكرها ابن كثير سياقاً واحداً عن ابن جرير، ولم يصرِّح بأسماء من رواه الطبري من أئمة هذا الشأن في هذه الوقعة، واعتبر سياقه خالياً من الشوائب، ليس فيه لأهل الأهواء من الشيعة وغيرهم دليل أو سند. وقال فيهم: «إن هؤلاء إذا دعوا إلى الحق الواضح أعرضوا عنه، وقالوا لنا أخبارنا ولكم أخباركم، فنحن حينئذ نقول لهم: سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين»[١].

ثم ذكر وقعة صفّين (٣٦ ـ ٣٧هـ) بين عليٍّ ومعاوية، مما أدى إلى التحكيم محاولة للصلح بين الفريقين، ولكن التحكيم كان سبباً في اختلاف الكلمة بين أصحاب علي، وخروج الخوارج عليه من جانب، وفي إعطاء حق الخلافة لمعاوية شرعياً، ولو كان بالخديعة، ولكن ابن كثير علَّل هذا الموقف قائلاً: «وكأنَّ عمرو بن العاص رأى أنَّ ترك الناس بلا إمام، والحالة هذه يؤدِّي إلى مفسدة طويلة عريضة، أربى مما الناس فيه من الاختلاف، فأقرَّ معاوية لما رأى في ذلك من المصلحة. والاجتهاد يخطىء ويصيب»[٢]. وكذلك حمل كل ما جرى بين علي ومعاوية أنه كان على سبيل الاجتهاد، وكان الحق والصواب مع علي، ومعاوية معذور عند جمهور العلماء سلفاً وخلفاً، وقد شهدت الأحاديث الصحيحة بإسلام الفريقين. . . إلخ[٢].

استقرت الأمور لمعاوية في الشام، في الوقت الذي كان فيه علي بن أبي طالب مشغولاً بحرب الخوارج الذين ثاروا عليه بسبب قبول التحكيم، وبالغوا

---

(١) نفس المصدر ٧/ ١٥٧، ١٦٥ ـ ١٦٧، ١٧٠، ٢١٨ ـ ٢١٩، ٢٤٦.

(٢) نفس المصدر ٧/ ٢٨٣، ٨/ ١٢٦، ٧/ ٢٨٤ ـ ٣٠٩، ٨/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤، ٣٢٤، ٩/ ٢٠، ٩٨ ـ ١٤، ١٧ ـ ٢١، ٩/ ٣١٩، ٣٢٣ ـ ٣٢٤، ١٠/ ٢٥، ٢٨ ـ ٢٩، ٣٤ ـ ٣٦.

في النكير عليه، بل صرَّحوا بكفره، وطالبوه بالتوبة، والحرب مع معاوية. فنهض لإخضاعهم، ووضع حداً لتمردهم، فقتل منهم مقتلةً عظيمة يوم النهروان[٢]، فتآمروا على قتله، وقتلِ معاوية وعمرو بن العاص معه في يوم واحد، باعتبارهم أئمة الضلال، فقُتِل عليٌّ على يدي ابن ملجم الخارجي يوم السابع عشر من رمضان سنة أربعين من الهجرة، على حين نجا معاوية وعمرو بن العاص من اغتيالهم. اعتمد ابن كثير في ذلك كله على أبي مخنف عن طريق ابن جرير، وعلى كتاب «الخوارج» لهيثم بن عدي، بالإضافة إلى تاريخ الطبري ودواوين المحدثين.

وقد انصرفت جهود الخوارج بعد ذلك إلى الدولة الأموية الناشئة، فكانوا تهديداً داخلياً مستمراً لها. استنزفوا من قوتها جزءاً كبيراً بين حين وآخر، فقد وقعت حروب كثيرة بينهم وبين الأمويين، مثل حروب المهلب بن أبي صُفْرة مع الأزارقة[١]، وقتال الحجاج ونوابه ضد الصفرية[١]، ووقعة بين أصحاب بسطام الخارجي وبين جند الكوفة سنة ١٠١ هـ[١] وظهور بهلول بن بشر الخارجي، وهلاكه سنة ١١٩ هـ[١]، ثم خروجهم أيام مروان الحمار، وقتل رؤسائهم سعيد بن بهدل الخارجي، والضحاك بن قيس الشيباني، والخيبري، وشيبان اليشكري[١]، وأخيراً ظهور أبي حمزة، وتوليه موسم الحج سنة ١٣٩ هـ، واستيلائه على المدينة لثلاثة أشهر سنة ١٣٠ هـ، ثم هلاكه على يدي ابن عطية[١]. ولم يزل الخوارج على سيرتهم إلى العصر العباسي، إلا أنهم قد ضعفوا واستكانوا من شدة الحروب واستمرارها، فلم تكن لهم في العصر العباسي القوة التي كانت لهم في العهد الأموي.

وتولى بعد شهادة عليٍّ الخلافة ابنه الحسن الذي كان مسالماً بطبعه، منكراً لما آل إليه أمر المسلمين من الفرقة والانتشار، وضياع قوتهم فيما بينهم، كما رأى تفرق أهواء جيشه وشيعته من أهل العراق الذين انتهبوا سرادقه، وطعنوه بالمدى، حين ساروا به لقتال معاوية، فكرههم كراهية شديدة، وتوخى الصلح

---

(١) نفس المصدر ٧/ ٢٨٣، ٨/ ١٢٦، ٧/ ٢٨٤ ـ ٣٠٩، ٨/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤، ٣٢٤، ٩/ ٢٠، ٩٨ ـ ١٤، ١٧ ـ ٢١، ٩/ ٣١٩، ٣٢٣ ـ ٣٢٤، ١٠/ ٢٥، ٢٨ ـ ٢٩، ٣٤ ـ ٣٦.

مع معاوية، ونزل له عن الخلافة، وبايعه حقناً لدماء الأمة، وتصديقاً لقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «سيصلح الله به فئتين عظيمتين من المسلمين»، ودليلاً على صدق قوله عليه الصلاة والسلام: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم يكون ملكاً عضوضاً». فإن النبي ﷺ توفي في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، ونَزَل الحسن عن الخلافة في الصحيح في ربيع الأول أيضاً سنة إحدى وأربعين، وهذا كمال الثلاثين، وهو من دلائل صدق النبوة عند ابن كثير[1].

أما الدولة الأموية فقد بدأها ابن كثير بذكر أيام معاوية بن أبي سفيان (٤١ ـ ٦٠ هـ) باعتباره «أول ملوك الإسلام، وخيارهم»[1]. وقال: «إنَّ السنة أن يقال له: ملك، وليس خليفة، لحديث سفينة المذكور آنفاً: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم يكون ملكاً عضوضاً»[1].

اتفقت كلمة المسلمين على معاوية بعد نزول الحسن بن علي له عن الخلافة سنة ٤١ هـ، «فلم يزل مستقلاً بالأمر، والجهاد قائم في بلاد العدو، وكلمة الله عالية، والغنائم ترد إليه من أطراف الأرض، والمسلمون معه في راحة وعدل وصفح وعفو»[1]. وبدأت الفتوحات الإسلامية في أيامه بعد أن توقفت منذ وقوع الخلاف بينه وبين علي. فما أن استقل معاوية حتى بدأ يغزو الروم كل سنة مرتين صيفاً وشتاء[1]، فأصبح ذلك تقليداً اتبعه الخلفاء بعده، لهذا نرى المؤلفين في التاريخ العام يلتزمون بالإشارة في كل سنة إلى من قاد الصائفة، ومن شتا في بلاد العدو، ومن غزا في البر ومن حارب في البحر.

وظهرت بوادر الخلاف مرة أخرى بين المسلمين، حين عهد معاوية سنة ٥٦ هـ الأمر بعده إلى ابنه يزيد (٦٠ ـ ٦٤)، فما إن توفي معاوية حتى ثارت الفتن. فقد أبى أن يبايعه الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير، وخرج عليه الحسين قاصداً أهل الكوفة الذين راسلوه «ليتوصلوا به إلى أغراضهم ومقاصدهم الفاسدة، فلما علم ابن زياد ما يريدون من الدنيا، آخذهم على ذلك، وحملهم عليه بالرغبة والرهبة، فانكفوا عن الحسين، وخذلوه»[1]. فقُتِل الحسين يوم عاشوراء من المحرم سنة ٦١ هـ، بكربلاء في أرض العراق على يدي جيش

---

(١) نفس المصدر ١٦/٨، ١٩، ١٣٥، ١١٩، ١٢٧، ٢٠٢.

عبيد الله بن زياد، كما أنَّ عبد الله بن الزبير قتل في مكة سنة ٧٣ هـ، على يدي الحجاج الثقفي.

ذكر ابن كثير هاتين الحادثين ببسط وتفصيل زائد، فقد أراد أن يأخذ موارده في مقتل الحسين «من كلام أئمة هذا الشأن، لا كما يزعمه أهل التشيّع من الكذب الصريح والبهتان»[1]. ولكن يبدو أنَّ ابن كثير لم ينجح في ذلك، فإنَّ أكثر كلامه في خروج الحسين ومقتله مأخوذ من كلام أبي مخنف، يتخلله أحياناً كلام بعض أئمة التاريخ والحديث. وقد اعترف ابن كثير بذلك حين قال في نهاية الفصل: «وللشيعة والرافضة في صفة مصرع الحسين كذب كثير، وأخبارٌ باطلة، وفيما ذكرناه كفاية، وفي بعض ما أوردناه نظر، ولولا أنَّ ابنَ جرير وغيره من الحفاظ والأئمة ذكروه، ما سُقْته، وأكثره من رواية أبي مخنف لوط بن يحيى، وقد كان شيعياً، وهو ضعيف الحديث عند الأئمة، ولكنه أخباري حافظ، عنده من هذه الأشياء ما ليس عند غيره، ولهذا يترامى عليه كثيرٌ من المصنفين في هذا الشأن ممن بعده»[1].

ومع هذا الرأي الصريح في أبي مخنف نستغرب اعتماد ابن كثير عليه في مثل هذه الأحداث الإسلامية الحسَّاسة. وليس عندنا تعليل لذلك، إلا أنَّ مؤرخنا اتبع في ذلك الطبري الذي فضَّله في تاريخه على غيره من المؤرخين.

ولكن من حسنات ابن كثير أنه يعلق على أكثر الحوادث والروايات، مما يجعل الباحث يستضيء به نوراً لمعرفة اتجاهات المؤلف، مغايراً في ذلك طريقة المؤرخين الذين يجمعون في الموضوع كل غثٍّ وسمين، ويتركون القارىء في حيرة من أمره نحو هذه الحوادث الهامة التي كان تفسيرها الخاطىء سبباً في انحراف كثير من الناس، ممن لم يكن عندهم علم يبلغون به إلى العوامل الحقيقة الصحيحة التي أثَّرت في مجرى الأحداث.

فإنَّ ابن كثير في مقتل الحسين أعرض عن آثار غريبة ذكرها الطبراني في معجمه، وقال: «ولقد بالغ الشيعة في يوم عاشوراء، فوضعوا أحاديث كثيرة

---

(١) نفس المصدر ٨/ ١٧٢، ٢٠٢.

كذباً فاحشاً من كون الشمس كسفت يومئذ حين بدت النجوم، وما رفع يومئذ حجر إلا وجد تحته دم، وأن أرجاء السماء احمرت، وأنَّ الشمس كانت تطلع وشعاعها كأنه دم، وأنَّ الكواكب ضربت بعضها بعضاً، وأمطرت السماء دماً أحمر. . إلى غير ذلك من الأكاذيب والأحاديث الموضوعة التي لا يصحُّ منها شيء. أما ما روي من الأحاديث والفتن التي أصابت من قتله، فأكثرها صحيح. فإنه قلَّ من نجا من أولئك الذين قتلوه من آفة أو عاهة في الدنيا»[1].

وكان رأيه في ذلك بيقين لا يداخله شك: «أنَّ قتل قتلة الحسين كان متحتماً، والمبادرة إليه كانت مغنماً، ولكن إنما قدره الله تعالى على يدي المختار الكذاب، الذي صار بدعواه إتيان الوحي إليه كافراً، وقد قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر». وقد قال تعالى في كتابه الذي أفضل ما يكتبه الكاتبون: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾»[1].

ولذلك بسط ابن كثير في ذكر ما ابتلي به قتلة الحسين بالمختار بن أبي عبيد الثقفي الذي جاء فيه في الحديث: «سيكون في ثقيف كذاب ومبير»، فالكذاب هو المختار: «وقد كان ناصبياً يبغض علياً بغضاً شديداً، أظهر التشيّع حين قتل مسلمٌ ابنَ عقيل ـ الذي بعثه الحسين قبل خروجه إلى العراق، للاستطلاع والتأكد من نوايا أهلها ـ ودعا بعد ذلك إلى إمامة المهدي محمد ابن الحنفية عن غير أمره ورضاه، للتوسل إلى الأغراض الفاسدة، وكان يبطن الكهانة والكفر المحض، أسر إلى بعض أخصائه أنه يوحى إليه. ولكن ما أدري هل كان يدعي النبوة، أم لا؟ ولكن وضع له كرسي يعظم، ويحفُّ به الرجال، مضاهاةً بتابوت بني إسرائيل. ولا شك أنه كان ضالاً مضلاً، أراح الله منه ـ حين قتله مصعب بن الزبير سنة ٦٧ هـ ـ بعد ما انتقم به من قوم آخرين من الظالمين»[1]. أما المبير، فهو الحجاج كما سيأتي قريباً.

ذكر ابن كثير مقتل قتلة الحسين على يدي المختار، منهم شمر بن ذي

---

(١) نفس المصدر ٨/ ٢٠١ ـ ٢٠٢، ٢٧٤، ٢٤٨، ٢٧٤، ٢٩٠، ٢٩٢، ٩/ ١٣٢، ٨/ ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٨٥.

الجوشن[1]، أمير السرية التي قتلت الحسين، وخولي بن يزيد[1]، الذي احتزَّ رأسه، وعمر بن سعد بن أبي وقاص[1]، أمير الجيش الذي قاتله، وعبيد الله بن زياد الثقفي الذي أخذ عليه إصراره «على إحضار الحسين بين يديه، وإن قتل دون ذلك. وكان الواجب عليه أن يجيب إلى سؤاله فيما طلبه من ذهابه إلى يزيد، أو إلى مكة أو إلى أحد الثغور»[1].

أما يزيد بن معاوية، فكان رأي ابن كثير فيه أنه لم يرض بذلك ولم يسوءه، «والذي يكاد يغلب على الظن، أن يزيد لو قدر عليه قبل أن يقتل لعفا عنه، كما أوصاه أبوه بذلك، وكما صرح هو مخبراً عن نفسه بذلك. وقد لعن ابن زياد على فعله ذلك، وشتمه فيما يظهر ويبدو، ولكن لم يعزله على ذلك ولا عاتبه، ولا أرسل يعيب عليه ذلك»[1].

وقد نقل ابن كثير إنكار أكثر الأئمة قديماً وحديثاً على هذه الحادثة المؤلمة، ثم أدلى برأيه بصراحة قائلاً: «فكل مسلم ينبغي له أن يحزنه قتله، فإنه من سادات المسلمين، وعلماء الصحابة، وابن بنت الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد كان عابداً شجاعاً سخياً، ولكن لا يحسن ما يفعله الشيعة من إظهار الجزع والحزن الذي لعل أكثره تصنُّعٌ ورياء»، ثم أشار إلى أنَّ أباه علياً وعثمان وعمر كانوا أفضل منه، وأنهم قُتلوا، وخاصةً عثمان الذي «ذُبِحَ من الوريد إلى الوريد» ولكن لم يتَّخذ المسلمون يوم قتلهم مأتماً، وكذلك يوم وفاةِ الصديق، ويوم وفاةِ الرسول عليه أفضل الصلوات والتسليمات لم يفعلوا فيه «ما يفعله هؤلاء الجهلة من الرافضة يوم مصرع الحسين». وهنا أخذ ابن كثير على الشيعة إسرافهم في يوم عاشوراء، وخاصةً منذ دولة بني بويه في حدود الأربعمئة وما حولها، وما اخترعوه «من البدع الشنيعة، والأهواء الفظيعة، والهتائك المخترعة» تشنيعاً على دولة بني أمية، لأنه قتل في دولتهم. وكذلك أخذ على النواصب من أهل الشام الذين جعلوا يوم وفاة الحسين يوم فرح وسرور[2]. عناداً للروافض ومعاكسة لهم.

---

(١) نفس المصدر ٨/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣، ٢٣٢، وانظر وصية معاوية لابنه يزيد ٨/ ٢١٥، ١٦٢.

(٢) نفسه ٨/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣، ٢٢٢، ٢٢٤.

ولم يكن رأي ابن كثير في يزيد حسناً، فإنه يعترف بفسقه وتعديه محارم الله، منها أمره لمسلم بن عقبة سنة ٦٣ هـ بإباحة المدينة لثلاثة أيام، إن غلب على أهلها الذين خلعوه بعد بيعتهم له. وقد اشتهرت هذه المعركة بوقعة الحرة. عدَّ ابن كثير هذا خطأً فاحشاً من يزيد، أراد به «توطيد سلطانه وملكه، ودوام أيامه من غير منازع، فعاقبه بنقيض قصده، وحال بينه وبين ما يشتهيه، فقصمه قاصم الجبابرة، وأخذه أخذ عزيز مقتدر. وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة، إنَّ أخذه أليم شديد»(١). ثم ذكر أحاديث في وعيد من أساء إلى المدينة وأهلها، وخلاف العلماء في جواز اللعنة على يزيد أو منعه. وهنا جاء الكلام على عدم عزل الإمام بمجرد فسقه على أصح قولي العلماء «بل ولا يجوز الخروج عليه، لما في ذلك من إثارة الفتنة، ووقوع الهرج، وسفك الدماء، ونهب الأموال، وفعل الفواحش مع النساء وغير ذلك مما كل واحدة فيها من الفساد أضعاف فسقه»(٢).

وتولى مكانه ابنه معاوية بن يزيد الخلافة، وكان مريضاً ضعيفاً، لم يستطع مقاومة قوة عبد الله بن الزبير المتزايدة يوماً فيوماً، فامتدَّ نفوذ عبد الله وسلطانه من الحجاز إلى اليمن والعراقين، ومصر وخراسان، وسائر بلاد الشام إلا دمشق وما حولها، ولكن وفاة معاوية سريعاً، وقيام مروان بن الحكم (٦٤ ـ ٦٥ هـ) بالأمر كان سبباً في إنقاذ الدولة الأموية من السقوط الحتمي، ووضع الحد من نفوذ ابن الزبير، ثم استرداد الولايات والمدن الإسلامية منه حتى انحصر سلطانه أيام عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦) في الحجاز، ثم في مكة، حيث استشهد على يدي الحجاج الثقفي سنة ٧٣ هـ بعد تسع سنين من إمارته.

ذكر ابن كثير حوادث هذه السنين باعتبار عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين، وقال فيه: «إنه كان على صفات حميدة، وقيامه في الإمارة كان لله عز وجل، ثم هو كان الإمام بعد موت معاوية بن يزيد لا محالة، وهو أرشد من مروان بن

(١) نفسه ٨/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣، ٢٢٢، ٢٢٤.
(٢) نفس المصدر ٨/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤، ٢٣٢، ٣٣٩ ـ ٣٤٠.

الحكم، حيث نازعه بعد أن اجتمعت الكلمة عليه، وقامت البيعة له في الآفاق، وانتظم له الأمر»[٢].

أما الحجاج بن يوسف الثقفي الذي اعتبره ابن كثير مصداقاً لما جاءت الإشارة إليه في الحديث بـ «المبير» أي القتّال، فكان رأي مؤرخنا فيه: أنه كان ناصبياً جلداً غاشماً، ولكن لم يكن مثل المختار متهماً في دينه، إنما كان «يبغض علياً وشيعته في هوى آل مروان، وكان جباراً عنيداً، مقداماً على سفك الدماء بأدنى شبهة» وبالجملة فقد كان «نقمة على أهل العراق، بما سلف لهم من الذنوب والخروج على الأئمة، وخذلانهم لهم، وعصيانهم ومخالفتهم والافتيات عليهم». وقد تردد ابن كثير في قبول ما نُسب إليه من ألفاظ بشعة شنيعة، ظاهرها الكفر، خوفاً من «أنها رويت عنه بنوع من زيادة عليه، فإن الشيعة كانوا يبغضونه جداً لوجوه، وربما حَرَّفوا عليه بعض الكلم، وزادوا فيما يحكمون عنه بشاعات وشناعات»[١].

هذا الانتباه، والوعي، والإدراك للعوامل الكامنة في مجرى الأحداث، هو الذي يميز ابن كثير عن غيره من المؤرخين الذين يسردون في مؤلفاتهم الحوادث سرداً، ويجمعون في ذلك ما هبَّ ودبَّ، ويتركون أمر الاستنتاج للقارىء. ولكن مؤرخنا يكثر من تعليقاته لإبداء آرائه فيما يذكره في تاريخه لتنبيه القارىء على ما فيه من سقم أو خطأ أو شك، وبذلك ينير السبيل لقارئه الذي يستهدي به إلى ما فيه الحق والصواب، أو ما فيه من الخطأ والتردد والارتياب وأمثلة ذلك كثيرة، منها:

رده الأحاديث الموضوعة في شأن معاوية وذمه[١]. وكذلك في قصة الحسين نبَّه ابن كثير على غرابة أو نكارة المرويات التي وردت فيها، فلم يقبل أن عمر بن سعد بن أبي وقاص هو الذي قتله، وإنما كان أمير الجيش الذي قاتله، وكذلك لم يصح عنده أنَّ عمر أمر أن يوطأ الحسين بالخيل[١]. ورد على الرافضة قولهم في أنَّ أهل بيت الحسين ونسائه حملت على جنائب الإبل

(١) نفس المصدر ٩/١٣١ ـ ١٣٣، ٨/١٢٠، ١٢٢، ١٣٣، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٦، ٢٣١، ٢٣٢ ـ ٢٣٤، ٢٥٩، ٩/٧٧، ١٠/٢١.

البخاتي سبايا عرايا، فنبتت لها الأسنمة من ذلك اليوم لتستر عوراتهن من قبلهن ودبرهن[1]. وأعرض عن ذكر أحاديث أوردها ابن عساكر في ذم يزيد لعدم صحة شيء منها، وذكر بعضها الأخرى ـ وهو أجود ما ورد في هذا الباب ـ مع التنبيه على ضعف بعض الأسانيد وانقطاع بعضها الأخرى[1]. ولم يوافق الشيعة في رميهم يزيد بالزندقة[1]، كما حمل على كذب الروافض فيما روى في وقعة الحرة من أن يزيد شمت بأهل المدينة واشتفى بقتلهم[1]. وكذلك في ترجمة مروان ابن الحكم نبَّه على ضعف طرق الأحاديث التي نسبت فيه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، وأضرب عن إيراد بعضها الأخرى لعدم صحتها[1]. ورد ما جاء عند الواقدي من كلام منسوب إلى خالد بن عبد الله القسري في تفضيل الخليفة على الرسول ﷺ قائلاً: «وهذا الإسناد غريب، وهذا الكلام يتضمن كفراً إن صحَّ عن قائله، وعندي أنَّ خالد بن عبد الله لا يصح عنه هذا الكلام». فقد كان «قائماً في إطفاء الضلال والبدع، كما قدمنا من قتله الجعد بن درهم وغيره من أهل الإلحاد. وقد نسب إليه صاحب «العِقْد الفريد» أشياء لا تصح، لأنَّ صاحب العقد كان فيه تشيّع شنيع، ومغالاة في أهل البيت، وربما لا يفهم أحد من كلامه ما فيه من التشيع، وقد اغترَّ به شيخنا الذهبي، فمدحه بالحفظ وغيره»[1].

وأنكر ابن كثير في فتنة ابن الأشعث سنة ٨١ هـ بيعة أهل العراق له بالإمارة وخلعهم عبد الملك، وكان فيهم علماء مثل الشعبي وسعيد بن جبير وغيرهما أنكر ابن كثير هذا قائلاً: «والعجب كل العجب من هؤلاء الذين بايعوه بالإمارة، وليس من قريش، وإنما هو كندي من اليمن. وقد اجتمع الصحابة يوم السقيفة على أن الإمارة لا تكون إلا في قريش فكيف يعمدون إلى خليفة قد بويع له بالإمارة على المسلمين من سنين فيعزلونه، وهو من صلبية قريش، ويبايعون لرجل كندي بيعة لم يتفق عليها أهل الحل والعقد؟ ولهذا كانت هذه زلة وفلتة،

---

(١) نفس المصدر ٩/ ١٣١ ـ ١٣٣، ٨/ ١٢٠، ١٢٢، ١٣٣، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٦، ٢٣١، ٢٣٢ ـ ٢٣٤، ٢٥٩، ٩/ ٧٧، ١٠/ ٢١.

نشأ بسببها شرٌّ كبير هلك فيه خلق كثير»[١] من العلماء والصلحاء مثل سعيد بن جبير الذي قُتِل على يدي الحجاج فيما بعد، وقد «رويت آثار غريبة في صفة مقتله، أكثرها لا يصح»[١] عند ابن كثير.

تولى أمر الخلافة بعد عبد الملك ابنه الوليد (٨٦ ـ ٩٦) باني جامع دمشق. وهنا نبه ابن كثير على أن الحديث الذي ورد في ذم ولاية الوليد، المقصود به الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ ـ ١٢٦) الفاسق المقتول، وليس صاحبنا الذي كان «صيِّناً في نفسه، حازماً في رأيه، يقال: إنه لا تُعرف له صبوة. ومن جملة محاسنه ما صحَّ عنه أنه قال: لولا أنَّ الله قصَّ لنا قصة قوم لوط في كتابه ما ظننا أن ذكراً يأتي ذكراً، كما تؤتى النساء»[٢]. وكذلك ما رواه الواقدي من سطوة شديدة، وغضب وإكثار في الأكل والجماع والطلاق[٣]، لأنَّ المراد به الوليد الفاسق كما ذكرنا. أما الوليد بن عبد الملك فقد كانت له «همَّة في البناء، بنى جامع دمشق الذي لا يعرف في الآفاق أحسن بناء منه»، وبنى صخرة بيت المقدس، ووسَّع المسجد وجدده[٢]. وقد فتح الله في دولته على أيدي أولاده وأقربائه وأمرائه فتوحات عظيمة «حتى عاد الجهاد شبيهاً بأيام عمر بن الخطاب»[٤].

فقد قُدِّر له اجتماع قُوَّاد كبار من المسلمين مثل قتيبة بن مسلم يقود الجيوش الإسلامية في بلاد الترك، والحجاج الذي لو عاش «لما أقلع عن بلاد الصين»[٥]، ومسلمة أخو الوليد وابناه العباس ومروان وصلوا إلى القسطنطينية «وامتلأت قلوب الفرنج منهم رعباً»[٤]. ومحمد بن القاسم بن أخي الحجاج

---

(١) نفس المصدر ٩/ ٥٤، ٩٩.

(٢) نفس المصدر ٩/ ٧٠، أعاد ابن كثير هذا الكلام في ترجمته، ثم تكلم هناك طويلاً على مفاسد اللواطة وما ورد فيها من الآثار وعيداً لمن يباشرها. ٩/ ١٦٢ ـ ١٦٤.

(٣) نفس المصدر ٩/ ٧٠، ١٦٥، وقد جمع ابن كثير آثاراً وأخباراً في فضائل جامع دمشق، (٩/ ١٤٢ ـ ١٦١) ورد ما جاء من أن الصلاة فيه بثلاثين ألف صلاة (٩/ ١٥٧).

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ٩/ ٨٧ ـ ٨٨.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ٩/ ٨٧ ـ ٨٨، ٢٠٧، ١٨٤، ٢٠٠، ١٩٢.

يجاهد في بلاد الهند، وموسى بن نصير في بلاد المغرب، فوسَّعوا في حدود الدولة الإسلامية، وبلغوا الرسالة المحمدية من أقصى الأرض إلى أقصاها، لذلك حين شبَّه ابن كثير الجهاد في دولة الوليد بالجهاد أيام الفاروق، لم يكن مبالغاً ولا مجانباً أو منحازاً، وإنما عَبَّر عن الحقيقة الواقعة كما هي.

وقال ابن كثير تقديراً لمواقف الأمويين البطولية في الجهاد: «فكانت سوق الجهاد قائمة في بني أمية، ليس لهم شاغل إلا ذلك، قد عَلَت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وبرها وبحرها، وقد أذلوا الكفر وأهلَه، وامتلأت قلوب المشركين من المسلمين رعباً، لا يتوجهون إلى قطر من الأقطار إلا أخذوه، وكان عساكرهم وجيوشهم في الغزو الصالحون والأولياء والعلماء من كبار التابعين، في كل جيش منهم شِرْذمة عظيمة ينصرُ الله بهم دينه». وكان استمرار الجهاد في نظر ابن كثير رمزاً لتقدم الإسلام والمسلمين منذ القرن الأول إلى أيام أولاد هارون الرشيد من بني العباس. وفي دولة بني أُمية في بلاد المغرب، وفي عصر محمود سبكتكين، وأولاده في المشرق. فتملك المسلمون بلاد الروم والترك والهند، «ثم لما بطل الجهاد من هذه المواضع، رجع العدو إليها، فأخذ منها بلاداً كثيرة، ضعف الإسلام فيها». مثل استيلاء الفرنج على بيت المقدس، وغالب بلاد الشام أيام الفاطميين، ثم استردها منهم بنو أيوب[١].

وتولى الخلافة بعد الوليد أخوه سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩) الذي عهد بالخلافة على رأي وزيره رجاء بن حيوة إلى عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١) الذي اعتبره ابن كثير مجدداً ومحيياً للدين الإسلامي، ومصداقاً لما جاء في الحديث الشريف «إن الله يبعث على رأس كل مئة سنة من يجدِّد لها أمر دينها»[١] فقد ظهرت عليه «مخايل الورع والدين والتقشف والصيانة والنزاهة من أول حركة بَدَتْ منه، حيث أعرض عن ركوب مراكب الخلافة»[١] ثم اجتهد في مدة ولايته القصيرة «حتى ردَّ المظالم، وصَرَف إلى كل ذي حق حقه[١]. فكان عمر

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٩/ ٨٧ ـ ٨٨، ٢٠٧، ١٨٤، ٢٠٠، ١٩٢.

في خلافته «حكماً مقسطاً، وإماماً عادلاً، وورعاً ديناً، لا تأخذه في الله لومة لائم»[١].

ذكره ابن كثير بإجلال واحترام وافر، وأورد في ولايته أخباراً مأثورة في فصل خاص[١]، وأطال في ترجمته، وتوسّع في بيان فضائله ومناقبه وسيرته[٢]. ولكن استغرب ما رواه ابن عساكر في دفنه بأن «سقط من السماء كتاب كان فيه بسم الله الرحمن الرحيم، أمان الله لعمر بن عبد العزيز من النار»[٢].

ثم تولى يزيد بن عبد الملك بن مروان (١٠١ ـ ١٠٥) أمر بني أمية، ونفى ابن كثير عنه التهمة التي وجهت إليه في دينه، وقال إنما ذلك ابنه الوليد الفاسق (١٢٥ ـ ١٢٦). أما يزيد بن عبد الملك «فما كان به بأس»[١] عند ابن كثير.

وجاء بعده هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥) الذي اعتبر ابن كثير موته نهاية لملك بني أمية، مع أنهم حكموا بعد ذلك نحواً من سبع سنين، ولكن اضطرب أمرهم بعده، فثارت منازعات وحروب وفتن داخلية فيما بينهم، والعباسيون كانوا لهم بالمرصاد، فسلبوا منهم الخلافة سنة ١٣٢ هـ، حين قتلوا مروان الحمار (١٢٧ ـ ١٣٢) آخر خلفاء بني أمية. وهنا ذكر ابن كثير الأخبار النبوية التي وردت في انقضاء دولة بني أمية، ومدة حكمهم وابتداء دولة بني العباس[١]. وأكثر هذه الأخبار ضعيفة منكرة، أشار ابن كثير إلى ما فيها من ضعف أو نكارة أو إرسال. كما حمل ما جاء في تفسير الآية: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ على أن المقصود من «ألف شهر»، مدة مملكة بني أمية[١].

المصادر

اعتمد ابن كثير في جمع وترتيب هذا القسم على أقدم المصادر التاريخية لتاريخ الإسلام، منها ما استفاد منها ابن كثير عن طريق مؤرخين مثل ابن جرير

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٩٦/٩ ـ ٢٠٧، ١٩٢، ٢١٩، ٢١١، ٢٣٢، ٤٨/١٠ ـ ٥١.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٩٦/٩ ـ ٢٠٧، ١٩٢، ٢١٩، ٢١١، ٢٣٢، ٤٨/١٠ ـ ٥١.

الطبري، وابن الجوزي، ومنها ما رجع إليها ابن كثير مباشرة بدون واسطة أحد المؤرخين.

أقدم المصادر التاريخية

فمن مصادر ابن كثير في تاريخ الردة أيام أبي بكر، والفتوح الإسلامية الأولى أيام الخلافة الراشدة **سيف بن عمر التميمي** (المتوفى سنة ١٨٠هـ)، وهو من أصحاب السير والأحداث، وله كتاب «الفتوح الكبير»، و«الردة» وكتاب «الجمل» و«مسير عائشة وعلي»[١] ولكن مؤلفاته ضاعت، فلم يصلنا منها شيء. إلا أنَّ الطبري نقل عنه في تاريخه، أولها في حوادث سنة عشرة، وذلك في وثوب الأسود العَنَسي باليمن، ومسيلمة الكذاب في اليمامة[٢]. وآخرها سنة ٣٦ هـ في قدوم النعمان بن بشير بقميص عثمان وغيره إلى الشام[٢]. وقد اتخذه الطبري عمدته في أخبار الردة، وفي أخبار الفتوح والحوادث أيام الخلفاء الراشدين، وفضله على غيره من المؤرخين الذين عرفوا باطلاعهم الواسع على أخبارها مثل الواقدي والمدائني. علماً بأنَّ سيف بن عمر ضعيف عند أكثر المؤرخين والمحدثين[٣].

وكذلك اتبع ابن كثير الطبري في تفضيل سيف على غيره، فأكثر عنه في أخبار الردة، حيث تطغى رواياته على جميع مصادره. ثم نقل عنه مع مصادر أخرى في الغزوات والفتوح الإسلامية الأولى، أيام الخلافة الراشدة إلى مقتل عثمان.

ولا شك أنَّ مصدر ابن كثير في ذلك كله تاريخ الطبري الذي احتوى على أخبار وروايات أقدم الإخباريين والرواة والمؤلِّفين في السير والتاريخ، وبذلك كان مصدراً رئيسياً كبيراً لجميع المؤلفين في تاريخ صدر الإسلام، منهم مؤرخنا ابن كثير الذي صَرَّح في عدة مواضع بعبارات تؤكِّد أنَّ مأخذه في أقوال سيف: تاريخ الطبري، كما كان مرجعه في أقوال غيره من المؤرخين القدامى.

---

(١) ابن النديم، الفهرست ١٣٧.

(٢) ابن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك ٣/ ١٤٧، ٤/ ٥٦٢.

(٣) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٤/ ٢٩٥.

فإننا نجد عبارات تالية لابن كثير: «ابن جرير في ذلك تبع سياق سيف»[١]، «وذكر ابن جرير فيما قاله سيف»[٤]، و«قال ابن جرير في رواية سيف»[٤]، «ذكر ابن جرير من طريق سيف»[٤]، و«ذكر ابن جرير بسنده عن سيف»[٤]، و«قال ابن جرير وزعم سيف»[٤]، و«هذا ذكر سياق سيف وغيره على ما أورده ابن جرير وغيره»[٢]، فإن هذه العبارات تؤيِّد ما ذهبنا إليه من أنَّ تاريخ الطبري كان مصدر ابن كثير في أكثر روايات سيف.

إلا أنَّ هناك بعض الشواهد على أنَّ مصدر ابن كثير في روايات سيف ليس الطبري فقط، بل يجب أن تكون هناك مصادر أخرى اعتمد عليها مؤرخنا، فقد قلنا: إن أول رواية عن سيف وردت في تاريخ الطبري كانت في حوادث سنة عشرة هجرية[٣]، على حين تجد عند ابن كثير بعض الأخبار عن سيف منذ حوادث سنة ثلاث هجرية. فقد نقل عنه في مقتل حمزة بيتين من الشعر في قتل مسيلمة الكذاب عن عدي بن سهل الذي قيل فيه: إنه كان شريك الوحشي في قتل مسيلمة[٤]، ثم ذكر مؤرخنا بعض روايات سيف في وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي زوجاته[٣]، ولم نجد تلك الروايات في تاريخ الطبري. وكذلك لم نجد عند الطبري ما ذكره ابن كثير عن سيف من أبيات في رثاء عثمان، وعدد القتلى يوم صفِّين، ومدة المقام فيها، وروايات في فضائل علي، وفي تراجم سعد بن أبي وقاص، ومعاوية بن أبي سفيان[٣].

على هذا يجب أن يكون اعتماد ابن كثير في ذلك على مصادر أخرى غير الطبري، ومن الجائز أن يكون اعتماد ابن كثير في ذلك على «المنتظم» لابن الجوزي. لأنَّ ابن كثير بعد أن نقل عن سيف ومؤرخين آخرين في عدد القتلى يوم صفِّين، ومدة مقام الفريقين فيها، قال: «هذا كله ملخص من كلام

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٧/ ٢٥، ٧٦، ٨٥، ٧٩، ١٣٢، ١٢٢، ٥.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٧/ ٢٥، ٧٦، ٨٥، ٧٩، ١٣٢، ١٢٢، ٥.
(٣) ابن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك ٣/ ١٤٧.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ٤/ ١٩، ٥/ ٢٥٦، ٢٦٢، ٢٧١، ٢٩٢، ٢٩٥، ٣٠٦، ٧/ ١٩٦، ٢١٣، ٢٧٤، ٣٤٦، ٨/ ٧٦، ١٢٧، ٧/ ٢٧٤.

ابن جرير وابن الجوزي في «المنتظم»»[٣]. أما الطبري فقد ذكرنا آنفاً أنه لم يورد له رواية في تاريخه قبل سنة ست وثلاثين. وعلى هذا يكون اعتماد ابن كثير في ذلك على ابن الجوزي، ولكننا لا نستطيع أن نقطع في ذلك، حتى ينشر النصف الأول من «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم»[١]، فنصل إلى رأى نهائي بعد المقارنة بين الكتابين.

ويأتي بعد سيف دور أبي مخنف **لوط بن يحيى** (المتوفى سنة ١٥٧)، وهو من أقدم الإخباريين المعروفين، تخصَّص بالأنساب والأحداث، لا سيما أحداث العراق والفتوح. ذكر له ابن النديم مؤلفات تزيد على العشرين كتاباً[٢]، واعتمد عليه الطبري حقيقة حين اختفى صوت سيف من معركة صفِّين[٣].

وكذلك اعتمد عليه ابن كثير الذي لم يكن له فيه رأي حسن، فقد قال في مقتل الحسين: إنَّ أبي مخنف «كان شيعياً، وهو ضعيف الحديث عند الأئمة، ولكنه أخباري حافظ، عنده من هذه الأشياء ما ليس عند غيره، ولهذا يترامى عليه كثير من المصنفين في هذا الشأن ممن بعده»[٤].

وقد أعاد ابن كثير هذا الرأي في ذكر خروج المختار الثقفي، وقتل قتلة الحسين، فذكر توسُّع الطبري في هذا المقام بروايات أبي مخنف «وهو متَّهم فيما يرويه، لا سيما في باب التشيع. وهذا المقام للشيعة فيه غرام وأيُّ غرام، إذ فيه الأخذ بثأر الحسين وأهله من قتلتهم»[١]. ولكن مع ذلك لم يستطع ابن كثير أن يعرض عن روايات أبي مخنف بل أكثَرَ منها، واعتمد عليها منذ الخلافة الراشدة إلى أواخر الدولة الأموية.

---

(١) نشر النصف الأخير من المنتظم في ستة مجلدات من سنة ٢٥٧ هـ (المجلد الخامس، القسم الثاني) إلى سنة ٥٧٤ هـ (المجلد العاشر) دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، سنة ٥٧ ـ ١٣٥٨ هـ.

(٢) ابن النديم، الفهرس ١٣٦.

(٣) جواد علي موارد تاريخ الطبري، مجلة المجمع العلمي العراقي ١/١ (ذو القعدة سنة ١٢٦٩ هـ) ١٨٢.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ٨/ ٢٠٢، ٢٧٤.

فأول رواية وردت عن أبي مخنف في «البداية والنهاية» في حوادث سنة أربع عشرة، حيث ذكر عنه رواية في إرسال عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان إلى أرض البصرة[1]، ثم أكثر عنه في وقعة صفّين، وفي قصة التحكيم، فخروج الخوارج على علي[2]. أما في أخبار الدولة الأموية فقد كان أكثر اعتماد ابن كثير عليه في خروج الحسين بن علي من مكة إلى العراق، ومقتله[3]، وفي خروج المختار الثقفي، وقتله قتلة الحسين، ثم هلاكه على يد مصعب بن الزبير[1]، وفي فتنة ابن الأشعث[1]، وكانت آخر رواية وردت عنه في «البداية والنهاية» في مقتل زيد بن علي بن الحسين سنة ١٢٢ هـ[1].

وقد كان اعتماد ابن كثير في أكثر روايات أبي مخنف على تاريخ الطبري، مثل سيف المذكور آنفاً. فقد صرَّح ابن كثير في بعض الأماكن أنَّ ما يذكره عن أبي مخنف هو مأخوذ عن طريق ابن جرير[1]. ولكن هذا لا يمانع أن يكون هناك مصدر أو مصادر أخرى نقل منها ابن كثير ما لم يجد عند الطبري. فقد صرَّح ابن كثير في مكان بعد أن نقل عن أبي مخنف والهيثم بن عدي «هذا ما أورده ابن جرير وغيره في هذا المقام»[1]، وهذا يدل على أنه يعتمد في روايات المؤرخين القدامى على مصادر أخرى مع ابن جرير، فإنَّ رواية أبي مخنف عند ابن كثير في فتح بيت المقدس[4] مثلاً لم نجدها عند الطبري. فهي من مصدر آخر، لم يصرح ابن كثير باسمه.

أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن السندي المدني (المتوفى سنة ١٧٠ هـ)،

---

(١) نفس المصدر ٧/ ٤٨ وانظر أيضاً تاريخ الطبري ٣/ ٥٩١.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٧/ ٢٦١ ـ ٢٦٢، ٢٧٢ ـ ٢٧٤، ٢٨٢ ـ ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٩، ٣١٥، ٨/ ١٥٧ ـ ٢١٠، ٢٥٠ ـ ٢٩٣، ٩/ ٣٣١، ٧/ ٢٦٦، ٣٠٩، ٨/ ١١٥، ٧/ ١٥، ٧٧/ ٢، ٧/ ٨٩/ ٢.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ٧/ ٢٦١ ـ ٢٦٢، ٢٧٢ ـ ٢٧٤، ٢٨٢ ـ ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٩، ٣١٥، ٨/ ١٥٧ ـ ٢١٠، ٢٥٠ ـ ٢٩٣، ٩/ ٣٣١، ٧/ ٢٦٦، ٣٠٩، ٨/ ١١٥، ٧/ ١٥، ٧٧/ ٢، ٧/ ٨٩/ ٢.

(٤) نفس المصدر ٧/ ٥٧.

صاحب المغازي[1]. وهو إن كان ضعيفاً عند المحدثين في الحديث إلا أنه قيل أن «له مكانة في العلم والتاريخ، وتاريخه احتج به الأئمة»[2]، فقد نقل الطبري عنه «في أخباره عن الأنبياء وعن سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي الحوادث إلى أيام وفاة أبي معشر تقريباً»[3].

أما في «البداية والنهاية»، فقد كثرت الإشارة إلى أقوال أبي معشر منذ عصر الخلافة الراشدة إلى نهاية الدولة الأموية في تحديد تواريخ الحوادث والحروب والفتوح والوفيات، وفي تحديد أسماء أمراء الحج لكل سنة، وأحياناً في تسمية عمال المدن الإسلامية، وتعيين أمراء الجيش، وعزل الولاة وما إلى ذلك. ولكننا لم نجد له روايات وأخبار في الحوادث في تاريخ ابن كثير، وقد تبيَّن لنا من مراجعة تاريخ الطبري أن أقوال أبي معشر نقلها ابن كثير من تاريخ الطبري.

وقد لاحظنا أنَّ ابن كثير خلط في تحديد سنة طاعون عمواس عن أبي معشر، فقل عنه مرة، أنه كان ذلك سنة ست عشرة[4]، ثم نسب إليه مرة أخرى بأن كان ذلك سنة ثماني عشرة[1]. وهذا الأخير هو المنسوب إليه في الطبري[5]. وهذا يدل على أنَّ لقول الأول أخذه ابن كثير من مصدر آخر غير الطبري، ولم يتنبه إلى ما بين القولين من تعارض.

الوليد بن مسلم الدمشقي (١١٩ ـ ١٩٥)، من أصحاب السير والأحداث والمغازي والملاحم. وهو يعتبر «أعلم أهل الشام برواية أهل الشام»[6]. ذكر له

(١) ابن النديم، الفهرس، ١٣٦.
(٢) ابن حجر، تهذيب التهذيب ١٠/ ٤٢٢.
(٣) جواد علي، موارد تاريخ الطبري، مجلة المجمع العلمي العراقي ٣/ ١ (سنة ١٣٧٣ هـ)/ ٤٣.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ٧/ ٥٧، ٧٨، ٩٠.
(٥) ابن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٦٠.
(٦) جواد علي، موارد تاريخ الطبري، مجلة المجمع العلمي العراقي ٣/ ١ (سنة ١٣٧٣ هـ)/ ٤٣.

ابن النديم «المغازي»[١]. وقال الذهبي: إن له سبعين كتاباً[٢].

اقتصد ابن كثير في الأخذ برواياته، فلم يتجاوز ذكر رواياته عنده من عشرين موضعاً. منها ما هو في فتوح الشام، وفضائلها، وفضائل دمشق وجامعها، ومنها ما هو في التراجم، آخرها في ترجمة الأوزاعي سنة ١٥٧[٣]. ولم يصرح ابن كثير بمصدره في روايات الوليد بن مسلم مما يوحي أنه اعتمد في ذلك على مصادر أخرى، مثل «تاريخ دمشق» لابن عساكر الذي كان عليه اعتماد ابن كثير في أخبار دمشق وتراجم أهلها.

الهيثم بن عدي (١١٤ ـ ٢٠٧)، عالمٌ بالشعر والأخبار، ألَّف فيها وفي المثالب والمناقب والمآثر، ذكر له ابن النديم كتباً كثيرة، منها التاريخ المرتَّب على السنين، وتاريخ الأشراف، وكتاب الخوارج[٤]، وكان رأي ابن كثير في الكتاب الأخير الذكر أنه من أحسن ما صُنِّف في ذلك»[٥].

ويبدو أن مؤرخنا استفاد من هذا الكتاب مباشرة، فإنه نقل عنه روايات كثيرة في أخبار الخوارج منذ وقعة صفّين، وما تبعها من التحكيم، ثم خروج الخوارج، وقتال على لهم، وفي خروج الخريت بن راشد عليه، ثم وفاته شهيداً على يد أحد هؤلاء الخوارج[٥].

وقد صرَّح ابن كثير باسم كتاب «الخوارج» للهيثم بن عدي في عدة مواضع[٥]، مما يدل على رجوعه إليه والأخذ منه مباشرة. ولكنه قال مرة بعد ذكر عدة رواياته: «فهذا ما أورده ابن جرير الطبري وغيره في هذا المقام»[٥]. ولكن هذا الكلام غير موافق لتاريخ الطبري المطبوع، فإنَّ ما أورده ابن جرير في

---

(١) ابن النديم، الفهرس ١٥٩.

(٢) الذهبي، تذكرة الحفاظ ١/٢٧٩.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١٠/١١٧، ١٢٠.

(٤) ابن النديم، الفهرس ١٤٥، وانظر أيضاً وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/٢٦٩، مطبعة السعادة بالقاهرة، سنة ٤٨ ـ ١٩٤٩ م.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ٧/٣٠٦، ٣٧٣ ـ ٣٢٨، ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٨٨، ٢٨٩، ٣٠٤، ٢٨٩.

وقعة صفين والخوارج هو كله برواية أبي مخنف، ولم ينقل الطبري عن الهيثم بن عدي[1].

وبالإضافة إلى روايات الهيثم بن عدي في الخوارج، نجد روايات أخرى له في ذكر حاتم الطائي، وفي أول من أسلم، وفي أولاد الرسول عليه الصلاة والسلام[2]، إلى جانب قوله في ترجمة أُبي بن كعب في تحديد تاريخ وفاته سنة تسع عشرة[4]، ثم أقواله في تراجم العصر الأموي[4]. وهذه الروايات ربما تكون مأخوذة من مؤرخين حفظوا أقواله ومروياته في مؤلفاتهم في التاريخ والتراجم.

أبو الحسن علي بن محمد المدائني (١٣٥ ـ ٢٢٥)، مؤرِّخ شهير من زعماء رواة البصرة، اشتهر بصدق الرواية، وسلك طريقاً وسطاً بين رواة الكوفة ورواة المدينة، فأخذ الروايات العراقية، وتناولها بأساليب النقد التي تتمشى مع مذاهب أهل الحديث، وبذلك أصبح مرجعاً هاماً للمؤرخين الذين جاؤوا بعده. ذكر له ابن النديم أكثر من مئتي كتاب، في أخبار قريش، وأخبار النبي عليه الصلاة والسلام، وأخبار مناكح الأشراف، وأخبار النساء، وأخبار الخلفاء، وفي الأحداث، والفتوح، وأخبار العرب، وأخبار الشعراء[3]. وهي في الأصل رسائل صغيرة قصيرة عن أحداث تاريخية وفتوحات إسلامية إلى جانب تراجم بعض الأفراد. ومهما ترددنا في قبول عدد الرسائل المذكورة، ونسبتها إلى المدائني، وحملناه على المبالغة[4]، فإنَّ هذا يدل على إكثاره في التأليف.

اعتمد عليه الطبري في تاريخ الخلافة الراشدة والدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية، وخاصة فيما يتعلق بتاريخ البصرة وخراسان، فقد كان له ولع خاص بتاريخهما. وهكذا نجد عند ابن كثير اهتماماً بالغاً برواياته في الحوادث والتراجم والمعارك.

---

(١) ابن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٥/٥٦٣ ـ ٦/١٣٢، واعتمادنا في ذلك على طبعة دار المعارف بالقاهرة، سنة ٦٠ ـ ١٩٦٨ م.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٢/٢١٧، ٣/٢٨، ٥/٣٠٧، ٧/٦٨، ٩٧، ٨/٦٨، ٧٨، ١٠٠، ٣٠٥، ٩/٦٦، ١٢٤، ١٧٩، ٢٦٢.

(٣) ابن النديم الفهرس ١٤٧ ـ ١٥٢.

(٤) مقال الأستاذ جب، دائرة المعارف الإسلامية ٤/٤٨٩ (الترجمة العربية).

جاء ذكره أول مرة في «البداية والنهاية» في بعث خالد بن الوليد إلى العراق سنة اثنتي عشرة هجرية[١]، وآخرها روايته في مهلك أبي مسلم الخراساني سنة ١٣٧ هـ[٣] وأغلب رواياته في الخلافة الراشدة في تحديد تواريخ الحوادث والمعارك، وما إلى ذلك. كما أنَّ أكثر رواياته في الدولة الأموية في التراجم. وقد صرح ابن كثير في بعض المواضع باسم تاريخ الطبري كمصدره في روايات المدائني، مثل قوله: «ذكر ابن جرير من طريق المدائني»[٢]، ولكن هناك روايات في وقعة الحرة[٤]، وفي تراجم كثير من الأعلام[٣] لم نجدها عند الطبري، مما يشير إلى أنَّ مأخذه فيها «المنتظم» لابن الجوزي، أو «تاريخ الإسلام» للذهبي، أو غيرهما من الكتب التاريخية التي اعتمد ابن كثير عليها في تاريخه.

خليفة بن خياط (٢٠٥ ـ ٢٧٩)، محدِّث نسَّابة إخباري، اعتبره ابن كثير أحد أئمة التاريخ[٤]، وأورده أقواله كثيراً منذ ولادة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى أوائل العصر العباسي في تحديد تواريخ الغزوات والفتوح، وفي تحديد سني وفاة الأعيان، وتعيين أعمارهم، ومكان وفاتهم، أولها قوله في ولادة الرسول عليه الصلاة والسلام عام الفيل[١]، وآخرها قوله في وفاة الأوزاعي سنة ١٥٧ هـ[١].

ذكر له المترجمان كتاب التاريخ في عشرة أجزاء، والطبقات في ثمانية أجزاء[٥] ولكن ابن كثير لم يصرح باسم مؤلفاته في ترجمته له، أو أثناء ذكر أقواله ورواياته، مما يدل على اعتماده في ذلك على المصنفين الآخرين في التاريخ والتراجم الذين رجعوا إلى مؤلفاته، وحفظوا مقتبساتها في كتبهم.

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٦/ ٣٤٢، ١٠/ ٦٤.

(٢) ابن كثير، والبداية والنهاية ٧/ ٢٢٦، ٨/ ٢٧٧، ٩/ ١٤٠، ٨/ ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢١ ـ ٢٣٣، ٢٤٠، ٢٤١.

(٣) نفسه ٧/ ٣٣، ٨/ ٨، ٤٠، ١١٨، ١٢٥، ١٣٨، ٢٠٧ ـ ٢٠٨ إلخ.

(٤) نفسه ١٢/ ٣٢٢، ٢/ ٢٦٢، ١/ ١٢٠.

(٥) الذهبي تذكرة الحفاظ ٢/ ٢٢، وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ١٧٢، حاجي خليفة، كشف الظنون ١/ ٢٢٥، ٢٣٠.

الزبير بن بكار (١٧٢ ـ ٢٥٦)، وهو من علماءِ الأنساب والأخبار، «وكان شاعراً صدوقاً وروابة نبيل القدر»، ذكر له ابن النديم مؤلفات في الأنساب والأخبار[١]، كان عليها اعتماد المؤرخين بعده.

ورد اسمه أول مرة عند ابن كثير في نقل اسم ذي القرنين، ومدة ملكه[٢]، ثم أخذ عنه معلومات في النسب وأخبار العرب وأنساب قريش، وروااياته في ميلاد الرسول ﷺ، ووفاة أبيه وأمه، وفي ذكر أولاده من خديجة، ثم أكثر من رواياته، في أخبار الصحابة، وتراجم العصر الأموي، وأوائل العصر العباسي، آخرها في ترجمة المعتز ابن المتوكل سنة ٢٥٥ هجرية[٣].

لم يصرح ابن كثير بمصدره في روايات الزبير بن بكار، وقد عثرنا على بعض رواياته ذكرت ضمن روايات السهيلي[٤]، في نسب قريش، وفي قتلى أحد والصلاة عليهم، مما يوحى بأنَّ اعتماده في ذلك كان على مؤرخين آخرين احتوت مؤلفاتهم رواياته في الحوادث والتراجم.

ابن أبي خيثمة (٢٠٥ ـ ٢٧٩)، وهو أبو بكر أحمد بن زهير بن حرب بن شداد، المحدِّث الفقيه، الأخباري الأديب، ألف كتاباً في التاريخ العام[٥] من الخليقة إلى أيامه على طريقة أهل الحديث في ذكر السند، فأثنى عليه الخطيب قائلاً: «لا أعرف أغزر من تاريخه»[٦]. اعتمد عليه الطبري في أخبار الدولة الأموية، وأوائل الدولة العباسية[٧].

ويبدو أن ابن كثير لم يرجع إلى تاريخه، ولذلك اقتصر ذكره عنده في

---

(١) ابن النديم، الفهرس، ١٦٠ ـ ١٦١.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٢/ ١٠٤، ١٠٦.

(٣) ابن كثير البداية والنهاية ١١/ ١٦.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ٢/ ٢٠٤، ٤/ ٤٢، وانظر الروض الأنف للسهيلي ١/ ٧٢، ٢/ ١٤٢.

(٥) ابن النديم، الفهرس ٣٢١، وانظر تذكرة الحفاظ للذهبي ٢/ ١٥٦.

(٦) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ٤/ ١٦٢ مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٤٩ هـ.

(٧) جواد علي موارد تاريخ الطبري، مجلة المجمع العلمي العراقي ١/ ١ (ذو القعدة ١٣٦٩ هـ)/ ١٨٣.

التراجم عامة، وأول مرة وردت الإشارة إليه في «البداية والنهاية» في زواج الرسول عليه الصلاة والسلام بأم حبيبة بنت أبي سفيان، حيث ذكر عنه وفاتها قبل وفاة معاوية بسنة واحدة[١]. ثم ذكر أقواله في أولاد الرسول عليه الصلاة والسلام، ومواليه وإمائه وكتَّابه، وروايتان له في دلائل النبوة[٦]، ثم رواياته في تراجم العصر الأموي إلى أوائل الدولة العباسية، آخرها في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل سنة ٢٤١ هـ[٦]. وقد ذكر عنه خبراً طويلاً في خروج الحارث بن سعيد المتنبي الكذاب بدمشق، ومقتله سنة تسع وسبعين هجرية[٦].

وقد رجع ابن كثير إلى كتاب «سيرة علي»، لأبي إسحاق إبراهيم بن الحسين بن ديزيل (المتوفى سنة ٢٨١) المحدِّث، وصرَّح باسم هذا الكتاب أثناء ذكر مروياته كمصدره[٢]، ونُسب إليه في ترجمته له بـ «مجلد كبير في وقعة صفّين»[٣]. أما المترجمون الآخرون له فلم يذكروا له جزءاً في الحديث[٤]، وفيه حديث الإفك[٥].

اقتصر ذكر هذه السيرة عند ابن كثير في وقعة صفّين[٦]، ومقتل عمار بن ياسر في هذه المعركة، وفضائله[٥]، كما نقل عنه رواية في استحلال عمرو بن العاص مال قبطي كان يظهر الروم على عورات المسلمين[٥].

ومن الغريب أنَّ ابن كثير سكت على روايات هذا الكتاب، مع أنَّ علامات الوضع والاختلاق واضحة عليها، وهي: أنَّ راهباً عرض في طريق عليّ في

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٤/ ١٤٥، ٦/ ١٦٣، ٢٤٥، ١٠/ ٣٤٣، ٩/ ٢٧ ـ ٢٩، ٧/ ٢٠٧، ٢٧٥.

(٢) ابن كثير، والبداية والنهاية ٤/ ١٤٥، ٦/ ١٦٣، ٢٤٥، ١٠/ ٣٤٣، ٩/ ٢٧ ـ ٢٩، ٧/ ٢٠٧، ٢٧٥.

(٣) نفس المصدر ١١/ ٧١.

(٤) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين ١/ ٢٤، مطبعة الترقي، دمشق سنة ٧٦ ـ ١٣٨١ هـ، معجم المصنفين المتونكي ٣/ ١١٥.

(٥) حاجي خليفة، كشف الظنون ١/ ٥٨٣.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية ٧/ ٢٥٤، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٧٠، ٣١١، ٣١٥، ٢٥٤.

مسيره إلى صفّين، وأسلم على يديه، ورافقه وقاتل معه حتى قُتِل في هذه المعركة. وكان سبب إسلامه ومرافقته علياً أنه وجد فيما توارثه أهل الكتاب كتاباً، كتبه أصحاب عيسى، جاء فيه تصديق الرسول عليه الصلاة والسلام، وصفة علي، ومسيره عن طريق شاطىء الفرات، وجاء فيه: «فمن أدرك ذلك العبد الصالح، فلينصره، فإنَّ القتل معه شهادة». فلما سمع على هذا الكتاب لم ينكره، بل قال: «الحمد لله الذي لم يجعلني عنده نسياً منسياً، وذكرني في كتب الأبرار»(٥).

وهذا الخبر يذكِّرنا بموقف عمر بن الخطاب في مثل هذه الحكاية، حين أبلغه كعب الأحبار، بأنه سوف يقتل بعد ثلاثة أيام، زاعماً أنه وجد هذا، وصفة عمر في التوراة. فسأله عمر متندراً: آلله، إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة(١)؟ والمظنون من علي أيضاً هذا الوعي واليقظة والتنبه فيما يدعيه اليهود والنصارى، بدل أن يطمئن إليهم، ويحمد الله على أنه لم ينسه، وعلى أنه ذكره في كتب الأبرار.

تاريخ الرسل والملوك للطبري:

والآن نذكر أهم الكتب التاريخية وأوسعها أثراً في تكوين تاريخ ابن كثير. وهو «تاريخ الرسل والملوك»، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠)، وهو موسوعة تاريخية قيمة، من أول المؤلفات التاريخية القديمة التي دوّنت على السنين، وبقيت إلى عصرنا. فإن التواريخ القديمة التي قيل فيها إنها كتبت قبل الطبري، أتى عليها الدهر، فلا نجد منها الآن إلا أسمائها عند بعض المترجمين لأصحابها، مثل التاريخ المرتب على السنين، للهيثم بن عدي (١١٤ ـ ٢٠٧)(٢)، وتاريخ جعفر بن محمد بن الأزهر بن عيسى (المتوفى سنة ٢٧٦) الذي قيل فيه أيضاً أنه وضع على السنين(٣).

أما تاريخ الطبري الذي احتوى على التراث الإسلامي، والنتاج التاريخي في

---

(١) ابن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٩١.

(٢) ابن النديم، الفهرس ١٤٥، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ٢٦٩.

(٣) ياقوت، إرشاد الأريب ٢/ ٣٤٧.

القرون الثلاثة الأولى للإسلام، وتمكن من مجالدة الزمان، فهو يعدُّ من المصادر الرئيسية الهامة التي لا يستغني عنها الباحث في دراسة التاريخ الإسلامي الأول. «أسبغ الطبري عليه تدقيق المتكلمين وطول نَفَسِهم، وما للفقيه العالم من دقة وحب للنظام، وما للسياسي القانوني العملي من بصيرة في الأمور السياسية، كل هذه الخصائص أدت إلى إحلاله مكانة مرموقة دائمة متزايدة في الأوساط الفكرية السنية في الإسلام، فكان لكتابه أثر هائل على المؤرخين التالين الذين اعتبروه مثلاً يحتذى»[1] ومن هؤلاء المؤرخين مؤلفنا ابن كثير في تاريخه «البداية والنهاية».

وهناك وجه شبه كبير بين مؤرخنا ابن كثير، وبين ابن جرير الطبري، فكلاهما عالمٌ حافظ، مفسِّر محدِّثٌ، فقيه مؤرخ. وكلاهما ألف في التاريخ العام، إلى جانب التأليف في التفسير والفقه وغير ذلك. فلا غرو أن يطمئن إليه مؤرخنا، ويعتمد عليه أكثر من غيره. فقد أسلفنا بيان اعتماد ابن كثير على الطبري في روايات أقدم المؤرخين المسلمين، والآن نذكر ابن جرير مستقلاً كمصدر ابن كثير في تاريخه البداية والنهاية.

اعتمد ابن كثير على تفسير ابن جرير الطبري في قسم المبتدأ من «البداية والنهاية» أكثر من تاريخه، كما ذكرنا في كلامنا على مصادر قسم المبتدأ. ثم أخذ رواياته وأقواله واختياراته في السيرة النبوية عن تفسيره وتاريخه، وهو الأكثر، ولكن قلَّ ذكره فيها عن ابن إسحاق الذي اتخذه ابن كثير عمدته في هذا المقام مع دواوين المحدثين، كما مرَّ في بيان مصادر قسم السيرة.

أما في قسم الخلافة الراشدة، فتاريخ الطبري يعتبر من أهم مصادر ابن كثير في هذا القسم مع دواوين المحدثين التي ورد ذكرها في الفصول التي لها علاقة بمعتقدات دينية وخلافات مذهبية. كما أنَّ تاريخ الطبري مصدر رئيسي كبير لابن كثير في تاريخ الدولة الأموية، والعصر العباسي الأول إلى أواخر القرن الثالث الهجري، أو بالتحديد إلى حوادث سنة ٢٦٩ هـ، حيث اختصر ابن كثير

---

(١) فرانز روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين ١٨٦، ترجمة الدكتور صالح العلي، مكتبة المثنى ببغداد، سنة ١٩٦٣ م.

ما ذكره ابن جرير مبسوطاً في تخريب الموفق مدينة صاحب الزنج[1]. وهذا كان آخر ما نقله مؤرخنا عن ابن جرير مع تصريح باسمه.

ويلاحظ أن ابن كثير اتبع في بيان أكثر الحوادث والوقائع والحروب في «البداية والنهاية» منذ الخلافة الراشدة؛ ترتيب تاريخ الطبري، وصرَّح في كثير من الأماكن أنَّ ما ذكره هو تبعاً لابن جرير[2].

وقد ثبت لنا من مقارنة تاريخي ابن كثير وابن جرير أنَّ مؤرخنا لا يتابع الطبري في كل تفصيلاته عن الحوادث والحروب، بل يعرض عن كثير منها، ويلخص من سياقاته الطويلة المختلفة المتضاربة ما يراه مناسباً، ويضيف إليها من غيره، مثل ابن الجوزي وابن الأثير ما يراه ضرورياً ومكملاً للحوادث، ثم يذكرها في سياق واحد متماسك على لسانه، ولا يذكر أسماء المؤرخين الذين اعتمد عليهم إلا في الأماكن التي ينقل فيها عنهم للاستشهاد بما ذهبوا إليه من أقوال واختبارات؛ لذلك نجد أنه يذكر حوادث أكثر السنين أولاً بدون أن ينسبها إلى أحد من المؤرخين، ثم حين يصل إلى موضع الخلاف أو مكان الاستشهاد يذكر أسماءَهم. وهذا كله يدل على وعي ابن كثير للحوادث، وإدراكه لتفاصيلها، ومقدرته على سردها في أسلوب مركز مستقل.

وقد استفاد ابن كثير من كتابين آخرين للطبري، وأشار إليهما وهما:

أولاً: **«كتاب في حديث غدير خم»**، جاءت الإشارة إليه في بيان حجة الوداع، حيث ذكر أنَّ النبي ﷺ خطب في عودته من الحج بمكان يقال له: غدير خم قرب الجحفة، بيَّن فيها فضل علي بن أبي طالب، وبراءة عرضه مما نسب إليه من الجور والجفاء في أرض اليمن. وهذه الخطبة من حجج الشيعة في تفضيل عليٍّ على غيره. ذكر ابن كثير أنَّ الطبري اعتنى بأمر هذا الحديث، فجمع فيه مجلدين، ساق فيه الغثَّ والسمين، والصحيحَ والسقيمَ على ما جرت به عادة كثير من المحدثين[3]. وقد عرف ابن كثير أمر هذا الكتاب عن شيخه

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١١/٤٣، وانظر تاريخ الطبري ٩/٦٤٥ ـ ٦٥٢.
(٢) تاريخ ابن كثير، ٧/١٣، ٦١، ٧٦، ١٠٥ إلخ.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ٥/٢٠٨ ـ ٢١٤، ٧/٣٤٦ ـ ٣٥٠، ٣٥٣.

الذهبي الذي وجده في نسخة مكتوبة عن ابن جرير[1]. فذكر ابن كثير طرق هذا الحديث عن أعلام المحدِّثين والمؤرِّخين منهم ابن جرير في كتابه المذكور[1]، وتكلم عليها إسناداً ومتناً، ووصل إلى نتيجة أنه ليس للشيعة في هذا الحديث وجه استدلال على تفضيل عليٍّ على غيره من الصحابة، وإنما هو براءة عرضه مما نسب إليه[1].

ثانياً: كتاب في «**حديث الطير**»، وهو أيضاً يتصل بفضل علي، فقد روي أن النبي ﷺ أُهدي إليه طير مشوي، فدعا: «اللهم ائتني بأحبِّ خلقك إليك، يأكل معي هذا الطير»، فجاء علي، وأكل معه. وقال ابن كثير: «ورأيت فيه مجلداً في جمع طرقه وألفاظه للطبري، ثم رأيت في رده وتضعيفه سنداً ومتناً كتاباً للقاضي أبي بكر الباقلاني، وبالجملة ففي القلب من صحة هذا الحديث نظر، وإن كثرت طرقه»[1].

تاريخ دمشق، لابن عساكر:

ويأتي بعد تاريخ الطبري دور ابن عساكر (٤٩٩ ـ ٥٧١)، وهو أبو القاسم علي بن هبة الله بن عساكر الدمشقي، المؤرِّخ الحافظ الرحالة، محدِّث الديار الشامية، أثنى عليه العلماء، وأجمعوا على اطلاعه وحفظه وإتقانه. ألف كتباً كثيرة[2]، منها «تاريخ دمشق». امتاز ابن عساكر في مقدمة كتابه في ربط العلاقة بين دمشق وبين الرسول عليه الصلاة والسلام، والمسلمين الأولين. ثم جمع فيه تراجم الرجال الذين لهم صلة بمدينة دمشق، محتذياً في ذلك عمل الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد».

وتاريخ ابن عساكر من أهم مصادر ابن كثير منذ أول الكتاب إلى آخر الدولة العباسية، فقد أورد مروياته في قصص الأنبياء وأعلام الجاهلية، واهتم هنا خاصة بذكر أسماء الأنبياء وأنسابهم[3]. كما أورد أحاديث أخرى ذكرها

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٥/٢٠٨ ـ ٢١٤، ٧/٣٤٦ ـ ٣٥٠، ٣٥٣.

(٢) انظر لمؤلفاته وثناء الأئمة عليه، وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ٣٣٥، وتذكرة الحفاظ للذهبي ٤/١١٨، وتاريخ ابن كثير ١٢/ ٢٩٤.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ٤٠، ١٨٥، ٢٢٠، ٣٢٦، ٢/٤، ١٨، ٤٣، ٤٧، ٦٥ =

ابن عساكر في أحوالهم وأخبارهم. وقد اضمحل ذكره عند ابن كثير في السيرة النبوية. فلم يتجاوز عند بعض أخباره في نسب الرسول عليه الصلاة والسلام، ومولده ومبعثه، وهجرته إلى المدينة، إلا أننا نجد قدراً كبيراً من مروياته منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى نهاية السيرة، بما فيها الشمائل والدلائل.

أما في تاريخ الإسلام، فقد كان أن يقتصر ذكره في تراجم الأعيان منذ أول الخلافة الراشدة إلى سنة ٥٩٨ هـ، ووجود أخبار ابن عساكر في تاريخ ابن كثير إلى ما بعد السنة التي توفي فيها ابن عساكر لدليل على أنه ذكر في تاريخه تراجم معاصريه الذين توفوا بعده بمدة[١].

ونلاحظ أنَّ ابن عساكر مع جلالة قدره، ورفيع منزلته أدخل في تاريخه الغث والسمين والصحيح والسقيم، مما كان سبباً في تعرض ابن كثير له بالنقد، مع اعترافه له بالسبق والكمال، فسنرى أن مؤرخنا ينبه كثيراً على ضعف أسانيد ابن عساكر وجهالتها ونكارتها، ويقتصر أحياناً بقوله «حديث غريب»، أو «فيه نظر»، أو «الله أعلم بصحته»[٢].

فلم يقبل ابن كثير ما ذكره ابن عساكر من طريق الكلبي في ترتيب الأنبياء[٣]، وتعجب من سكوت ابن عساكر على روايات مختلفة موضوعة، سردها ابن عساكر في قصة الخضر، وفي مقابلته مع أناس في أزمان متأخرة، وكذلك مقابلة إلياس مع آخرين[٤]، فقد رد ابن كثير هذه الروايات لضعف أسانيدها، ولجهالة المسند إليهم، لا يقوم بمثلها حجة في الدين[٥]. وكذلك ما ورد في دم يحيى بن زكريا عليه السلام، أنه كان يغلي في مكان في دمشق، شاهدها أرميا

= إلخ.

(١) انظر تراجم من ماتوا بعد ابن عساكر، في البداية لابن كثير ٣٠٨/١٢، ٣٣٤، ٣٢/١٣.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ٨٠، ١٧٤، ١٩٠، ٣٢٦ إلخ.

(٣) نفس المصدر ٣٢١/١، وانظر تاريخ ابن عساكر ١٩١/٣، مطبعة الروضة، الشام، سنة ٢٩، ١٣٣٢ هـ.

(٤) ابن عساكر، تاريخه ٣/ ٩٩ ـ ١٠٠.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ٣٣٠، ٣٣٤، ٣٣٩.

النبي عليه السلام، وأمره أن يسكن، فَسَكن. فهو عند ابن كثير لنبيٍّ متقدِّم، لأن يحيى متأخر من بختنصر، وقد ثبت عنده أنَّ بختنصر حين قدم دمشق، قتل عليه سبعين ألفاً، فسكن[1]. وأخذ عليه خلطه في قصة ذي القرنين بين الإسكندر الأول والثاني[6]. كما أخذ عليه ما أورده ابن عساكر في فضل علي ومعاوية من أحاديث موضوعة ضعيفة، بدون بيان حالها، وضعف رجالها، ونكارة متونها[2]. وكذلك لم يصح عنده ما جاء في تاريخ ابن عساكر من أحاديث مختلفة في ذم يزيد[1].

وأشار ابن كثير إلى كتابين آخرين لابن عساكر، استفاد منهما في تاريخه وهما:

(١) «**بيان الوهم والتخليط الواقع في حديث الأطيط**»، وهذا الكتاب في رد وتضعيف هذا الحديث، ذكره ابن كثير في فصل صفة العرش[1].

(٢) «**المستقصى في فضائل الأقصى**»، أخذ منه رواية في بيان سبب قتل يحيى عليه السلام، ثم أشار إليه مرة أخرى في فتح بيت المقدس أيام عمر بن الخطاب[1].

أما الذهبي، شيخ ابن كثير، فهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (٦٧٣ ـ ٧٤٨) من أبرز علماء التاريخ والحديث في عصر ابن كثير، صاحب مصنفات عديدة في الحديث والتاريخ والتراجم[3]، أشهرها «**تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام**»، جمع فيه بين الحوادث والوفيات من أول تاريخ الإسلام إلى سنة ٧٠٠ هـ في سبعين باباً، في كل باب حوادث وتراجم عشر سنين، مع

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٢/ ٣٣، ٣٩، ١٠٩، ٣/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥، ٧/ ٣٥٩، ٨/ ١٢٠، ١٢٢، ٢١٣، ١١/ ١، ٢/ ٥٥، ٧/ ٥٦.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٢/ ٣٣، ٣٩، ١٠٩، ٣/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥، ٧/ ٣٥٩، ٨/ ١٢٠، ١٢٢، ٢١٣، ١١/ ١، ٢/ ٥٥، ٧/ ٥٦.

(٣) انظر لمؤلفاته، طبقات السبكي ٥/ ٢١٦، فوات الوفيات لابن شاكر ٢/ ١٨٢، الدرر الكامنة لابن حجر ٣/ ٨٩٤، شذرات الذهب لابن العماد ٦/ ١٥٣.

ترتيب التراجم على حروف المعجم. وقد لوحظ أنَّ أخبار الوفيات طغت في تاريخه على الحوادث السياسية[1].

وكان من المتوقع أن يفضله ابن كثير، ويكثر من الأخذ منه والاعتماد عليه في تاريخه، لأنَّ الذهبي شيخه وأستاذه، والحصول على مؤلفاته كان ميسوراً لابن كثير، ولكن لم يصرِّح مؤرخنا باسمه كمصدر إلا في نحو من أربعين موضعاً. ومن سوء حظنا أننا لم نستطع الحصول على تاريخ الذهبي حتى نتأكد من دوره في «البداية والنهاية»، فإننا ما زلنا على ظن أنَّ دوره يجب أن يكون أكثر أثراً مما يبدو من تصريحات ابن كثير في تاريخه. ولكن الإشارات التي وردت عند ابن كثير لا تساعدنا كثيراً في هذا المجال، إلا ما يلاحظ من تفضيل التراجم والتوسع فيها عندهما، على رأي روزنثال[2].

أشار ابن كثير إلى أربعة من مؤلفات الذهبي، استفاد منها في تاريخه. أولها: «تاريخ الإسلام» للذهبي، أخذ منه الحوادث وهي قليلة، والوفيات وهي الأكثر. فقد ذكر في الحوادث أقواله في بعض الفتوحات والمعارك أيام عمر بن الخطاب[3]، وفتح صقلية والأندلس أيام الأمويين[1]. كما ذكر رواية من سماعه عن شيخه الذهبي في بناء قبة عائشة في فناء جامع دمشق سنة ١٦٠ هـ[1]، أما الوفيات، فقد نقل فيها عنه فصولاً في تراجم السنين التالية، وهي ١٣ ـ ١٥، ٣٠، ٣٥، ٨٥ هجرية، مصرِّحاً بأن هذا ما ذكره الذهبي في «تاريخه» مرتباً على حروف المعجم[1]. كما وردت بعض التراجم منفردة تبعاً لشيخه الذهبي[1].

وقد رجع ابن كثير إلى كتابين آخرين معروفين للذهبي، ذكرهما في التراجم، وهما:

---

(١) فرانز روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين ٢٠٥ ـ ٢٠٦ ترجمة صالح أحمد العلي، وانظر دائرة المعارف الإسلامية ٩/ ٤٣١ ـ ٤٣٤ (الترجمة العربية).

(٢) فرانز روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين ٢٠٥، ترجمة صالح أحمد العلي.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ٧/ ٧٣، ٩٣، ١٢٥، ١٢٩، ١٤١، ٩/ ٧٧، ٨٣، ١٥٩، ٧/ ٣٢، ٥٠، ٦١، ١٥٦، ٢١٩، ٩/ ٦٠، ٧/ ١٠٤، ٩/ ٢٥٦، ١١/ ٨١، ٩/ ١٨٥، ١٨٦.

(١) الأعلام[١]، وهو المعروف بسير أعلام النبلاء[١].
(٢) ميزان الاعتدال[٢].

كما رجع إلى رسالته في تحقيق «طرق حديث الطير» في فضائل علي. رواه بضعة وستون نفساً من وجوه باطلة مظلمة «أقربها غرائب ضعيفة، وأردؤها طرق مختلفة مفتعلة، وغالبها طرق واهية»[٣] وقد أشار ابن كثير قبل ذلك إلى أقوال الذهبي ورأيه في رد حديثين في فضائل علي، وهما حديث غدير خم، وحديث حبس الشمس لعلي من المغيب.

* * *

(١) طبع بدار المعارف، مصر سنة ١٩٦٢ م.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٠/١١٣، ١٣/١٤٣، ٧/٣٥٠، ٣٥٣، ٣٥٢، ٥/٢٠٩، ٢١٢ ـ ٢١٤، ٦/٧٩، ٢٥١، ٢٨٢.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١٠/١١٣، ١٣/١٤٣، ٧/٣٥٠، ٣٥٣، ٣٥٢، ٥/٢٠٩، ٢١٢ ـ ٢١٤، ٦/٧٩، ٢٥١، ٢٨٢.

المطلب الثاني

الخلافــة العباسيــة ومصادرهــا

أشار ابن كثير إلى بدء الدعوة العباسية سراً، أثناء حوادث بني أمية منذ سنة مئة هجرية أيام عمر بن عبد العزيز، حين بعث محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بعض دعاته إلى العراق وخراسان لدعاء الناس إليه وإلى أهل بيته، فما زالوا يعملون في الخفاء حتى أظهر أبو مسلم الخراساني سنة ١٢٩ هـ دعوة بني العباس في خراسان بأمر إبراهيم بن محمد الذي عهد إليه أبوه الأمر بعده حين وفاته سنة ١٢٥ هـ، ولكن لم يتم الأمر إلا لأخيه أبي العباس السفَّاح، أول خلفاء بني العباس.

ثم قوي أمر أبي مسلم سنة ١٣٠ هـ، حين انتزع مرو من نصر بن سيار أمير خراسان، ثم وفاة نصر بن سيار في السنة القادمة مهَّدت السبيل لتمكن أبي مسلم من خراسان التي أصبحت قاعدة بني العباس، وجهوا منها الجيوش في نحور بني أمية، حتى قضوا على ملكهم في سنة واحدة، حين قتلوا آخر ملوكهم مروان الحمار في أقصى صعيد مصر سنة ١٣٢ هـ[1]، وهو يهرب بنفسه ليحتفظ بحياته، ولكن أين المفر؟

استقرت يد أبي العباس السفاح (١٣٢ ـ ١٣٦) بعد مقتل مروان الحمار على بلاد العراق وخراسان والحجاز والديار المصرية، خلا بلاد الأندلس التي

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٩/١٨٩، ٢٢٣، ٣٠٤، ٣٤٠، ١٠/٥، ٢٥، ٢٧، ٢٨، ٣٠ ـ ٣٣، ٣٧، ٣٩ ـ ٤٠، ٥٨، ٥٥.

استحوذ عليها عبد الرحمن الداخل، وأقام هناك دولة لبني أمية، استمرت نحو ثلاثة قرون (١٣٨ ـ ٤٢٢).

توفي السفاح بعد حكم قصير دام أربع سنين وتسعة أشهر، «وكان فصيحَ الكلام، حسن الرأي، جيد البديهة»[١]، ولكن أنكر ابن كثير عليه غدره في العهد والأمان، فإنه حين قتل ابن هبيرة بعد إعطائه الأمان، استكبره مؤرخنا، وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم، كيف يعطى الأمان وينكث؟ هذا فعل الجبابرة»[١].

وتولى مكانه أخوه المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨) الذي أثبت دعائم الدولة الناشئة بالقضاء على أبي مسلم الخراساني، وتحطيم الثورات الداخلية من الطالبيين الذين اعتبروا تمكن العباسيين من الخلافة غصْباً لحقهم، كما غصبها الأمويون من قبل، فنجد في كل سنة تقريباً خروج أحد من الطالبيين أو غيرهم من الخوارج أو الزنادقة؛ الذين كانوا يستغلون سمعة أهل البيت الطيبة ومكانتهم الرفيعة بين الناس لمطامحهم الذاتية.

وقد أخذ ابن كثير على المنصور الغلظة والشدة التي أظهرها نحو أعدائه، فاعتبر من «دواهي المنصور» موت عمه عبد الله بن علي سنة ١٤٨ هـ مسجوناً في دار جدرانها مبنية على ملح، «فلما كان بالليل، أرسل على جدرانها الماء، فسقط عليه البناء فهلك[٢] وكذلك لعنه ودعا عليه لقتله محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، ومحمد بن إبراهيم بن عبد الله بن حسن. وقد ألقى الأخير «بين إسطوانتين، وسد عليه حتى مات»[٢].

ثم جاء بعده المهدي بن المنصور (١٥٨ ـ ١٦٩). والهادي بن المهدي (١٦٩ ـ ١٧٠)، وكانت الظاهرة الجديدة في عصريهما تتبع الزنادقة والقضاء عليهم[٢]. ثم أفضت الخلافة إلى هارون الرشيد بن المهدي (١٧٠ ـ ١٩٣)، فكان «من أحسن الناس سيرة وأكثرهم غزواً وحجاً»[٢]. أشار ابن كثير إلى

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٩/١٨٩، ٢٢٣، ٣٠٤، ٣٤٠، ١٠/٥، ٢٥، ٢٧، ٢٨، ٣٠ ـ ٣٣، ٣٧، ٣٩ ـ ٤٠، ٥٨، ٥٥.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٠/٦٣، ١٠٤، ٨٢، ١٥٧، ٢١٤، ٢٧٣، ٣٠٧.

فضائله ومكارمه في ترجمة طويلة بعد أن ذكر أخباره في حوادث دولته، ومن أهم ما حدث في زمانه نكبة البرامكة، مما كان له أثر بعيد في سياسة أخلافه بعده، كما سيأتي.

ثم وقع خلاف كبير بعده بين ولديه: الأمين (١٩٣ ـ ١٩٨) والمأمون (١٩٨ ـ ٢١٨)، كانت الغلبة فيه للمأمون، وفي آخر عهده وقعت محنة خلق القرآن، واعتبرها ابن كثير «فتنة صَمَّاء، ومحنة شنعاء، وداهية دهياء»[1]. كما عد القول بخلق القرآن «بدعة صلعاء شنعاء عمياء صماء، لا مستند لها من كتاب ولا سنة، ولا عقل صحيح. بل الكتاب والسنة والعقل بخلافها»[1]، وقد بسط ابن كثير في ذكر هذه المسألة، وما تبعها من فتن ومحن على علماء الحق في حوادث سنة ٢١٨ وسنة ٢٣١ هـ، ثم في تراجم المأمون والإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١) الذي أبلى في هذه المحنة بلاءً حسناً.

وقد رمى ابن كثير المأمون بالتشيع والاعتزال، وبالجهل بالسنة الصحيحة، خدعه جماعته منهم بشر المريسي، «فأخذ منهم هذا المذهب الباطل، وكان يحب العلم، ولم تكن له بصيرة نافذة فيه، فدخل بسبب ذلك الداخل، وراج عنده الباطل، ودعا إليه، وحمل الناس عليه قهراً»[2] وأخذ ابن كثير عليه بدعة أخرى، وهي التكبير ثلاثاً عقيب الصلوات الخمس قياماً. أحدثها المأمون «بلا مستند ولا دليل ولا معتمد، فإنَّ هذا لم يفعله أحد قبله»[1].

استمرت محنة خلق القرآن بعد المأمون في أيام المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧)، والواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢)، حتى رفعها المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧)، ومنع الناس سنة ٢٣٧ هـ من التحدث في مسائل الكلام، والكف عن القول بخلق القرآن، ومن تكلم فيه بالحبس مأواه إلى أن يموت[1]، فتنفس الناس الصعداء، وقد أثنى عليه ابن كثير، واستحسن صنيعه هذا في نصرة أهل السنة[1].

هذه الفترة من تاريخ الدولة العباسية تعتبر فترة الأثر والنفوذ الفارسي، فقد

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٠/٦٣، ١٠٤، ٨٢، ١٥٧، ٢١٤، ٢٧٣، ٣٠٧.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٠/ ٢٧٥، ٢٧٧، ٢٨١، ٢٧٠، ٣١٦، ٣٣٧، ٣٠٦، ٣٣٧.

قامت الدولة على أكتاف الفرس، وتقدمت على أيدي أمرائهم، فاتَّسع نفوذهم، وعظم استبدادهم فيها، إلى أن رأى هارون الرشيد أن يضع حداً لنفوذهم واستبدادهم، فقضى على البرامكة قضاء مبرماً، ولكن نتجت عنه آثار سيئة فيما بعد، حين أكثر المعتصم من العنصر التركي، الذي ما إن عظم عدده، وكثر جمعه، واتَّسع نفوذه حتى أصبح خطراً داخلياً مستمراً على الخلافة والخلفاء، فاضطهد الأتراكُ الخلفاء واستضعفوهم، واستخفوا بالخلافة وهوّنوا أمرها، وكان المتوكل من أول ضحاياهم، ثم خلعوا بعده ستة من الخلفاء قتلوا منهم أربعة وهم: المستعين (٢٤٨ ـ ٢٥١)، والمعتز (٢٥١ ـ ٢٥٥)، والمهتدي (٢٥٥ ـ ٢٥٦)، والمقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠). وسَمَلوا عيون اثنين منهم، وهما: القاهر (٣٢٠ ـ ٣٢٢)، والمتقي (٣٢٩ ـ ٣٣٣). وبذلك سنوا سُنَّةً سيئة، اتبعها من جاء بعدهم من بني بويه، والسلاجقة مع الخلفاء العباسيين في بغداد، والمماليك البحرية والجركسية مع الخلفاء العباسيين في القاهرة.

فحين تمكن بنو بويه من الحكم ببغداد سنة ٣٣٤ هـ، أعادوا مأساة سمل عيني الخليفة مرة أخرى في تاريخ الخلافة العباسية، وذلك لكيلا يصلح المستكفي (٣٣٣ ـ ٣٣٤) فيما بعد للإمامة، ولا يطمع في الخلافة، وخلعوا المطيع (٣٣٤ ـ ٣٦٣)، والطائع (٣٦٣ ـ ٣٨١) بعده. وهكذا السلاجقة حين دخلوا بغداد ٤٤٧ هـ، وتمكنوا من الخلافة، فلم يتركوا للخليفة إلا اسمه، وأسر السلطانُ مسعود الخليفةَ المسترشد (٥١٢ ـ ٥٢٩) بعد حرب نشبت بينهما، ثم أطلقه بعد الصلح، فقتل في معسكر السلطان، قيل: على أيدي الباطنية، فولي مكانه ابنه الراشد (٥٢٩ ـ ٥٣٠)، وخلع قبل أن يكمل سنة في خلافته، وقتل سنة ٥٣٢ هـ على يد رجل كان يخدمه من الخراسانية.

وقد أشار ابن كثير إلى ما آل إليه أمر الخلفاء فذكر ضعف جانب الخلافة، ووهنها أيام المنتصر (٢٤٧ ـ ٢٤٨)، والمستعين (٢٤٨ ـ ٢٥١)[1]. وأشار إلى عزم المهتدي على إبادة الأتراك «الذين أهانوا الخلفاء وأذلوهم، وانتهكوا

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١١/٣، ٤، ١٠، ٢٣، ١٨، ٦٥، ١٦٩، ٦٣، ١٨٤، ٢١٢ ـ ٢١٣، ١٨٨.

منصب الخلافة»[1]. ولكنه «ضعيف لا يقدر على الإنكار على صالح بن وصيف في بادىء الأمر»[1]. ولم يكن للمعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩) مع أخيه الموفق شيء من الأمر[1]. وكان قتل المقتدر على يد غلمان مؤنس الخادم «سبباً في طمع ملوك الأطراف في الخلفاء»[1]. واعتبر جرأة القرامطة في سفك دم الحجيج في الكعبة، وأخذ الحجر الأسود معهم سنة ٣١٧ هـ «من ضعف الخليفة، وتلاعب الترك بمنصب الخلافة، واستيلائهم على البلاد، وتشتت الأمر»[1]. كما أنه لم يبق للخليفة الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩) حكم في غير بغداد ومعاملاتها وحتى في بغداد ليس له مع أمير الأمراء «ابن الرائق نفوذ في شيء، ولا تفرد بشيء، ولا كلمة تطاع. وهكذا صار من جاء من بعده من الأمراء الأكابر، كانوا لا يرفعون رأساً للخليفة»[1].

ثم في سلطنة بني بويه لم يبق للمطيع مع معز الدولة «أمرٌ ولا نهي ولا وزير أيضاً، وإنما يكون له كاتب على إقطاعه، أما الدولة ومورد المملكة ومصدرها، فهو راجع إلى معز الدولة، وذلك لأنَّ بني بويه ومن معهم من الديلم، كان فيهم تعسُّفٌ شديد، وكانوا يرون أنَّ بني العباس قد غصبوا الأمر من العلويين». ولم يمنعه من تخويل الخلافة إليهم إلا نصح أحد أصحابه الذي قال له حين استشاره في الأمر، أن «هذا خليفة ترى أنت وأصحابك أنه غير صحيح الإمارة، حتى لو أمرت بقتله، قتله أصحابك. ولو وليت رجلاً من العلويين، اعتقدت أنت وأصحابك ولايته صحيحة. فلو أمرت بقتله، لم تُطَع بذلك، ولو أَمَرَ بقتلك، قتلك أصحابك. فلما فهم ذلك صرف عن رأيه الأول، وترك ما كان عزم عليه للدنيا لا لله عز وجل»[1].

وكذلك الوزراء لم يكونوا دائماً في خير حال، فحين تمكن ابن الرائق من إمرة أمراء بغداد، قطع يد الوزير أبي علي بن مقْلة ولسانه، ثم سجنه في مكان ضيق[1]، واستوزر المستكفي أبا الفرج محمد بن علي السامري «فلم يكن له من

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١١/٣، ٤، ١٠، ٢٣، ١٨، ٦٥، ١٦٩، ٦٣، ١٨٤، ٢١٢ ـ ٢١٣، ١٨٨.

الأمر شيء، وإنما الذي يتولى الأمور ابن شيرزاد»[1] كاتب توزون التركي أمير الأمراء. يتضح من هذا العرض السريع أنه لم يكن هناك في الدولة العباسية في كثير من الأحيان من بعد المتوكل سلطة مستقلة لشخص معين يخضع له الجميع، وإنما الحكم كان لمن غلب بالقوة.

زد على ذلك المنافسات والمشاحنات بين العناصر العربية والفارسية والتركية، ثم بين الأتراك أنفسهم، فأصبحت بغداد مكان قلق واضطراب وانتشار، بعد أن كانت دار سلام وقرار، ومكان رفاهية وتقدم وعمران. وأصبح الأمراء الأقوياء لا همَّ لهم إلا التمكن من السلطة والنفوذ، وانتهاز الفرص بالاستقلال بما ملكت يمينهم من البلاد، فاستحوذ كل منهم على ناحية من نواحي المملكة العباسية، حتى لم يبق في بعض الأحيان مع الخليفة إلا بغداد ومعاملاتها[2]. وزال ملكهم بالكلية من العراق مدة سنة، أيام البساسيري، الذي سيَّر الخليفة القائم بالله (٤٢٢ ـ ٤٦٧) إلى أمير حديثة عانة، وقطع عنه الخطبة، وخطب طول هذه المدة في بغداد للخليفة الفاطمي[1]. هكذا أصبحت حرية الخلفاء رهن إشارة الأمراء، واقتصرت سلطتهم في كثير من الأحيان على المظهر الرسمي «مظهر ولا عمل، لقب ولا أمر ولا نهي»[3].

أشار ابن كثير إلى هذا الانتشار والافتراق الذي سَادَ في الدولة العباسية بعد عهدها الزاهر، فذكر في حوادث سنة ٣٢٤ هـ أيام الراضي حين تغلب على إمرة العراق والبصرة ابن الرائق، «يولي فيها من يشاء، وخوزستان إلى أبي البريدي، وقد غلب ابن ياقوت في هذه السنة على ما كان في يده من مملكة تستر وغيرها، واستحوذ على حواصلها وأموالها. وأمر فارس إلى عماد الدولة ابن بويه ينازعه في ذلك وشمكير أخو مرداويج، وكرمان بيد أبي علي محمد بن إلياس بن اليسع، وبلاد الموصل والجزيرة وديار بكر ومضر وربيعة مع بني حمدان،

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١١/ ٢١٠، ١٨٤، ١٣/ ٢٠٥، ١٢/٧٨، ١٣/ ٢٠٥.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١١/ ٢١٠، ١٨٤، ١٣/ ٢٠٥، ١٢/٧٨، ١٣/ ٢٠٥.

(٣) أحمد أمين، ظهر الإسلام ١/ ٥٠، الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، سنة ١٩٥٢.

ومصر والشام في يد محمد بن طغج، وبلاد إفريقية والمغرب في يد القائم بأمر الله بن المهدي الفاطمي، وقد تلقب بأمير المؤمنين، والأندلس في يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الأموي، وخراسان وما وراء النهر في يد السعيد نصر بن أحمد الساماني، وطبرستان وجرجان في يد الديلم، والبحرين واليمامة وهجر في يد أبي طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي القرمطي»[١].

هكذا تعددت الدول في العالم الإسلامي، واقتسمت سلطة العباسيين (١٣٢ ـ ٦٥٦) في فترات مختلفة لمدد متباينة. فقد حكم مصر والشام الطولونيون (٢٥٤ ـ ٢٩٢)، والإخشيديون (٣٢٣ ـ ٣٥٨)، والفاطميون (٣٥٨ ـ ٥٦٤)، والأيوبيون (٥٦٤ ـ ٦٤٨)، وفي الجزيرة والشام الدولة الزنكية (٥٢١ ـ ٥٤٨)، وفي الموصل وحلب الحمدانيون (٣١٧ ـ ٣٩٤)، وحكم العراق باسم الخليفة العباسي بيد الأتراك، ثم استولى عليها البويهيون (٣٣٤ ـ ٤٢٩)، وزال حكمهم بقدوم السلاجقة (٤٢٩ ـ ٥٥٢)، وتوالت في فارس وخراسان دول مختلفة. فالطاهرية في خراسان (٢٠٥ ـ ٢٥٩)، والصفارية في فارس (٢٥٤ ـ ٢٩٠)، والسامانية في فارس وما وراء النهر (٢٦١ ـ ٣٨٩)، والزيارية في جرجان (٣١٦ ـ ٤٣٤)، ثم دولة بني بويه (٣٢٠ ـ ٤٤٧) التي بسطت نفوذها على العراق، والغزنوية في أفغانستان والهند (٣٥١ ـ ٥٨٢) إلى غير ذلك من الدول التي ليس هذا مكان استيعابها، وفيما ذكرناه كفاية، لتصديق ما أشار إليه ابن كثير في نهاية الدولة العباسية بأنه «لم تكن أيدي بني العباس حاكمة على جميع البلاد، كما كانت بنو أمية قاهرة لجميع البلاد والأقطار والأمصار»[٢]:

ولم تكن علاقات هذه الدول الإسلامية ـ المستقلة عن الدولة العباسية ـ مع بعضها على ما يرام، بل كثيراً ما تؤدي الخلافات والمنافسات بينها إلى حروب، تقاتل بعضها بعضاً في سبيل الحكم والنفوذ، فتضيع قوتها فيما بينها. والأعداء من الروم والفرنج ينتهزون هذه الفرص، فيستردون ما أخذ منهم في ظل الوحدة الإسلامية، ويعتدون على بلاد الإسلام فيتسلطون عليها، والمسلمون مختلفون

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١١/ ١٨٤.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ٢٠٥، ١١/ ٢٦٧، ٢٤١، ٢٤٣.

فيما بينهم، ومساعيهم شتى، فقد تسلَّط الفرنج على بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ حتى استردها منهم صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٣ هـ.

وقد اعتبر ابن كثير هزائم المسلمين أمام الروم والفرنج «في ذمة ملوك الأرض أهل الرفض، الذين استحوذوا على البلاد، وأظهروا فيها الفساد»[١]، وخاصة الفاطميين الذين في حكمهم «استحوذ الفرنج على سواحل الشام، وبلاد الشام كلها حتى بيت المقدس. ولم يبق مع المسلمين سوى حلب وحمص وحماة ودمشق وبعض أعمالها وكل ذلك من بعض عقوبات المعاصي والذنوب، وإظهار سب خير الخلق بعد الأنبياء»[١]. وقد أعاد ابن كثير مفهوم هذا الكلام في ترجمة الدمستق ملك الأرمن الذي انتزع أكثر السواحل من أيدي المسلمين قسراً[١].

وكان ابن كثير يعتبر الفاطميين «أدعياء كذبة»[٢] في نسبهم إلى بنت الرسول عليه الصلاة والسلام. فذكر كلام العلماء في نسب أول خلفائهم[٢]، وطعنهم فيه وفي أخلافه[٢]. وهو أبو محمد عبيد الله بن محمود القداح الذي قال فيه: إنه كان صباغاً يهودياً أسلم، ثم ادعى أنه شريف فاطمي، فراج أمره على الجهلة[٢]. ونقل ابن كثير من كتاب «كشف الأسرار وهتك الأسرار» القاضي الباقلاني أن مذهب الفاطميين «الكفر المحض، واعتقادهم الرفض»[٢]. وقال فيهم أنهم: «كانوا من أعتى الخلفاء وأجبرهم وأظلمهم، وأنجس الملوك سيرة، وأخبثهم سريرة، ظهرت في دولتهم البدع والمنكرات، وكثر أهل الفساد، وقلَّ عندهم الصالحون من العلماء والعُبَّاد، وكثر بأرض الشام النصرانية والدِرْزِيّة والحشيشية. وتغلَّب الفرنج على سواحل الشام بكماله.

وحين زالت أيامهم وانتقض إبرامهم، أعاد الله هذه البلاد كلها إلى المسلمين بحوله وقوته وجوده ورحمته»[٢].

وظاهرة أخرى نلاحظها في هذا العصر في المجتمع الإسلامي إلى جانب

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ٢٠٥، ١١/ ٢٦٧، ٢٤١، ٢٤٣.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٨/ ١٦١، ٢٤٠، ١١/ ١٧٩، ١٧٩ ـ ١٨٠، ٣٤٥ ـ ٣٤٦، ١٢/ ٦٣، ٢٦٨، ١١/ ١٦١، ١٨٠، ١٢/ ٢٦٧، ١١/ ٢٨٤، ٣٤٦، ١٢/ ٢٦٧، ١١/ ١٦٢، ١٢/ ١١٥، ١١٧، ١٦٢، ٢٢٩، ٢٤٩.

عدم الاستقرار السياسي، وهي: ظهور فتن مذهبية بسبب اختلاف المسلمين في العقائد، يتبعها القتل وسفك الدماء، والنهب وإحراق البيوت والمحلات. فمن هذه الفتن ما كانت بين أهل السنة أنفسهم، مثل الفتن بين الحنابلة وطائفة من العامة في تفسير ﴿مقاماً محموداً﴾، وبين الحنابلة والفقهاء النظامية، وبين الحنابلة والأشعرية[1]، وهي قليلة. بدأت هذه الفتن في هذا العصر، ثم ازدادت فيما بعد في دولة المماليك في مصر والشام.

أما الفتن بين أهل السنة والشيعة، فكانت أكثر وأشد في هذا العصر، وكان النزاع بين الطائفتين من قديم الزمان، ولكن يخرج هذا النزاع إلى الشوارع، ويؤثّر على الحياة العامة، ويهدد أمنها وسلامتها، لم يسبق ذلك قبل تسكن بني بويه من الحكم في العراق. ومما زاد الطين بلة في العراق خاصة، هو كون الخليفة سنياً، يتقوى بنفوذه الداثر وحظه العاثر أهل السنة، وكون سلاطين بني بويه شيعة، يتقوى بحكمهم القوي وسلطتهم الواسعة الشيعة. ولا تستطيع الدولة العباسية في بغداد منع الفتن التي تثور سنوياً باستمرار، تضيع فيها الأرواح والأموال، لا تستطيع الدولة التغلب عليها، كما أخضع الفاطميون في مصر أهل السنة، فلا يهيجون مثل إخوانهم في بغداد والبصرة وغيرهما.

ابتدع الشيعة منذ أول النفوذ البويهي في العراق الاحتفال علناً بيوم عاشوراء كيوم عزاء للحسين، ويوم ١٧ من ذي الحجة كيوم فرح بعيد الغدير، بدون مراعاة ميول طوائف أخرى، بل بالإصرار على تهييج مشاعر أهل السنة. فأصبحت المناسبتان المذكورتان من كل سنة، مناسبات الفتن والقلاقل بين الشيعة وبين أهل السنة. حتى إن سنة ٤٨٨ هجرية التي لم يحدث فيها قتال بين الطائفتين اعتبرها ابن كثير من العجائب[2].

وكان من أسباب هذه الفتن هو سبُّ الصحابة وتكفيرهم علناً، كما ذكر

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٨/ ١٦١، ٢٤٠، ١١/ ١٧٩، ١٧٩ ـ ١٨٠، ٣٤٥ ـ ٣٤٦، ١٢/ ٦٣، ٢٦٨، ١١/ ١٦١، ١٨٠، ١٢/ ٢٦٧، ١١/ ٢٨٤، ٣٤٦، ١٢/ ٢٦٧، ١١/ ١٦٢، ١٢/ ١١٥، ١١٧، ١٦٢، ٢٢٩، ٢٤٩.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٢/ ١٤٩، ١١/ ٢٣٣، ٣٤٣، ٢٥٤.

ابن كثير في حوادث سنة ٣٤٧ هـ، قائلاً: «قد امتلأت البلاد رفضاً وسباً من بني بويه وبني حمدان والفاطميين وكل ملوك البلاد مصراً وشاماً وعراقاً وخراسان والحجاز وغالب بلاد المغرب وغير ذلك كانوا رفضاً، فكثر السب والتكفير منهم للصحابة»[١].

وقد تبنى السلاطين الاحتفال رسمياً باليومين المذكورين، فقد أمر معز الدولة البويهي سنة ٣٥٢ هـ أن تُغلق الأسواق في عاشر المحرم «وأن تلبس النساء المسوح من الشعر، ويخرجن في الأسواق حاسرات عن وجوههن، ناشرات شعورهن، يلطمن وجوههن، ينحن على الحسين. ولم يتمكن أهل السنة من منع ذلك لكثرة الشيعة وظهورهم، وكون السلطان معهم» كما أمر بإظهار الفرح يوم عيد الغدير في هذه السنة، «فكان وقتاً عجيباً مشهوداً، وبدعةً شنيعةً ظاهرة منكرة»[١]. وقد اعتبر ابن كثير إظهار الحزن على هذه الطريقة تكلفاً «لا حاجة إليه في الإسلام، ولو كان هذا أمراً محموداً، لفعله خير القرون، وصدر هذه الأمة، وهم أولى به، لو كان خيراً ما سبقونا إليه، وأهل السنة يقتدون ولا يبتدعون»[١].

وقد ابتدع بعض أهل السنة لإثارة الشيعة أساليب عجيبة، منها: أن بعضهم خرجوا سنة ٣٦٣ هـ لمقاتلة أصحاب علي، وجعلوا امرأة تركب جملاً، وسموها عائشة، كما تسمى بعضهم بطلحة والزبير، «فقُتل بسبب ذلك من الفريقين خلق كثير» كما ادعى بعضهم سنة ٣٨٩ هـ منع الاحتفال بعيد الغدير، لأنَّ النبي عليه الصلاة والسلام وأبا بكر حُصِر في مثل ذلك اليوم في الغار. وكذلك أقام بعضهم يوم الثاني عشر من المحرم في هذه السنة عزاء لمصعب بن الزبير، كما تعمل الشيعة للحسين، وزاروا قبره كما يزور الشيعة قبر الحسين. أنكر ابن كثير على الفريقين جهلهم وقلة عقلهم وبعدهم عن الصواب، ونبه على خطأ من ادعى تاريخ حصر النبي ﷺ وأبي بكر في الغار في ذي الحجة. والصحيح أنه كان في أوائل ربيع الأول، واعتبر ما أقامه البعض من عزاء

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٢/١٤٩، ١١/٢٣٣، ٣٤٣، ٢٥٤.

لمصعب بن الزبير «من باب مقابلة البدعة ببدعة مثلها، ولا يرفع البدعة إلا السنة الصحيحة»[1].

لم يتنبه العوام والحكام إلى خطر هذه الفتن التي استمرت قروناً، ولم يعملوا على قمعها ودفعها، حتى إن سقوط بغداد في أيدي التتار في نظر بعض المؤرخين كان بسبب الفتنة التي وقعت بين الفريقين سنة ٦٥٥ هـ، فقد اعتبر ابن كثير هذه الفتنة «من أقوى الأسباب في ممالأة (الوزير ابن العلقمي) للتتار»، فقد اشتد حنقه على نهب أهل السنة محلة الكرخ الشيعية، وفيها دور قرابات الوزير، «فكان هذا مما أهاجه على أن دبر على الإسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد إلى هذه الأوقات»[1].

وينتهي هذا القسم في «البداية والنهاية» بسقوط بغداد على أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ فذكر ابن كثير كيفية سقوطها، وما تبعه من مذابح وخراب ودمار في بغداد، ثم نقل أرجوزة أحد الفضلاء، فيها أسماء الخلفاء منذ عهد النبي عليه الصلاة والسلام إلى نهاية الدولة العباسية[1]. وأخيراً سجل ابن كثير أربعين بيتاً من نظمه، فيها ذكر محنة التتار، وما تبعها من تخريب البلاد وتدميرها، والقضاء على الخلافة، ثم إحيائها على يد الملك الظاهر بيبرس، أحد سلاطين المماليك البحرية في مصر، فذكر أسماء الخلفاء العباسيين بالقاهرة، آخرهم المعتضد (٧٥٣ ـ ٧٦٣)، وأسماء الخلفاء الفاطميين وبني أمية[1].

يعتبر هذا القسم من «البداية والنهاية»، من أوسع الأقسام زمناً، وأطولها حجماً، وأغزرها مادة في تاريخ الإسلام، فهو مليء بالحوادث والحروب الخارجية والداخلية، والفتن الواقعة بين المسلمين، وتراجم الأعيان من العلماء والحفاظ والمحدثين، والأدباء والشعراء والمؤرخين، والخلفاء والأمراء والسلاطين، جمع فيه ابن كثير تاريخ نحو خمسة قرون وربع قرن (٦٣٢ ـ ٦٥٦) على طريقة الحوليات على عادته.

وقد اهتم ابن كثير منذ عصر الوزير العالم نظام الملك (٤٥٦ ـ ٤٨٥) بذكر

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١١/٢٧٥، ٣٢٥ ـ ٣٢٦، ١٣/١٩٦، ٢٠١، ٢٠٦ ـ ٢٠٩، ٢٠٩ ـ ٢١٠.

أخبار المدارس، ومن تولى فيها التدريس من الشيوخ أو عزل منها، وذلك بالإضافة إلى التاريخ السياسي والحروب والفتن. وهذه ظاهرة جديدة نجدها منذ عصر نظام الملك الذي أكثر من بناء المدارس في بغداد ونيسابور وغيرهما. ثم جاء بعده الأغنياء والأمراء من أهل الخير فتسابقوا في إنشاء المدارس والخوانق والزوايا والجوامع، يعينون فيها أشهر مشائخ عصرهم لخدمة العلم والدين، وتربية أبناء المسلمين وتثقيفهم.

وبهذا أصبح تاريخ ابن كثير من أهم المصادر لأخبار المعاهد العلمية والمراكز الثقافية، استفاد به من جاء بعده من المؤلفين في تاريخ المدارس. فإننا نجد في المطبوع من كتاب «الدارس في تاريخ المدارس» للنُّعيمي إشارات كثيرة إلى ابن كثير فيما أخذه النعيمي من مواد من كتاب «البداية والنهاية» وخاصة الأخبار التي رواها ابن كثير عن مدارس عصره في الشام.

ولا شك أنَّ الإحاطة بأخبار هذه الفترة الطويلة التي امتدت أكثر من خمسة قرون ليست سهلة، في كتاب يمشي على طريقة الحوليات، ويجمع بين الحوادث والتراجم، وخاصة إذا نظرنا إلى تعدد الدول والأسر الحاكمة التي تمتعت بالاستقلال في الدولة العباسية، وانتشار الفتن الداخلية، وتضاعف الأخطار الخارجية؛ لذلك اضطر ابن كثير إلى ترك الحوادث التي ليست لها أهمية في نظره، واكتفى على ذكر الحوادث الكبيرة الهامة باختصار. فإنه كثيراً ما يلخص الحوادث ويختصرها، ثم يشير إلى من بسطها واستقصاها، لكي يرجع إليه القارىء إذا أراد التزود بالمزيد من التفاصيل.

فإنه مثلاً ذكر خروج بابك الخرمي على الدولة، وما وقعت من حروب لإخضاعه باختصار في سنين متعددة، ثم أحال على ابن جرير الذي أطال في ذلك جداً[(١)]. وكذلك يقول في نهاية حروب صاحب الزنج: «وقد حرره مبسوطاً ابن جرير، ولخصه ابن الأثير، واختصره ابن كثير»[(٢)]. ويشير في أيام المقتدر

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٠/٨٣، وانظر تاريخ الطبري ٩/٢٩ ـ ٥١.

(٢) تاريخ ابن كثير ١١/٤٣، وراجع تاريخ الطبري ٩/٦٢٢ ـ ٦٢٦، وكذلك الكامل لابن الأثير ٧/١٢٤ ـ ١٣١، القاهرة، سنة ١٣٠٣ هـ.

إلى اثنين من وزرائه عن جماعة يكثر تعدادهم، وأحال هنا على ابن الجوزي الذي استقصى ذكرهم[1]. وذكر خروج أبي يزيد الخارجي وحروبه مع المنصور إسماعيل الفاطمي باختصار، ثم أشار إلى ابن الأثير الذي بسط تلك الحروب في كامله[2]. وفي مقتل شهاب الدين الغوري صاحب غزنة، أحال فيما جرى بعده من خطوب على ابن الأثير وابن الساعي[3]. وهكذا يكتفي ابن كثير بذكر الحوادث والحروب باختصار، ثم يحيل قارئه في كثير من المواضع على مصادر ذكرها ببسط وتفصيل[4].

* * *

(١) تاريخ ابن كثير ١١/ ١٠٥، ويراجع هنا المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ٦/ ٦٧ ـ ٦٨، ودائرة المعارف العثمانية حيدرآباد بالهند سنة ٥٧ ـ ١٣٥٩.

(٢) تاريخ ابن كثير ١١/ ٢١٠، وراجع الكامل لابن الأثير ٨/ ١٣٨ ـ ٤٥.

(٣) تاريخ ابن كثير ١٣/ ٤٣، وانظر الكامل لابن الأثير ١٢/ ٨٢ وما بعده، وكذلك الجامع المختصر لابن الساعي ٩/ ١٦٩ وما بعده، المطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد، سنة ١٣٥٣ هـ/ ١٩٣٤ م.

(٤) ابن كثير البداية والنهاية ١٠/ ٢٨٢، ٢٨٩، ١١/ ٢٢٧، ١٢/ ٣١٦، ١٣/ ٣٢، ٢١/ ٤٣.

مصادر الخلافــة العباسية

استمر اعتماد ابن كثير على «تاريخ الرسل والملوك»، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري منذ أول الخلافة العباسية إلى حوادث سنة ٢٦٩ هـ حيث نقل عنه ـ آخر مرة ـ بتصريح اسمه ملخص ما بسطه ابن جرير في مقتل صاحب الزنج[١]. وقد كان اعتماد ابن كثير عليه في هذا القسم مثل اعتماده في تاريخ الخلافة الراشدة والدولة الأموية. فإنه لخص منه ومن غيره ـ خاصة ابن الجوزي وابن الأثير ـ كل ما كتبوه في تاريخ هذا العصر الطويل الزاخر بالحوادث والحروب والفتن، ثم حكاه على لسانه في سياق واحد، مع الإشارة إلى أسمائهم في أماكن الخلاف والاستشهاد. فتاريخ ابن كثير يجمع أخبار هذه الكتب الثلاثة الرئيسية الهامة في تاريخ الإسلام، إلى جانب ذكر أخبار رواها مؤرخون غيرهم، كما سيأتي تفصيل ذلك في الكلام على الكتب التاريخية المعاصرة التي كانت مصدر ابن كثير في تاريخه. وكان أسلوبه في ذلك كله الاختصار والتلخيص كما قدمنا.

الكتب التاريخية المعاصرة

تكلمنا على ابن جرير الطبري كمصدر ابن كثير في تاريخه في مصادر القسم الماضي، والآن جاء دور الكلام على مؤرخين لعبوا دوراً هاماً بعد الطبري في تكوين «البداية والنهاية»، نبدأ ذكرهم بابن الجوزي، وابن الأثير، فقد كان عليهما أكبر اعتماد ابن كثير بعد الطبري لا يدانيهما دور أي مؤرخ آخر.

ابن الجوزي (٥٠٨ ـ ٥٩٧)، وهو أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية ١٠/٢٨٢، ٢٨٩، ١١/٢٢٧، ١٢/٣١٦، ١٣/٣٢، ٢١/٤٣.

محمد، علامة عصره في الحديث والتاريخ، والتفسير والفقه. اكتسب بعلمه الغزير وتصانيفه الكثيرة ومواعظه الحسنة مكانة مرموقة بين الناس. فقد قيل إن له نحواً من ثلاثمئة مؤلف بين كتب كبيرة ورسائل صغيرة منها: «زاد المسير في التفسير»، و«جامع المسانيد» في الحديث، و«الموضوعات»، و«المنتظم في تاريخ الملوك والأمم»، في تواريخ الأمم من العرب والعجم[1].

وهنا نجد أوجه شبه بين مؤرخنا وبين ابن الجوزي في تنوع ثقافتهما، وتعدد نواحي إنتاجهما العلمي، فلا عجب أن يطمئن إليه ابن كثير، مثل اطمئنانه إلى الطبري، ويكثر من الأخذ منه والحكاية عنه في حوادث وتراجم تاريخه «البداية والنهاية». فقد صرح بذلك في ترجمته له، بمناسبة ذكر كتاب المنتظم من مؤلفاته، قائلاً: «وقد أوردنا في كتابنا هذا كثيراً منه، من حوادثه وتراجمه»[2]. وهكذا يزداد أهمية ابن الجوزي كمصدر عند ابن كثير من تاريخ الطبري، لما احتوى عليه كتاب المنتظم من تراجم، وهذا لم يوجد في الطبري.

تقدم الكلام على مراجعة ابن كثير إلى كتابين لابن الجوزي في ذكر مصادر قسم المبتدأ، وهما: «عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر»، وكتاب «الموضوعات». أما في تاريخ صدر الإسلام فقد جاء ذكر تاريخه «المنتظم» مرة واحدة في وقعة صفين، حيث أشار إليه ابن كثير فيما ذكره في «البداية والنهاية» في هذه الوقعة «ملخصاً من كلام ابن جرير، وابن الجوزي في المنتظم»[3]. مما يدل على أنَّ رجوع ابن كثير إلى كتاب «المنتظم» كان منذ أول الحوادث الإسلامية. ولكن لم نستطع معرفة مدى اعتماده عليه في حوادث صدر الإسلام، لأنَّ مؤرخنا لم يصرح باسم ابن الجوزي في تاريخ الخلافة الراشدة إلا قليلاً، ولأنَّ النصف الأول من كتاب «المنتظم» لم يطبع بعد، حتى نقرر بعد

---

(١) انظر في ترجمته ومؤلفاته ومكانته العلمية والاجتماعية، تذكرة الحفاظ للذهبي ٤/ ١٣٢ ـ ١٣٣، ومرآة الزمان، لسبط ابن الجوزي ٨/ ٤٨١، دائرة المعارف العثمانية حيدرآباد سنة ٥١ ـ ١٩٥٢ م.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ٢٨.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ٧/ ٢٧٤، ١٤٠، ٩/ ١٩٥، ١٠/ ١٨٦، ١٦٢، ٨/ ٨٢، ٢٢٣، ٢٦٢، ١٠/ ١٨٧، ١٨٩، ١٩٣، ١٩٧.

المقارنة بينهما، مدى تأثير ابن الجوزي في قسم الخلافة الراشدة من «البداية والنهاية».

ومما يتبين من تصريحات ابن كثير أنه اعتمد عليه في تراجم العصر الأموي منذ سنة خمسين هجرية إلى نهاية سنة ٥٧٤ هـ، وهو آخر كتاب «المنتظم»، فإن كثيراً من التراجم في العصرين الأموي والعباسي مأخوذة من كتاب «المنتظم». كما أورد أقواله وأخباره في التراجم التي أخذها من مصادر أخرى. وكذلك أشار في بعض التراجم إلى كتب أخرى لابن الجوزي استفاد منها ابن كثير في تاريخه، مثل «سيرة عمر بن الخطاب»[(١)]، و«سيرة عمر بن عبد العزيز»[(١)]، و«صفة الصفوة»[(١)]، و«شذور العقود في تاريخ العهود»[(١)]، وهو ملخص لكتاب «المنتظم».

أما في حوادث الخلافة الراشدة والدولة الأموية فلم يذكر ابن كثير عن ابن الجوزي إلا بعض أخبار في وقعة الحرة، وطاعون عمواس، وعقد ولاية العهد لقاسم أيام أبيه هارون الرشيد، وقتل البرامكة. وحكايتين غريبتين[(١)]. ولكن منذ أول أخبار القرامطة سنة ٣٧٨ هـ[(٢)]، نجد اعتماد ابن كثير على «المنتظم» كثيراً في حوادث الخلافة العباسية، وقبله بقليل قد اضمحل ذكر ابن جرير الطبري كما أسلفنا. ثم يستمر اعتماد ابن كثير على المنتظم إلى حوادث سنة ٥٧٤ هـ، حيث ذكر عنه آخر خبر عن خنثى مشكل، تزوج امرأة، ثم ولد له ولد كما تلد النساء[(٣)].

وقد أغرم ابن كثير بأسلوب ابن الجوزي في إكثار الغرائب. فأكثر مؤرخنا عنه وعن غيره من ذكر الأحداث الغريبة، والزلازل والأمراض والأوبئة والمجاعات، وموجات البرد والحر، وسقوط الثلج والبرد، وغلاء الأسعار

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٧/ ٢٧٤، ١٤٠، ٩/ ١٩٥، ١٠/ ١٨٦، ١٦٢، ٨/ ٨٢، ٢٢٣، ٢٦٢، ١٠/ ١٨٧، ١٨٩، ١٩٣، ١٩٧.

(٢) تاريخ ابن كثير ١١/ ٦١، وانظر المنتظم لابن الجوزي، المجلد الخامس، القسم الثاني صفحة ١٠٩.

(٣) تاريخ ابن كثير ١٢/ ٢٩٦ وراجع المنتظم لابن الجوزي ١٠/ ٢٦٦.

ورخصها، وزيادة دجلة ونقصانها، وطلوع النجوم والكواكب، وانقضاض النيازك والشهب، وشبوب الحرائق، ووقوع الفتن المذهبية، وما تبعها من مشاغبات، وقتل وسفك للدماء، ونهب وسلب، وإحراق البيوت والمحلات التجارية وما إلى ذلك.

وأما ما ذكرها ابن كثير من حكايات نادرة غريبة إتباعاً لابن الجوزي، فإن مكانها الصحيح في كتب النوادر والفكاهة لسمر الليالي، وليس في كتاب تاريخي عام مثل «البداية والنهاية». وتعتبر من هذه النوادر والفكاهات قصة شاب مع ابن أم الحكم[١]، وحيلة غلام خصي للنظر إلى جارية المعتضد، كان يحبها وتحبه[٢].

ويبدو أنَّ مؤرخنا نفسه لم يكن يحب ذكر تلك الحكايات وأمثالها، ولكنه وجدها في الكتب التاريخية القديمة، فذكرها تبعاً لها. فإنه نقل عن ابن الجوزي[٣] حكاية موت ابن كليب الذي أخفق في عشق غلام صالح عفيف فتوفي، علق ابن كثير على هذه الحكاية منكراً: «وهذه زلة شنعاء، وعظيمة صلعاء، وداهية دهياء، لولا أنَّ هؤلاء الأئمة ذكروها ما ذكرتها، ولكن فيها عبرة لأولي الألباب، وتنبيه لذوي البصائر والعقول»[٤].

ابن الأثير (٥٥٥ ـ ٦٣٠)، وهو أبو الحسن عز الدين علي بن محمد، استفاد ابن كثير من كتابين له، وهما: «أُسد الغابة في معرفة الصحابة»، وكتاب «الكامل في التاريخ»، وهو من المبتدأ إلى حوادث سنة ٦٢٨ هـ.

فالكتاب الأول اعتمد عليه ابن كثير في تراجم الصحابة، وكثيراً ما أحال عليه في تراجم العصر النبوي والخلافة الراشدة، أما في العصر الأموي فقد ورد اسمه مرتين أولاً في ترجمة المختار الثقفي الكذاب، حيث ذكر مؤرخنا أنَّ

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٨/ ٨٢ ـ ٨٣.
(٢) تاريخ ابن كثير ١١/ ٧٧، ويراجع هنا المنتظم لابن الجوزي، المجلد الخامس، القسم الثاني ١٧١ ـ ١٧٢.
(٣) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٨/ ٨٣ ـ ٨٦.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ١٢/ ٣٨.

ابن الأثير عدَّ أباه من الصحابة خلافاً لأكثر العلماء[1]. وثانياً في ترجمة عبد الله بن حازم (المتوفى سنة ٧٢)، حيث نقل له الصحبة عن ابن الأثير والمزي وغيرهما[2].

أما «الكامل في التاريخ» فلم يرد اسمه إلا مرة واحدة في تاريخ الخلافة الراشدة، وذلك نقلاً للخلاف في سنة فتح مصر والإسكندرية فإنَّ ابن الأثير رجح فتحهما سنة ست عشرة[3] على قول سيف بن عمر. ولم يقبل ابن كثير هذا الترجيح، بل علق عليه قائلاً: «وهو معذور فيما رجحه»[4]، مما يدل على عدم ثقته فيه. ولكنه اعتمد عليه بتصريح اسمه اعتماداً كاملاً حين انتهى من اعتماده على الطبري. فأول خبر وجدناه عن «الكامل» في «البداية والنهاية» كان سنة ٢٦٥ هـ، وذلك في قتل الرياشي على يد الزنج في البصرة[5]، وقد أسلفنا أن ابن كثير أورد آخر خبر عن الطبري في حوادث سنة ٢٦٩ هـ.

أخذ ابن كثير عنه تاريخ أكثر من ثلاثة قرون ونصف قرن (٢٦٥ ـ ٦٢٨)، واعتمد على كل ما ذكره ابن الأثير في الحوادث والحروب والفتن، أيام العباسيين في بغداد، وما في عصرهم من دول في العالم الإسلامي، وما فيها من منافسات ومشاحنات. كما أنه اعتمد عليه في أخبار التتار منذ أن خرجوا من أقصى بلاد الصين سنة ٦١٧ هـ إلى نهاية إخباره عنهم في آخر الكامل[6]. وذلك كله إلى جانب ذكر أقواله وأخباره في تراجم أعيان هذا العصر. وكان آخر ما نقل عنه في ترجمة عبد المجيد ابن العجمي سنة ٦٢٨ هـ. وهنا انتهى تاريخ ابن الأثير[7].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٨/ ٢٨٩، وانظر أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ٥/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩، مطبعة وهبية مصر سنة ١٢٨٠ هـ.

(٢) تاريخ ابن كثير ٨/ ٣٢٦، وراجع أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣/ ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٢/ ٣٣٨، القاهرة، سنة ١٣٠٣ هـ.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ٧/ ٩٧.

(٥) تاريخ ابن كثير ١١/ ٣٨، وانظر تاريخ ابن الأثير ٧/ ١٠٨.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ٨٧ ـ ٩١، ١٠٧، ١٢٨.

(٧) تاريخ ابن كثير ١٣/ ١٣٠، تاريخ ابن الأثير ١٢/ ١٩٧.

جمع ابن الأثير كتابه «الكامل» لصاحب الموصل البدر لؤلؤ (المتوفى سنة ٦٥٦) الذي أجازه عليه وأحسن إليه[١]. وقد لخص ابن الأثير في تاريخ الطبري، مع حذف الأسانيد وترك الإسهاب وسرد الحوادث في سياق واحد، ثم زاد عليه إلى عصره من جميع المصادر العربية التي وصلت إليها يده، لذلك اعتبر كتابه «بحق خلاصة وافية لما كتب المسلمون في تاريخهم السياسي»[٢] في القرون الستة الأولى في الإسلام. وهو مرجع رئيسي كبير بعد الطبري للمصنفين المتأخرين الذين استقوا منه المواد التاريخية في مؤلفاتهم التاريخية.

وبعد هذه المصادر التاريخية الثلاث (ابن جرير، وابن الجوزي، وابن الأثير) ينتقل ابن كثير من مؤلف إلى آخر في كل عصر من العصور الإسلامية المتأخرة. فإنَّ المؤرخين المسلمين حفظوا تاريخ الإسلام عصراً بعد عصر في سلسلة ذهبية متماسكة. استعان بهم ابن كثير ليضيف إلى مؤلفاتهم مؤلفاً جامعاً في التاريخ إلى عصره، يكون من مصادر المؤرخين الذين يأتون بعده.

ومن المؤرخين الذين رجع إليهم ابن كثير بعد المصادر الثلاث المذكورة، **سبط ابن الجوزي** (٥٨١ ـ ٦٥٤)، وهو مثل جده مفسِّر محدِّث، واعظ مؤرخ «حظيَ عند ملوك بني أيوب، فقدموه وأحسنوا إليه»[٣]. وألف مثل جده في التفسير والحديث والأدب والتراجم والمواعظ والتاريخ كتباً قيمة، منها: «مرآة الزمان في تاريخ الأعيان»، وهو كتاب في التاريخ العام من أول الزمان إلى أوائل سنة ٦٥٤ هـ، نظم فيه «المنتظم» لجده، وزاد عليه، وذيله إلى زمانه طعن فيه الذهبي قائلاً: «إنه «يأتي بمناكير الحكايات، وما أظنه ثقة فيما ينقله، بل يبخس

---

(١) تاريخ ابن كثير ١٣/ ٢١٤.

(٢) مقال الأستاذ عبد الحميد العبادي، دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول من الترجمة العربية هامش صفحة ٨٢ أيضاً منها ٤/ ٥٠٠ وكذلك يراجع دراسة ونقد لتاريخ ابن الأثير، للسيد محمود الحسن، النسخة المكتوبة على الآلة الكاتبة والمحفوظة في المكتبة المركزية لجامعة عليجره الإسلامية بالهند.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ١٩٤.

ويجاوز ويترفض»[1]. ولكن ابن كثير يعتبر تاريخه من أجمع التواريخ وأحسنها وأبهجها وأكثرها فائدة[2].

لذلك اعتمد عليه ابن كثير فيما بعد ابن الجوزي، واستقصى منه أخباراً مع تصريح اسمه في التراجم بكثرة، ومع الأخذ منه في الحوادث بدون إفصاح اسمه عامة، ودمج كلامه مع كلام المؤرخين أمثال ابن الأثير وأبي شامة وابن الساعي، وقدم مجموع كلامهم سياقاً واحداً على لسانه على عادته كما نبهنا على ذلك مراراً.

وردت الإشارة إليه عند ابن كثير أول مرة في العصر الأموي حيث نقل عنه خبراً في بناء القبة على صخرة بيت المقدس سنة ٦٦ هـ أيام عبد الملك بن مروان وأورد سبب ذلك[1]، ثم سكت عنه فلم يذكره إلا في حوادث سنة ٥٩٧ هـ، حيث أخذ منه بتصريح اسمه خبراً في زلزلة مات فيها آلاف مؤلفة من الناس[3]. ثم استمر عليه اعتماده من هنا إلى نهاية حوادث ووفيات سنة ٦٥٤ هـ[4]، وهو آخر مرآة الزمان.

وقد لاحظنا أن هناك بعض الأشعار التي أوردها ابن كثير في تراجم الأعيان نقلاً عن سبط ابن الجوزي، لا توجد في المطبوع من تاريخه مرآة الزمان[5]، وكذلك لم نعثر فيه على ترجمة الفخر ابن تيمية، الذي ذكره ابن كثير في وفيات سنة ٦٢٢ هـ، وأورد من أبياته ما سمعها عليه سبط ابن الجوزي[6]. وهذا كله

---

(١) الذهبي، ميزان الاعتدال ٣/ ٣٣٣، مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٢٥ هـ.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ٣٠، ١٩٤، ٨/ ٢٨٠.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ٢٨، وانظر مرآة الزمان في تاريخ الأعيان لسبط ابن الجوزي، المجلد الثامن القسم الثاني ٤٧٨، دائرة المعارف العثمانية حيدرآباد بالهند سنة ٥١ ـ ١٩٥٢ م.
(٤) تاريخ ابن كثير ١٣/ ١٩٣، وراجع مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ٨/ ٧٩٤.
(٥) تاريخ ابن كثير ١٣/ ٦٠، ١٠٠، ويراجع مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ٢٨/ ٥٤٨، ٥٤٩، و٦٢٧ ـ ٦٣٠.
(٦) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ١٠٩.

يدل على أن المطبوع من «مرآة الزمان» ناقص بعض التراجم والأشعار وما إلى ذلك.

ويأتي بعده **أبو شامة**، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي (٥٩٩ ـ ٦٦٥) مؤرخ الإسلام، ألف تاريخ أصعب فترة مر بها المسلمون، وأحرجها في تاريخهم الطويل، وهو عصر الحروب الصليبية في مصر والشام. وكان أبو شامة يحمل ثقافات متنوعة. فهو محدث حافظ، مؤرخ مفسر، فقيه أصولي، متكلم مقري، نحوي أديب شاعر، ألف في جميع العلوم الإسلامية والفنون الأدبية، وعني بالتاريخ في أواخر عصره. فألف كتباً عدة، نذكر منها: «الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية»، و«المذيل» الذي ألفه تكملة للروضتين، لاعتماد ابن كثير عليهما.

وقد كان كتاب «الروضتين» ولا يزال من المصادر الهامة الكبرى في الحروب الصليبية، وفي سيرة السلطانين نور اللدين الشهيد (٥٤١ ـ ٥٦٩)، وصلاح الدين الأيوبي (٥٦٤ ـ ٥٨٩)، اللذين نالا إعجاب المسلمين في كل عصر لنشاطهما الحربي ضد الفرنج، ولإشاعة العدل والإحسان بين الناس، وإزالة المظالم والمكوس ونشر العلم. سجل أبو شامة في «الروضتين» تاريخاً مفصلاً لدولتيهما، تتبع فيه «نشاطهما ومجهودهما الذي جعل منهما في المتأخرين مثلاً يحتذى، ورفع مكانهما حتى صارا في زمانهما كالعمرين في عصرهما عدلاً وديانة وجهاداً»[١].

ورجع ابن كثير إلى كتاب «الروضتين»، واعتمد عليه منذ ترجمة عماد الدين الزنكي (المتوفى سنة ٥٤١) والدكتور نور الدين الشهيد، إلى ترجمة القاضي الفاضل (المتوفى سنة ٥٩٦) وزير الفاطميين، ثم الوزير والمستشار الأول في دولة صلاح الدين الأيوبي. ولخص ما جاء عنده في سيرة السلطانين، وحكمهما وحروبهما مع الفرنج، وانتصاراتهما عليهم، ودور القاضي الفاضل والعماد الكاتب في هذه الفترة الحساسة، ونشاطهما السياسي والعلمي والأدبي، فقد

---

(١) الدكتور محمد حلمي في مقدمة الروضتين ١٩/١، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٥٦ م.

كان ابن كثير معجباً بهما، مقدراً نصحهما للسلاطين، فأشاد بفصاحة القاضي الفاضل وبلاغته ومواعظه وحثه على الجهاد قائلاً: «فرحمه الله من إنسان ما أفصحه، ووزير ما كان أنصحه، ومن عقل ما كان أرجحه»[1]. كما أورد بتقدير بالغ قصائد العماد الكاتب ورسائله وكتاباته في «البداية والنهاية» عن طريق أبي شامة، وعلق على ما كتبه العماد الكاتب في اتخاذ نور الدين الحمام الهوادي سنة ٥٦٧، لإرسال الرسائل إلى الآفاق في أسرع مدة وأيسر عدة قائلاً: «وقد أطنب ذلك العماد الكاتب وأطرب، وأعجب وأغرب»[1].

ثم كان اعتماد ابن كثير في ذكر أحوال بني أيوب إلى أوائل سني دولة المماليك على كتاب آخر لأبي شامة، كتبه ذيلاً على الروضتين، وسماه «المذيل». كتب في الحوادث والوفيات إلى آخر حياته سنة ٦٦٥ هـ، كما نقل ذلك ابن كثير عن شيخه علم الدين البرزالي[1]، الذي ذيل على تاريخ أبي شامة، متبعاً ترتيبه وأسلوبه إلى سنة ٧٣٨ هـ، واعتبر ابن كثير تاريخه «البداية والنهاية» ذيلاً على تاريخ البرزالي[1]، سجل فيه ابن كثير الحوادث والوفيات إلى آخر حياته أو إلى سنة ٧٦٨ هـ، كما نجد في المطبوع من «البداية والنهاية». وهكذا تكون هذه الكتب الأربعة، الروضتين، وذيله لأبي شامة، وتاريخي البرزالي وابن كثير، بالإضافة إلى تواريخ الطبري وابن الجوزي وابن الأثير سلسلة متصلة الحلقات من تاريخ صدر الإسلام إلى أواخر القرن الثامن الهجري.

ومما يزيد من أهمية كتاب «الروضتين» كمصدر في تاريخ «البداية والنهاية»، هو أن ابن كثير اعتمد عليه فيما نقله أبو شامة عن **العماد الأصفهاني** (٥١٩ ـ ٥٩٧)، وهو المؤرخ الأديب والكاتب الشهير، اشتهر بإيثار السجع والمحسنات البديعية، واتصل بنور الدين الشهيد وصلاح الدين الأيوبي، واشتغل معهما ككاتب بديوان الإنشاء، ولازم صلاح الدين الأيوبي في رحلته وإقامته. فهذا كله أعطى لما كتبه عن تاريخ هذا العصر كشاهد عيان، أعطى قيمة تاريخية، وثقة علمية لا تنكر. ولذلك أصبحت مؤلفاته مرجعاً كبيراً لدراسة تاريخ هذا العصر،

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٢/٣٣٩، ٢٦٩، ١٣/٢٥٠، ١٥٣، ٢٥١، ١٤/١٨٣.

اعتمد عليها المؤرخون قديماً وحديثاً، منها:

«**البرق الشامي**»، جمع فيه العماد الأصفهاني تاريخ هذا العصر، بادئاً بأول اتصاله بنور الدين الشهيد سنة ٥٦٢هـ إلى وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٩هـ. وتعرض في كتاب «الفتح القسي والفتح القدسي»، لتاريخ النشاط الحربي لأيام صلاح الدين الأخيرة، بين سنتي ٥٨٣ ـ ٥٨٩ هـ قام فيها صلاح الدين بتطهير بيت المقدس، وفلسطين خاصة، وبلاد الشام عامة من سيطرة الفرنج. وجمع في «خريدة القصر وجريدة العصر» تراجم أدباء وشعراء مصر والشام والعراق والجزيرة وغيرها.

أكثر أبو شامة من إيراد أخبار العماد الأصفهاني منذ أول كتاب «الروضتين» إلى نهايته، وقد وصلنا بمقابلة «البداية والنهاية» على «الروضتين» إلى نتيجة أن مؤرخنا أخذ ما أخذه عن العماد الأصفهاني عن طريق أبي شامة. وقد صرح ابن كثير باسم «الخريدة» ثلاث مرات في تراجم كتابه[1]، كما أشار إلى «البرق الشامي» بالاسم مرة واحدة[1]، مما يوحي بأنهما مصدر ابن كثير المباشر في أخبار العماد التي أكثر مؤرخنا من الأخذ بها في تراجمه وحوادثه، إلا أننا نرى في مواضع أخرى يصرح فيها ابن كثير بأنَّ ما نقله عن العماد، ذكره الشيخ أبو شامة مستقصى في كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين»[1]. وقد قدمنا فيما قبل أنَّ هذه طريقة ابن كثير في الإحالة إلى مراجعه لمعرفة التفاصيل.

أما **يحيى بن حميدة** المعروف بابن أبي طي (٥٧٥ ـ ٦٣٠)، المؤرّخ الأديب الشيعي، صاحب مؤلفات كثيرة، منها في التاريخ: «كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين»، وكتب أخرى في تاريخ حلب ومصر والشام[2]. وهو أيضاً من أهم مصادر أبي شامة في «الروضتين». ولكن ابن كثير لم يأخذ منه إلا بعض أخباره في ترجمة العاضد، آخر خلفاء الفاطميين في مصر، وفي مقتل عمارة

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٢/١٨١، ٢٣٥، ١٣/٦٦، ٣، ١٢/٢٧٢، ٣١٩، ١٣/٣.

(٢) محمد بن محسن المعروف بآغا بزرك الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة ١/٣٣٦، ٣/٢١٩، ٢٨٧، مطبعة الغري بالنجف، سنة ١٣٥٥ هـ.

اليمنى الفقيه الشاعر الشيعي[١]، وذلك عن طريق أبي شامة أيضاً[٢].

ولعل اجتناب ابن كثير من أخبار ابن أبي طي، كان بسبب ميوله الشيعية. ونحن نعرف مدى تنفر ابن كثير ووحشته من الشيعة، وحرصه على الطعن فيهم. وقد كان ابن أبي طي متهماً «بقطع الطريق على تصانيف الناس»، واعتبره ابن حجر «كثير الأوهام والسقط والتصحيف»[٣].

ومن الغريب إعراض ابن كثير عن استقاء مادته التاريخية في أخبار صلاح الدين عن كتاب «**النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**»، للقاضي بهاء الدين بن شداد (٥٣٩ ـ ٦٣٢)، وهو أيضاً من المصادر الرئيسية لأبي شامة. وقد كانت لكتابه قيمة علمية وتاريخية كبيرة لملازمته صلاح الدين منذ التحق بخدمته سنة ٥٨٤ هـ إلى آخر وفاته، والتزامه بما قطع على نفسه ألا يسطر في كتابه إلا «ما أملاه على العيان، أو الخبر الذي يقارب مظنونه درجة الإيقان»[٤]. ولكن ابن كثير لم يذكر عنه شيئاً فيما كتبه عن صلاح الدين، ولا أشار في ترجمته له إلى الكتاب المذكور، واكتفى بقوله: «وله تصانيف وشعر»[٥]، مما يدل على أنه لم يعرف كتابه هذا، وما أخذ عنه، وما عرف أهميته كمصدر لتاريخ آخر أيام صلاح الدين.

ونذكر بعد هذا كتباً أخرى رجع إليها ابن كثير في تاريخ الخلافة العباسية. منها: «**الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير**»، لابن الساعي (٥٩٣ ـ ٦٧٤)، وهو تاج الدين علي بن أنجب من كبار المصنفين في التاريخ، وقد أعانته في نشاطه العلمي وظيفته كخازن كتب المستنصرية في بغداد. فألف كتباً

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٢/٢٦٦، ٢٧٥.

(٢) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ١/١٩٩ ـ ٢٠٠، ٢٢٣، مطبعة وادي النيل، القاهرة، سنة ٨٧ ـ ١٢٨٨ هـ.

(٣) ابن حجر، لسان الميزان ٦/٢٦٣ ـ ٢٦٤، حيدر آباد بالهند، سنة ١٣٢٩ ـ ١٣٣١ هـ.

(٤) ابن شداد، النوادر السلطانية ٤، الدار المصرية للتأليف والترجمة بالقاهرة، سنة ١٩٦٤.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/١٤٣.

كثيرة في التاريخ، بلغ عددها عند الأستاذ مصطفى جواد ستة وثلاثين كتاباً[١]، وهو ناشر الجزء التاسع من هذا الكتاب التاريخي، وفيه حوادث اثنتي عشرة سنة (٥٩٥ ـ ٦٠٦)، على حين جمع فيه مؤلفه من تاريخ صدر الإسلام إلى سقوط بغداد في أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ. وقد رتبه ابن الساعي على السنين، يذكر حوادث السنة، ثم يتبعها بتراجم من مات فيها.

وقد كانت عند ابن كثير أكثر أجزاء هذا التاريخ، كما صرح بذلك في ترجمته له[٢]. فكان هذا سبباً في اعتماد ابن كثير عليه اعتماداً كبيراً، منذ حوادث وتراجم سنة ٤٦١ هـ إلى انقضاء الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦ هـ. وقد أورد ابن كثير حريق جامع دمشق وسببه تبعاً لابن الساعي في حوادث سنة ٤٦١ هـ، خلافاً لابن الجوزي والذهبي الذين ذكراه في سنة ٤٥٨ هـ[٣]. وهذا أول ما أورده ابن كثير عن ابن الساعي، كما كان آخر ما ذكره عنه في ترجمة محيي الدين ابن الجوزي أستاذ دار الخلافة الذي قتل على أيدي التتار في نكبة بغداد سنة ٦٥٦ هـ[٤].

ويستمر ابن كثير على طريقته في استقاء مواده من كتب التاريخ، فيذكر الحوادث ملخصاً في سياق واحد على لسانه من مجموعة كلام المؤرخين، فلا يصرح باسم ابن الساعي فيها إلا حين الإشارة إلى خلافه مع المؤرخين، أو زيادته عليهم بشيء فاتهم. وقد قرن اسمه باسم ابن الأثير أحياناً في إحالته على المراجع لمن أراد تفصيل الحوادث، مما يدل على اعتماده عليه مع ابن الأثير. فقد أحال عليهما معاً في حرب سلطان شاه مع أعدائه في خوارزم[٣]، وكذلك فيما جرت من خطوب بعد مقتل شهاب الدين الغوري، صاحب غزنة غيلة[٥]، كما أحال في مواضع أخرى على ابن الساعي لوحده مثل إحالته على نص تقليد

---

(١) مقدمة الجامع المختصر، لابن الساعي، المجلد التاسع، صفحة ف ـ ذ، المطبعة السريالية الكاثوليكية بغداد سنة ١٣٥٢ هـ/ ١٩٣٤ م.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ٢٧٠.

(٣) تاريخ ابن كثير ١٢/ ٩٨، وانظر المنتظم لابن الجوزي ٨/ ٢٤١.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ٢١١، ١٢/ ٢٧٠.

(٥) ابن كثير البداية والنهاية ١٣/ ٤٣، وانظر الجامع المختصر لابن الساعي ٩/ ١٦٩.

ولاية قاضي القضاة ابن عبد الله محمد، ونص تقليد الخليفة للكامل ملك مصر، وكذلك أشار إلى اسمه لمعرفة تفاصيل الاحتفال العظيم الذي عقد بمناسبة تكميل بناء المدرسة المستنصرية ببغداد، وفي أبنية غريبة ظهرت في شق جبل في خوزستان(١) وقد دفعه حب الغريب النادر، فنقل عن ابن الساعي أن ديكاً باض في بغداد سنة ٥٩٦(٢).

أما في التراجم فينسب إليه ما أخذه عنه على عادته فيها. وقد أكثر من ذكره في التراجم، كما أورد عنه فيها شعراً كثيراً، بالإضافة إلى إشارات إلى ما لم يورد عنه من الشعر. وكل هذا بدل على أنَّ ابن الساعي كان مهتماً بالتراجم، مكثراً منها في تاريخه، كما يدل على شغفه بالإكثار من نماذج شعر المترجمين، أو ما قيل فيهم من مدائح ومراثٍ، أو ما إلى ذلك.

وقد اعتمد ابن كثير في تراجم العصر العباسي على المؤرخين الذين أخذ عنهم حوادث هذا العصر، كما استمر «**تاريخ دمشق**» لابن عساكر مصدره في تراجم هذا العصر كما كان في العصر الأموي، وقد تكلمنا عليه هناك.

ونحن نجد هنا في تراجم العصر العباسي مصدرين آخرين رجع إليهما مؤرخنا بكثرة. وهما الخطيب البغدادي، وابن خلكان، وقد أشار ابن كثير إليهما في الأقسام السابقة، ولكن أصل اعتماده عليهما كان في هذا القسم، لذلك فضلنا أن نتحدث عليهما في هذا المكان.

الخطيب البغدادي (٣٩٢ ـ ٤٦٣)، وهو أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، أحد مشاهير الحفاظ من المؤرخين المكثرين في التأليف، ذكر له المترجمون من ستين إلى مئة مصنف(٣) منها: «تاريخ بغداد»، الذي اشتهر أمره، وذاع صيته، وقرن اسم الخطيب به أكثر من أي كتاب آخر، وقد أصبح مرجع المؤرخين بعده في تراجمه، كما كان نموذجاً سار عليه أكثر المؤلفين في التراجم بعده.

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/٨٩، ١٣٥، ١٤٠، ١٦٨.

(٢) تاريخ ابن كثير ١٣/٢٢، وراجع الجامع المختصر لابن الساعي ٩/ ٢١.

(٣) المنتظم، لابن الجوزي ٨/٢٦٦، معجم الأدباء لياقوت ١/٢٤٨، تاريخ ابن كثير ١٢/١٠١.

قدم الخطيب هذا الكتاب بفصل طويل، فيه أخبار تاريخية وجغرافية وحضارية عن بغداد وضواحيها، وأخبار إنشائها، ومن نزل فيها من الصحابة[1]، ثم أتبعه بتراجم من ولد ببغداد أو نزلها مرتبة على حروف المعجم، وبعد ذلك جمع تراجم من اشتهر بالكنى ثم ذكر تراجم النساء في آخر الكتاب. وفضل الخطيب في اختياره تراجمه لمن اتّصفوا بالعلم على غيرهم، وتوسَّع في تراجم علماء الحديث دون سواهم، كما ذكر تراجم الخلفاء والوزراء والأمراء الكبار.

وردت أقوال الخطيب وبعض أخباره ومروياته عند ابن كثير منذ أول تاريخه إلى نهاية الدولة الأموية، ولكن لم تتجاوز تلك عن خمسة وعشرين موضعاً، وليست تلك دائماً في التراجم. أما في العصر العباسي، فقد أكثر مؤرخنا من إيراد مروياته في تراجم هذا العصر منذ ترجمة السفاح سنة ١٣٦ هـ، حيث ذكر ملخص ما ذكره الخطيب وابن عساكر مطولاً في ترجمتهما له[2]، إلى ترجمة أبي منصور الجيلي سنة ٤٥٢ هـ[3]، وقد توسع ابن كثير من الاعتماد عليه في فصل بناء بغداد ومحاسنها[4]، وفي ترجمة الحسين بن منصور الحلاج[5].

وقد نبه ابن كثير على ضعف ونكارة بعض ما أورده الخطيب، مثل الحديث الذي ورد عن طريق الربيع بن يونس في ترجمته له، وكان في صحته عند ابن كثير نظر لنكارة فيه[6]، وكذلك رد ابن كثير حديثين رواهما الخطيب عن طريق الخليفة المعتصم في ذم بني أمية ومدح بني العباس، وفي منع الحجامة يوم الخميس[7]. ولم يوافق مؤرخنا على ما ذكره الخطيب من أنه لم يحفظ

---

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ١/ ٤ ـ ٢١٢، مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ٣٤٩ هـ.
(٢) تاريخ ابن كثير، ١٠/ ٥٩ ـ ٦١، وانظر تاريخ بغداد للخطيب ١٠/ ٤٦ ـ ٥٣.
(٣) تاريخ ابن كثير ١٢/ ٨٥، وراجع تاريخ بغداد للخطيب ٧/ ١٣٦.
(٤) تاريخ ابن كثير، ١٠/ ٩٨ ـ ١٠٠، ويراجع هنا تاريخ بغداد للخطيب ١/ ٦٦ وما بعد.
(٥) تاريخ ابن كثير ١١/ ١٣٢ ـ ١٤٣، وانظر تاريخ بغداد للخطيب ٨/ ١١٢ ـ ١٤١.
(٦) تاريخ ابن كثير ١٠/ ١٥٨، وانظر تاريخ بغداد للخطيب ٨/ ٤١٤.
(٧) تاريخ ابن كثير، ١٠/ ٢٩٥، ويراجع هنا تاريخ بغداد للخطيب ٣/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

القرآن من الخلفاء إلا عثمان بن عفان والمأمون[1]، بل علق عليه قائلاً: «وهذا غريب جداً، لا يوافق عليه، فقد كان يحفظ القرآن عدة من الخلفاء»[2].

ابن خلكان (٦٠٠ ـ ٦٨١) وهو قاضي القضاة شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد «أحد الأئمة الفضلاء، والسادة العلماء والصدور الرؤساء». اشتهر بكتابه «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان»، وهو ذخيرة علم وأدب وتاريخ ولغة، وفيه أكثر من ثمانمئة ترجمة مرتبة ترتيباً أبجدياً على أسماء أصحابها. امتاز فيه ابن خلكان بجمع تراجم الأعيان عامة بدون رعاية طبقة معينة، أو عصر محدد، أو بلد خاص. وقد اعتبره ابن كثير «من أبدع المصنفات»[3]. واعتمد عليه اعتماداً كبيراً في تراجم العصر العباسي خاصة.

رجع ابن كثير إلى «وفيات الأعيان» لابن خلكان منذ تراجم العصر الأموي، ولكن ذكره قليل في هذا العصر، فلم يتجاوز عن ثمانية عشر موضعاً، أولها في ترجمة أبي الأسود الدؤلي سنة ٦٩ هـ حيث نقل عنه خلافاً في وفاته، ثم أخباره وسبب عنايته بعلم النحو[4]. ثم أكثر عنه مؤرخنا في تراجم العصر العباسي إلى نهاية الدولة العباسية ببغداد سنة ٦٥٦ هـ حيث أشار إلى ثناء ابن خلكان على البهاء زهير الكاتب والشاعر، وذكر إجازته له برواية ديوانه[5].

وقد لاحظ ابن كثير عليه إطالته في تراجم الشعراء وتقصيره في تراجم العلماء، وتركه ذكر زندقة الزنادقة[6]. فأخذ عليه عدم طعنه وتجريحه في ابن الراوندي الزنديق[7]، وحمل ثناءه للشريف المرتضى الشيعي، ورفعه نسب

---

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ١٠/ ١٩٠.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٠/ ٢٧٥.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ٣٠١.
(٤) تاريخ ابن كثير ٨/ ٣١٢، وانظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ٢١٦ ـ ٢١٩.
(٥) تاريخ ابن كثير ١٣/ ٢١٢، وانظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ٨٣.
(٦) ابن كثير البداية والنهاية ١١/ ١١٣.
(٧) تاريخ ابن كثير ١٠/ ٣٤٧، ١١/ ١١٣، وانظر وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ٧٨.

أبي العلاء المعري، حمل ابن كثير ذلك كله على عادة ابن خلكان في رفع شأن الشعراء وتمجيده لهم(١).

وخالف ابن كثير رأي ابن خلكان في أبي يزيد البسطامي (المتوفى سنة ٢٦١) الذي قال فيه ابن خلكان: «وله مقالات كثيرة، ومجاهدات مشهورة، وكرامات ظاهرة»(٢) ولكن ابن كثير اعتبرها «شطحات ناقصات»، وقال: «وقد تأولها كثير من الفقهاء وحملوها على محامل بعيدة، وقد قال بعضهم: إنه قال ذلك في حالة الاصطلام والغيبة، ومن العلماء من بدعه وخطأه وجعل ذلك من أكبر البدع، وأنها تدل على اعتقاد فاسد كان في القلب، ظهر في أوقاته»(٣). وكذلك أنكر عليه زيارته لقبر الخضر بن نصر الأربلي الفقيه الشافعي، لما فيه من تعظيم القبور(٤). وكان عند ابن كثير نظر في نسب مشاور بن مجير الدين (المتوفى سنة ٥٦٤) لـ «قصر هذا النسب، وبعد المدة»(٥) وقال ابن خلكان في ترجمة ابن الحجاج الشاعر (المتوفى سنة ٣٩١) أنه عزل بأبي سعيد الإصطخري(٦)، واعتبر ابن كثير هذا القول «ضعيفاً لا يسامح بمثله» لأن أبا سعيد توفي سنة ٣٢٨(٧).

وحكى ابن كثير عن ابن خلكان حادثتين غريبتين على عادته في جمع الغرائب من كل مصدر يرجع إليه، أولهما في حوادث سنة ٦٦٠ هـ، ذكر فيها مشاهدة ابن خلكان لحمارٍ وحشي اصطاده بعض أمراء الظاهر بحدود حماة، ووجد على أذنه اسم بهرام جور مرسوماً، مما كان سبباً في اعتقاد الناس أنَّ عمره نحو ثمانمئة سنة، ولم يتعجب ابن خلكان من غرابة هذه الحكاية، بل أكد ذلك قائلاً: «أن حمر الوحش تعيش دهراً طويلاً»، ولكن ابن كثير لم يوافقه على ذلك، واعتبر هذا لبساً في الاسم، فقال: «يحتمل أن يكون هذا بهرام شاه الملك

---

(١) تاريخ ابن كثير ١٢/٥٣، ٧٥، وانظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/٣ ـ ٦، ١/٩٤.
(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان ٢/٢١٣.
(٣) تاريخ ابن كثير ١١/٣٥.
(٤) تاريخ ابن كثير ١٢/٢٨٧، وراجع وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/١١.
(٥) تاريخ ابن كثير ١٢/٢٥٩، ويراجع هنا وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/١٥٦.
(٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان ١/٤٢٦.
(٧) ابن كثير البداية والنهاية ١١/٣٢٩، ١٣/٣٢٣.

الأمجد، إذ يبعد بقاء مثل هذا بلا اصطياد هذه المدة الطويلة. . إلخ[٤]. ولم يصرح ابن كثير في ذلك بمصدره الذي نقل منه هذه الحكاية، إلا أننا وجدناها عند اليونيني في السنة المذكورة[١]، وعلى هذا يحتمل أن يكون «ذيل مرآة الزمان» مصدره في ذلك.

ولكن الحادثة الغريبة الثانية التي ذكرها ابن كثير في حوادث سنة ٦٦٥ هـ، حكاية عن ابن خلكان، نقلاً عن خط اليونيني، لم نجدها في ذيله، وهي بأنه ولد لرجل ولد على صفة الجرذان، لاستهتاره واستخفافه بأمر السواك[٢]. وهذا يدل على أن المخطوطات التي طبع عليها «ذيل مرآة الزمان» كانت ناقصة بعض الحوادث.

ونشير ختاماً لهذه الحلقة إلى كتاب في ترجمة جنكيز خان، لعلاء الدين عطا ملك بن محمد الجويني (٦٢٣ ـ ٦٨١)، وهو مؤرخ ووالٍ من ولاة الفرس، وزر للتتار في بغداد أربعاً وعشرين سنة (٦٥٧ ـ ٦٨١)، وقد رأى ابن كثير الترجمة المذكورة في مجلد، واستفاد منها في ترجمة جنكيز خان في تاريخه «البداية والنهاية»، وقال: ذكر الجويني فيها سيرة جنكيزخان، وما كان يشتمل عليه من العقل السياسي السليم، والكرم والشجاعة، والتدبير الجيد للملك والرعايا والحروب. ثم تكلم على ذريته إلى زمان هلاكوخان، وذكر ما وقع في زمانه من الأوابد والأمور المعروفة المزعجة[٣].

وهذا الوصف ينطبق على التاريخ الفارسي المعروف بتاريخ جهان كشامي، للجويني، فقد جاء في وصفه عند الدارسين له، بأنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام كبرى:

(١) تاريخ المغول وفتوحاتهم حتى الحوادث التي وقعت بعد وفاة كيوك خان سنة ٦٤٧ هـ.

---

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان ١/ ٤٩٩ ـ ٤٥٠، حيدرآباد بالهند، سنة ٥٤ ـ ١٩٦١ م.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ٢٤٩.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ١١٧ ـ ١١٨، ١٢١.

(٢) تاريخ أسرة خوارزم شاه، وتاريخ ولاة المغول في خراسان حتى سنة ٦٥٦ هـ.

(٣) تكملة تاريخ المغول حتى القضاء على الحشاشين سنة ٦٥٥ هـ[١].

إذاً كان اعتماد ابن كثير في ترجمة جنكيز خان على تاريخ جهان كشاي، وهو في اللغة الفارسية، ولم نعرف له ترجمة في اللغة العربية، كما لم يثبت عندنا معرفة ابن كثير باللغة الفارسية لسكوت المصادر التي ترجمت له.

وقد تبيَّن لنا من مقابلة النص الفارسي في تاريخ جهان كشاي على ما جاء في «البداية والنهاية» عن الجويني في ترجمة جنكيز خان، أن ابن كثير اعتمد فيما حكاه عن الجويني على التلخيص والنقل بالمعنى[٢]، لذلك لا نستطيع أن نحكم على دقة الترجمة وصحته. ولكننا عثرنا في مقابلتنا بين الكتابين على خلاف ابن كثير مع الجويني، وعدم الدقة في نقل المعنى.

فقد ذكر ابن كثير حكاية فلاح، قدم لجنكيز خان ثلاث بطيخات، وأجازه جنكيز خان بقرطين لزوجته، وقد باعهما الفلاح بألف دينار.. إلخ[٣]، ولكن الجويني لم يذكر في الحكاية الفلاح، وإنما قال أن رجلاً قدم بطيختين أو ثلاثاً، وذكر أنه باع القرطين بألفي دينار[٤]. وهذا الفرق بينهما يدل على عدم الإلمام باللغة، أو عدم الاهتمام والدقة في النقل، أو الاعتماد على مصدر آخر غير أمين في نقل هذه الحكاية.

كما أنَّ خلاف ابن كثير مع الجويني في نقل بيت في حكاية سخاء جنكيز خان، يقوي الاحتمال الأخير الذي ذكرناه، وهو الاعتماد على مصدر آخر غير

---

(١) برتولد، دائرة المعارف الإسلامية ٧/ ١٨٥ (الترجمة العربية) وانظر مقدمة محمد القزويني في أول تاريخ جهان كشاي، مطبعة بريل لندن، سنة ١٣٢٩ هـ.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ١١٨، وانظر هنا اختصار ابن كثير لحكاية الصيد أيام جنكيز خان في سطرين، وتفصيله عند الجويني في صفحتين تاريخ جهان كشاي ١/ ١٩ ـ ٢١.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ١١٩ ـ ١٢٠.

(٤) الجويني تاريخ جهان كشاي ١/ ١٦٨.

أمين في النقل، فإن البيت ورد عند الجويني هكذا:

فلذاك يزدحم الورى في بابه   شروى ازدحام الحب في الرمان[1]

على حين جاء هذا البيت عند ابن كثير هكذا:

فلذاك تزدحم الوفود ببابه   مثل ازدحام الحب في الرمان[2]

وقد ذكر المترجمون للجويني رسالة باللغة العربية، في ذكر المحن التي ابتلي بها في آخر حياته، إلى نجاته من الحبس بأمر أبغا، وسماها «تسلية الإخوان» ورسالة أخرى مكملة للسابقة، وفيها ذكر تولية العرش للسلطان أحمد تيكودار سنة ٦٨٠ هـ، وقتل مجد الملك يزدي الذي كان سبب إيذاء الجويني بوشاياته عند ملوك التتار[3]، وقد صرح ابن كثير في ترجمة أبغا، وتولية أحمد مكانه قائلاً: «وقد رأيت في بعض تاريخ البغدادة»[4]. وهذا التصريح الغامض إن لم يعين الكتاب ومؤلفه، إلا أنه يشير إلى احتمال أن ابن كثير قصد إحدى الرسالتين المذكورتين من تصريحه المذكور.

* * *

---

(١) الجويني، تاريخ جهان كشاي ١/ ١٨١.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ١٢٠.

(٣) محمد القزويني، في مقدمة تاريخ جهان كشاي للجويني ١/عب ـ عد، وانظر دائرة المعارف الإسلامية ٧/ ١٨٨ (الترجمة العربية).

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ٢٩٧.

المطلب الثالث

دولة المماليك البحرية ومصادرها

بسط ابن كثير في هذا القسم من تاريخه، أخبار دولة المماليك البحرية منذ إنشائها سنة ٦٥٨ هـ إلى آخر حياته، أو إلى سنة ٧٦٨ هـ كما هو المطبوع من تاريخه.

وقد ساعد ابن كثير على البسط والتفصيل الذي نراه في هذا القسم، قرب عهده بأول أخبار دولتهم، ومعاصرته للحوادث التي وقعت منذ بداية القرن الثامن إلى وفاته. فقد عاش ابن كثير جميع حياته في دولتهم، وكان يقدر فيهم روح الإيمان والتضحية وحماس الجهاد في سبيل الإسلام ضد الأعداء في وقت لم يكن في الميدان لمقابلتهم سواهم. فقد قام المماليك وحدهم بدفع التتار والفرنج والأرمن عن الأراضي الإسلامية المقدسة ببسالة وشجاعة نادرة، وصبر وجلد دائم، وثبات وعزم لا يلين، مما رفع من قدرهم بين الناس، فرضوا بحكمهم، وأعرضوا عن سيئاتهم، وتحملوا مظالمهم ومصادراتهم.

قدم ابن كثير صورة صادقة لتاريخ دولة المماليك البحرية، فذكر أخبار وحوادث ووفيات عصرهم، والنشاط الحربي الذي قام به المماليك ضد أعدائهم، والفتن الداخلية التي أثارها أمراء المماليك بعضهم ضد بعض، طلباً للسلطة والنفوذ من الدولة، والتمكن من السلطنة التي انتقل إليها مركز الحكم من الخلافة التي أحياها الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩ هـ، بعد ثلاث سنين ونصف من زوالها في بغداد. ولكن لم يبق للخلفاء في عصرهم أمر ولا نهي ولا نفوذ واقتصرت وظيفتهم على تثبيت سلطان يرضاه الأمراء ويؤيدونه، أو

عزل سلطان يغضب منه الأمراء ويخلعونه. ومع هذه المكانة الدنية التي رضي بها الخلفاء لم يأمنوا في عزلتهم من غائلة غضب السلاطين والأمراء الذين كانوا تمكنوا من الحكم من وراء الستار، فتحمل الخلفاء من الإهانة والاستخفاف، والتضييق والحجر والخلع والنفي وما إلى ذلك مثل أسلافهم في بغداد سابقاً[1].

أما السلطنة فقد كان التنافس عليها بين الأمراء البحرية شديداً، والوصول إليها غاية كل أمير كبير، بتدبير المؤامرات والاغتيالات، وتدسيس الدسائس، وخلق المكائد والمشكلات تمهيداً لخلع السلطان وعزله، ثم حبسه ونفيه، وإذا تطلَّب الأمر فلا بأس في قتله. ثم وثوب الأمير الطامع المتآمر على عرش السلطنة إذا كانت الظروف في صالحه، أما إذا لم تساعده الظروف لسوء الحظ، فينصب سلطاناً يرضاه من الأسرة المالكة، ليتحكم فيه، ويحكم باسمه، ويتمكن من أمور الدولة من دونه.

لذلك نرى أنه لم يتمكن من الحكم من السلاطين المماليك ـ وعددهم أربعة وعشرون سلطاناً ـ إلا ثلاثة، حكموا بأنفسهم حكماً مستقلاً إلى آخر حياتهم، وتمكنوا من السيطرة على السلطنة والنفوذ من الدولة، واستبدوا بالأمراء الطامعين المتنافسين، وكبحوا جماحهم. وهم: الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، وابنه الناصر محمد بن قلاوون. ونحن هنا نتكلم على هؤلاء الثلاثة أساسياً، ونقدم أخبار عصرهم موجزاً كما يصورها ابن كثير في تاريخه، كما نشير أثناء الكلام عليهم إلى من تسلطن من المماليك، وتمكن من الدولة، ولكن قتل على أيدي الأمراء، وكذلك نشير إلى من فقد نفوذه لصغر سنه أمام الأمراء الأقوياء، وهم كثيرون.

(١) الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري: (٦٥٨ ـ ٦٧٦)، وهو الذي اغتال السلطان السابق الملك المظفر سيف الدين قطز (٦٥٧ ـ ٦٥٨) قاهر التتار في معركة عين جالوت، لنكثه وعده للظاهر بنيابة حلب، «وكان ذلك

---

(١) يراجع هنا مقالنا بعنوان «إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة ومكانتها في دولة المماليك البحرية» مجلة صوت الجامعة وأراناسي، الهند ١/٣ ـ ٤ (يوليو سنة١٩٧٠ م) ٦٥ ـ ٧٢.

سبب الوحشة التي وقعت بينهما، واقتضت قتل قطز سريعاً»[1]، وكان قُطُز أول من كسر شوكة التتار الذين لم يعرفوا معنى الهزيمة من قبل «فبادرهم قبل أن يبادروه، وأقدم عليهم قبل أن يقدموا عليه»[2]. فألحق بهم «هزيمة هائلة»[1] منكرة في وقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ. وأصبح هذا النصر تمهيداً لبسط نفوذ المماليك إلى بلاد الشام. فقد كان نفوذهم قبله محصوراً في مصر فقط.

وكان قطز قبل ذلك مدبِّر مملكة المنصور نور الدين علي (٦٥٥ ـ ٦٥٧)، استولى قطز على عرشه في غيبة أكثر مماليك أبيه، مستغلاً فرصة وصول التتار إلى حلب، وتهديدهم بغزو مصر، معتذراً بصغر سن السلطان[1].

وكان والد المنصور الملك المعز أيبك التركماني (٦٤٨ ـ ٦٥٥) أول ملوك المماليك قضى على دولة بني أيوب في مصر بقتل توران شاه سنة ٦٤٨ هـ، وخلع الملك الأشرف (٦٤٨ ـ ٦٥٠) الذي كان صبياً ابن عشر سنين، حين أقامه المماليك مع المعز صورة «فكانت السكة والخطبة بينهما»[3] ثم انتهز أيبك فرصة ازدياد خطر التتار «فاستقل بالملك وحده»[2] وكل ذلك عن أمر شجرة الدر ورأيها، وهي حظية الملك الصالح نجم الدين أيوب (المتوفى سنة ٦٤٧)، حكمت مصر مدة ثلاثة أشهر، بعد مقتل توران شاه، ثم نزلت للمعز الذي تزوجها سنة ٦٤٩ هـ، ثم كان موته على يديها، فإنها قتلته غيرة عليه، لما علمت بأنه يريد أن يتزوج عليها، فتمالأ عليها المماليك المعزية «فقتلوها، وألقوها على مزبلة، غير مستورة العورة، بعد الحجاب المنيع والمقام الرفيع»[2].

يتبين من هذا العرض الموجز كيف قامت دولة المماليك منذ أول يوم على الغدر والخيانة، والقتل وسفك الدماء. وقد تأصَّل ذلك في نفوسهم، فكان

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية ١٣/٢٢٢، ٢٠، ٢٢١، ١٩٨، ١٩٩، ٢١٦، ١٧٨ ـ ١٧٩، ١٩٥.

(٢) ابن كثير البداية والنهاية ١٣/٢٢٢، ٢٢٠، ٢٢١، ١٩٨، ١٩٩، ٢١٦، ١٧٨ ـ ١٧٩، ١٩٥.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/١٧٨ ـ ١٧٩، ١٩٥، ١٩٦، ٢٢٣، ٢٧٦.

أسهل شيء على الأمراء المماليك الاعتداء على السلاطين في كل فرصة يجدونها مناسبة لذلك.

أما الظاهر بيبرس فقد كان أحسن حظاً من سابقيه، وأطولهم حكماً، وأعظمهم سلطاناً، وأقواهم نفوذاً، اجتمعت فيه صفات العدل والفروسية والإقدام، «أقامه الله للناس لشدة احتياجهم إليه، في هذا الوقت الشديد، والأمر العسير»[1] فصدَّ الزحف التتري، وقضى على التسلل الصليبي، ووضع حداً لأطماع الأمراء الطامحين، ودأب على ترقية شؤون البلاد، وتنمية مواردها، فأصلح الحصون وعمر الجسور، وحفر الترع والأنهار، وأسس المعاهد وبنى المساجد، ووقف عليها الأوقاف الدارة، وخلف وراءه «من الآثار والأماكن ما لم يبن في زمن الخلفاء، وملوك بني أيوب»[1].

وأراد الظاهر بتولية العهد بعده لابنه الملك سعيد بركة خان (٦٧٦ ـ ٦٧٨)، تثبيت دعائم الدولة الناشئة سياسياً، والقضاء على مطامح الأمراء الطامعين. ولكن الملك السعيد حين تولى كان دون العشرين من سنه، فانصرف إلى اللهو واللعب، والانبساط مع الخاصكية الذين أدناهم، فتمكنوا من أمور الدولة، وكان هذا سبباً في تنفر الأمراء الكبار عنه، فنبذوه ثم خلعوه، وبايعوا أخاه الملك العادل بدر الدين سلامش صورةً ليسكن الشر عند خلع الملك السعيد، وجعلوا الأمير سيف الدين قلاوون أتابكه، وهو كان من أخص أصحاب الظاهر، ولكنه اتفق مع الأمراء في رجب سنة ٦٧٨ هـ، على عزل العادل، فأخرجوه من البين[1] بعد ثلاثة أشهر من حكمه، واتفقوا على بيعة قلاوون، فكان على يديه نهاية أسرة الظاهر.

(٢) الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي: (٦٧٨ ـ ٦٨١)، وقد تمتع بحكم طويل، وإن كان أقل من مدة الملك الظاهر في عرشه، وسار على نهجه في إدارة شؤون البلاد وتقدمها، كما اتبع سياسته في إبعاد التتار، وإخراج الصليبيين من الأراضي الإسلامية المقدسة[1]. وكان الملك المنصور أسعد حظاً من الظاهر في بقاء الملك بعده في أولاده وأحفاده وأولاد أحفاده، فقد حكم من

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ٢٨٧ ـ ٢٩٠، ٣١٧ ـ ٣١٨، ٣٣٤ ـ ٣٣٥، ١٤/ ٤٦.

أسرته أربعة عشر فرداً أكثر من قرن من الزمن، ولكن لم يحكم منهم حكماً مستقلاً، إلا الملك الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة، أما غيره فمنهم من أراد التمكن من الأمور، فقتل دونه مثل الأشرف، ومنهم من أصبح ألعوبة في أيدي الأمراء لصغر سنه، وهم كثيرون.

أما الملك الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩ ـ ٦٩٣) فقد كان حاكماً شديد البأس، لا يكل عن الحروب، فتح عكا وبقية السواحل سنة ٦٩٠ هـ، وبذلك قضى على دولة الصليبيين في الشام نهائياً، وفتح قلعة الروم سنة ٦٩١ هـ، وعزم على غزو العراق واسترجاعها من التتار، واستعد لذلك، ولكنه عوجل بمنيته على أيدي الأمراء، فقد كان الأشرف استبد بالأمراء، وقبض عليهم، وعاقبهم وحبسهم، وقتل بعضهم. فانزعج الأمراء، وكادوا له، فقضوا عليه برئاسة بدر الدين بيدرا الذي تولى السلطة بعده، ولكنه وقع فريسة بين أيدي مماليك الأشرف الذين قتلوه بأمر الأمير كتبغا، ولم تمر على سلطنته ليلة واحدة[1].

(٣) الملك الناصر محمد بن قلاوون: (٦٩٣ ـ ٦٩٤/٦٩٨ ـ ٧٠٨/٧٠٩ ـ ٧٤١)، تولى الناصر الملك في سلطنته الأولى، وكان عمره إذ ذاك ثماني سنين، فاغتصب ملكه أتابكه ونائب سلطنته العادل زين الدين كتبغا (٦٩٤ ـ ٦٩٦)، واختار نائبه الأمير حسام الدين لاجين الذي استغل بدوره فرصة الاضطرابات والفتر، فخلعه وتربع على عرش السلطنة، وتلقب بالملك المنصور (٦٩٦ ـ ٦٩٨). ثم انتهى أمره بالقتل، وتسليم الملك للناصر مرة ثانية.

حكم الناصر في سلطنته الثانية، لمدة أطول من السابق، ولكنه كان «مقهوراً»[1] مع الأميرين سالار نائبه، والجاتنكير استادارا، مضيقاً عليه في النفقات، حتى كانت زوجته تشكو «من ضيق الحال، وقلة النفقات»[1] وحين أراد التخلص منهما، علما الخبر، فثارا عليه، وجمعا قوتهما للقضاء عليه، ولم ينج الناصر بحياته إلا بمعجزة ظهرت في صورة تأييد الشعب له، وتحمسه في الذود عنه فاضطر الأميران للخضوع والاستسلام مؤقتاً، «ووقع الصلح على

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/٤٧، ٤٤، ٤٨، ٥٠، ٥٢.

دخن[1] ـ أي مكر وفساد ـ وتضايق الناصر من هذا الحال، فتظاهر بالسفر للحج، ولكنه انصرف من طريقه إلى الكرك، واستقر هناك، و«عزل نفسه عن المملكة»[1].

وبويع بعده للملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير (٧٠٨ ـ ٧٠٩)، ولكن الأمور لم تستقر له، فقد امتنع القاضي الحنبلي بدمشق التقي سليمان بن حمزة عن إثبات كتاب الناصر إلى أهل مصر في عزله. قائلاً: «ليس أحد يترك الأمر مختاراً، ولولا أنه مضطهد ما تركه». فعُزِل القاضي، وأقيم غيره مكانه و«تباكى جماعة من الأمراء، وبايعوا كالمكرهين»[1] ثم قام في تأييد الناصر جماعة من كبار أمراء الشام، فأعادوه إلى عرشه، فدخل الناصر دمشق في ١٨ من شعبان سنة ٧٠٩ هـ في أبهة عظيمة، شاهد ابن كثير هذا الموكب التاريخي الظافر، فوصفه في تاريخه وصفاً جميلاً[1].

هكذا عاد الناصر مرة ثالثة إلى السلطنة، بمساعدة أمراء الشام، وبتأييد الشعب موفور الجانب، ليقبض هذه المرة على زمام الأمور بيد من حديد، لأطول مدة حكمها أحد من المماليك البحرية، أي اثنتين وثلاثين سنة، انفرد فيها بالحكم، واستقلَّ بالرأي، واستبد بالأمور، واهتم بمصالح الشعب في الداخل، ومقاومة أعداء الدولة في الخارج، و«امتد سلطانه من بلاد برقة غرباً إلى ساحل البحر الأحمر شرقاً، ومن آسيا الصغرى شمالاً إلى بلاد النوبة جنوباً، كما بسط نفوذه على بلاد اليمن والحجاز»[2]. و«خطب له في أماكن لم يخطب بها لأحد من المماليك، وكاتبه سائر الملوك، وهادوه وهابوه، وصار جميع معسكر مصر في قبضة يده»[3]. لذلك عَدَّه ابن تغري بردي من «أجلِّ ملوك الترك، وأعظمهم بلا مدافعة»، وأثنى عليه ثناء جماً[4]. كما اعتبره الدارسون في

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/٤٧، ٤٤، ٤٨، ٥٠، ٥٢.

(٢) علي إبراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية ٨٢، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، سنة ١٩٤٨ م.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور ١/١٧٣، المطبعة الأميرية بولاق مصر، سنة ١١ ـ ١٣١٢ هـ.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٩/١٦٥ ـ ١٦٦ . . . =

زمانتا «المثل الأعلى للسياسي في دولة المماليك، كما كان بيبرس من قبله المثل الأعلى للقائد الحربي»[١].

وفي عهده تحسنت علاقات المماليك مع التتار، ألد أعداء المماليك منذ إنشاء دولتهم، فقد تزوج الناصر إحدى أميرات المغول من أحفاد باتو سنة ٧٢٠ هـ. وفي نفس السنة بدأت مفاوضات الصلح بين الطرفين، فقدم الخواجة مجد الدين إسماعيل بن محمد ياقوت السلامي (٦٧١ ـ ٧٤٣) إلى دمشق في أواخر ذي الحجة، من عند أبي سعيد (٧١٧ ـ ٧٣٥)، ملك التتار، ومعه هدايا وتحف للملك الناصر، و«اشتهر أنه إنما جاء ليصلح بين المسلمين والتتار». ثم عاد السلامي في أواخر رجب سنة ٧٢١ هـ، ومعه هدايا من سلطان مصر إلى ملك التتار[٢]. وهذا يدل على أن المفاوضات استمرت نحو سبعة أشهر، بحثاً عن أسس ثابتة تقوم عليها اتفاقية صلح بين البلدين.

ثم أرسل أبو سعيد رسالة أخرى سنة ٧٢٢ هـ، مع قاضي نوروز إلى الناصر يطلب فيها الصلح، وبعث الناصر رده عليها مع مملوكه سيف الدين أيتمش المحمدي في نفس السنة[٣]. ثم حمل أيتمش رسالة أخرى من الناصر إلى أبي سعيد سنة ٧٢٦ هـ[٤]. وكان التعاون سائداً في هذه الفترة بين الطرفين، فقد هرب تمرتاش بن جوبان إلى السلطان الناصر خوفاً من بطش الملك أبي سعيد، فما كان من أمره إلا أن ترددت الرسل بين الملكين، فقتله الناصر وأرسل برأسه إلى أبي سعيد سنة ٧٢٨ هـ[٥].

وهذا كله يدل على أنَّ المفاوضات طالت واستمرت حتى عقدت «معاهدة

= ، دار الكتب المصرية، سنة ١٢ ـ ١٩٣٦ م.

(١) علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية ٨٨.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/٩٦، ٩٧، ٩٩.

(٣) علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية ١٢٧.

(٤) ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ١/٤٢٤، دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد بالهند سنة ٤٨ ـ ١٣٥٠ هـ.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/١٣٥، ١٤٠.

صداقة بين البلدين سنة ٧٣٤ هـ»[١]. واستحكمت منها أواصر الصداقة والصفاء والود بين المماليك والتتار. فقد قدم ابن الحجاف رسول صاحب العراق سنة ٧٦٢ هـ، «لخطبة بنت السلطان، فأجابهم بشرط أن يصدقها مملكة بغداد»[٢].

(٤) حكم أولاد الناصر وأحفاده: (٧٤١ ـ ٧٨٤)، تبع هذا العهد الزاهر من حكم الملك الناصر، عهد أولاده الثمانية، وأحفاده الأربعة، حتى نهاية دولة المماليك البحرية على يد الأمير برقوق الذي أسس دولة المماليك البرجية أو الجركسية.

وقد تدهورت السلطنة المملوكية في عهد أولاد الناصر وأحفاده تدهوراً كبيراً، وعاد نفوذ الأمراء وتنافسهم ولعبهم بالملوك كما كان في السابق. وذلك لكثرة السلاطين الأطفال الذين لم يبلغوا سن الرشد، فقد كان أكثر هؤلاء حين تولية العرش بين العاشر والعشرين من سنهم، وكان بينهم من حكم أو حكم باسمه، وهو بين الخامسة أو السابعة من عمره، مثل الملك الأشرف علاء الدين كجك الذي خلعه الأمير سيف الدين قطلوبغا الفخري سنة ٧٤٢ هـ، «معتلاً بصغره»[٣]، بعد خمسة أشهر من حكمه، والمنصور علاء الدين علي (٧٧٨ ـ ٧٨٣) الذي تولى السلطنة، وعمره ست سنوات، ومات موتاً طبيعياً[٤].

أما الناصر شهاب الدين أحمد (٧٤٢ ـ ٧٤٣)، وهو الوحيد الذي بلغ منهم أربعاً وعشرين سنة، حين توليه العرش. وأراد التمكن من الحكم والنفوذ من الدولة، فقتل نائبه الفخري طشتمر قتلاً فظيعاً، للحد من استبداد الأمراء، فلم يوفق في تدبيره، «وانزعج الأمراء وتشوشوا كثيراً»[٥]. فعاد السلطان إلى الكرك مكان إقامته، وامتنع من العودة، فخلعوه في أقل من ثلاثة أشهر. وكذلك الكامل سيف الدين شعبان (٧٤٦ ـ ٧٤٧)، وإن لم نعرف مبلغ سنه حين اعتلائه

(١) علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية ١٣٠.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٢٧٦.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ١٩٤.
(٤) علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية ١٠٣.
(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٢٠٢، ٢١٩.

العرش، ولكن يبدو أنه بلغ مبلغ الرجال، فقد اتهم عند خلعه «بإكثاره من مسك الأمراء بغير سبب»[1].

هكذا ضاعت حرمة السلطنة بعد الناصر، وظهر نفوذ الأمراء الأقوياء غلاباً، وفتح أمامهم باب الصراع والتنافس على السلطة على مصراعيه. وأصبح السلاطين في أيديهم دُمىً، وكان أضعفهم إرادة أكثرهم قبولاً لديهم، فإذا ما بدأ يعارض رغباتهم بادروا إلى عزله ونفيه، أو تدبير قتله، وإقامة غيره مقامه فلم يمت موتاً طبيعياً من هؤلاء السلاطين الاثني عشر على كرسي الحكم إلا اثنان. وهما: الصالح عماد الدين إسماعيل (٧٤٣ ـ ٧٤٦)، مات لمرض أصابه، وهو ابن عشرين سنة[2]، والمنصور علاء الدين علي المذكور آنفاً. أما غيرهما فخلعوا وعزلوا، وقتل منهم خمسة، وغُيِّب الناصر بدر الدين حسن في سلطنته الثانية (٧٥٥ ـ ٧٦٢)، حين قَبض عليه الأمير الكبير سيف الدين يلبغا الخاصكي، بعد حرب هزم فيها السلطان، فأدخل دار يلبغا، «وكان آخر العهد به»[2].

وكان آخر سلاطين المماليك ذكراً عند ابن كثير، الملك الأشرف زين الدين شعبان (٧٦٤ ـ ٧٧٨). وجدنا أخبار السنين الأربع الأولى من حكمه في المطبوع من «البداية والنهاية».

وبالإضافة إلى الأحوال السياسية والفتن الداخلية والحروب الخارجية، اهتم ابن كثير في هذا القسم بذكر أخبار القضاة باعتبارهم من حكام المملكة، فقد كانوا يُعيِّنون ويعزلون من جانب الحكومة. وكان أمر القضاء منذ أيام صلاح الدين الأيوبي مقتصراً على المذهب الشافعي، وللقاضي الشافعي في مصر كان حق إنابة النواب عنه في الأقاليم التابعة للديار المصرية. واستمر هذا إلى أوائل الدولة المملوكية حتى أيام الظاهر بيبرس، الذي ولى في مصر سنة ٦٦٣ هـ القضاة من المذاهب الفقهية الأربعة، مستقلين بالحكم عن قاضي القضاة الشافعي، ولكل واحد منهم حق إنابة النوّاب عنه في البلاد التابعة لدولة

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/٢٠٢، ٢١٩.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/٢١٦، ٢٧٨، ١٣/ ٢٤٥.

المماليك. وكان سبب ذلك كما ذكره ابن كثير «كثرة توقف القاضي ابن بنت الأعز الشافعي في أمور تخالف المذهب الشافعي، وتوافق غيره من المذاهب. فأشار الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي على السلطان بأن يولي من كل مذهب قاضياً مستقلاً، يحكم بمقتضى مذهبه»[1]. وقد التزم ابن كثير بعد ذلك بذكر أخبارهم، وتوليتهم وعزلهم أو نقلهم من بلد إلى آخر، وخاصة في مصر والشام، وذلك حين كان يذكر حكام الدولة في أول كل سنة في البلاد التابعة للمماليك.

وقد كثرت المدارس والمعاهد العلمية في هذا العصر، اتباعاً للظاهرة التي بدأها الوزير نظام الملك (٤٥٦ ـ ٤٨٥)، فأصبحت موضع التنافس وتسابق الحكام والأمراء وأهل الثروة بعده، وما زالت إلى عصرنا الذي نبحثه فزخرت البلاد الإسلامية بالمدارس، وكان يعين فيها أشهر علماء العصر، لتدريس الطلاب وتربية أبناء المسلمين. بسط ابن كثير أخبار هذه المدارس باهتمام بالغ، مما جعله مرجعاً كبيراً زاخراً في دراسة أخبار المدارس في ذلك العصر، وبالإضافة إلى ذلك فقد ذكر مؤرخنا بعض مجالس العلم التي كانت تعقد من وقت لآخر في مناسبات مختلفة، وما كان يدور فيها.

وأشار ابن كثير إلى ظاهرة تنافس العلماء في الحصول على مناصب القضاء والتدريس مما كان سبباً في إثارة المنازعات فيما بينهم، بالإضافة إلى الخلافات المذهبية الدينية الموجودة في المجتمع الإسلامي من العهود السابقة.

ويعتبر تاريخ ابن كثير من المصادر الرئيسية المعاصرة لأخبار شيخه **تقي الدين ابن تيمية**، وجهاده بالسيف والقلم ضد التتار، وضد الفرق الضالة والطوائف المنحرفة، ونكيره على الباطل باليد واللسان، والقلم والسنان، وله مواقف مشهورة في ذلك. فبالإضافة إلى حضوره قتال التتار والطوائف المنحرفة التي تمالأت الأعداء ضد المسلمين، ذكر ابن كثير تعزير ابن تيمية لأهل الحانات، وكسره الخمارات، وشكوى هؤلاء وأولئك من الناس ضد ابن تيمية

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/٢١٦، ٢٧٨، ١٣/٢٤٥.

على إقامته الحدود، وتعزيره وحلقه رؤوس الصبيان[1]. وذكر ابن كثير استتابة ابن تيمية لشيخين مخرفين، وهدمه صخرة كانت تزار، وينذر لها في مسجد التاريخ، ثم علق قائلاً: «وبهذا وأمثاله حسدوه وأبرزوا له العداوة، وكذلك بكلامه على ابن عربي وأتباعه، فَحُسِدَ على ذلك وعودي، ومع هذا لم تأخذه في الله لومة لائم. ولا بالى، ولم يصلوا إليه بمكروه، وأكثر ما نالوا منه أن حبسوه بالجاه»[1]. وذكرت مجالس التحقيق التي عقدت سنة ٧٠٥ هـ سؤالاً عن عقيدة ابن تيمية وصحة آرائه برئاسة علماء كانوا دونه في العلم والفضل والفكر والرأي، ثم علق قائلاً: «وكان للشيخ تقي الدين جماعة من الفقهاء يحسدونه لتقدمه عند الدولة، وانفراده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطاعة الناس ومحبتهم له، وكثرة أتباعه، وقيامه بالحق وعلمه وعمله»[1].

وقد نجح أعداء ابن تيمية من المتصوفة الذين حاربوه، ومن اختفى وراءهم من أصحاب الفرق الضالة الذين عادوه، وطائفة من علماء وقضاة المذاهب الفقهية الذين استأنسوا الجمود الفكري فأنكروا كل رأي وفكر جديد، نجح هؤلاء كلهم في ابتلاء ابن تيمية وبعض أصحابه وتلاميذه بالمحن وبالحبس إلى أن توفي رحمه الله تعالى سنة ٧٢٨ هـ في قلعة دمشق محبوساً مضيقاً عليه، ممنوعاً من أعز سلاحه في ميدان العلم، أي «الكتب والأوراق، والقلم والدواة»[2].

هكذا نرى أن ابن كثير جمع في تاريخ عصر المماليك إلى جانب الحوادث السياسية والحروب الخارجية والفتن الداخلية، أخباراً علمية وثقافية واجتماعية ذات أهمية بالغة في دراسة مجتمع ذلك العصر، وبذلك حفظ ثروة تاريخية قيمة، وصانها من الضياع.

أما القسم المشار إليه في اسم تاريخ ابن كثير بـ «**النهاية**» فإنه يجمع بين

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/١١، ١٩، ٣٣ ـ ٣٤، ٣٧.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ١٣٤، ويراجع هنا مقالنا في «دور الإمام ابن تيمية وأصحابه في الحياة الفكرية في القرن الثامن الهجري» مجلة صوت الجامعة، بنارس الهند، ٢/١ (اكتوبر سنة ١٩٧٠ م) ٤٥ ـ ٥٢.

ما ورد من الأخبار في الفتن والملاحم، وأشراط الساعة وأحوال الآخرة[1]. وقد اعتبر روزنثال إضافة هذا القسم في تاريخ ابن كثير دليلاً على نمو أثر علم الكلام في التاريخ عند المؤرخين المسلمين منذ عهد ابن كثير[2].

* * *

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١/٦.

(٢) فرانز روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين، هامش رقم ٤٨، صفحة ٢٠٣.

مصادر دولة المماليك البحرية

اعتمد ابن كثير في هذا القسم من تاريخه أولاً على تواريخ معاصرة، ثم حين دخل عصره اعتمد فيه مع المصادر الكتابية على مشاهداته، وأخبار شفهية تلقاها من أناس وثق فيهم، ورسائل ووثائق اطلع عليها. وحين انتهى ابن كثير من آخر مصادره الكتابية سنة ٧٣٨ هـ، وهو تاريخ شيخه البرزالي، أصبح كل اعتماده على المصادر الأخيرة الذكر.

المصادر الكتابية المعاصرة

أما المصادر الكتابية، فقد استمر «ذيل الروضتين» لأبي شامة (٥٩٩ ـ ٦٦٥) في أخبار التتار واستيلائهم على بغداد، وأوائل دولة المماليك إلى نهاية حوادث ووفيات سنة ٦٦٢ هـ، حيث نقل عنه بتصريح اسمه آخر مرة وفاة الفخر عثمان المصري[1]. وقد تكلمنا على أهمية ابن شامة كمصدر في «البداية والنهاية» حين الكلام على مصادر الدولتين النورية والصلاحية أيام الخلافة العباسية.

ثم رجع ابن كثير منذ سقوط بغداد في أيدي التتار، وزوال الدولة العباسية إلى مصدر معاصر هام، **وهو ذيل قطب الدين اليونيني** (٦٤٠ ـ ٧٢٩)، وهذا الكتاب من قبيل التواريخ التابعة لتاريخ ابن الجوزي وأسلوبه في «المنتظم». اختصر فيه اليونيني «مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي في نحو النصف، ثم ذيل عليه في أربعة مجلدات[2]. وقد أثنى عليه الذهبي وانتفع بتاريخه كما صرح

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ٢٤٤.

(٢) ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٤/ ٣٨٢.

بذلك بنفسه[١]. كما أشاد ابن كثير بعمله التاريخي قائلاً: إنه «أفاد فيه وأجاد بعبارة حسنة سهلة، بإنصاف وستر، أتى فيه بأشياء حسنة، وأشياء فائقة رائقة»[٢]. طبع منه القسم الأخير، وفيه حوادث اثنتين وثلاثين سنة (٦٥٤ ـ ٦٨٦)، وقد توقف الكتاب بحوادث سنة ٦٨٦ هـ، مع أنَّ اليونيني عاش بعد ذلك نحو أربعين سنة، وكان من المتوقع أن يسجل حوادث عصره إلى نهاية حياته، ولكن الذين ترجموا له لم يصرحوا إلى أي سنة بلغ اليونيني في ذيله على «مرآة الزمان».

اعتمد ابن كثير عليه منذ حوادث ٦٥٦ هـ، حيث نقل عنه وعن أبي شامة والذهبي وباءً شديداً بالشام بسبب فساد الهواء عقب المقتلة الكبرى في العراق[٣]. ومن هنا أصبح اليونيني مصدره المفضَّل في أخبار دولة المماليك ووفيات عصرهم إلى سنة ٦٧٩ هـ، حيث أشار إلى ثنائه على داود بن حاتم الحبال في ترجمته له[٤]. ويبدو أنه لم تكن عند ابن كثير أجزاء تاريخه بعد سنة ٦٧٦ هـ، لذلك لم نجد له ذكراً في «البداية والنهاية» في حوادث السنين السبع الأخيرة (٦٨٠ ـ ٦٨٦) الموجودة في المطبوع من تاريخه.

اتصف ذيل اليونيني بالتوسع في التراجم والإكثار من إيراد الشعر للمترجمين، وما قيل فيهم من شعر في المدائح والمراثي أو في مناسبات أخرى، أما ابن كثير فقد اقتصد في إيراد الشعر في تاريخه، فلم يورد له إلا بعض نماذج قصيرة من الشعر في بعض التراجم. وقد اكتفى بالإحالة ـ على عادته في النقل من جميع المؤرخين ـ على اليونيني في أماكن كثيرة لمن أراد الرجوع إلى أخبار وأشعار بسطها اليونيني في ذيله، ولكن لم نجد عند اليونيني بعض الأشعار التي أحال عليها ابن كثير في ترجمة الشيخ أحمد بن عبد الدائم (٥٧٥ ـ

---

(١) ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٦/ ٨٤ مطبعة توفيق بدمشق، سنة ١٣٤٧ هـ.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ١٢٦.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ٢٠٤ وانظر أيضاً ذيل مرآة الزمان لليونيني ١/ ١٢٥، دائرة المعارف العثمانية حيدرآباد بالهند سنة ٥٤ ـ ١٩٦١ م.

(٤) تاريخ ابن كثير، ١٣/ ٢٩٣، وانظر أيضاً ذيل مرآة الزمان لليونيني ٤/ ٥٥.

٦٦٨)[١]، وهذا يدل على نقص المخطوطات التي طبع عليها ذيل اليونيني.

وأخيراً نذكر تاريخ شيخ ابن كثير، الشيخ **علم الدين أبو محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي** (٦٦٥ ـ ٧٣٩)، محدّث الشام ومؤرخها، ويدل على ثقته وإتقانه وثباته قول ابن تيمية «نقل البرزالي نقر في حجر»[٢]. ألف البرزالي كتباً في التاريخ، منها: «**المقتفى في التاريخ**»، وهو مصدر ابن كثير في هذا القسم. بدأ البرزالي كتابه بحوادث سنة ٦٦٥ هـ حيث انتهى أبو شامة، وجعله ذيلاً على تاريخه، «حذا فيه حذوه، وسلك نحوه، ورتب ترتيبه، وهذب تهذيبه»[١]. بلغ فيه إلى حوادث ووفيات سنة ٧٣٨ هـ. ثم جاء ابن كثير فألف تاريخه «البداية والنهاية» واعتبره ذيلاً على تاريخ البرزالي[١]. وهكذا تكون هذه التواريخ الثلاثة سلسلة متصلة الحلقات من تاريخ المسلمين، منذ أيام الدولتين النورية والصلاحية إلى أواخر أيام دولة المماليك البحرية، أو قبلها بقليل.

رجع ابن كثير إلى تاريخ البرزالي منذ أول كتابه سنة ٦٦٥ هـ، حيث نقل عنه في ترجمة أبي شامة[١] إلى نهاية تاريخه سنة ٧٣٨[١]. وقد اعتمد في ذلك على النسخة المكتوبة من خط البرزالي، كما صرح ابن كثير بذلك في بعض الأماكن[١]، ولم يتيسر لنا مقابلة الكتابين، لأنَّ تاريخ البرزالي ما زال مخطوطاً في بعض مكتبات العالم[٣] ولكن يمكن لنا القول نظراً إلى أخبار البرزالي في «البداية والنهاية» أنَّ البرزالي اهتم في تاريخه بجمع أخبار ابن تيمية[٤]، وبذكر الأخبار الغريبة والحوادث النادرة[٣]، إلى جانب التاريخ السياسي والثقافي لعصر المماليك، ووفيات عصرهم.

---

(١) تاريخ ابن كثير ١٣/ ٢٥٧، وراجع ذيل مرآة الزمان لليونيني ٢/ ٤٣٦.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ١٨٥، ١٣/ ٣٥١، ١٥٣، ١٤/ ١٨٣، ١٣/ ٢٥٠، ١٤/ ١٨٣، ٣٢، ٩٩، ١٠٠.

(٣) انظر لمخطوطات تاريخ البرزالي، تاريخ آداب اللغة العربية، لجرجي زيدان ٣/ ١٨٧، دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) المؤرخون الدمشقيون لصلاح الدين المنجد ٤٢.

(٤) ابن كثير البداية والنهاية ١٣/ ٤٥، ٥٣، ١٢٣، ١٣٤، ١٣٥ ـ ١٣٨، ١٦٣، ٣٣٦، ١٤/ ١٨، ٢٢، ١٨١، ٣٢ ـ ٣٣.

وأشار ابن كثير إلى «**المعجم الكبير**» للبرزالي، وذلك في ترجمة أبيه، حيث نقل عنه مؤرخنا بعض أخبار والده، وأشعاره، وعدتها ثلاثة وعشرون بيتاً في الحب والغرام[٣].

وكنا نأمل أن نجد في هذا القسم من تاريخ ابن كثير مكاناً أكبر لشيخه مؤرخ الإسلام شمس الدين أبي عبد الله الذهبي (٦٧٣ ـ ٧٤٨) الذي عاش جميع حياته في دولة المماليك البحرية، وعاصر حوادث عصرهم إلى نحو النصف من القرن الثامن. وكان مؤرخنا يكنُّ له تقديراً عظيماً. فيذكره دائماً بـ «شيخنا»، ولكن لم يرد اسمه في هذا القسم كمصدر إلا مرتين. وذلك في ذكر وباء بالشام سنة ٦٥٦ هـ، وفي مولد تقي الدين ابن تيمية ٦٦١ هـ[١].

وسبب ذلك عندنا بأنَّ الذهبي لم يهتم بتاريخ هذا العصر اهتمامه بتاريخ صدر الإسلام، ثم إنه غلبت على مؤلفاته التاريخية التراجم على الحوادث السياسية[٢]. لذلك لم يرجع إليه ابن كثير إلا في بعض تراجم العصرين، عصر الخلافة الراشدة والدولة الأموية، كما أسلفنا ذلك حين الكلام على مصادر القسمين المذكورين.

المصادر غير الكتابية

والآن نذكر المصادر الغير الكتابية في تاريخ ابن كثير، وهي: مشاهداته وسماعه، وما اطلع عليها من الوثائق والرسائل، وما تلقاها شفهياً من المعلومات.

فمن مشاهداته التي ذكرها ابن كثير دخول الملك الناصر محمد بن قلاوون دمشق سنة ٧٠٩ هـ، حين أعيد إلى السلطنة مرة ثالثة، فقد شهد ابن كثير هذا الموكب التاريخي، وهو صغير، فوصفه وصفاً جميلاً مع الاستعانة بتاريخ

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/ ٢٠٤، ٢٤١.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٤/ ٥٠٠ (الترجمة العربية).

البرزالي[1]. كما رأى دخوله دمشق مرة أخرى سنة ٧١٣ هـ، مرجعه من الحج[3]. وشهد قتل الزنديقين ناصر بن أبي الفضل الهيثي سنة ٧٢٦ هـ، وعثمان الدكاكي سنة ٧٤١ هـ، فوصف التحقيق معهما، ثم قتلهما[3]. ورأى ابن كثير حين حج سنة ٧٣١ هـ العين التي أجريت بمكة سنة ٧٢٦ هـ. فذكر ما حصل بها من الرفق لأهل مكة، وحجاج بيت الله الحرام[3]. وحضر جنازة شيخه ابن تيمية سنة ٧٢٨ هـ، فبسط في وصفها[2]. كما رأى العمود الأثري في سوق العلبيين بدمشق منذ أيام الرومان، وكان فيه طلسم لعسر بول الحيوان، شاهده ابن كثير حين أخذ من مكانه لإدخاله في بناء الجامع المجدد بسوق الخيل سنة ٧٤٨ هـ[3]. كما وصف إهدام باب جيرون بسبب حريق وقع عنده سنة ٧٥٣ هـ، وهو أيضاً من الآثار القديمة في دمشق، قيل: إنه بني قبل أربعة أو خمسة آلاف سنة[2]. وذكر دخول الأمير سيف الدين اسندمر إلى دمشق سنة ٧٦٠ هـ نائباً عليها، وكان ابن كثير شاهد الاحتفال الذي أجري بهذه المناسبة[2]. كما شاهد في أحد أسفاره إلى مدينة بعلبك آثار السيول، فذكر ما لحق البلد بسببها من أضرار، وما أتلف من الزرع والأشجار[2].

ويبدو أن أمر تأليف ابن كثير كتاباً عاماً في التاريخ اشتهر بين الناس في بلاد إسلامية. فكان الناس يرسلون إليه أخبار بلادهم، فقد نقل ابن كثير خبراً في حريق عظيم وقع سنة ٧٥٧ هـ في طرابلس عن رسالة، طلب فيه محمد يلبان من صاحبه أن «يعرف الشيخ عماد الدين بما جرى من الحريق في بلاد السواحل من طرابلس. . إلخ[2]. ونقل من كتاب آخر ورد من حلب بخط الفقيه العدل شمس الدين العراقي، جاء فيه ولادة مولود سنة ٧٦٢ هـ على كل كتف له رأس بوجه مستدير[2]. كما ذكر أخبار سيل عظيم في حلب سنة ٧٦١ هـ، وسقوط برد زنة الواحدة منها سبعمئة درهم، من خطاب من شاهد ذلك عياناً[2].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/٥٢، ٦٩، ١٢٢، ١٨٩ ـ ١٩٠، ١٢٣، ١٣٨، ١٣٩.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/٥٢، ٦٩، ١٢٢، ١٨٩ ـ ١٩٠، ١٢٣، ١٣٨، ١٣٩.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/٢٢١ ـ ٢٢٢، ٢٤١ ـ ٢٤٢، ٢٦٦، ٢٧٤، ٢٥٦، ٢٧٦ ـ ٢٧٧، ٢٧٤، ٢٥٨ ـ ٢٥٩، ٢٩٠، ٣٠٩.

وكان مؤرخنا في آخر عصره على اتصال قوي مع الحكام في دمشق، يطلبونه للمشورة، ويزورهم ليستطلع منهم أخبار الدولة، والمعارك مع الأعداء، وتفاصيل الفتن الداخلية، فيدخلها في تاريخه. فقد ذكر ملخص ما علمه من نائب السلطنة الأمير علي المارداني في خروج الأمير طاز على سلطان مصر سنة ٧٥٩ هـ، وإرغام المارداني له على الصلح[٢]. وكذلك سأله عما حدث له مع الخارجين على الدولة في بلاد الفرير، وبما تم في أمر العشيرات المواسين ببلاد عجلون سنة ٧٦٣ هـ[١] ونقل خبراً سنة ٧٦٦ هـ عن الأمير صلاح الدين محمد بن الملك الكامل (٧١٠ ـ ٧٨٩) في ذكر تخريب قريتين مشعرا وتلبتاثا من وادي التيم لعصيان أهلهما[١]. كما اجتمع بنائب الغيبة بدمشق الأمير زين الدين زبالة الذي أخبره بالإفراج عن جميع أسرى المسلمين الذين كانوا عند صاحب قبرص، وذلك لأنه رأى في النجوم أنَّ قبرص مأخوذة، فنادى في بلاده أنَّ من كتم مسلماً صغيراً أو كبيراً قُتل[٢]. وكذلك نقل عن طريق الأمير تاج الدين الدوادار وقعة بين يدمر نائب دمشق وبين خيار بن مهنا أمير الأعراب سنة ٧٦١ هـ. وكان الدوادار من مشاهدي الوقعة[٢].

ولا يبعد أن اتصال ابن كثير مع حكام دمشق سهَّل له الاطلاع على الوثائق الرسمية، فإنه أشار إلى فرمان كتب للأمير منجك بماء الذهب سنة ٧٦١ هـ لبناء مدرسة وخانقاه غربي المسجد الشريف في القدس، وكان فيه «تعظيم زائد، ومدح وثناء له، وشكر على متقدم خدماته للدولة، والعفو عما مضى من زلاته، وذكر سيرته بعبارة حسنة»[٢].

ويبدو أنَّ ابن كثير كان أيضاً على اتصال مع مؤرخي عصره، وكان يأخذ منهم الأخبار التي لم تصله، فقد ذكر في استيلاء الفرنج على الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ، خبراً عن «بعض علماء السير» في اجتماع الكواكب السبعة في برج

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٢٢١ ـ ٢٢٢، ٢٤١ ـ ٢٤٢، ٢٦٦، ٢٧٤، ٢٥٦، ٢٧٦ ـ ٢٧٧، ٢٧٤، ٢٥٨ ـ ٢٥٩، ٢٩٠، ٣٠٩.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣، ٢٧٢، ٢٦٩، ٣١٤، ٣١، ٣٢، ١٣٧، ٢٩٠، ٢٩٣، ٣٠٢، ٣١١، ٣٢٣، ١٨٨، ٣٠٢، ٣١٩.

العقرب في أول شهر صفر من السنة المذكورة، ثم ما وقع من الأمر الفظيع على أيدي الفرنج بالإسكندرية. . إلخ[٢].

وأشار ابن كثير إلى أسماء بعض أعلام العصر الذين استقى منهم أخباراً تاريخية معاصرة، فمنهم: شيخه كمال الدين محمد بن علي الزملكاني (٦٦٦ ـ ٧٢٧)[٢]، وقاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب السبكي (٧٢٧ ـ ٧٧١)[٢]، والقاضي أمين الدين ابن القلانسي[١]، والصاحب سعد الدين ماجد، ناظر الدواوين[١]، والشيخ محيي الدين الرحبي، والشيخ عبد الرحمن أحد رؤساء بغداد، وأصحاب التجارات فيها، والشيخ شهاب الدين العطار، وهو السمسار في الشرب ببغداد[١].

هكذا اعتمد ابن كثير على مصادر متعددة من كتابية وشفهية إلى مقابلات شخصية ورسائل ووثائق، فجمع مادةً زاخرة في تاريخ عصره في القسم الأخير من «البداية والنهاية»، وخلَّد في تاريخ دمشق خاصة، إلى جانب الأحوال السياسية والاجتماعية، لفتاته النفسية، وهجساته القلبية، ومشاعره العاطفية بصدق وبراعة، باعتباره أحد مواطني بلاد الشام.

* * *

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣، ٢٧٢، ٢٦٩، ٣١٤، ٣١، ٣٢، ١٣٧، ٢٩٠، ٢٩٣، ٣٠٢، ٣١١، ٣٢٣، ١٨٨، ٣٠٢، ٣١٩.

الباب الثاني

منهج ابن كثير وتطبيقه في تاريخه

ذكر ابن كثير منهجه في مقدمة تاريخه، ثم أعاده مراراً وتكراراً في شتى فصول كتابه، بمناسبات فحص الروايات، وكشف زيف الأخبار الإسرائيلية ونقدها. ولكنه منهج يدور حول الإسرائيليات، فلا يمكن تطبيقه إلا في قسم المبتدأ، حيث كثرت فيه الروايات الإسرائيلية والأخبار الموضوعة، لجهل الناس بأحوال الأمم الماضية، ودخول أصحاب الديانات الأخرى في الإسلام، فكانوا سبباً في نشر ما توارثوه من أخبار تشبه الأساطير الخرافية والقصص الشعبية. وكان ذلك سبباً في اعتماد ابن كثير في هذا القسم أولاً وقبل كل شيء على الكتاب والسنة، والأخبار المنقولة المقبولة عند العلماء، وورثة الأنبياء، الآخذين من مشكاة النبوية المصطفوية المحمدية[1].

شغل ابن كثير موضوع الإسرائيليات، فنسي في بيان منهجه ذكر سواها، ووضع كل ثقله على هذه النقطة الحسَّاسة، فبسط في بيان منهجه فيها، وأكثر من تطبيقه في تاريخه، كما طبقه أولاً في تفسيره، ويمكن حصر هذا المنهج في الآتي:

(١) الإسرائيليات التي يصدقها الكتاب والسنة، ويشهد لها «لا حاجة لنا إليها استغناء بما عندنا»[1].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١/٦ ـ ٧، وانظر أيضاً تفسير ابن كثير ١/٣ ـ ٥، ٣/١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) الإسرائيليات التي لا يصدقها الكتاب والسنة، ولا يشهد لها «فذاك مردود، لا تجوز حكايته إلا على سبيل الإنكار والإبطال»[١].

(٣) الإسرائيليات التي لا يصدقها الكتاب والسنة، ولا يكذبها «تجوز روايتها للاعتبار»، لأنَّ من فائدة هذا القسم «بسطٌ لمختصر عندنا، أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا، مما لا فائدة في تعيينه لنا، فنذكره على سبيل التحلي به لا على سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه، وإنما الاعتماد والاستناد على الكتاب وسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام، ما صحَّ نقله أو حَسُن، وما كان فيه ضعف نبيِّنُه»[١].

والذي هدى مؤرخنا إلى هذا المنهج، هو اطمئنانه لما «قصَّ الله على نبيه، خبر ما مضى من خلق المخلوقات وذكر الأمم الماضين، وكيف فعل بأوليائه؟ وماذا أحلَّ بأعدائه؟ وبيَّن ذلك رسول الله ﷺ لأمته بياناً شافياً، سنورد عند كل فصل ما وصل إلينا عنه من ذلك، تلو الآيات الواردات في ذلك»، ويترك ما تركه النبي عليه الصلاة والسلام، لأنه «أخبر بما نحتاج إليه من ذلك، وترك ما لا فائدة فيه، مما قد يتزاحم على علمه، ويتراجم في فهمه طوائف من علماء أهل الكتاب. وقد يستوعب نقله طائفة من علمائنا، ولسنا نحذو حذوهم، ولا ننحو نحوهم، ولا نذكر منها إلا القليل على سبيل الاختصار، ونبين ما فيه حق مما وافق عندنا، وما خالفه فوقع فيه الإنكار»[١].

أما الحديث الذي رواه البخاري «حدثوا عن بني إسرائيل، ولا حرج..» فهو عند ابن كثير «محمول على الإسرائيليات المسكوت عنها»، أي القسم الثالث الذي ذكرناه آنفاً. وقد خرَّج ابن كثير طرق هذا الحديث في باب خاص عقده في تاريخه، في بيان الإذن في الرواية والتحديث عن أخبار بني إسرائيل، وقال فيه: «هذا إذا تقرر جواز الرواية عنهم، فهو محمول على ما يمكن أن يكون صحيحاً، فأما ما يعلم أو يظن بطلانه لمخالفته الحق الذي بأيدينا عن المعصوم، فذاك متروك لا يُعَرَّج عليه. ثم مع هذا كله لا يلزم أن تعتقد صحته»[١].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١/٦ ـ ٧، ٢/١٣٢ ـ ١٣٤.

واستدل في ذلك بما جاء في صحيح البخاري ومسند الإمام أحمد من قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «لا تصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم. .» قال ابن كثير، بعد تخريج طرقه: «هذه الأحاديث دليل على أنهم (أهل الكتاب) قد بدلوا ما بأيديهم من الكتب السماوية، وحرّفوها، وأولوها، ووضعوها على غير مواضعها. ولا سيما ما يبدونه من المعربات التي لم يحيطوا بها علماً، وهي بلغتهم، فكيف يعبرون عنها بغيرها؟ ولهذا وقع في تعريبهم خطأ كبير، ووهم كثير، مع مالهم من المقاصد الفاسدة، والآراء الباردة، وهذا يتحقق لمن نظر في كتبهم التي بأيديهم، وتأمل ما فيها من سوء التعبير، وقبيح التبديل والتغيير»[1].

اكتفى ابن كثير بالإشارة إلى منهجه بهذا القدر، وهو فيه عالم محدّث فقيه أكثر منه مؤرخ، وقد قلنا إن تطبيق هذا المنهج لا يمكن إلا في قسم المبتدأ. ويبدو لنا أنّ مؤرخنا كان يقصد من ذلك أن يرى التاريخ العالمي القديم في صورته الحقيقية الصادقة، كما عرضه الإسلام خالياً من القصص الإسرائيلية والأساطير الشعبية التي دخلت عى مرِّ السنين بتأثير اليهود والنصارى والفرس الذين دخلوا الإسلام، فوجدوا ميداناً خصباً لنشر بضاعتهم القصصية الأسطورية التي تتصل بالتاريخ القديم، ووجد فيها القصّاص والوعّاظ والأخباريون والرواة مادة دسمة مسلية للاستهلاك المحلي، فراجت تلك البضاعة وذاعت وانتشرت بين الناس. ثم قبلها المؤرخون بعدهم كأنها حقائق تاريخية ثابتة، فنقلها بعضهم عن بعض، وخلدوها في مؤلفاتهم التاريخية، دون تمييز بين الصحيح والزائف، أو بشيء من التمييز في بعض الأحيان.

أما ابن كثير فقد قام بفحص هذه المادة التاريخية ونقدها، والتزم في ذلك بمنهجه العلمي الذي عمله لنفسه، وطبقه إلى أبعد الحدود في قسم المبتدأ في تاريخه، فخالف وعارض، وردَّ وأنكر كل ما وجده مخالفاً للقرآن والسنة وإذا أردنا إحصاء جميع هذه الأماكن في «البداية والنهاية» احتجنا في ذلك إلى كتاب مستقل؛ لذلك نكتفي هنا على إيراد بعض الأمثلة من تطبيق منهجه في الإسرائيليات.

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ٦ ـ ٧، ٢/ ١٣٢ ـ ١٣٤.

فمن ذلك تعليق ابن كثير على إسناد السدى الكبير في خبر كيفية خلق السموات والأرض حيث قال: «وهذا الإسناد يذكر به السدى أشياء كثيرة، فيها غرابة، وكأنَّ كثيراً منها متلقى من الإسرائيليات. فإن كعب الأحبار لما أسلم في زمن عمر، كان يتحدث بين يديه بأشياء من علوم أهل الكتاب، فيستمع إليه تأليفاً له وتعجباً مما يوافق كثير منه الحق الذي ورد به لشرع المطهر، فاستجاز كثير من الناس نقل ما يورده، لكن كثيراً ما يقع فيما يورده غلط كبير، وخطأ كثير.. ونحن نورد ما نورده من الذي يسوقه كثير من كبار الأئمة المتقدمين عنهم ثم نتبع ذلك من الأحاديث بما يشهد له بالصحة أو يكذبه ويبقى الباقي مما لا يصدق ولا يكذب»[1].

ورد ابن كثير ما ذهب إليه المتكلمون في معنى «سبع أرضين» في القرآن والحديث بأنها سبعة أقاليم، رده قائلاً: «إنه قول يخالف ظاهر الآية والحديث الصحيح، وحملهما على خلاف ظاهرهما بلا مستند ولا دليل. وهكذا ما يذكره كثير من أهل الكتاب، وتلقاه عنه طائفة من علمائنا، من أن هذه الأرض من تراب، والتي تحتها من حديد، والأخرى من حجارة من كبريت... فكل هذا إن لم يخبر به ويصح سنده إلى معصوم، فهو مردودٌ على قائله، وهكذا الأثر المروي عن ابن عباس بأنه قال: «في كل أرض من الخلق مثل ما في هذه، حتى آدم كآدمكم، وإبراهيم كإبراهيمكم». وهو محمول إنْ صحَّ نقله عنه أنه أخذه عن الإسرائيليات»[2].

كما عدَّ من خرافات المؤرخين وهذيانات الأفاكين «أنَّ أصل منبع النيل من مكان مرتفع، اطلع عليه بعض الناس، فرأى هنالك هولاً عظيماً، وجواري حساناً، وأشياء غريبة. وإنَّ الذي يطلع على ذلك، لا يمكنه الكلام بعد هذا»[2]. وكان عند ابن كثير نظر في شعر أورده الطبري على لسان آدم رثاء على ابنه هابيل، وقال: «قد يكون آدم قال كلاماً يتحزن به بلغته، فألفه بعضهم إلى هذا»[2]. وكذلك رد على كثير من علماء التفسير والأحكام زعمهم بأن إدريس

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ١٨.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ٢١، ٢٧، ٩٥، ٩٩.

كان أول من تكلم بالرمل، وهو المشار إليه عندهم فيما سئل النبي عليه الصلاة والسلام عن الخط بالرمل، فقال: إنه كان نبي يخط به، فمن وافق خطه فذاك. وقال ابن كثير معلقاً على ما ذهبوا إليه: «يكذبون عليه أشياء كما كذبوا على غيره من الأنبياء والعلماء والحكماء والصلحاء»[٢].

هذا بالنسبة لقسم المبتدأ من «البداية والنهاية». أما بعد ذلك فلم يحدد لنا ابن كثير منهجاً سار عليه، واتبعه منذ السيرة النبوية إلى نهاية كتابه. ولكن من يتتبع تاريخ ابن كثير يجد أن مؤرخنا اتبع في كل قسم من أقسام كتابه منهجَ وترتيب المؤرخين القدامى الذين استقى منهم مواد تاريخه. وقد اختار مصادرَ كتابه التاريخي من بين المؤرخين وأهل السير الذين اتصفوا مثله برسوخهم وعلو كعبهم في العلوم الدينية، وخاصةً علم الحديث، كما مرَّ تفصيل ذلك أثناء كلامنا على مصادره.

ففي قسم السيرة النبوية الشريفة، اهتدى ابن كثير بطريقة ابن إسحاق وابن هشام والسهيلي، كما تأثَّر في ذكر حوادث القرون الأولى من تاريخ الإسلام بتاريخي الطبري وابن الأثير اللذين جعلهما مثلاً له ونموذجاً سار عليه. واتَّبع طريقة ابن الجوزي ومن يمثل مدرسته مثل سِبْط ابن الجوزي واليونيني وغيرهما، اتبعهم في تاريخ القرون المتأخرة، كما تأثّر بهم تأثراً بالغاً في تفضيل التراجم، والتوسّع فيها وتطويلها، وفي ذكر الأخبار العلمية والثقافية، والاهتمام بالظواهر الخارقة، والغرائب النادرة، أما في تاريخ عصره، فقد سجَّل ما رآه بعينه، وما سمعه بأذنه، وما اطّلع عليها من الوثائق الرسمية والرسائل الشخصية، وما تلقاها شفهياً من المعلومات، وقد مرَّ بيان ذلك كله أثناء كلامنا على مصادر تاريخه.

وقد غلب على ابن كثير منذ أول كتابه إلى نهاية السيرة النبوية الشريفة أثر الحديث وأسلوبه ومنهجه، فالتزم بالرواية بالأسانيد ونقدها، أو بيان درجة الحديث دون نقد السند، للحكم على الأحاديث والروايات على طريقة علماء عصره، وقام بمجهودٍ كبير وسعى مشكور في تحقيق الأخبار، وتمحيص

الروايات، ونقد الأسانيد، وفحص بعض المتون، وكشف زيف الغرائب والمناكير.

ولكن الاعتماد الأول على سلامة السند في نقد الأحاديث والأخبار ـ وهو الغالب عليه كمحدث حافظ ـ سمح أن يدخل في تاريخه بعض روايات ضعيفة وأخبار واهية، وخاصة في أخبار الماضين[(١)]، وحوادث الجاهلية، وهواتف الجان[(١)]، وما جاء في دلائل النبوة[(١)]، من بعض الأخبار التي تناقض العقل والسنن الكونية، وليست لها قيمة تاريخية، أو سند علمي، أو اعتبار ديني في الشريعة الإسلامية السمحاء. وكان من الأجدر لابن كثير أن يعرض عن الموضوعات التي ليست فيها أخبار صحيحة وروايات موثوقة، ولا يتعرض لها في تاريخه الذي أراده خالياً من الإسرائيليات والأساطير الخرافية التافهة، فأولى به أن يكون منزهاً من الروايات الضعيفة والموضوعة وما إلى ذلك.

الحقيقة أن ابن كثير كان يشعر في كثير من الأحيان أن ما يرويه هو من هذيانات المؤرخين وخرافاتهم، ولكن يذكره اتباعاً للمؤرخين السابقين، للرد والتنبيه عليه، مثل ما جاء في حكاية عوج بن عنق وعمره وطوله، ويقدم ابن كثير عذره في مثل هذه الأماكن قائلاً: «لولا أنها مسطرة في كثير من كتب التفسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس، لما تعرضنا لسقاطتها وركاكتها ومخالفتها للمعقول والمنقول»[(٢)]. وكذلك علق فيما جاء عند البيهقي في وفود الجن إلى رسول الله ﷺ قائلاً: «أورد البيهقي هنا حديثاً غريباً جداً، بل منكراً أو موضوعاً، ولكنه عزيز أحببنا أن نورده كما أورده»[(٢)].

وهذا يدل على حبه للجمع والاستقصاء فيجمع في كل موضوع يطرقه جميع ما عثر عليه بوسائله، فكان هذا هو السبب في تجاوز حدود السيرة في «البداية والنهاية»، حيث وقف له ابن كثير نحو ثلث كتابه التاريخي، وقد أشار إلى ذلك فرانز روزنثال قائلاً: «إنه حدث تطور ملحوظ عندما سيطر الاهتمام الديني على الكتابة التاريخية (منذ القرن الثالث عشر الميلادي)، فأصبح تاريخ ما قبل

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٢/ ١٠٢، ٢١١، ٢٣٢، ٦/ ٦٥ ـ ٣٠٠.

(٢) ابن كثير البداية والنهاية ١/ ١١٤، ٥/ ٩٦ ـ ٩٧.

الإسلام كله تقريباً مجموعة من الأخبار الإسلامية عن خلق آدم وتاريخ بني إسرائيل. كما أنَّ السيرة التي لاحظنا من قبل أن بحثها يبين اتجاه نظر المؤرخ تجاوزت في طولها المحدود المعقولة، وخير نموذج لهذا الاتجاه، هو كتاب «البداية والنهاية» لابن كثير»[1].

وقد اعتمد ابن كثير في عرض المادة التاريخية على التلخيص والاختصار والنقل بالمعنى عن مصادره، وخاصة في القسم الخاص بتاريخ الإسلام. وذلك لأنه لم يكن أمامه مجال في إرخاء العنان لقلمه، نظراً إلى طول الحقبة التي كان عليه أن يجمع تاريخها، وتعدد الموضوعات التي اهتم بذكرها، وتنوع المصادر وكثرتها، فاستوعب ابن كثير ما جاء في الحوادث عند المؤرخين قبله، ثم سردها ملخصاً على لسانه في سياق واحد متماسك، مع الإشارة والإحالة على مصادره التي استقى منها معلوماته، وذلك عند الخلاف والرد والإنكار، أو التأييد والاستشهاد والاعتضاد.

وكان النقل بالمعنى سبباً فيما نلاحظ من فروق وخلافات بين ما ورد في تاريخ ابن كثير، وبين ما جاء في مصادره. فقد ثبت لنا من مقارنة كتابه «البداية والنهاية» بمصادره المطبوعة أنَّ ابن كثير لا يلتزم فيه بالنقل الحرفي، بل يلخص ويحذف، ويزيد وينقص، ويقدِّم ويؤخر، ولكن بدون أن يؤثر ذلك على المعنى الذي أراد الاستدلال به. والأمثلة على ذلك كثيرة منتشرة في تاريخه[2].

وهذه ظاهرة تستلفت النظر، وتعليله كما قلنا أن اعتماد ابن كثير في عرض مواد كتابه على التلخيص والنقل بالمعنى، وسرد الحوادث على لسانه في سياق واحد، تجنباً من البسط والتطويل. وليس كما ذهب إليه البعض من أن ابن كثير لم ينقل مباشرة من مصادره التي صرح باسمها، وأنه اعتمد في ذلك على مصادر أخرى محرفة، أو أنه اعتمد في ذاك على ذاكرته، أو أنَّ النسخ التي اعتمد عليها

---

(١) فرانز روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين ٢٠٣، ترجمة صالح أحمد العلي.

(٢) البداية والنهاية ٢/٢٥٣، وقارن بالطبري ٢/٢٥٢، ابن كثير ٢/٢٤٦ وانظر الطبري ٢/٢٣٩ ـ ٢٤٠، ابن كثير ٢/١٦٢، وقارن بالروض الأنف للسهيلي ١/١٨ ـ ١٩.

ابن كثير كانت مغايرة عن النسخ التي طبعت عليها هذه الكتب التي بأيدينا[1].
فهذه كلها احتمالات وفروض بعيدة، كان من الممكن قبولها إذا كانت الحكاية متعلقة ببعض المصادر، أما بالنسبة لجميع المصادر فلا يسيغها العقل.

* * *

(١) مصطفى عبد الواحد، انظر تقديمه على السيرة النبوية لابن كثير ١/ ١٥.

الباب الثالث

أسلوب ابن كثير وترتيب تاريخه

أسلوب ابن كثير سهل لطيف شيق، يتميز بالوضوح وصحة العبارة وسلامتها، فقد كانت ثقافة ابن كثير الأدبية جيدة، فقال مترجموه إنه: «كان يشارك في العربية مشاركة جيدة، وينظم الشعر»[(١)]. ألف كتباً علمية ودينية عديدة، بأسلوب علمي قوي مناسب ممتاز ولكنه لم يكن أديباً متفنناً، حتى يميل إلى المحسنات اللفظية والمزخرفات البديعية ويكثرها، فإنه يهتم بالمعاني دون القشور والألوان الزاهية في تجميل العبارة وتحسينها، أو على حد قول الأستاذ الشرباصي «تشغله الفكرة والمعاني عن التكلف في الأسلوب والمباني»[(٢)]؛ لذلك خلا أسلوبه من التصنع والتكلف، وطبع بطابع الإرسال والبساطة، كما نرى في تاريخه.

وحين أراد ابن كثير أن يميل أحياناً إلى تحسين العبارة وتزيينها باستعمال السجع، وبإكثار المرادفات، وترك أسلوبه الأصيل المتميز بالوضوح والسهولة والبساطة، نرى أنه في مثل هذه المواضع ـ مع قلتها ـ لم يستطع أن يقطع في ذلك شوطاً بعيداً، وبدت هنا على عبارته آثار المتصنع، وجهد المتكلف، فمن

---

(١) طبقات ابن قاضي شهبة ٤٧٥، تحقيق عبد العليم خان، من النسخة المكتوبة على الآلة الكاتبة والمحفوظة في مكتبة أزاد بجامعة عليجرة الإسلامية بالهند، الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ١/٣٧، مطبعة الترقي بدمشق، سنة ٦٧ ـ ١٣٧٠ هـ، ومفتاح السعادة لطاشكبري زادة ١/٢٠٤، حيدر آباد بالهند ٢٨ ـ ١٣٥٦ هـ، وشذرات الذهب لابن العماد ٦/٢٣١.

(٢) مجلة الحج ١٠/٢ (شعبان سنة ١٣٧٥ هـ)/١٠٦.

ذلك قوله في الفتن التي أسفرت عن قتل الخليفة العباسي المستعين بالله (٢٤٨ ـ ٢٥١):

«ولما تفاقم الأمر، واشتد الحال، وضاق المجال، وجاع العيال، وجهد الرجال، جعل ابن طاهر يظهر ما كان كامناً في نفسه من خلع المستعين، فجعل يعرض له ذلك ويصرح . . .»[١].

وقال حين قصد صلاح الدين الأيوبي بلاد الشام سنة ٥٧٠ هـ: «وذلك حين مات سلطانها نور الدين محمود بن زنكي، وأخيف سكانها، وتضعضعت أركانها، واختلفت حكامها، وفسد نقضها وإبرامها، قصد لجمع شملها، والإحسان إلى أهلها، وأمن سهلها وجبلها، ونصرة الإسلام، ودفع الطغام، وإظهار القرآن، وإخفاء سائر الأديان، وتكسير الصلبان في رضا الرحمن، وإرغام الشيطان»[٢].

وقال في تفوق شيخه كمال الدين ابن الزملكاني (٦٦٦ ـ ٧٢٧) على أهل مذهبه، وبراعته في التدريس: «وحاز قصب السبق عليهم بذهنه الوقاد، في تحصيل العام الذي أسهره ومنعه الرقاد، وعبارته التي هي أشهى من كل شيء معتاد، وخطه الذي هو أنضر من أزاهير الوهاد».

ثم أثنى على دروسه قائلاً: «وأما دروسه في المحافل، فلم أسمع أحداً من الناس درساً أحسن منه، ولا أحلى من عبارته، وحسن تقريره، وجودة احترازاته، وصحة ذهنه، وقوة قريحته، وحسن نظمه، . . . لا يهيله تعداد الدروس، وكثرة الفقهاء والفضلاء، بل كلما كان الجمع أكثر، والفضلاء أكبر، كان الدرس أنضر وأبهى وأحلى وأنصح وأفصح»[٢].

لا شك أن ابن كثير في هذا وأمثاله حمل نفسه على السجع حملاً، محاولة منه في تحسين العبارة وتزيينها بالمرادفات الكثيرة، فخرج عن أسلوبه العفوي واحتفظ بأسلوبه العفوي الأصيل في تاريخه عامة، وهو السهولة والبساطة

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١١/٩.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٢/٢٨٨، ١٤/١٣١.

والوضوح، وقربه من الفهم والحياة، وبعده عن التكلف والزخرفة اللفظية.

أما ترتيب البداية والنهاية، فقد سلك مؤرخنا في عرض المواد التاريخية فيه منذ أول قسم المبتدأ إلى بدء التاريخ الإسلامي على طريقة «التأريخ» (Chronigles) التي تراعى بالترتيب الزمني في ذكر الوقائع كاملة في مكان واحد، إلا أنها لا تتقيد مثل طريقة «الحوليات» (Annais) بتسجيل الحوادث وتقطيعها حسب وقوعها عاماً بعد عام. وهي طريقة علماء التوراة التي تبدأ أيضاً «بالبدء بالخليقة، ثم بالأنبياء على حسب ما أورد في التوراة، بالتعرض للحوادث التي وقعت في أيامهم، وذكر الملوك الذين كانوا يعاصرونهم، وما جرت لهم من حوادث وحروب، ثم ذكر الأمم التي جاءت بعد الأنبياء إلى ظهور الإسلام»[١].

استمر ابن كثير في ذكر الوقائع حسب الترتيب الزمني منذ بدء الخليقة إلى أن بلغ أول التاريخ الإسلامي، بهجرة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، فاختار الأسلوب الثاني في ترتيب كتابه، على عادة علماء التاريخ المسلمين، وهو تسجيل الحوادث على «الحوليات» التي تخضع لتعاقب السنين المفردة. ومن عيوب هذه الطريقة أنها تجزأ الحادثة الواحدة وتقطعها إذا وقعت في سنين متعددة.

يستهل ابن كثير كل سنة عادة بقوله: «ثم دخلت سنة» ويختمها قائلاً: «وممن توفي فيها من الأعيان»، أو «فيها توفي..» ويصل بين الحوادث المتعددة في سنة واحدة بقوله: «وفيها..» أو «وفي هذه السنة..» إلخ. ولا يذكر اليوم والشهر إلا نادراً في تاريخ صدر الإسلام وأخبار الدولة الأموية والخلافة العباسية. إلا أن الاهتمام بذكر الشهور والأيام بدأ يزداد شيئاً فشيئاً منذ اعتماده على ابن الجوزي والمؤرخين، التابعين لطريقته، الذين التزموا بتعيين التواريخ والأيام حتى في الحوادث التافهة.

ثم كلما اقترب ابن كثير من عصره ازدادت دقته وتجلت عنايته في ذكر

---

(١) جواد علي، موارد تاريخ الطبري، مجلة المجمع العلمي العراقي ١/١ (ذو القعدة سنة ١٣٦٩)/ ١٧٣.

الحوادث على الأيام والشهور، حتى إذا ما بلغ الزمن الذي عاش فيه ابن كثير، رسخت هذه الدقة وثبتت هذه العناية بما لا مزيد عليها؛ لذلك يخيل للناظر في آخر أجزاء تاريخ «البداية والنهاية» كأنه أمام صحيفة يومية، أو مذكرات يومية.

أما التراجم فقد أكثر مؤرخنا منها في تاريخ الإسلام من كتابه «البداية والنهاية» وتوسع فيها اتباعاً لابن الجوزي ومن على طريقته من المؤرخين، وتعود ابن كثير أن يذكرها في آخر السنة مستقلاً منفرداً عن الحوادث، والتزم بذلك إلى حد كبير إلى نهاية سنة ٧٣٨ هـ، حيث انتهى من تذييل تاريخ شيخه البرزالي ثم جمع بينهما بعد السنة المذكورة، فلم يفرد الوفيات في آخر كل سنة مستقلة عن الحوادث كما تعود في السابق، بل يذكرهما معاً باعتبار وقوعهما، مع رعاية اليوم والشهر والتاريخ إضافة على السند في الغالب. ومن هنا أيضاً قلَّ اهتمامه بالتراجم شيئاً فشيئاً، فكانت تذكر ضمن الحوادث بغاية الاختصار، وهكذا فقدت التراجم استقلالها عن الحوادث، فتضاءل ذكرها في آخر الكتاب، واضمحلت قيمتها العلمية والأدبية.

* * *

الباب الرابع

تقدير تاريخ ابن كثير

بذل ابن كثير جهداً كبيراً في إبعاد الإسرائيليات والموضوعات والأساطير الخرافية والقصص الشعبية القديمة التي دخلت عند المؤرخين المسلمين في قسم المبتدأ وقصص الأنبياء من تاريخه. وقد نجح ابن كثير في ذلك إلى أبعد الحدود، حين عرض المادة التاريخية القديمة عن عصور ما قبل الإسلام على القرآن والحديث وحققها، فأقرَّ ما وجد منها موافقاً في نظر العلم الإسلامي، ورد ما رآه مخالفاً، مبيناً ما فيه من ضعف أو نكارة أو غرابة أو شذوذ.

وهذه ميزة تفرَّد ابن كثير على من سبقه وخلفه من المؤرخين، فإننا لا نعرف أحداً منهم درس التاريخ القديم في مكان واحد مثل دراسته، ووقف له مثل موقفه، حتى إنَّ المؤرخين الذين جاؤوا بعده لم يقوّموا عمله، ولم يسدوا الثغرات التي بقيت عند ابن كثير غير مدروسة، باعتباره أول من قام بمثل هذه الدراسة، فلا غرابة أن تبقى في كتابه أخبار إسرائيلية وأحاديث موضوعة تحتاج إلى نظر جديد، ودراسة أوفى من ابن كثير.

واتّسمت السيرة النبوية عند ابن كثير بالطول والإحاطة الشاملة لجميع نواحي سيرة الرسول ﷺ، من ولادته إلى وفاته. وقد ألحقت بها أول مرة في التاريخ العام موضوعات أفردها العلماء المصنفون من قبل بالتأليف، وهي: الشمائل، والدلائل، والفضائل، والخصائص التي ذكرها ابن كثير باعتبارها من متعلقات السيرة النبوية الشريفة، كما مر أثناء الكلام على مصادر السيرة.

وقد جمع ابن كثير في السيرة أكبر قدر ممكن من المواد ـ لا مجال للمزيد عليها ـ من كتب السير والمغازي والتواريخ القديمة ودواوين المحدثين الكثيرة، مما زاد من قيمة هذا القسم كثيراً في تاريخه.

أما تاريخ الإسلام، فقد دوَّن فيه ابن كثير تاريخ نحو ثمانية قرون، تعرَّض فيه للكلام على أحداث إسلامية كبرى، اختلفت فيها الآراء، وتشعبت فيها مناهج التفكير، فأدلى فيها بآرائه، بناها على العلم والتحقيق والدليل.

وقد أبرز ابن كثير في تاريخ الإسلام نواحي مشرقة زاهرة، حثاً للمسلمين على عمل الخير واتباع الحق. كما أشار إلى ما طرأ على المسلمين من ضعف وانحطاط في بعض العصور، وبيَّن سبب ذلك للنصيحة والعبرة والدرس، وقد كان لجمعه بين الحوادث والتراجم أثر في احتواء تاريخه أخباراً علمية وثقافية إلى جانب الحوادث السياسية والفتن والحروب.

وكان ابن كثير في تاريخه قويَّ الملاحظة، دقيقَ الربط بين أجزاء الحوادث ولو تباعدت أيامها، فلم يترك شاردةً ولا واردةً إلا أحصاها من أخبار ملوك وترقية أمراء وعزلهم ومصادرتهم، وتنقل الموظفين، وأخبار العلماء والقضاة ونوابهم وشيوخ المدارس وأخبار الحج والمحمل وخروجه وعودته. كما اعتنى بوصف الحالات والعادات الاجتماعية، مثل مواكب السلاطين ونوابهم والحفلات الملكية من زواج وختان وغير ذلك. وعلى هذا فإن كتابة سجل قيم للتاريخ السياسي والاجتماعي والعلمي والأدبي والثقافي للبلاد الإسلامية عامة، ولدمشق والبلاد الشامية خاصة.

وقد اتصف ابن كثير بتحري الصدق، والتزم التثبت من الحقيقة، واجتنب التحيُّز والميل مع الهوى، إلا أننا نرى عنده أحياناً لوناً من الجدل والمناظرة في مسائل خلافية، مثل الخلاف بين المسلمين وأهل الكتاب، والخلاف بين أهل السنة وبين الشيعة وفي ذكر الفرق المنحرفة الخارجة على الإسلام. فإنه في مثل هذه المواضع يناظر ويجادل ويقرع الحجة بالبرهان ليثبت ما يعتقده صحيحاً في نظره، فهو هنا ليس مؤرخاً بل هو منا عالم ديني شديد التمسك بموقف أهل السنة، يلسع بالنقد اللاذع من يخالفه، ويجاهر بالعداء من ينابذه، ولا يتحرز

من تخطئتهم وتكذيبهم وتجهيلهم ولعنهم على طريقة أهل الجدل والمناظرة، وقد بسطنا هذا كله في عرض مواد تاريخ ابن كثير وآرائه أثناء الكلام على مصادره.

وتميَّز ابن كثير بجرأته في الحق، وصراحته في النقد حتى في حوادث عصره، لا يحاكي أحداً ولا يجامل، ولا يخاف في الحق لومة لائم، فقد نقد سلاطين عصره على اضطهادهم الخلفاء، وذمَّ أمراء عصره على تلاعبهم بالسلاطين الأطفال، ومنافستهم على النفوذ والتمكن من الدولة، وقد مرَّ ذلك كله في عرض المواد التاريخية لعصر دولة المماليك أثناء الكلام على مصادرها. كما وصف جور الحكام وسوء سيرتهم في الرعية، وطمعهم في جمع الأموال بحق وبدون حق.

فقد ذكر ابن كثير باستياء بالغ حين بسط الوزير ابن السلعوس (٦٨٩ ـ ٦٩٣) للملك الأشرف خليل (٦٨٩ ـ ٦٩٣) كما لم يبسط لأحد قبله، وذلك احتفالاً بمقدمه إلى دمشق بعد فتح قلعة الروم سنة ٦٩١ هـ، واعتبره «بدعة شنعاء لما فيها من إسراف وضياع مال وأشر وبطر ورياء وتكليف للناس، وأخذ الأموال، ووضعها في غير مواضعها»[١].

وكذلك وصف الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون في سلطته الثانية (٧٥٥ ـ ٧٦٢) بسوء سيرته في الرعية، والتضييق على الناس، والطمع في جمع الأملاك والمال والعقار، والإسراف في أموال الدولة، وشدة بطشه حتى «لم يتجاسر أحدٌ من القضاة ولا الولاة ولا العلماء ولا الصلحاء على الإنكار عليه، ولا الهجوم عليه، ولا النصيحة له، بما هو المصلحة له وللمسلمين»[١].

وكذلك نكيره سنة ٧٦٧ هـ أمام سيف الدين منكلي بُغا نائب السلطنة بدمشق؛ على مرسوم سلطاني بمصادرة النصارى لعمارة ما خرب من الإسكندرية على يد الفرنج. فقد قال ابن كثير حين أفتى العلماء على موافقة السلطان على مصادرتهم: «هذا مما لا يسوغ شرعاً، ولا يجوز لأحد أن يفتي

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/٣٢٧، ١٤/٢٧٨، ٣١٤ ـ ٣١٥، ٣١٧.

بهذا، متى كانوا باقين على الذلة، يؤدون إلينا الجزية، ملتزمين بالذلة والصغار، وأحكام الملة قائمة، فلا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد فوق ما يبذلونه من الجزية»، وقد اعتبر الأخذ من النساء في هذه المصادرة «أفحش وأبلغ في الظلم»[١]. ثم ابن كثير كان هو السبب في الرد عليهن ما أخذ منهن.

وأنكر ابن كثير على الأمير بيدرا إنكاراً شديداً حين قدم مصر سنة ٧٦٧ هـ، لجمع النشارين والحدادين والعتّالين وغيرهم وجهزهم إلى بيروت، وسخرهم على قطع الأخشاب وصنع المراكب لغزو الفرنج في البحر بعد هجومهم على الإسكندرية، ولم يقدم لهم شيئاً من الأجور حتى يتركوها لأهلهم وعيالهم[١].

هذه بعض ملاحظات ابن كثير في نقد المماليك، فإنه التزم سياسة الاعتدال نحو المماليك، لهذا حين ينقد بعض أعمالهم وينكر عليهم، لا ينسى أن يقدّر دورهم في نصرة الإسلام وكف الأذى عن أهله. فقد أشاد بروح التضحية والجهاد فيهم كثيراً. من ذلك حين قتل بعضهم في مقاتلة بني حسن الذين اعتدوا على الحجاج في المسجد الحرام وقت خطبة الجمعة، فقال ابن كثير: «وصار أهل البيت في آخر الزمان يصدون الناس عن المسجد الحرام، وبنو الأتراك هم الذين ينصرون الإسلام وأهله، ويكفون عنهم بأنفسهم وأموالهم كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾»[١].

فقد كانت هذه الدقة والنزاهة والنقد والصراحة سبباً في إثارة إعجاب المؤرخين والعلماء به بعده، كما كانت سبباً في تقدير الدارسين له في عصرنا.

فقد لاحظ المؤرخ الشهير ابن تغري بردي، بأنَّ تاريخه «في غاية الجودة»[٢]. واعتبر ابن قاضي شهبة «أجود ما فيه السيرة النبوية»[٣].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ٣٢، ١٤٩.

(٢) المنهل الصافي لابن تغري بردي، نقلاً عن عبد الرزاق حمزة، في مقدمة الباعث الحثيث لابن كثير ١٦، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده بالقاهرة، سنة ١٣٧٧ هـ/ ١٩٥٨ م.

(٣) نقلاً عن حاجي خليفة، كشف الظنون ١/ ٢٢٨.

وكذلك أثنى السخاوي على سيرته[١].

وأشاد البستاني بفضل ابن كثير في تدوين حوادث عصره، أما بالنسبة للحوادث السابقة، ففضلُه في ذاك عند البستاني «فضل الانتقاء والانتخاب وحفظ معلومات ووثائق ضاع أكثرها لولا عنايته»[٢]. وعدَّ الأستاذ أحمد الشرباصي هذا التاريخ «معلمة كبرى، ومصدراً أساسياً من مصادر التاريخ الإسلامي والعربي، لم يكتف ابن كثير فيه بالرواية والسَّرد، بل هو يقف مواقف كثيرة للنقد والتمحيص والتجريح والتعديل، ولا عجب فهو محدث، وهذا الكتاب مرجع جليل لكل مؤرخ، ولكل باحث في تاريخ العرب والمسلمين، وقد استفاد منه الكثيرون قديماً وحديثاً»[٣].

ومما يدل على اهتمام المؤرخين بعد ابن كثير بتاريخه أنَّ كثيرين منهم لخصوه وذيلوا عليه، واعتبروه مصدراً لهم في مؤلفاتهم التاريخية وغيرها. فقد ذكر السخاوي أن أحد أولاد ابن كثير ذيَّل عليه في مجلد. ولم يسمه حين أشار إلى ذلك قائلاً: «ولولد الحافظ عماد الدين عليه ذيل في مجلد»[٤]. ولكنه ذكر في كتاب آخر له في ترجمة بدر الدين أبي البقاء محمد (٧٥٩ ـ ٨٠٣) من أولاد ابن كثير أنه «علَّق تاريخاً للحوادث التي في زمنه، ذكر فيه أشياء غريبة»[٥]. إذاً فهذا هو الذيل المشار إليه سابقاً؛ لأننا لم نجد لأولاده الآخرين مؤلفات في التاريخ أو في غيره.

وذيَّل على البداية والنهاية شهاب الدين حجي (٧٥١ ـ ٨١٦) أحد تلامذة

---

(١) السخاوي، الجواهر والدرر، المنشور في آخر الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ للسخاوي أيضاً صفحة ٣٥٩، مطبعة العاني، بغداد، سنة ١٣٨٢ هـ/ ١٩٦٣ م.

(٢) فؤاد أفرم البستاني، دائرة المعارف ٣/ ٤٧٧، بيروت، سنة ١٩٥٦ م.

(٣) مجلة الحج ١٠/ ٢ (شعبان سنة ١٣٧٥ هـ)/ ١٠٤.

(٤) السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ٣١٠.

(٥) السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ٧/ ١٣٩، مكتبة القدسي بالقاهرة، سنة ٥٣ ـ ١٣٥٥ هـ، وانظر أيضاً شذرات الذهب لابن العماد ٧/ ٣٥.

ابن كثير من سنة ٧٤١ ـ ٧٤٦ هـ، ثم بدأ من سنة ٧٦٩ هـ وبلغ فيه إلى سنة ٨١٥ هـ[١].

ونقل ابن العماد الحنبلي عن طبقات العليمي أن شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن علي الحنبلي المعروف ببواب الكاملية (المتوفى سنة ٨٣٥) «كتب بخطه تاريخ ابن كثير، وزاد فيه أشياء حسنة»[٢].

وذكر المترجمون أن تقي الدين بن قاضي شهبة (٧٧٩ ـ ٨٥١) «ألَّف ذيلاً على تواريخ المتأخرين الذهبي والبرزالي وابن رافع وابن كثير وغيرهم، ابتداءً من سنة ٧٤١ إلى سنة نيف وعشرين وثمانمئة هجرية في ثماني مجلدات، واختصره في مجلدين، ثم اختصره في مجلد، وكتب حوادث زمانه إلى يوم وفاته»[٣].

وقال ابن العماد أن لتقي الدين المذكور ذيلاً على تاريخ ابن كثير خاصة[٤]. ونقل حاجي خليفة عن ابن قاضي شهبة قوله: «وقفت على مختصر منه لخصه بعض أصحابنا»[٥]. ولكنه لم يذكر أسماء بعض أصحابه الذين لخصوه.

وقد ذكرنا فيما سبق أن ابن حجر كان يعتبر كتابه «إنباه الغُمر بأبناء العُمر» ذيلاً على تاريخ ابن كثير من حيث الحوادث، كما صرح بذلك في مقدمة كتابه[٦]، وقيل: إن ابن حجر لخصه أيضاً[٧]، وسماه «ما ورد من الرواية مختصر البداية والنهاية لابن كثير»، اختصر فيه أخبار الأوائل من الأنبياء إلى

---

(١) السخاوي، الضوء اللامع ١/ ٢٧٠، والإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ٣١٠، وشذرات الذهب لابن العماد ٧/ ١١٧.

(٢) ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٧/ ٢١٢.

(٣) السخاوي، الضوء اللامع ١١/ ٢٣، الشوكاني، البدر الطالع ١/ ١٦٤، مطبعة السعادة بالقاهرة، سنة ١٣٤٨ هـ.

(٤) ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٧/ ٢٦٩.

(٥) حاجي خليفة، كشف الظنون ١/ ٢٢٨.

(٦) ابن حجر، إنباه الغمر بأبناء العمر ١/ ٤، حيدر آباد بالهند، سنة ٨٧ ـ ١٣٨٨ هـ.

(٧) حاجي خليفة، كشف الظنون ١/ ٢٢٨.

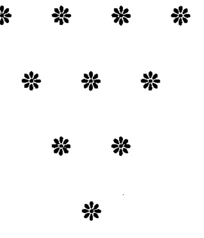
زمن نبينا عليه الصلاة والسلام، ولم يتعرض فيه للسيرة النبوية وأخبار الخلفاء لكثرة التصانيف فيها[1].

أما بدر الدين محمود العيني (٧٦٢ ـ ٨٥٥) فقد أشار حاجي خليفة بأنه لخصه تماماً في كتابه «تاريخ البدر في أوصاف أهل العصر»[2]. وقال آخرون: إنه اعتمد عليه[3].

وقد اعتمد الأبشيطي (المتوفى سنة ٨٣٥ هـ) في كتاب جامع له في السيرة، على الجزء الخاص بالسيرة من تاريخ ابن كثير «البداية والنهاية» مع مصادر أخرى[4].

وقد ترجمه محمود بن محمد بن دلشاد إلى اللغة التركية[5]، لأهمية تاريخ ابن كثير التاريخية والعلمية والأدبية.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.



(١) منه نسخة مخطوطة في دار الكتب المصرية بالقاهرة ضمن مجموعة في مجلد مخطوط بخط المؤلف، برقم ٥٢٢ (انظر فهرس الكتب العربية بدار الكتب المصرية ٥/ ٣٢٢).
(٢) حاجي خليفة، كشف الظنون ١/ ٢٢٨.
(٣) عبد الرزاق حمزة، في تقديمه للباعث الحثيث لابن كثير ١٦، (نقلاً عن المنهل الصافي لابن تغري بردي) وانظر حاشية ذيل الحسيني ٥٨، مطبعة التوفيق بدمشق، سنة ١٣٤٧ هـ.
(٤) السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ١٦٢ ـ ١٦٣.
(٥) كشف الظنون ١/ ٢٢٨، وانظر لمخطوطات هذه الترجمة، زيدان، آداب اللغة العربية ٢٠٨/٣.

مصادر القسم الأول من الكتاب

ابن الآلوسي ـ خير الدين نعمان
جلاء العينين في محاكمة الأحمدين
مطبعة المدني، سنة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م
ابن إياس ـ محمد بن أحمد الحنفي المصري
بدائع الزهور و وقائع الدهور
المطبعة الأميرية ببولاق مصر، سنة ١١ـ ١٣١٢هـ
ابن تغري بردي ـ أبو المحاسن جمال الدين يوسف
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
دار الكتب المصرية بالقاهرة، سنة ١٣٤٩ـ١٣٧٥هـ
ابن الجزري ـ أبو الخير شمس الدين محمد
المصعد الأحمد في ختم مسند الإمام أحمد، المنشور في أول مسند الإمام
أحمد بتحقيق أحمد محمد شاكر، الطبعة الثالثة
دار المعارف بالقاهرة سنة ١٣٦٨/ ١٩٤٩
ابن حجر ـ شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني
إنباه الغمر بأبناء العمر
دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد بالهند، سنة ٨٧ـ ١٣٨٨هـ
الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة
حيدر آباد، سنة ٤٨ـ ١٣٥٠هـ
شرح نخبة الفكر
إيشياتيك سوسائيتي بنغال، كلكتة بالهند، سنة ١٨٦٢م
ابن شاكر ـ صلاح الدين الكتبي

فوات الوفيات
مطبعة السعادة بالقاهرة، سنة ١٩٥١م
ابن طولون ـ محمد الصالحي الدمشقي
إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى
تحقيق محمد أحمد دهمان
المطبعة الرسمية، دمشق، سنة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م
قضاة دمشق
تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد
مجمع العلمي العربي دمشق، سنة ١٩٥٦م
ابن العماد الحنبلي ـ أبو الفلاح عبد الحي
شذرات الذهب في أخبار من ذهب
مكتبة القدسي مصر، سنة ٥٠ـ ١٣٥١هـ
ابن فهد ـ تقي الدين محمد المكي
لحظ الألحاظ، بذيل طبقات الحفاظ للذهبي
مطبعة توفيق دمشق، سنة ١٣٤٧هـ
ابن قاضي شهبة ـ تقي الدين أبو بكر بن أحمد
طبقات الشافعية
تحقيق الدكتور عبد العليم خان (المدرس بكلية أصول الدين، جامعة عليجرة الإسلامية، بالهند)
من نسخة المحقق، المكتوبة على الآلة الكاتبة
ابن كثير ـ عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر
الاجتهاد في طلب الجهاد
مطبعة أبي الهول بالقاهرة، سنة ١٣٤٧هـ
اختصار علوم الحديث
شرح أحمد محمد شاكر
الطبعة الثالثة، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده بمصر سنة ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م

البداية والنهاية
مطبعة السعادة بالقاهرة، سنة ٥١ـ١٩٥٨م
تفسير ابن كثير
عيسى البابي الحلبي القاهرة، سنة ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م
السيرة النبوية
تحقيق مصطفى عبد الواحد
الحلبي بالقاهرة، سنة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م
شمائل رسول الله ﷺ
تحقيق مصطفى عبد الواحد
الحلبي بالقاهرة، سنة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م
عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير
اختصار أحمد محمد شاكر
دار المعارف بالقاهرة، سنة ١٩٥٦م/ ١٣٧٦هـ
فضائل القرآن
المنشور في آخر تفسير ابن كثير
الحلبي بالقاهرة، سنة ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م
مولد رسول الله ﷺ
تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد
دار الكتاب الجديد بيروت، سنة ١٩٦١م

ابن ناصر الدين ـ شمس الدين محمد بن أبي بكر
الرد الوافر على من زعم أن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر
مطبعة كردستان العلمية مصر، سنة ١٣٢٩هـ

أبو زهرة ـ محمد
ابن تيمية، حياته وعصره وآراؤه وفقهه
دار الفكر العربي بالقاهرة، سنة ١٩٥٢م

أحمد بن حنبل ـ
المسند

شرح أحمد محمد شاكر
الطبعة الثالثة، دار المعارف بالقاهرة، سنة ٦٨ ـ ١٣٧١هـ
الأندونسي ـ عبد القادر بن عبد المطلب
الخزائن السنية من مشاهير الكتب الفقهية، لأئمتنا الفقهاء الشافعية
دار مصر للطباعة بالقاهرة، سنة ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م
البخاري ـ محمد بن إسماعيل
صحيحه
المطبعة العثمانية المصرية، سنة ١٣٥١هـ
بروكلمان
تاريخ آداب اللغة العربية(باللغة الألمانية)
ليدن، سنة ٤٣ ـ ١٩٤٦م
ملحق تاريخ آداب اللغة العربية (باللغة الألمانية)
ليدن، سنة ٣٧ ـ ١٩٤٢م
البستاني ـ فؤاد أفرام
دائرة المعارف
بيروت، سنة ١٩٥٦م
البغدادي ـ إسماعيل باشا
إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون لحاجي خليفة وكالة المعارف
إستامبول تركيا، سنة ٤٥ ـ ١٩٤٧م
هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين وكالة المعارف
إستانبول، سنة ٥١ ـ ١٩٥٥م
حاجي خليفة ـ
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون
وكالة المعارف إستانبول، سنة ٦٠ ـ ١٣٦٢هـ
الحسيني ـ أبو المحاسن
ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي
مطبعة التوفيق دمشق، ١٣٤٧هـ

حمزة ـ محمد عبد الرزاق
الباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث
شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير
مكتبة محمد علي صبيح وأولاده بمصرسنة ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م
داود الحلبي الموصلي
مخطوطات الموصل
مطبعة الفرات بغداد، سنة ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م
الداودي ـ شمس الدين محمد بن علي
ترجمة ابن كثير من طبقات المفسرين
نشرت ترجمته ملخصاً من الطبقات في أول رسالة الاجتهاد في طلب الجهاد لابن كثير، مطبعة أبي الهول بالقاهرة، سنة ١٣٤٧هـ
الذهبي ـ شمس الدين محمد بن أحمد
تذكرة الحفاظ
الطبعة الثانية، حيدر آباد بالهند، سنة ٣٣ـ ١٢٣٤هـ
المعجم
مخطوطة مكتبة آزاد بالجامعة الإسلامية، عليجرة بالهند قسم المخطوطات، سبحان الله كلكشن، رقم٢١٢=٣٩٧/ ٢
الزركلي ـ خير الدين
الأعلام
الطبعة الثانية، مطبعة كوستانسوماس وشركاه سنة ٧٣ ـ ١٣٧٨هـ
زيدان ـ جرجي
آداب اللغة العربية
دار الهلال بالقاهرة، سنة ١٩٥٧م
السبكي ـ تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب
طبقات الشافعية الكبرى
المطبعة الحسينية مصر، سنة ١٣٢٤هـ
السخاوي ـ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن

الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ
مطبعة العاني بغداد، سنة ١٩٦٣م/ ١٣٨٢هـ
الجواهر والدرر
نشر جزء منه في آخر كتاب الإعلان
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع
مكتبة القدسي بالقاهرة، سنة ٥٣ ـ ١٣٥٥هـ
السيوطي ـ جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر
حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة
مطبعة إدارة الوطن مصر، سنة ١٢٩٩هـ
ذيل طبقات الحفاظ للذهبي
مطبعة توفيق مصر، سنة ١٣٤٧هـ
شاكر ـ أحمد محمد
الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير
الطبعة الثالثة، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده بالقاهرة سنة ١٣٧٧هـ
عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير
دار المعارف بالقاهرة، سنة ١٩٥٦م/ ١٣٧٦هـ
المسند
شرح مسند الإمام أحمد بن حنبل
الطبعة الثالثة، دار المعارف بالقاهرة، سنة ٦٨ـ ١٣٧١هـ
الشوكاني ـ محمد بن علي
البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع
مطبعة السعادة بالقاهرة، سنة ١٣٤٨هـ
الصالح ـ الدكتور صبحي
تحقيق أحكام أهل الذمة لابن القيم
مطبعة جامعة دمشق، سنة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م
طاش كبرى زادة ـ أحمد بن مصطفى
مفتاح السعادة ومصباح السيادة

حيدر آباد بالهند، سنة ٢٨ ـ ١٣٥٦هـ
عبد العظيم عبد السلام شرف الدين ـ
ابن قيم الجوزية، عصره ومنهجه، وآراؤه في الفقه والعقائد والتصوف
مطبعة الرسالة بالقاهرة، سنة ١٩٥٥م
عرشي ـ امتياز علي
فهرست المخطوطات العربية
في رضا لائبريري رامبور بالهند
سنة ٦٣ ـ ١٩٦٦م
عزة حسن ـ
فهرس مخطوطات الظاهرية، دمشق (علوم القرآن)
دمشق، سنة ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م
علي إبراهيم حسن ـ
دراسات في تاريخ المماليك البحرية، وخاصة في عصر الملك الناصر محمد بن قلاوون
الطبعة الثانية، مطبعة الشبكشي مصر، سنة ١٩٤٨م
الغزنوي ـ عبد الله بن عبدالله
أحاديث التوحيد ورد الشرك
المنشور في آخر جامع البيان في تفسير القرآن
لمعين الدين بن صفي الدين
مطبعة الفاروقي دهلي بالهند، سنة ٩٥ ـ ١٢٩٧م
غنيمة ـ محمد عبد الرحيم
تاريخ الجامعات الإسلامية
دار الطباعة المغربية تطوان بالمغرب، سنة ١٩٥٣م
فهارس المخطوطات والكتب العربية
فهرس كتبخانه أيا صوفيا، مطبعة محمود بك، سنة ١٢٠٤هـ
فهرس كتبخانة حميدية، سنده، مطبعة عثمانية، سنة ١٣٠٠هـ
فهرس كتبخانة كوبرلي زادة محمد باشا

فهرس كتبخانة نور عثمانية
فهرس كتبخانة ولي الدين، إستانبول مطبعة محمود بك، سنة ١٣٠٤هـ
فهرس الكتب العربية بدار الكتب المصرية إلى سنة ١٩٢٨م
مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، سنة ٢٧ ـ ١٩٣٠م
الكتاني ـ محمد بن جعفر
الرسالة المستطرفة، لبيان مشهور كتب السنة المشرفة
الطبعة الثالثة، مطبعة دار الفكر العربي دمشق، سنة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م
كحالة ـ عمر رضا
معجم المؤلفين
مطبعة الترقي دمشق، سنة ٧٦ ـ ١٣٨١هـ
كرد علي ـ محمد
خطط الشام
المطبعة الحديثة دمشق، سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م
لويس معلوف اليسوعي
المنجد في اللغة والآداب والعلوم
الطبعة الخامسة عشرة، سنة ١٩٥٦م، المطبعة الكاثوليكية بيروت
محمد ثابت الفندي وآخرون
دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية)
القاهرة، سنة ١٩٣٣م
محمد عبد الغني حسن
علم التاريخ عند العرب
مطبعة التقدم بالقاهرة، سنة ١٩٦١م
محمود رزق سليم
عصر سلاطين المماليك، ونتاجه العلمي والأدبي
مطبعة التوكل بالقاهرة، سنة ٦٦ ـ ١٣٦٩هـ
مصطفى عبد الواحد ـ
تحقيق السيرة النبوية لابن كثير

عيسى البابي الحلبي القاهرة، سنة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م
تحقيق شمائل رسول الله ﷺ
الحلبي بالقاهرة، سنة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م
معين الدين بن صفي الدين
جامع البيان في تفسير القرآن
مطبعة الفاروقي دهلي بالهند، سنة ٩٥ـ ١٢٩٧هـ
المنجد ـ الدكتور صلاح الدين
المؤرخون الدمشقيون وآثارهم المخطوطة من القرن الثالث إلى نهاية العاشر الهجري
الطبعة الثانية، مطبعة مصر بالقاهرة، سنة ١٩٥٦م
تحقيق مولد رسول الله ﷺ لابن كثير
دار الكتاب الجديد بيروت، سنة ١٩٦١م
النعيمي ـ عبد القادر بن محمد
الدارس في تاريخ المدارس
مطبعة الترقي دمشق، سنة ٦٧ـ ١٣٧٠هـ
اليافعي ـ
مرآة الجنان وعبرة اليقظان
دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد بالهند سنة ٣٧ـ ١٣٣٩هـ
ياقوت الرومي
معجم البلدان
دار صادر بيروت، سنة ١٩٥٥م
يوسف أليان سركيس
معجم المطبوعات العربية والمعربة
من يوم ظهور الطباعة إلى سنة ١٣٣٩هـ/ ١٩١٩م
يوسف العش
فهرس مخطوطات الظاهرية دمشق (التاريخ وملحقاته) دمشق، سنة ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م

المجلات

مجلة أرابيكا (الفرنسية)

باريس المجلد الثاني العدد الأول، شهر يناير سنة ١٩٥٥م

مجلة الحج، القاهرة

المجلد العاشر العدد الثاني، شهر شعبان سنة ١٣٧٥هـ

مجلة صوت الجامعة، بنارس بالهند

المجلد الأول العدد ٣ـ٤، يوليو سنة ١٩٧٠م

المجلد الثاني العدد الأول، اكتوبر سنة ١٩٧٠م

المجلد الثاني العدد الثاني، يناير سنة ١٩٧١م

المجلد الثاني العدد ٣ـ٤، يوليو سنة ١٩٧١م

مجلة معارف (الأردوية)

أعظم جره بالهند

المجلد ٩٤ العدد الخامس، نوفمبر سنة ١٩٦٤م

المجلد ٩٤ العدد السادس ديسمبر سنة ١٩٦٤م

المجلد ٩٥ العدد الأول، يناير سنة ١٩٦٥م

المجلد الأول العدد الأول مايو ١٩٥٥ م.

مجلة معهد المخطوطات العربية جامعة الدول العربية بالقاهرة

المجلد الثاني العدد الأول، مايو سنة ١٩٥٦م

المجلد الرابع العدد الأول، مايو سنة ١٩٥٨م

المجلد الرابع العدد الثاني، نوفمبر سنة ١٩٥٨م

المجلد الخامس العدد الأول، مايو سنة ١٩٥٩م

مصادر القسم الثاني من الكتاب

ابن أبي حاتم الرازي: عبد الرحمن بن محمد
كتاب الجرح والتعديل، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد بالهند، سنة ٥٢ ـ ١٩٥٣م.
ابن الأثير: عز الدين علي بن محمد
أسد الغابة في معرفة الصحابة، المطبعة الوهبية، مصر، سنة ١٢٨٠ هـ
الكامل في التاريخ، القاهرة، سنة ١٣٠٣ هـ
ابن إياس: محمد بن أحمد الحنفي المصري
بدائع الزهور ووقائع الدهور، المطبعة الأميرية، ببولاق، مصر، سنة ١١ ـ ١٣١٢ هـ.
ابن تغري بردي: أبو المحاسن جمال الدين يوسف
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة سنة ٤٩ ـ ١٣٧٥ هـ.
ابن الجوزي: جمال الدين عبد الرحمن بن علي
المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد بالهند، سنة ٥٧ ـ ١٣٥٩ هـ.
ابن حجر: شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني
إنباه الغمر بأبناء العمر، حيدرآباد بالهند، ٨٧ ـ ١٣٨٨هـ
تهذيب التهذيب، حيدرآباد بالهند، سنة ٢٥ ـ ١٣٢٧هـ
الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، حيدرآباد بالهند، سنة ٤٨ ـ ١٣٥٠هـ

اسان الميزان، حيدرآباد بالهند، سنة ٣٩ ـ ١٣٣١هـ.
ابن خلكان: شمس الدين أحمد بن محمد
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مطبعة السعادة، القاهرة، سنة ٤٨ ـ ١٩٤٩م.
ابن الساعي: تاج الدين علي بن أنجب
الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، المطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد، سنة ١٣٥٣ هـ/ ١٩٣٤ م.
ابن سعد: أبو عبد الله محمد بن سعد
الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، سنة ١٩٥٧م.
ابن شاكر: صلاح الدين الكتبي
فوات الوفيات، مطبعة السعادة، القاهرة، سنة ١٩٥١م.
ابن شداد: بهاء الدين يوسف بن رافع
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، سنة ١٩٦٤.
ابن عساكر: عبد القادر بن أحمد الدمشقي.
التاريخ الكبير، مطبعة روضة الشام، دمشق، سنة ٢٩ ـ ١٣٣٢ هـ.
ابن العماد الحنبلي: أبو الفلاح عبد الحي
شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مكتبة القدس، مصر، سنة ٥٠ ـ ١٣٥١هـ
ابن قاضي شهبة: تقي الدين أبو بكر بن أحمد
طبقات الشافعية، (غير مطبوعة)، تحقيق عبد العليم خان، منها نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة، وهي محفوظة في مكتبة آزاد، بجامعة عليجرة الإسلامية بالهند.
ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر
البداية والنهاية، مطبعة السعادة، القاهرة، ٥١ ـ ١٩٥٨م.
تفسير ابن كثير، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، سنة ١٣٧١ هـ/ ١٩٥٢ م
السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، سنة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م

شمائل رسول الله ﷺ، تحقيق مصطفى عبد الواحد، مطبعة، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، سنة ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٧ م
ابن النديم، محمد بن إسحاق
الفهرست، المطبعة الرحمانية، القاهرة، سنة ١٣٤٨ هـ
ابن هشام: أبو محمد عبد الملك
السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، سنة ١٩٥٥م/ ١٣٧٥هـ.
أبو داود: سليمان السجستاني
السنن، مطبعة نامي، كانبور بالهند.
أبو شامة: عبد الرحمن بن إسماعيل
الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، مطبعة وادي النيل، القاهرة، سنة ٨٧ ـ ١٢٨٨ هـ.
أبو الفرج الأصبهاني: علي بن الحسين
الأغاني، طبعة الساسي.
أبو نعيم الأصبهاني: أحمد بن عبد الله
دلائل النبوة، (الطبعة الثانية)، حيدر آباد بالهند، سنة ١٣٦٩ هـ/ ١٩٥٠ م.
أحمد أمين
ظهر الإسلام، (الطبعة الثالثة)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، سنة ٧١ ـ ١٣٧٢ هـ.
أحمد بن حنبل
المسند، (الطبعة الثالثة)، شرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، سنة ٦٨ ـ ١٣٧١ هـ.
أحمد محمد شاكر
الباعث الحثيث، شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، سنة ١٣٧٧ هـ/ ١٩٥٨ م.
آغا بزرك الطهراني: محمد بن محسن

الذريعة إلى تصانيف الشيعة، مطبعة الغري، نجف، سنة ١٣٥٥ هـ
الأميني : عبد الحسين أحمد النجفي
الغدير في الكتاب والسنة والأدب، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧ م.
البستاني : فؤاد أكرم
دائرة المعارف، بيروت، سنة ١٩٥٦ م.
التونكي : محمود حسن خان
معجم المصنفين، مطبعة وزنكوغراف طبارة، بيروت، سنة ١٣٤٤ هـ.
جرجي زيدان
آداب اللغة العربية، دار الهلال، القاهرة، سنة ١٩٥٧ م.
جولد زيهير
مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، سنة ١٣٧٤ هـ/ ١٩٥٥ م.
الجويني : عطاء ملك بن محمد
تاريخ جهان كشاي، (باللغة الفارسية)، مطبعة بريل، ليدن، سنة ١٣٢٩ هـ/ ١٩١١ م.
حاجي خليفة : مصطفى بن عبد الله
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، وكالة المعارف، إستانبول، سنة ٦٠ ـ ١٣٦٢ هـ.
الخطيب البغدادي : أبو بكر أحمد بن علي
تاريخ بغداد، مطبعة السعادة، القاهرة، سنة ١٣٤٩ هـ.
دائرة المعارف الإسلامية، (الترجمة العربية)، القاهرة، سنة ١٩٣٣ م.
الدوري : عبد العزيز
بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٠ م.
الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد
تذكرة الحفاظ، (الطبعة الثانية)، حيدرآباد بالهند، سنة ٣٣ ـ ١٣٣٤ هـ.

ميزان الاعتدال في نقد الرجال، مطبعة السعادة، القاهرة، سنة ١٣٢٥ هـ.
روزنثال: فرانز
علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي، مكتبة المثنى، بغداد، سنة ١٩٦٣ م.
الزركلي: خير الدين
الأعلام، (الطبعة الثانية)، مطبعة كوستانسوماس وشركاه، سنة ٧٣ - ١٣٧٨ هـ.
سبط ابن الجوزي: شمس الدين أبو المظفر يوسف
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، حيدرآباد بالهند، سنة ٥١ - ١٩٥٢ م.
السبكي: تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب
طبقات الشافعية الكبرى، المطبعة الحسينية، مصر، سنة ١٣٢٤ هـ.
السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن
الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، مطبعة العاني، بغداد، سنة ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣ م.
الجواهر والدرر، نشر جزء منه في آخر كتاب الإعلان المذكور آنفاً.
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة القدسي، القاهرة، سنة ٥٣ - ١٣٥٥ هـ.
السهيلي: أبو القاسم عبد الرحمن الخثعمي
الروض الأنف، مطبعة الجمالية، مصر، سنة ١٣٣٢ هـ/ ١٩١٤ م.
السيد محمود الحسن
دراسة ونقد لتاريخ ابن الأثير، (باللغة الإنجليزية)، نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة، وهي محفوظة في مكتبة آزاد، بجامعة عليجرة الإسلامية، بالهند.
السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر
الإتقان في علوم القرآن، كلكتا بالهند، سنة ١٨٥٧ م.
الشوكاني: محمد بن علي
البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، مطبعة السعادة، القاهرة، سنة ١٣٤٨ هـ.

طاشكبري زاده: أحمد بن مصطفى
مفتاح السعادة ومصباح السيادة. حيدرآباد بالهند، سنة ٢٨ ـ ١٣٥٦ هـ.
الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير
تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، القاهرة، سنة ٦٠ ـ ١٩٦٨ م.
علي إبراهيم حسن
دراسات في تاريخ المماليك البحرية (وخاصة في عصر الملك الناصر محمد بن قلاوون)، مطبعة الشبكشي، مصر، سنة ١٩٤٨ م.
القاضي عياض: أبو الفضل بن موسى
الشفا في تعريف حقوق المصطفى، مطبعة الصديقي، بريلي بالهند، سنة ٨٦ ـ ١٢٨٧ هـ.
الكتاب المقدس، (الترجمة العربية)، طبعة نيويارك، سنة ١٨٦٧ م.
كحالة: عمر رضا
معجم المؤلفين، مطبعة الترقي، دمشق، سنة ٧٦ ـ ١٣٨١ هـ.
محمد ثابت أفندي: (وآخرون)
دائرة المعارف الإسلامية، (الترجمة العربية)، القاهرة، سنة ١٩٣٣ م.
محمد عبد الغني حسن
علم التاريخ عند العرب، مطبعة التقدم، القاهرة، سنة ١٩٦١ م.
محمود رزق سليم
عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مطبعة التوكل، القاهرة، سنة ٦٦ ـ ١٣٦٩ هـ.
المسعودي: أبو الحسن علي
التنبيه والإشراف، (صورة من طبعة ليدن)، مكتبة خياط، بيروت، سنة ١٩٦٥ م.
المنجد: صلاح الدين
المؤرخون الدمشقيون وآثارهم المخطوطة من القرن الثالث إلى نهاية القرن العاشر الهجري، مطبعة مصر، القاهرة، سنة ١٩٥٦ م
الندوي: مسعود الرحمن خان

ابن كثير: **حياته ومؤلفاته**، مركز الدراسات الآسيوية الغربية، جامعة عليكرة الإسلامية، عليكر -بالهند، سنة ١٩٧٩ م.

النعيمي: عبد القادر بن محمد

الدارس في تاريخ المدارس، مطبعة الترقي، دمشق، سنة ٦٧ ـ ١٣٧٠ هـ.

الواقدي: أبو عبد الله محمد بن عمر

كتاب المغازي، جامعة أكسفورد، سنة ١٩٦٦ م.

اليافعي: عفيف الدين أبو عبد الله

مرآة الجنان وعبرة اليقظان، حيدرآباد بالهند، سنة ٣٧ ـ ١٣٣٩ هـ.

ياقوت الرومي: شهاب الدين أبو عبد الله

معجم الأدباء، مطبعة المأمون، القاهرة، سنة ١٣٥٧ هـ/ ١٩٣٨ م.

اليونيني: قطب الدين أبو الفتح موسى

ذيل مرآة الزمان، لسبط ابن الجوزي، حيدرآباد بالهند، سنة ٥٤ ـ ١٩٦١ م.

المجــلات:

مجلة أرابيكا (الفرنسية)، باريس المجلد الثاني، العدد الأول، شهر يناير سنة ١٩٥٥ م.

مجلة الحج، القاهرة المجلد العاشر، العدد الثاني، شهر شعبان سنة ١٣٧٥ هـ.

مجلة صوت الجامعة، بنارس بالهند المجلد الأول، العدد ٣ ـ ٤، يوليو سنة ١٩٧٠ م المجلد الثاني، العدد الأول، اكتوبر سنة ١٩٧٠ م. المجلد الثاني، العدد ٣ ـ ٤، يوليه ١٩٧١ م.

مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد المجلد الأول، العدد الأول، سنة ١٣٦٩، المجلد الثاني، العدد الثاني، سنة ١٣٧١ هـ، المجلد الثالث، العدد الأول، سنة ١٣٧٣ هـ، المجلد الثامن، سنة ١٣٨٠ هـ

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة